

كولين ويلسون

إله المتناهية

ترجمة: عبد الإله الناصر



إله المتناهية، رواية تناقض السائد المتوارث، وتدفع بالتأثير
التغريبي نحو سياقات وفضاءات روائية واسعة، خاصة وأنها
إتخذت من أدب الجنس منطلقاً حقيقياً، للانطلاق بهذه الروى
التغريبية نحو تلك الفضاءات الرحبة الواسعة.

من هنا فلا يمكن اعتبار هذه الرواية من روايات الأدب الداعر
التي تسعى لتدمير التأثير التغريبي. وقد جاءت الرواية على شكل
مذكرات إعترافية، تتخذ من الجنس منطلقاً لأفكارها ورواها من
دون أن يكون الركيزة الأساسية لبناءها الروائي، وبذلك فقد
شكلت بحق تحدي ممتع وكبير، لأن رواية الأدب الداعر أكثر
صراحة من الناحية الشكلية من أي نوع روائي آخر، أن الرواية
تتمتع بشيء من الصراحة الرمزية التي تصف بها البالية من دون أن
تنتهك حرمة هذا الفن الراقي والرائع.



كله يشير إلى وجود صلة بنيتشه، في حين أن دراسة التشاؤم تربط للوضوع بشوبنهاور وشبتفلر.

حاول ولسون في اللامنتمي أن يبين بأن الوجودية، التي ينتمي إليها فكراً، قد انحرفت عن طريقها الحقيقي، وأن بعض الفلاسفة والفكرين الوجوديين حاولوا إلbas تعصبهم وفشلهم الذاتيين لغة مؤثرة ومجردة ولا معقولة، فأغرقوا في تعقيد الأمور، وهو الأمر الذي جعل ولسون يحاول أن يقاوم هذا الإنحراف ويواجهه على الرغم من إدراكه للسبق بأن مقاومته ستكون متواضعة وغير مؤثرة، ولكنها حتماً ستكون جديرة بالاهتمام في التفكير الوجودي.

وهكذا سلطت الأضواء بشكل مؤثر وكبير على ولسون بعد نشره لكتابه (اللامنتمي)، حتى أن ولسون نفسه تعجب لشد العجب من النجاح الكبير الذي أحرزه الكتاب في الساحة الأدبية والفكرية، يقول ولسون: "لن أنكر بأن فقدان (اللامنتمي) من المكتبات قد أصابني بمفاجأة، فقد أخطأت حين افترضت أن الوجودية موضوع لا يستهوي إلا القلة من الناس".

النجاح الباهر والكبير الذي حققه ولسون في كتابه (اللامنتمي) دفعه إلى التفكير جدياً في إصدار كتاب آخر، خاصة أن كتابه المشار إليه تناول الإشكالية للطروحة (إنحراف الوجوديين) بتوسع وبيان من دون إعطاء تحليل حقيقي لها، ولذا فقد فكر ولسون بالحاجة الشديدة إلى فكرة أشمل وأعمق. وبنا ولسون بالفعل في مشروعه هذا، متوقفاً نجاحاً أكبر، أو يوازي في أسوأ الأحوال، كتابه (اللامنتمي)، ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.

وفي تلك الفترة الصقت بكون ولسون تهمة الانتماء إلى مجموعة (الشباب للتمرد)، التي أطلقها بعض الكتاب المعاصرين في الخمسينيات والستينيات من القرن المنصرم (القرن العشرين)، وكان للفكرين والأدباء والناس عموماً لا ينظرون لتلك الحركة بعين الارتياح والقبول، سواء في فكرهم أو أديهم. وهي ولعاً التهمة التي أثرت كثيراً على حياة ولسون الأدبية، أجبرته مرغماً رغم ما يتمتع به من ذكاء وإبداع أدبي وفكري، في الجلوس على مقاعد اللبدين والفكرين من الدرجة الثانية، وختم عليه بذلك، حتى أنه عندما أزيحت عنه هذه التهمة بقي ولسون في مكانه في الصف الثاني، وكان الأدباء والفكرين والناس يتشككون في كل ما يطرحه بكون ولسون.

مقدمة

■ كقول ولسون كاتب دخل الأدب والفكر المعاصرين من باب عريض وواسع، وهو واقعاً لا يدعي ذلك. أثار حوله العديد من الظلال والعارك النقدية والجدل العميق، سواء أكانت المشجعة أو المثبطة، انطلق بنجاح مذهل في ولوج هذا العالم الرائع (الأدب والفكر)، بعد انصراف غريب إلى المطالعة والبحث والمناقشة والحياة الجدية الذاتية، على حساب رزقه وراحته وصحته وتفوقه المدرسي، لقد كان يتأرجح في سلم الحياة العملية بين ضابط في سلاح الطيران وعامل في تعبئة الطرق والأزقة، بين موظف محترم في شركة كبيرة وعامل للفسيل والتنظيف، لكنه كان دائماً ذلك للفكر الذكي القلق الباحث عن الحقيقة والهدف والسعادة النفسية العالية. وبعد إصداره لكتابه الإشكالي (اللامنتمي) عام ١٩٥٥، والذي لقي قبولاً واسعاً وانتشاراً مدهلاً، وطبع عشر طبعات خلال أربعة أشهر، يقول ولسون عن الكتاب: "استطعت ذات صباح أن أضع خطة كتاب ما خلال نصف ساعة، وكنت مزماً أن أسميه (اللامنتمي في الأدب)، وأردته أن يكون بحثاً لمختلف أنواع القلق الإنساني، وأعددت قائمة بأنواع الناس الذين كنت أميل إلى بحثهم، وأهديت في الحال إلى بعضهم... وكان هنالك طبعاً عند كبير من مختلف أنواع اللامنتمين، كان هنالك بعض العاملين بينهم، وكان هنالك أيضاً سلبيون تماماً، وكان في وسعي أيضاً أن أخصص جانباً من الكتاب للشخصيات الدينية، التي كانت جميعها عاصية ضد التقاليد الشائعة، وهكذا يتشعب اللامنتمي إلى ناحيتين، ناحية الضعف، وناحية العصيان، ثم أعقب بالوجوديين الفرنسيين، وكان ذلك

عندما نشر ولسون كتاب (دين وتمرد)، وهو رؤية أكثر شمولية واتساع من كتاب (اللامنتمي)، وهو ملحق لكتاب، وجه الكاتب والكتاب بسخط كبير وغريب بين الناس، ولم يلقى من الصحف الأدبية غير الأزدراء، حتى أن أحد النقاد في ذلك الوقت وصفه بأن (العاب السيد ولسون الأدبية قد انتهت أجلها)، فيما وصفت نافذة كتابه (دين ومرد) بأنه كتاب (نافه حقاً). يقول ولسون أن السمعة السيئة التي ألصقت باسمه في العام ١٩٥٦، (لا تزال تصبغني بلون غريب يجعل النقاد لا يتخلون حتى خطوة قصيرة بالنسبة لكتاباتي، عليهم قد يكتشفون بأنني أملك شيئاً يستحق الكتابة. وهكذا مرت جميع كتبي دون ملاحظة تذكر).

هذا الأمر لم يقف عائقاً أمام ولسون في الاستمرار بالكتابة الإبداعية، ولذا فقد كتب (عصر التخادل)، والذي لم يلق أية ملاحظة تذكر من قبل النقاد والأدباء، حاول فيه ولسون خلق وجودية جديدة، لترت للوضع (الفلس) الذي أوجده سارتر وهيدغر، إذ أن السقوط الضجائي من قمة الشهرة بشل الحركة، وأن (الإنشكال الثقافي ما هو إلا مغلوطة (اللامعنى) وهو شكل فلسفي لذلك المغلوطة الذي قاد الوجودية إلى طريق مسدود).

وبذا استمر ولسون بالكتابة والإبداع الأدبي والفكري، فكان أن نشر (القوة على الحلم) و(أصول الدافع الجنسي) و(ما بعد اللامنتمي) و(ما بعد الحياة) و(ضياح في سوهو) و(الشك) و(المعقول واللامعقول في الأدب الحديث) و(القفس الزجاجي) و(طفوس في الظلام) و(سقوط الحضارة) و(رحلة نحو البداية) و(الشعر والصوفية) و(الحالم)، إلى آخر ذلك.

ما تجدر الإشارة إليه أخيراً أن كتابات كولن ولسن على الرغم من السمعة السيئة التي ألصقت وتعلق رذائها به شخصياً وبتأنيده طوال حياته الأدبية والفكرية، إلا أنه يتميز بظاهرة قلما انتبه لها أي ناقد أو كاتب، وهي أن كتابات ولسون مرتبطة مع بعضها البعض بسلسلة متشابكة واحدة، يصعب على أي كان أن يجزئها أو أن يختار جزء من تلك السلسلة لدراستها والاطلاع على أفكارها، من دون الأجزاء الباقية، فالرؤية في تلك الحالة ستكون قاصرة وغير دقيقة، فالكاتب الكبير كولن ولسون يتناول في جميع كتبه المنشورة موضوعاً واحداً من زوايا مختلفة، حتى تصل إلى الفكرة التي تستقطبها الكتب السابقة كلها، ومن الممكن القول ببساطة بأن الفكرة الرئيسية التي تقوم عليها جميع كتبه ومؤلفات كولن ولسون، تقوم على محاولته لخلق (فلسفة جديدة) تركز بقوة على الأفكار الوجودية

والرومانسية. ربما نجح ولسون في إيجاد هذه الفلسفة الجديدة من خلال كتبه العديد، وربما استطاع أن يقول في كتبه بكل ما يريد أن يقوله في شرح تلك الفلسفة، إضافة إلى رؤاه الفكرية، إلا أن المؤكد أنه لم ينجح بكل النجاح في إيصال فلسفته إلى جميع الأدباء والفكرين والناس، وبقي فكره محصوراً في فئة معينة، دون الفئات الواسع والأكثر.

رغم أنني كنت محروماً بشكل كامل من أي موهبة أدبية، فإن الكتاب لم يكن منحطاً ولا مسيئاً للأخلاق من الناحية الفنية.

وبعد بضعة أسابيع من ظهور مقالة التلغراف، طلب مني أحد مكاتب المحاماة أن أتقدم إلى إحدى المحاكم كشاهد اشهد في صالح ناشر كتب من برادفورد، كان يحاكم بتهمة بيع كتاب "حياتي السرية" وهو ترجمة ذاتية كتبها أحد كتاب العصر الفيكتوري المجهولين، وأجبت على هذا الطلب بأنني مشغول لدرجة تمنعني من الذهاب إلى برادفورد. وهذه رحلة تستغرق يومين من كورنوال حيث أقيم - ولكنني رحبت بأن يعتمدوا على قولتي بأن الكتاب لم يكن من نوع الأدب الداعر، وأنه من الممكن أن ينشر علناً في إنكلترا. وأشارت إلى أنني مستعد لأن أكتب خطاباً بهذا المعنى. وحينما بدأت كتابة الخطاب، اكتشفت صعوبة المهمة للقاء على عاتق الدافع. إن كتاب "حياتي السرية" ليست له أية قيمة أدبية. وحينما نشرته دار نشر "جروف بريس" في أمريكا، قال المسؤولون عنه أنه وثيقة اجتماعية ثمينة عن العصر الفيكتوري، ولكن هذا أيضاً غير صحيح. إن عالم الاجتماع يستطيع أن يعرف من عشر صفحات من كتابات تشارلز بوت أو هنري مايهيو أكثر مما يمكن أن يعرفه من الثلاثة آلاف صفحة التي يضمها كتاب "حياتي السرية". إن مؤلفه لم يكن سوى الصورة الذكورية لامرأة مصابة بالفلمة الجنسية nymphomaniac ولم يكن الجنس عنده سوى نوع من التنفيس عن طاقة مكبوتة. لقد جرب كل نوع ممكن من أنواع التجارب الجنسية لما يزيد عن أربعين سنة أو نحوها، ثم قرر أن كل ما فعله كان شيئاً ساحراً فانتاً وأنه ينبغي أن يكتب عنه. فمن الذي يستطيع أن ينكر أنه كان على حق؟ من الصحيح أنه لن يقبل على قراءته كل الناس، ولكنني أقول أنه ليس كل الناس يقبلون على قراءة التراجم الذاتية التي يكتبها جنود أو سياسيون أو رحالة، وليس هذه حجة تؤخذ ضدهم.

بل إن المرء لا يستطيع أن يقول أن كتاب "حياتي السرية" قد كتب دون نية بذيئة ودون قصد الإساءة إلى الأخلاق، أو أياً كانت العبارة التي استخدمت ضده. كان الرجل قد استمتع بالجنس، ولقد استمتع بالكتابة عنه. وكان الرجل شخصاً مضجراً فذو العقل، طالما أنه كتب كل تلك الصفحات عن الجنس مدافعاً عن فراغ العقل بصورة كاملة. ورغم كل شيء فإن الكتاب واقعي، إنه حياة رجل، إنه "حقيقة"، تماماً مثلما كانت "حقيقة تلك المجلدات الهائلة التي قرأها ويب وزوجته ودرساها من "الأوراق البيضاء" من أجل كتاب

حول (إله المتاهة)

□ في وقت ما من عام ١٩٦٨، نشرت جريدة الديلي تلغراف مقالة افتتاحية تنتقد فيها تزايد كمية الشاهد للكشوفة فيما ينشر من أعمال أدبية، وأشارت إلى وإلى ميس بريجيد بروفي Brigid Brophy باعتبارنا كاتبين "جادين" يهدهان إلى المزيد من المبيعات بأن يضمنا كتبهما ببهارات قوامها مشاهد ومواقف كان يمكن أن تؤدي إلى إدانتنا في أزمة أقل تحراً. ولم اتحفظ بشيء على هذه المقالة، لأنه من الصحيح أنني كتبت عن الجنس في عدد من كتبي بطريقة ما كانت تواجه بالقبول أو يسمح بها منذ خمسين عاماً. ولكنني لا أفكر في نفسي باعتباري من كتاب الأدب الداعر Pornography ولكن إذا رغب شخص آخر في أن ينظر إلي بهذه الصفة، فلا شك أن هذه مسألة تتعلق بوجهة نظر صاحبها. ولكن حدث بعد بضعة أسابيع قليلة، أن أعيد نشر مقالة التلغراف اللندنية في جريدة نيوزيلاندا، فكتب قارئ نيوزيلاندي خطاباً يدافع فيه عني بقوة. أشار هذا القارئ إلى أن أكثر من نصف كتبي تدور حول موضوعات من مثل الفلسفة والفن والموسيقى والأدب، وأنه من بين رواياتي السبع، لا تحتوي أربع منها إلا على القليل من الجنس، أو لا تحتوي شيئاً منه على الإطلاق. وقد ألتفتت حينما قرأت هذا الخطاب، أنني لست من كتاب الأدب الداعر. حقاً أن ناشر كتب من نيوزيلاندا قد قدم إلى المحاكمة بسبب عرضه كتاب "يوميات جيرارد سورم الجنسية" في واجهة مكتبته، ولكن هذه المحاكمة لم تؤد إلى إدانته. وكان رأي القاضي أنه

مؤلفهما في التاريخ. إنني أوافق الآن - رغم هذا - على أن هناك شيئاً ما يقف ضد نشر أنواع معينة من الحقائق غير السارة - على سبيل المثال، تفاصيل هجوم جنسي قد تظهر في أثناء محاكمات جرائم القتل، فإن نشر تلك التفاصيل قد يؤدي إلى ارتكاب جرائم مماثلة يقلدها فيها المجرمون، ولكن أي شخص يمكن أن يقلد ما قام به مؤلف "حياتي السرية" فإنه لن ينزل بأحد ضرراً حقيقياً ولن يقترب من إلحاق مثل هذا الضرر، وبذلك فإن اعتراضني لا ينطبق عليه، إنني لا أستطيع أن أفكر في أي أساس يصلح لأن أستند إليه من منع الكتاب - وبالتأكيد لا أجد ما يبرر الحكم على من باعوه بقضاء عامين في السجن - مثلما حدث لبائع الكتب في برافورد.

ولكن حجة "الحقيقة" يصعب أن تطبق على أعمال دي صاد و"فاني هيل Fanny Hill" التي يمكنني أيضاً أن أدافع عن نشرها وخاصة إذا كانت أسعارها مرتفعة، حتى تعمل الأسعار للرفعة عمل "الرشح" بالنسبة لصغار السن من القراء. إنني لا أحب دي صاد. وأنا لا أظنه "هاماً" أو ذا دلالة خاصة، بالطريقة التي تظهر بها أهمية ودلالة جان بوليهان والأنسة دي بوهوار^(١). إن الروح الأساسية السائدة في كتبه هي روح تمرد يقوم به تلميذ - يشبه كتابة الكلمات القدرة على الجدران. ولكنني لا يمكن أن أف في صف منع نشر كتبه. أما بالنسبة لكتاب "فاني هيل" فإن كليلاند يعترف بأنه كتبه لكي يحصل على المال، وهذا الكتاب مثال نموذجي للكتب التي دعاها سانت بوف بأنها "الكتب التي يقرأها المرء بيد واحدة". إنه كتاب مسل، مكتب بشكل جيد، وليس فيه شيء لا يعرفه بالفعل أي قارئ تجاوز سن الرشد. إننا لا بد أن نعرف بأن منع إصدار أي كتاب - وأن نعلن أنه ليس صالحاً لأن يستهلكه الجمهور - هو الشبيه الأدبي لعملية إعدام مجرم، أو إحراق ساحرة، أو إلقاء معارض سياسي في السجن. وأنه لمن الصعب أن ندافع عن مثل هذا الإجراء دون تعيز - وفي تباعد أو انعزال موضوعي. إنه لا يمكن الدافع عن مثل هذا الإجراء إلا على أساس من التعصب الفكري وضيق الأفق، مثل الأساس الذي قام عليه "فهرس الكنيسة الكاثوليكية" أو إحراق النازيين للكتب، أي على أساس تقديم عقائد جامدة لا بد من القبول بها. يمكننا أن

(١) سيمون دي بوهوار، زميلة سارتر ورفيقته، مؤلفة المبدأ من كتب الفلسفة والأدب والإبداع والتغذ. مثل سارتر بدأت مدرسة للفلسفة متأثرة بوضعية هيوم وبوجودية هيدغر وباسيرز، ولكنها سبقت سارتر إلى التأثر بالماركسية.

نهاجم عملية بيع العقاقير المخدرة دون رقابة، أو مزج عصير الفاصكه بالكحول لكي يشتره صغار السن، على أساس نفعي وعملي، فإن هذه الأعمال يمكن أن تنتج تدمير الأجساد. ونحن نعرف كل شيء تقريباً عن إمكانات الجسد، ولكننا لا نعرف شيئاً عن إمكانات العقل. فهذا النوع من الحجج "النفعية" لا يستطيع أن ينتقل إلى مجال الكتب.

إنني أوافق على أن كل هذا يبدو في صورة التماس خاص - مثل التماس يقدمه محام ماسكر يعرف أن قضيته لا يمكن الدفاع عنها، فيقرر أن يحاول خلط الصفوف المستقلة ومزج القيم التي لا تمتزج. يجتاحني هذا الإحساس وأنا أقرأ عدداً كبيراً من آراء معارضي الرقابة. ولكنني حينما أنظر داخل نفسي، أجدي مالمالكاً لنوع بالغ الوضوح والتحدد من الجنس الذي يبدني على ما يكون الأدب الداعر وعلى ما لا يدخل في تكوينه. فاسمحوا لي بأن أحاول توضيح طبيعة هذا الجنس.

وقد يمكنني أن اتخذ نقطة انطلاقي من فقرة جاءت في ترجمتي "الذاتية"، "رحلة نحو البداية".

إن بطل رواية "طقوس في الظلام" يسيطر عليه الإحساس بأن "ثمة" معنى في الوجود الإنساني، وأن هذا المعنى يمكن أن يصل إليه العقل - فقط إذا عرف العقل الطريق المؤدي إلى المنور عليه. وأن واحد من أكثر "تجارب المعنى" شيوعاً تأتي عن طريق الجنس، ولهذا فإن الجنس يقدم "نقطة بداية" ثمينة في سبيل البحث عن المعنى. وإنني أضع خطأ تحت عبارة "نقطة بداية" لأنه يبدو لي أنه لا شيء يمكن أن يكون أكثر عمقاً من الجنس إذا مارسه الإنسان كنوع من التنفيس عن الطاقة - مثلما فعل كازانوها أو فرانك هاريس.

"يمكن" أن يكون الجنس نقطة بداية "للبحث عن المعنى"، إنكار ما أكدته سارتر من أنه، "لا معنى لأن نحيا ولا معنى لأن نموت". ومن الواضح أن هذه الحجة تنطبق على د. هـ. لورانس كما تنطبق على مكثي التي كانت التفراف تعنيها في مقالها. إن الدفاع عن دي صاد أيضاً أمر ممكن لأنه هو الآخر رأى أن الجنس يحتوي بشكل ما على معنى الوجود الإنساني. من الحق أن ثمة أخطاء جوهرية في تفكيره - الفشل في التفكير في "قانون ردود الأفعال المتلاشية"، هذا الفشل الذي يفسد عمله ويخيب مسعاه في التحليل الأخير، وهذا أثر عجيب من آثار الأخطاء الشهيرة، مثل نظرية الكون التي تقول بأن الأرض هي مركزه، أو نظرية عنصر الفلوجيستون الذي قبل يوماً أنه أساس الخليفة، ويبقى هذا الخطأ في صورة

رمز نافع للخطأ الذي يمكن أن يكتسب شيئاً من الأهمية. والجنس يقدم أيضاً نقطة بداية ممتازة لفلسفة وجودية. يقول "كيريلوف" أحد أبطال دستوفسكي أنه إذا لم يكن هناك إله، إذن فإن الإنسان إله، وعليه أن يثبت هذا، ثم ينطلق بهذا المنطق حتى يصل إلى الانتحار. لما دي صاد فإنه ينطلق به حتى يصل إلى الدفاع للطلق عن اللاخلاقية. وفي كلتا الحالتين يستطيع المرء أن يبدأ في مناقشة مثمرة.

لنأتي أحسن بأدب الدعاية الحقيقي حينما اقرأ كتباً معين لن يفكر أحد مطلقاً في منعها - كتب من نوع، "لا زهور أوروكيد من أجل ميس بلانديش" أو "صانعو الأبسطة" أو حتى بعض روايات جيمس بوند. يتهم فورستر جيمس جويس بمحاولة تفطية الكون كله بالوحل. ولكنه كان مخفناً. إن ما يبدو في رواية "يوليسيز" من عنف وقذرة وضع عمداً وقد قصد به أن يؤثر تأثيراً عكسياً، مثل دواء قابض، ويعترف جويس نفسه بقرابته للكاتب سوفيت. أما جيمس هادلي تشيز وهارولد روبينز فقد مارسا الكتابة لكي يمتعا القراء فقط ولكي يربحا النقود عن طريق الإمتاع. إن الجنس والعنف - والعنف بشكل خاص - يقصد منهما أن يجعلوا الوحبة أكثر لذة وشهية. إنهما مثل حراس بيوت الدعاية وملاكها الذين يبدون استعجالهم لخدمة أي شخص مستعد للدفع. فإذا جر المرء حججهم إلى ضوء المناقشة، يجدها نسخاً أخرى من حجج دي صاد، مثل فولتير أو أي وضعي منطقي حديث آخر، الذي كان يهاجم الأفكار "الليتاهايزيقية" عن الطيبة والخير. إنه يقول قولة مؤثرة، "يقول الناس أن الفضيلة، وإنكار الذات، والتضحية بالنفس، والروح العامة والشرف والشجاع، كلها خير. أما أنا فأقول أن هذا ليس سوى تفكير مختلط مشوه. فاللذة وحدها هي الخير بالنسبة لأي واقعي معتدل التفكير". إن ما يوشك حينئذ أن يفعله هو أن يرفض نفسه بمحاولة توضيح فكرته في أقصى امتداد له. والشئ الوحيد الذي يدهشنا هو أنه لم يصب هو نفسه بالضجر إلى حد الرض قبل وقت طويل من إكمال روايته "كوليت". على أنه من الواضح أنه كان يدرك القيم التي كان يحاول أن يقرسها وأن يبعث فيها الحياة.

لا أحد الآن ينتقد كوكوان دويل^(١) أو رايدر هاجار^(٢) لأنهما لا يتمتعان بالتعمق الذهني الذي تمتع به توماس مان أو الدوس هكسلي. فلقد خرجا إلى الناس باعتبارهما "مسليين" أو

(١) سير آرثر كوكوان دويل ١٨٥٩-١٩٢٠ روائي إنكليزي اشتهر بسلسلة رواياته التي كان "شرلوك هولمز" بطلها. ولكنه تشغل بالأسئلة الروحية وكتب تاريخاً لها، كما كتب عدداً من الروايات التاريخية لشهرها "الريفاندر جبراز" و"البروفيسور تشالنجر".

(٢) سير هنري رايدر هاجارد ١٨٦٥-١٩٢٥. كاتب روائي إنكليزي بدأ حياته في البحرية البريطانية واشترك في كشف منطقة الرانغال الأفريقية، واشتهر بروايات القامرات الأفريقية. أشهر أعماله هي "كنوز تلك سليمان" عام ١٨٨٥ ثم "هي" ١٨٨٧، وكتب عدداً من الروايات التاريخية العاطفية مستمداً من التاريخ الفرعوني.

مسامرين و"القيم" التي دأبها عنها، الشرف والشجاعة وما إلى ذلك، هي من القيم التي لا يمكن الاختلاف حولها بأي حال. ومنذ زمن ظهورهما، أصبح الكاتب السلي أو "السامر" أكثر واقعية، وأكثر تعقيداً من الناحية الثقافية. ولكنه لسوء الحظ لم يصبح أكثر تعمقاً في التحليل الذهني - إنه يرفض القيم الأقدم عهداً - ولكنه لا يفعل ذلك باسم عقل باحث لا بكل عن طرح الأسئلة، وإنما فقط باسم تسلية، "إعطاء الناس ما يريدون". ولكن رفض القيم - إذا كان لهذا الفرض أن يكون نشاطاً مفيداً - يجب أن يكون واعياً تمام الوعي بطبيعته الخاصة. إننا حينما نلتقي بأناس يؤمنون بآراء لا يريدون التفكير فيها، فإننا ندعوهم بحق أغبياء أو متعصبين. والاعتراض على مثل هذا النوع من الغباء أو التعصب، هو أنه بشكل ما نوع من "إنكار الحياة". إنني أملك جهازاً هضماً ومخارج للتعامل مع الطعام الذي احتاجه لكي يبقى على حياتي. وأملك أيضاً جهازاً هضماً عقلياً ومخارج للتعامل مع تجاربي. ونموي باعتباري كائناتاً إنسانياً إنما يعتمد على هذا الجهاز مثلما يعتمد نموّي الجسدي على الجهاز البدني. فإذا ما انغلق أو انسد أي من الجهازين، فإنني سأكون عرضة للتسمم البطيء. إن كتاباً من نوع إيان فليمنج^(١) أو هارولد روبينز لا يملكون أجهزة هضمية ومخارج للتعامل مع القيم التي يرفضونها. والنتيجة هي أن تفوح رائحة التعفن والتحلل، رائحة جهاز تسده فضلاته التي ينتجها بنفسه. فإذا ما قرأ شخص ما أعمالهما لمدة طويلة، كانت النتيجة هي الإحساس بالصنع، بتسرب الدم من الدماغ، بالعقم، هذه هي نتيجة الإمساك القاسي.

وهذا القانون ينطبق بالطبع على عدد كبير جداً من الأعمال الأدبية. يشعر المرء بنفس الإحساس بالعقم إذا قرأ طويلاً رواية رومان رولان "جان كريسstof" أو رواية بوديس "الذهب للنفرد" أو حتى "الحرب والسلام" هذه الكتب تمتلك جهازاً هضماً، ولكنه ليس كبيراً إلى الدرجة الكافية للتعامل مع مثل تلك التجربة الكبيرة. ومن الجدير بالملاحظة أن الجهاز الهضمي ليس - ببساطة - هو القدرة على التفكير المجرد. إن أمثال هكسلي أو مان أذكياً وعلى عمق ذهني كاف، ومع هذا فإن كتبهما تتصف بجمود غريب. إن الشئ الهام هو قدرة الكاتب على "مهاجمة" تجربته، وليس مجرد أن "يعانيها"، وإنما أن يتجاوزها. لا يمكن أن يبعث دستوفسكي على الضجر، على الرغم من أسلوبه الوعر الثقيل وإطالته

(١) إيان فليمنج - أشهر كتاب القصة البوليسية المعاصرة، بدأ حياته في أوروبا ثم في الشرق الأقصى حتى تركها بعد الحرب العالمية الثانية، خلق في أعماله شخصية "جيمس بوند".

السببية، بسبب ما نشعر بما لديه من هذه النيران اللتهبة التي تحاول أن "تأكل" مادته، مثل أنون يصهر خام الذهب..

هذا هو ما يحدد ما قلت عنه إنه حدسي لطبيعة الأدب الداعر. إنه مرتبط بمسألة الجهاز الهضمي، إننا لا نطعم طيور البط بالأرز، ولا نرضع الأطفال الصغار بالحلوى الثقيلة، لأننا نعرف أن أجهزتهم الهضمية لن تصمد لمثل هذه الأطعمة، فإذا فعلت هذا وأنا أعرف ما ستكون عليه النتيجة، فإنني أكون مداناً بتهمة الإهمال الإجرامي. وهذا هو ما ينطبق على كاتب ينتج خليطاً لزجاً رديء الطهو من الجنس والعنف، هادفاً بذلك إلى الوصول إلى "أكثر الفئات الهابطة شيوعاً" من القراء.

وهذا هو أيضاً ما يفسر السبب الذي يجعلني لا أعتبر كتاباً من نوع "حياتي السرية" و"فاني هيل" أو أعمال دي صاد من الأدب الداعر الحقيقي. والحك الحقيقي هو التساؤل عما إذا كانت تحتوي على هذا العنصر السام، عنصر إنكار الحياة. إن كتاب "حياتي السرية" بالغ الكابة مليء بالتكرار بعد عدد قليل من الصفحات الأولى، ولكنه ليس أكثر تسميماً من كتاب "هانسارد"^(١) أو "سجل للؤتمر". فالقاص، أو الروائي في هذا الكتاب خشن وغبي، ولكنه ليس فاسياً ولا وضيقاً. وقد يعترض المرء على قيمه الأساسية، على شعوره بأن الجنس هو أكثر التجارب الإنسانية أهمية، ولكن يستطيع المرء أن يؤمن بهذه القيمة أو أن يرفضها. وليس هناك شيء يمنع القارئ من أن يضع إحدى رباعيات بيتهوفن على الحاصي بعد أن يقرأ اثنتي عشر صفحة أو نحوها، وينطبق نفس الشيء على رواية "فاني هيل". أما بالنسبة لدي صاد، فإن قراءته تثير رد الفعل الذي يمكن بالفعل أن يوسع من اتفاق رباعية لبیتهوفن. أما المشكلة التي نواجهها مع هادلي تشيز أو هارولد روبينز، فهي أنه بعد قراءة عدد قليل من الصفحات، فإن المرء لا يعود قادراً على الاستمتاع بسماع بيتهوفن. فإذا حاول المرء سماعه مع ذلك، فإن بيتهوفن سوف يبدو شيئاً غير متناسب مع هذا العالم الفارغ الشرير الخطير العنيف الذي نعيش فيه، سوف يبدو في صورة "ملاك جميل لا فاعلية له"، يعيش في عالم أحلامه الموسيقي السخيف.

(١) الإشارة هنا لمجلة "هانسارد" الأسبوعية التي يصدرها فريق الإنكليزي والتي تضم النص العربي لنداشات مجلس العموم واللوردات.

باختصار، يتضمن الأدب الداعر إحساساً بالتحقير من شأن القيم ومهانتها. وإذا كان الفن معركة بين عقل الإنسان والعالم المادي، إذن فإن كاتب أدب الداعة يقف إلى جانب العالم ضد عقل الإنسان. ومن المهم أن نلاحظ أن كلاً من فليمنج وهارولد روبينز وهادلي تشيز يستغلون الجريمة مثلما يستغلون الجنس، وكثيراً ما يبدو عليهم أنهم يساوون بين الاثنين باعتبارهما نوعاً من النشاط الهدام للدمر.

وقد أشار برناردشو إلى أننا نحكم على الفنان من خلال أعلى ذروة يبلغها، ونحكم على المجرم بادنى قاع يهبط إليه. وهذا يعني أن الفن قد ينظر إليه باعتباره دفاعاً عن أعلى ذروة يمكن أن يبلغها الإنسان ضد أدنى قاع يمكن أن يتدنّى إليه. والكاتب الذي يستغل الجريمة والجنس، لا شيء، إلا لأن يثير القارئ ويستفز مشاعره إنما قد أصبح مدافعاً عن أدنى تلك القيعان الظلمة. أما إذا مضى إلى معالجة الجنس بالطريقة التي تجعله في سلة واحدة مع الجريمة باعتباره لحظة من أكثر لحظات الإنسان انحطاطاً، فإن اتهامه يصبح اتهاماً مركباً.

ولكن، فلننتقل الآن إلى المرحلة التالية من المناقشة. سوف نلاحظ هنا أن كلاً من توماس مان والدوس هكسلي قد انشغلا أيضاً بالعلاقة بين العالم المادي وبين العقل، وأن كلاً منهما قد اتجه إلى أن يكون انهزامياً، مؤمناً بانهزام العقل في تلك المعركة. وأنا شخصياً كثيراً ما أشعر بأن هكسلي كاتب مقبض مثل جراهام جرين^(١) لأن العالم المادي عندما يبدو دائماً قادراً على أن يكسب السباق بمقدار طول رأس واحد. إنه يتحدث عن تأكيد الحياة، ولكن شيئاً من هذه الحياة اللؤكدة - بشكل ما - لا يستطيع أن يصمد حتى النهاية في كتبه، إن لم يكن "لؤلؤكين" أو الإيجابيين يبدون دائماً غير مبتهجين وأغبياء. وأصحاب الحساسية من شخصياته دائماً ضعفاء. ونفس الشيء يصدق أيضاً على توماس مان، ولكن "موضوعيته" تجعل تلك السمات أقل في تأثيرها القبض.

(١) جراهام جرين (١٩٠٤-...) أحد كتاب الرواية الإنكليزية الكبار في هذا القرن. عرف بمعالجته للشخصيات ذات التكوين النفسي الشاذ وتلبية إلى الشر أو إلى التمرد الاجتماعي. ويعتبر أحد أستاذة أدب التوتير. أهم أعماله كانت "القوة والجد".

إذن، فإن إنكار الحياة، بينما يكون عنصراً أساسياً من عناصر الأدب الداعر، فإنه ليس مقصوداً على هذا الأدب. وهذا يثير التساؤل عن المدى الذي يصل إليه صدق العكس. هل يكون الأدب الداعر ممكناً إذا لم يكن إنكاراً للحياة قائماً؟

وهذا السؤال أكثر أهمية من مجرد مظهره، فإن هذا التساؤل عن الأخلاقية واللاأخلاقية، عن الصحة والانحلال قد ظل يشغلنا لمدة تقرب من قرن كامل، منذ أن بدأت مناقشات إبسن^(١) وزولا^(٢) في ثمانينات القرن الماضي. وقد كانت حجج كل من الجانبين هي نفس الحجج تقريباً على الدوام. فقد كتب توماس جيفرسون منذ عام ١٧٨٢، يقول: "هؤلاء الذين يعملون في الأرض هم شعب الله المختار... إن فساد الأخلاق بين جماهير للربين والهنبيين لهو ظاهرة لم يخل من بعض نماذجها عصر ولا أمة من الأمم". إن تلك المجتمعات البسيطة البدائية شبيهة بالجسد القوي الصحة. وإن رفض "الفساد" هو وظيفة آلهة من وظائف الصحة. وحينما يبدأ الشيء "الريب"، غير الصحي، الفاسد، في العثور على موطنه، قدم، فإن هذا يعني - بحكم الأمر الواقع - إن الانحلال قد بدأ. إن جسدي العضوي إذا ما بدأ يصبح أكثر سرعة في التأثر بالجراثيم، فإنني جدير باتخاذ الخطوات اللازمة لمعالجته، لكي يستطيع أن يلفظ الجراثيم. ومن المؤكد أنني لن أقبل تلك الجراثيم على اعتبار أنها تقدم فرصة لإحداث تغيير ممتع بديل لحالة الصحة الثابتة الدائمة المضجرة. وهذا هو الخط الذي يتبعه ماكس نوردوفي كتابه "الاضمحلال" عام ١٨٩٢. فلا بد أن نعرف الانحلال بصفاته الحقيقية، فلا نتسامح معه أو نشجعه. إن كتاب شو الهجوم المضاد "صحة الفن" كان

(١) هنريك جون إبسن (١٨٢٨-١٩٠٦) الشاعر السرحي والكاتب النرويجي العظيم. خالق تيار الدراما الواقعية الاجتماعية العلمية وأحد أعظم الكتاب السرحيين في كل العصور. كان له تأثير فني وفكري كبير، فتميمه كتاب كنبرون في أشكاله الفنية ومضامينه، خاصة منذ كتب جروج برنارد شو كتابه عن "الإنسية" حيث كشف عما تحتويه أعماله من قيم فنية واجتماعية عظيمة. ومن ناحية أخرى اعتبره أصحاب الاتجاهات السيكونولوجية الصوفية في الفن من أعظم روادهم بأعماله الشعرية الرمزية الكبرى وخاصة مسرحيته "بيرجنت" و"برند" حيث تجلت حساسيته النفاذة في دراسة النماذج البشرية ومطامح الإنسان في التمرد الروحي الشامل.

(٢) إميل ليوارد تشارلز انتوان زولا (١٨٤٠-١٩٠٢) الروائي الفرنسي الكبير، نشره بريادته للمدرسة الطبيعية في الأدب الفرنسي (وخاصة في الرواية) في القرن لثاني. تميزت أعماله بدقة غير عادية في رسمها للظلمة الاجتماعية، واللهجات والخصائص النفسية وبخوض الشخصيات الفنية لنوع من الحمية القائمة على الورثة وتأثير البيئة.

يحمل عنواناً فرعياً يقول: "كشف وفضح للهرء الشائع عن ككون الفنانين من عناصر الاضمحلال". ومن الممكن أن نلخص الحجة التي ساقها في الكلمات التالية: "ليس اضمحلالاً، وإنما هو تطور". أما توماس مان، الذي كان يكتب أولى أفانيسيه في تلك الفترة، فقد اتخذ موقفاً أقل إيجابية (وهو الموقف الذي تسمك به طيلة حياته) بقضي بانه، بينما يصبح الفن أكثر حساسية ورقة، فإنه "يتطور" و"بضمحل". فالتطور هنا يعني الاضمحلال، إذا ما مضى إلى وراء نقطة معينة. وقد قال شبنغلر نفس الشيء في كتابه "اضمحلال الغرب".

ولا يتفق شو مع هذا الرأي بصورة أساسية. لقد كان جديراً بأن يقول: "بالطبع، أن التطور "يمكن" أن يعني الاضمحلال، إذا ما زالت الحساسية على الحيوية. ولكن هذا لا يتبع ذلك بالضرورة". ومن الواضح أن هذا شكل آخر للسؤال الذي أثيرناه نحن بالفعل، لقد كان مان وهكسلي كاتبين زادت عندهما الحساسية على الحيوية، فإنها يجب - في النظرية - أن تكون قادرة على أن تزيد الحيوية إلى الدرجة المناسبة لها. ولكن لم يؤمن أحدهما بإمكان ذلك. ولكن هل هذا صحيح؟ ولنفترض أن لدي رأياً فحاً وبالع البساطة عن شيء ما، إن النتيجة هي أن يصطدم رأسي بالحقيقة صدمة تجعلني أكثر حكمة - أي أكثر حساسية - ولكنها صدمة ستجعلني - في لحظة وقوعها - أقل ثقة وأقل قدرة على البقين والتأكد. فهل ينبغي أن أظل على هذه الحالة طوال ما بقي من حياتي؟ من الواضح أن لا. إنني أبذل مجهوداً عقلياً، إنني "أتمثل" التجربة أو أهضمها، وأتأملها حتى أمتص كل معانيها ودلالاتها، أي حتى يمكنني السيطرة عليها. حينئذ تعود الثقة وتفيض ينابيع الحيوية مرة أخرى. وهذا يعني القول بأن الأمر يعتمد على نفس عملية "الهضم" التي ناقشتها بالفعل أثناء الحديث عن الأدب الداعر.

وهذه النظرة تقدم بديلاً للموقف الجيفرسوني، إن البساطة والصحة والشباب تمضي كلها معاً وتصبح إحداها الآخرين. إنك إذا قلبت ميزان الثبات، فسوف تقلب ميزان البساطة والصحة، ولكنك عن طريق مجهود معين وقدر معين من التفاؤل، فإن هذه الموازين يمكن أن تستعاد في مستوى أكثر سمواً، وسوف تكون النتيجة تطوراً حقيقياً وأصيلاً، إن البدائل ليست محافظة أشبه بانقراض الإقدام في الوحل أو اضمحلال سريع لا مناص منه.

قد تبدو النتيجة مجردة أو مطلقة، ولكنها بالنسبة لي كانت ذات أهمية عملية مباشرة، فإنني حينما بدأت كتابة روايتي الأولى، في أواخر سنوات العقد الثاني من عمري،

كانت تسبطن عليّ المشكلة التي دفعت جويس إلى اختيار ملحمة الأدوية لكي يستمد منها بناء روايته للتناخلة الأطراف والتي تسودها الفوضى والتي تتحدث عن ديلين الحديثة، وقد عبر بيتس^(١) عن هذه المشكلة في الأبيات الثلاثة التالية:

سمكة شكسبيرية تسبح في البحر، بعيداً عن اليابسة،

سمكة رومانتيكية تسبح في الشباك لتتقرب من يد الصياد،

ولكن، ما كل تلك الأسماك الرافدة تشفق على رمال الشاطئ؟

ومعنى هذا هو أن الفن الشكسبيري قد رفع مرآة في مواجهة الطبيعة، أو ربما كان على المرء أن يقول أنه رفع في مواجهتها عدسة مكبرة، وكانت وحدتها الأساسية هي الحدث أو القصة. الشخصية مهمة، ولكنها مهمة فقط "في إطار" القصة، فإن الأمر - على أي حال لن يهم حقاً - سواء إذا كان هاملت هو الذي استبدت به الغيرة فقتل زوجته، أم أن لير هو الذي أصبح أمير مكدور. أما شخصية فيرتر عند غوته، أو "أوبرمان" عند سينانكور، أو هيرتون عند هولدرلين^(٢) فإن أحداً لا يستطيع أن يحل محل أي منها، لأن كل واحد منهم "هو" القصة. إن العدسة المكبرة تقترب أكثر، حتى لا يعود الحدث هو الوحدة الأساسية، وتصبح الوحدة الأساسية هي الشخصية.

إن قصة ما، سوف تحكي نفسها لك إذا أنت سمحت لها بذلك. أما الشخصية فلا بد أن يعيشها المؤلف. لقد كان على غوته أن "يصبح هو" فيرتر أو ويلهلم مايستر بطريقة لم يعرفها شكسبير في مطابقة نفسه مع هاملت أو الملك لير. ومع هذا، إذا ولج المؤلف الروائي "داخل" الشخصية، فإن الأحداث سوف تتطور حينئذ بشكل طبيعي، فيصبح ويلهلم مديراً لفرقة مسرحية، ويصبح هاوست محسناً عاماً ومشرفاً على مؤسسات خيرية.

(١) ويليام ثيلر بيتس (١٨٦٦-١٩٢٩)، شاعر وكاتب درامي، بل إنه زائد حركة الإحياء الإبرندية، تأثر بكل من ويليام بليك وشيلي وبترزة الإيمان الهندي بالقوى الخفية وبالرمزية الفرنسية، وبيتس أحد مؤسسي حركة الأدب والنسج الإبرنديين في أواخر القرن التاسع عشر، فاز بجائزة نوبل عام ١٩١٢م.

(٢) جوان ككريستيان فريدريش هولدرلين (١٧٧٠-١٨٤٢) أحد كبار الشعراء الألمان. كان صديق شيللر وتلميذ حتى تخلص من تأثيره وخلق لنفسه موسيقاه وأبنته الشعرية والفكرية. ولكن تم اكتشافه متأخراً كشاعر عظيم في القرن العشرين على أيدي الناقدين هيلينجرات وبيستر. مزج بين ثقافته الإغريقية ونصوره الوثني عن الطبيعة في البدنية، ثم تحول إلى التصورات المسيحية وعبادة المسيح لكي يصبح واحداً من أهم المعبرين عن روح الثقافة الغربية المسيحية وتجسيد الفكر التأمل في الشعر.

هذا، مع ضرورة أن تكون الشخصية واضحة اللامح محددة القسمات. ولكن جوهر النزعة الرومانتيكية كان هو انقسامها الذاتي، إحساسها بالافتقار إلى هوية محددة وواضحة. وببساطة، يخلي فيرتر السبيل لكي يأتي ستيفن ديدالوس، ولكن يأتي "مائي لورينس بريجي" عند ريكسه، ولكن يأتي روكانتان عند سارتر وميرسو عند كامو، ثم يأتي أخيراً البطل الاستاتيكي الكامل - "ك" عند كافكا، فالسمكة لم تعد تملك قوة تعينها على السباحة، ولا حتى على التقلب على جانبها، فهي لا تفعل عند بيكيت أكثر من أن تشفق وهي تضرب بذيلها. هناك كسب تحقق في التفاصيل - فالعدسة المكبرة الآن أصبحت على بُعد بوصة واحدة من لف السمكة - ولكن لم تعد القصة ممكنة القيام. وبدون "القصة"، كيف يمكن أن تكون هناك رواية؟

لم يكن الحل الذي تقدم به جويس قابلاً للتطبيق بشكل عام، وفي الحقيقة، وبقدر ما أعلم، كان هو الشخص الوحيد الذي حاول استخدام "النهج الليولوجي". لقد كتبت الرواية عن محاولة حل المشكلة، وقد ارتدت إلى مرحلة أحدث عهداً، وتصالحت مع ما حدث لها من خسارة في وضعها ومكانتها.

وقد عبرت الدراما بأزمة مشابهة في القرن العشرين، عندما انجرفت هي الأخرى نحو النزعات الذاتية والرمزية والتعبيرية، بل وإلى نوع من الكابوس للتعهد في مسرح القسوة عند أرثو. ولقد كان بريخت^(١) هو الذي حاول أن يقيم اتصالاً جديداً مع البدليات، مع منبع الجري ومصدره. لقد بدأت الدراما بوصفها استعراضاً، بوصفها قصة تروى على جمهور من المشاهدين يعرف أنها ليست حقيقة من الواقع. إذن فلماذا تحاول أن تتنافس مع السينما؟ لماذا لا تحاول أن تحصل من ألقائها المحدودة على أفضل ما فيها، أي في الحقيقة أن "تؤكد" وجود الفجوة القائمة بين النظرة والممثلين؟ كان بيتس يناعب نفس الفكرة - فكرة مسرح الطقوس - ولكن بريخت كان يملك عبقرية للزج بين مسرح الطقوس وبين منصة المحاضر، بين صالة الموسيقى والرقص وبين صندوق الصابون.

(١) برتولت بريخت (١٨٩٨-١٩٥٦) الشاعر والكاتب المسرحي الألماني الكبير. وأحد الشخصيات البارزة في المسرح للعصر إن لم يكن أبرزها جميعاً، لا بأعماله المسرحية الفنية فقط، وإنما بأفكاره الأصيلة عن فنون التكاليف والإخراج وتمثيل مسرحية هذه الأفكار التي بلورت شيئاً مسرحياً جديداً معارضاً للتيار الأرسطي الذي ساد في الدراما الأوروبية منذ القرن الخامس ق. م. من أهم أعماله المسرحية هي: "الأم شعاعة" عام ١٩٤١ ثم "حياة غاليليو" عام ١٩٤٨ ثم "دائرة الطباشير الخوفازية" عام ١٩٤٨، ثم "السيد بونتيلا وتابعه مائي" عام ١٩٤٢.

كنت قد كتبت عدداً من الروايات قبل أن يخطر لي أن ما كنت أفعله هو أن ادفع تأثير "التغريب" الريختي إلى مجال الرواية. لقد بدأت روايتي الأولى "طقوس في الظلام" ببناء ميثولوجي مستمد من الكتاب المصري "كتاب الموتى"، حتى طرأ لي أنني إذا لم يكن في نيتي أن أستخدم إطاراً نابهاً بشكل طبيعي من المعاني الداخلية في القصة، فإن الأجلر بي أن أستخدم إطاراً يمكن أن يقبله القارئ العادي وهكذا اخترت قصة جرائم قتل جاك الخناق، وبينما القصة السيكلوجية الثيرة، ولكنها كانت ما تزال بشكل أساسي رواية واقعية تقوم على تقاليد دستوفسكي في الواقعية. وفي الرواية الأخيرة، قصصت إلى "عامل الغريب" بشكل واع أكثر عن طريق اختبار أشكال تقليدية، هادفاً في نفس الوقت إلى تأثير قريب جداً من تأثير الاستعراض، ففي رواية "ضباع في سوهو" كان الإطار هو إطار الرواية التصويرية، وفي رواية "الشك الضروري" كان الإطار هو إطار "الرواية البوليسية"، وفي رواية "عالم العنف" كان الإطار هو إطار "الرواية الكبيرة" الألمانية مع نفحات كوميدية مصاحبة تتخلل البناء، وفي رواية "طفليبات العقل"، "حجر الفلاسفة" كان الإطار هو القصص العلمي الخيالي، وفي رواية "الحجرة للعتمة" كان الإطار هو رواية الجاسوسية، وفي رواية "الفقص الزجاجي" عنت مرة أخرى إلى إطار الرواية البوليسية.

أما الآن، فإن الخطاب الذي دافع عني ضد اتهام كتابة الأدب الداعر قد اندثر في ذهني سؤلاً: هل يستطيع الرء أن يستخدم شكل الرواية الداعرة التقليدية، بطريقة كليلاند أو أبولونير، باعتباره الإطار الأساسي لإحدى الروايات، ثم يصل إلى نفس التأثير التغريبي؟ لقد حاولت شيئاً مشابهاً في رواية "رجل بلا ظل"، التي تم تغيير اسمها فيما بعد دون استشارتي إلى "اليوميات الجنسية لجيرارد سورم" وقد لاحظت في ذلك الحين أن الكتابة عن الجنس تميل إلى تدمير التأثير التغريبي لأن القارئ يصبح منغمساً وداخلاً فيهما يقرأه. ولكن "اليوميات الجنسية" لم تستخدم "شكل" الرواية الداعرة، وإنما شكل المذكرات الاعترافية، لقد كانت رواية أفكار لا تأخذ الجنس إلا باعتباره نقطة انطلاقها. ولكنه نوع من التحدي المتمتع، لأن رواية الأدب الداعر أكثر صراحة من الناحية الكلية من أي نوع روايتي آخر يمكنني أن أذكره، إنها تتمتع بشيء من الصراحة الرمزية التي يتصف بها الباليه. وهذا شيء أفضل ما يكون من أجل إنتاج التأثير التغريبي. والتحدى للوجود هنا بالطبع، هو أن تضفي الحياة على البناء، والمشكلة القائمة في رواية الأدب الداعر التقليدية - ورواية "جوستين" يمكن أن تؤخذ هنا كمثال - هي أن الرء يعرف أنها سلسلة من "القطع المستقلة" يربطها خيط قصصي

معتف مفروض عليها، مثل إحدى أوبرات مونتفريدي. وأنا أكثر اهتماماً بكثير بالقصة والأفكار مني بالقطع المستقلة المتعلقة الارتباط. ولابد لي أيضاً من الاعتراف - ونحن بصدد الحديث عن الشكل - بأن هذا الكتاب (إله اللتاهة) لا يخضع لقواعد رواية الأدب الداعر بقدر ما يخضع لقواعد القصة البوليسية - وبوجه خاص لقواعد القصة البوليسية الأدبية من النوع الذي شاع في روسيا على يدي الكاتب إيراسكلي أندرونيكوف. وحقاية "جماعة العنقاء" قمت بتطويرها اعتماداً على إشارة عابرة وردت عند جورج لويس بورجيس، وفي الحقيقة، إذا صح أن يقال أن روايات "طفليبات العقل"، "حجر الفلاسفة" قد استعارتا الميثولوجيا التي وضعها "هـ.ب. لوفركرافت"، فإن هذا الكتاب يمكن أن يقال عنه أنه قام على أساس من إشارات بوجريس ذات الطابع الميثولوجي.

إن نجاح هذه الرواية أو فشلها باعتبارها تمريناً في المعالجة التغريبية، لا ينبغي أن ينظر إليه كمقياس لقيمة هذا النوع من المعالجة. وأنا مقتنع بأن حل مشكلة السمكة الشيسبيرية، ومشكلة السمكة الطروحة على الشاطئ إنما يكمن في تطبيق طريقة التأثير التغريبي على الرواية، سواء نجحت هذه الطريقة أو فشلت في هذه الحالة بعينها أو تلك، ولكنني يمكنني أن أقول - محتجاً - بأنها إذا "مكن" أن تنجح في هذه الحالة، فإنها يمكن أن تنجح في أي مكان آخر.

هناك نقطة أخيرة، أثيرها بشيء من التردد، طالما أنها تبدو لي واضحة. فنحن حينما ننمو لكي نخرج من طور الطفولة إلى الرجولة، فإننا نجد مجالات جديدة من التجربة يمكن ألا تكون عملية أو غير مرغوب فيها بالنسبة للطفل، من شرب الكحوليات والتدخين، إلى تسليق الجبال والاستماع إلى الرباعيات الوترية، إن الجنس يقف خارج كل أنواع التجارب الأخرى باعتباره تجربة لابد أن تعالج في شكل سر من الأسرار، فكما لو كانت طقساً قديماً غريباً يتضمن اسماً لا يصح أن ينطقه اللسان.

وقد يكون هذا أمراً جوهرياً بالنسبة لبعض القبائل البدائية أو المجتمعات الأبوية (البطريركية)، ولكن إلى أي مدى يمكن أن يكون أمراً مرغوباً فيه بالنسبة لحضارة مثل حضارتنا، هدفها الأساسي (مهما كانت كتابة وتشاؤمية ما يقوله المؤرخون) هو "الحلاوة والنور"؟ لقد كان تطور الحضارة الغربية هو تطور العقل، رفض العنصر القطعي الجامد والسلطوي المتعسف في الدين، وأيضاً (هيماً نرجو) في السياسة، وهذا التطور لم يتوقف حينما

رفضت إنكلترا سيطرة البابا - أو حينما رفض هونتر المسيحية - وحتى رسالات بيومان وأوكسمورد ينبغي أن ينظر إليها باعتبارها تطوراً لنفس الاتجاه، إصراراً على مطالب عقل أكثر رقة وتهديداً وعمقاً متعلقة باحتياجات الإنسان الميتافيزيقية. وقد كان على فرويد أن يخوض نفس المعركة، كان عليه أن يكبح سيطرة الحركات الاجتماعية والقيود الصاعقة وأن يقهرها بمطلب الصراحة وانفتاح العقول، وكذلك فعل د. ه. لورنس. ويمكن أن ينظر إلى معسكرات الإبادة النازية باعتبارها محاولة للعودة إلى شكل للمجتمع أكثر بدنية - وغير معقد - حيث تحل المشاكل عن طريق القوة والعقائد الجامدة القاطعة، وليس عن طريق العقل.

يبدو لي أن هذا التطور يفترض بشكل مسبق فرصاً إنسانياً هاماً: إن "التحريم" رديء في حد ذاته، رغم أنه قد يؤدي في بعض الأحيان إلى الخير في مجال محدود. فعلى سبيل المثال، فإن جرائم القتل الجنسية لا يرتكبها أناس يفكرون في الجنس ويتحدثون عنه دون حكمة، وإنما يرتكبها أناس تصاعد عندهم الإحباط حتى وصل إلى درجة الشيء المحرم الشديد الإغراء. ولذلك لا ينبغي أن نخلط بين "التحريم" والنظام الذي هو شكل أساسي عنصر محرر. إن جيشاً جيداً يشبه آلة جيدة التشحيم، ونظامها هو العنصر الذي يسمح لها بأن تدور دون عرق أو عقبات.

وإذا كان شكل هذا صحيحاً - وإنني لأجد أنه من الصعب أن أتصور أي شخص عاقل يمكن أن ينكره - إذن فلا بد أن يتلو ذلك أنه ينبغي للراشدين الناجحين أن يكونوا قادرين على التمكيز في التجربة الجنسية مثلما يفكرون في أي شكل آخر من أشكال التجارب - في الفن أو العلم أو الرياضة أو العزف - حينما قرأت رايدر هاجارد في طفولتي شعرت بالانفصال والمشاركة في وقت واحد. جاء الانفصال من الجلوس على مقعد وأنا أقرأ كتاباً جامد الحركة، ولكن الاستئثار جاءت من السير عبر الأحرار الملبنة بالشعابين مع البطل آلان كاترمين. وهذه هي الخاصية الجوهرية للتجربة المنحصرة، "الانفصال" و"المشاركة" ولكن حيث يتعلق الأمر بالجنس، لا تزال هذه الفكرة بعيدة عن القبول. فمن المفترض فيما إذا أن تكون مشاركتين بشكل مباشر - في الفراش مع شريكنا في الجنس - أو بعينين منفصلتين بشكل كامل، أي مثلما يحدث حينما أقرأ عن حالتني في كتب هافلوك ألبس ثم أغمغم فائلاً: "باله من امر ممتع!" هنا يبدو عنصر سخيف ولا معنى له. لقد عاش معظم القراء

الراشدين التجربة الأساسية التي وصفها كليباند أو د. ه. لورانس، وعلى العكس القسوة أو الجريمة. لا ينظر إلى هذه التجربة باعتبارها شيئاً غير مرغوب فيه من الناحية الاجتماعية فهل هناك حقاً مثل هذه الهوة بين موضوع الجنس وموضوعات من مثل التاريج أو القامرة أو الرياضة؟ هل هناك أي سبب يمنع الراشدين، إذا كان هذا هو احتياجهم العقلي، من القراءة عن الجنس مع الإحساس بالانفصال، أو التفكير، أو حتى مع قدر معين من الإحساس بالمشاركة؟ إننا إذاً كان بوسعنا أن نقول عن شيء ما إنه "صادم" دون أن نعني أنه فيج أو شرير. إذن فإنها تبدو لي كفكرة ممتازة أن استخدم هذا الشيء لكي أصدم أكثر عدد ممكن من الناس. حتى يفقد تأثيره الصادم، وحتى يمكن أن ننظر إليه بهدوء ودون تشويه. في مجتمع متحضر حقاً - ونحن ما نزال بعينين عنه - لن تكون هناك كتب محرمة، ولا أفكار محرمة.

توطئة

□ كان إيزمون دونيللي في الرابعة والثمانين من عمره حينما داهمه الموت في شهر ديسمبر عام ١٨٣٢. وكان في أواخر حياته مولعاً تماماً بعلوم الأرقام. حتى أنه تبادل عدة رسائل مع العالم الرياضي كارل جوس^(١). وفي إحدى رسائله إلى جوس يتحدث إيزموند عن الخصائص "السحرية" للرقم ١٣٧. وهو رقم - بالطبع - لا يقبل القسمة. وبشكل عابر، صادقت نسخة من هذا الخطاب في اليوم السابق، وكانت موجودة في محفوظات مسرر إكسليد نوري، وقد تارت خواطري حينما تبينت أن هذا الكتاب سوف يطبع ويصدر بعد ١٣٧ عاماً بالصبط من موت إيزموند. واعتبرت هذه المصادفة علامة فآل حسن.

لا أستطيع أن أحدد بدقة متى بدأ اهتمامي بالبحث عن إيزموند دونيللي، ففي أحد الأشهر، واعتقده شهر يناير ذهبت بالطائرة إلى نيويورك مفتتحاً جولة طويلة ومرهقة من الحاضرات، أخذتني من فلوريدا إلى مين، ومن نيومكسيكو إلى سياتل. وكنت قد اصطلحت أسرتي معي؛ زوجتي ديانا وابنتي مورين التي تبلغ الثالثة من عمرها

إلا أنني أدر كنت سريعاً بعدم جدوى اصطحابهم معي في جميع تلك المدن والأماكن التي تنقلت إليها خلال تلك الفترة. ولنا فقد أبقيتهم مع بعض الأصدقاء في نيويورك، وكنت

(١) كارل فريدريك جوس (١٧٧٧-١٨٥٥) عالم رياضي وفلكي ألماني ولد في برودريك ولكنه عاش أكثر حياته في غوتتهين حيث شهد مرصداً كبيراً ونشر أغلب أعماله

أعود لهما لقضاء عطلاتي الأسبوعية إذا ما كنت قريباً من نيويورك، أو وجدت متسعاً للرحيل إلى نيويورك. وبعد شهرين متواصلين من التقل والتأقراق في مكان واحد، بدا لي متوتراً جداً، وكان علي أن أحف من ذلك التوتر. وأن اكافح من أجل الحصول والمحافظة على درجة بسيطة من العزلة لكي أتمكن من كتابة مذكراتي الشخصية اليومية في كراسي التي أعدتها لذلك، وحينما شرعت أخيراً في إعادة قراءة تلك المذكرات، كان واضحاً لي أنه لن تكون هناك بدية أكثر بساطة وسهولة لكتابي هذا من أن أكتب تلك المذكرات بدت الصورة التي كتبتها تماماً

- ١ -

١٠ أبريل ١٩٦٩..

□ كنت متكباً على فراشي في غرفة الضيافة بالحرم الجامعي، أشرب الشاي وأكل كعكاً صغيراً مصنوعاً من دقيق القمح، عندما تطلعت إلى الساعة، وكانت تقارب الثامنة والنصف صباحاً حسب توقيت الساحل الشرقي. والحامسة والنصف بالنسبة لي. وكان علي في التاسعة والنصف أن أتحدث في اجتماع.

لقد قالوا لي أن ديلا توماس^(١) قد مات في هذه الحجرة، وأثار قصيدة حينما سمح لأعضاء فريق كرة القدم من جامعة كويوكول - وهي جامعة الشبان على الناحية الأخرى من المدينة - بالنوم على الأرض وبأن يتقبوا في حوض الاغتسال. ولابد أن نشاط هذا الرجل وطافته كانا خياليين

بعد تسعة أسابيع من النحوال عبر أمريكا وإلقاء المحاضرات أصبحت في حالة من الإحباط أشعر معها بأنني عبي قد تحولنا إلى زجاج بارد متجمد. إنني أستطيع دائماً أن أشعر مقدماً بما سيحدث حينما أكون على وشك الانهيار، كان الأشياء تكتسب فجأة خاصية

(١) ديلا توماس (١٩١٢-١٩٥٢) شاعرة إنكليزية حديثة. ينمير شعره بامتراح التصورات السريانية مع عناصر من الحداثات الأسطورية ككلية القنينة. وخاصة تلك المتعلقة بـ"هوا" جس الفوس وتلبس الأرواح للأحساد

في هذا البحر من العنبرية الأمريكية غير الناضجة. فهي جامعة ولاية بورتلاند. عندما كنت أعقد ندوة، أحضرت تجمع من الطالبات حتى أنني لم أعد أرى سوى هذه الشاشنة العريضة المأوى بالسيفان الطويلة، والتنانير البالغة القصر، وحبسما أخذتني مجموعة منهن لتناول الغداء. تبين أن الفتاة الأمريكية لم تتغير منذ مكتب هنري جيمس عن شخصية دبيري ميللر إن التفاحات تبدو شبيهة بما فيه الكفاية، ولكن المرء يكتشف أنها قد صنعت من الخشب.

وفي وقت لاحق، وعندما كنت أتناول الغداء مع ميرفين ديللارد، رئيس قسم اللغة الإنكليزية في جامعة ولاية بورتلاند، سألني إن كنت أعرف أي شيء عن إيزموند دونيللي. ومن الواضح أن هذا كان شخصاً إيرلندياً اشتهر بفلسفه وحلاعه. وكان معاصراً لشيريدان. أمضى حياته كلها في صحبة الأوغاد في منطقة "جال واي". وقد نشرت بعض مراسلاته مع روسو في بيرن حوالي عام ١٨٠٠ تحت عنوان "افتراع العذاري" رغم أنه يبدو أن أسرته قد أعلنت أن هذا الكتاب ليس (لا نتيجة نوع من التزييف وكان سبب سؤاله، أن مؤسسة (غرووف برس) للنشر تحاول إصدار الكتاب في أمريكا. مع مقدمة يكتبها ميرفين ديللارد. وقد أخبرته بأنني ألفت في "جال واي" لمدة سبع سنوات ولكنني لم أسمع أبداً باسم دونيللي هناك. فاما أن يكون قد بقي تماماً، وإما أن تكون ذكره قد أهملت عن عمد.

وحيثما عدت إلى غرفة الصياغة، كان هناك مطروف (غلاف معلق) حاءني من وكيلي مملوءاً بالبريد. وكان يتضمن خطاباً من بعض الناس يدعون "مؤسسة ليدن للنشر". جاء فيه،

مؤسسة ليدن للنشر، ٥٦٥ الشاعر الخامس،

نيويورك ن ي ١٠٠١٦٠ في إبريل ١٩٦٩

عزيري مستر سورم

عرفت من اللقاء، معك الذي نشر في باب عرض الكتب في صحيفة نيويورك تايمز. بك تقوم بإلقاء بعض المحاضرات هنا ويقول لك. المشهور بك تنوي أن تعود قريباً. ولذلك أرجو أن يحسنك هذا الخطاب سريعاً.

لقد كتبت من العجيبين مكتبك "نيومنت الحسية" منذ مسدوره. وقد تذكرت بالأمس، بك نشرت في مقدمه إلى "موي كورس" في كتاب "مذكرات فاسق إيرلندي".

الذي نزع أن نشره في الخريف. بصف إيزموند دونيللي عملية إغواء لكل من بعثني الفيسم غير الشرعيتين في مدينة موي كوللان، وهو الأب ربوردان.

وبالنظر إلى معرفتك بالمكان الذي دارت فيه تلك الأحداث، أتساءل إن كنت ترغب في كتابة مقدمة للطبعة التي نزع إصدارها؟ وأحب أيضاً أن أضيف أنني سأكون سعيداً إذا اتفقت معك على تأليف كتاب عن دونيللي إذا شعرت بأي ميل إلى القيام بمثل هذا العمل.

هنا حدث أن تسلمت هذا الخطاب قبل مغادرتك لبلاد. أتساءل إن كان سيمكنك الاتصال بي في الرقم المذكور على الفور، حتى يمكننا أن نتناقش في أمر لقائنا؟

وإذا انتظر بشوق أن أسمع صوتك فإنني أنقل إليك تحياتي.

الخلاص لك

هوراد هليشر.

ولما كنت املك ساعة فراغ قبل أن تقلني السيارة إلى المطار، طلبت بالهاتف الرقم الذي أعطاني إياه. بدا لي الرجل - من صوته - ودوناً بما فيه الكفاية. ولم يبد عليه الاستياء من أنني لم أسمع أبداً عن دونيللي قبل اليوم. وشرحت له أنني لن أصل إلى نيويورك قبل يوم الجمعة المقبل. وفي وقت متأخر، فقال أنه سيقابلني في مطار كينيدي لكي يأخذني إلى بيته في "تونغ أهلاند". واثرت في هذه المصادفة المتعلقة بدونيللي أن مثل تلك الأشياء تحدث أحياناً بكثرة مضحكة. فقد حدث بالأمس أن سمعت اسم الشاعر الروسي لومونوسوف في مذياع السيارة. وبعد عدة ساعات رايت الاسم أمامي في إحدى دور المعارف حينما كنت أبحث عن شيء آخر. وتركتني هذه المصادفة وأنا أتمجب. ولذلك ففي أول مرة ذهبت فيها بعد ذلك إلى محل لبيع الكتب في الحرم الجامعي، سألت المديرة إن كان لديها أي شيء عن الشاعر لومونوسوف. فقال لي:

"من المضحك أن تسأل عن ذلك. فقد وصلي كتاب بصم الكثير من قصائد بالأمس"

واشترت الكتاب. وفراحت المقدمة، وعلى الفور أذكرت بأنني قد وضعت يدي على شخصية رائعة تصلح لبناء رواية. وبعد عشر سنوات، كنت حديراً بأن انظر إلى مثل تلك

العملية نظرتني إلى السحر والأعمال الخرافية وأما الآن، فإنني أفتني أثر سبيل المصادفات بلهفة رائدة

- ٣ -

" أبريل، مطار ويلكس . مار

□ كان قد بقي عشرة دقائق على بداية محاصرتي في هذا الصباح، عندما سلمني ديللارد الريد الخاص بي. كان هناك خطاب من حيم سميت من سان فرانسيسكو يخبرني فيه أن هيلغا مايزي قد انتحرت - قفزت من فوق برج بيركلي، بعد أن تسلقت بطريقة ما فوق الأسلاك الواقية التي وضعوها هناك لمنع حدوث مثل تلك الأشياء. كنت أشعر بالتعب، وقد تملكني الضجر بعض الشيء، حينما وصلني الخطاب، ولكن، حالما قرأته، بدا لي أنني استيقظت، وأصبح الإجهاد مكانه له يكن إطلاقاً.

شعرت أيضاً بالذنب، رغم أنه إنه لا أساس له ولا معنى كنت قد التقيت هيلغا من خلال حيم الذي كان يقيم حفلات للعرافة يتناول فيها الجميع عقاقير مسشطة وترسه الغنيات على أجسادهن أشكالا محتلمة كانت طويلة القائمة. سوداء الشعر على شيء من الكسل، وكانت قد أمصت اللبلة السابقة مع حيم أمضينا معا ساعتين، نأكل السمك وشربنا البطاطس المقلية ونشرب أقداحاً من بييد قلعة بريمنفهام بينما راح حيم يتحدث عن انسحابه والهلك قال أن الحرب في فيتنام سوف تستمر على الأقل لمدة عام آخر لأن النجوم تتصارع وتتصادم. وفجأة قالت هيلغا "راك تهتم بتأثير النجوم على الوجود الإنساني، وكان الأجدر بك أن تعلم بأن الوجود الإنساني - بصورة أساسية - لا معنى له؟" ألا يكون من الأفضل أن نترك كل شيء للصدف؟ وحينما قلت أنا أنني سألقي محاصرة في بيركلي في منتصف نهار الغد، عرضت علي أن تأخذني بسيارتها إلى هناك

وفي صباح اليوم التالي جاءت إلى فندقني وقالت أنها أمصت اللبلة للأضحية في فراءة كتابي، "وسنل وأساليب الإيهام الذاتي" ومن المؤكد أنني لاحظت عليها إمارات السهر طوال الليل وأما أنقن مناقشة كنتي كان هناك شعور بتملكي بأنها كانت على وشك الانهيار وأن من وحيي أن أحاول مساعدتها كان ما أدهشني - وحدهني - هو أنها كانت تسلم.

نسليماً مطلقاً بأن الحياة لا معنى لها وقد قالت لي ذلك كما لو كانت تقول أن الماء مبلل بالرطوبة. وحينما حاولت أن أشرح لها أنني لا أشاركها هذا الرأي، قالت أن المعنى الذي استخلصته من كتابي هو، أن البشر عاجزون عن أن يكونوا صادقين أو أماناً مع أنفسهم، ولذلك فإن مثلاً منهم يحول حياته إلى مسرحية صغيرة يصبح هو فيها الشخصية الرئيسية، إنهم يحزرون الخيالات والأوهام التي تدعى الأدبيات والمفاسات وما إلى ذلك وحاولت أن أوضح لها أنها حتى تلك اللحظة فإن تفسيرها كان دقيقاً بما فيه الكفاية، ولكنني بما كنت أأخذ هذا الموقف التدميري فحسب لكي أمهد الأرض أمام التفكير الحقيقي إن ما يمارسه المتصوفون ليس هو الدين ولا الفلسفة، وإنما الحقيقة، فاطعنتني بسعة بانسة تكاد تكون مفعمة بالضيق، "ما هي الحقيقة؟" فقلت: إنها ما كان لها أن تسال هذا السؤال لأنها تعرف الإجابة بالفعل. إنك إذا كنت ظمان ثم شربت مشروباً بارداً كبيراً، فإن إحساسك بالمشروب وهو يترلق على حلقك هو الحقيقة وهذا شيء يختلف تماماً عن الحديث عن المشروب، أو التفكير في مشروب آخر والبشر أيضاً يملكون قدره غريبة على ممارسة نوع من الحقيقة الوحدانية (متميزة عن الحقيقة الحسية - المادية - ومقابلة لها)، إنها من ذلك النوع الذي جربته بالأمس مع قطعة الصابون، أو ما أجربه مرة واحدة على الأقل في كل عام حينما أشم رائحة الربيع لأول مرة. ففي تلك اللحظات تبدأ الحواس هدوءاً شديداً، ويحتاجك شعور بأنك ترى الأشياء حقاً، بالطريقة التي رأى بها ووردزورث جسر وستميستر^(١) وثمة إحساس آخر يتمادل تماماً مع المذاق الحقيقي للماء البارد وهو ينزل على حلقك. وقلت لها إن إحساسها بالعقم واللامعنى لم يكن سوى نوع من الجوع إلى الحقيقة، يولد نفس النوع من الإجهاد والنوس الذي يولده الإجهاد الحقيقي أو النوس

والقيت محاصرني في بيركلي، وأخبرتني مجموعة من الطلبة لتناول طعام الغداء، وجاءت معي هيلغا أيضاً. وبعد ذلك أخذونا إلى قمة برج الساعة، وأخبرنا مرافقنا بأن عدداً كبيراً من محاولات الانتحار قد حدثت من هذا المكان خلال العام الماضي - وأن هذه المحاولات

(١) ويليام ووردزورث (١٧٧٠-١٨٥٠) شاعر إنكليزي كان إلى جانب صديقه كولريدج من قادة حركة الرومانتيكية في إنكلترا. عرف عنه أنه كان عابداً للطبيعة، متعاطفاً مع الديمقراطية الليبرالية، واهتمامه بفنانين حياة الناس ولعباد اليومية العادية، واستخدام اللهجات المحلية للناس العاديين، ويطمأنه بمكرة وحدة الوجود على أساس اللاهوتي

تريد بمحاولة واحدة عن منيلاتها التي وقعت في برج ستانفورد. واعتقد أن هذا الكلام هو ما أعطاه فكرة الانتحار من ذلك المكان.

له تنويف هيلعا عن الكلام طول طريق عودتنا بالسيارة إلى البلدة، وبعد أن وصلنا إلى المدينة، أخبرني بأنها تريد شراء بعض الأشياء من السوق، طالبة مني مرافقتها إلى السوق. تعدت بها بأنني أريد الركوب إلى فراحة، بعد الساعات الطويلة من الكلام والمحاضرات، التي أجهنني حفاً ووعنتها نياية عن ذلك بأننا سيخرج معاً في وقت لاحق لتناول وجبة من الطعام في (تشين تاو)، فترأت بعض أعمال هولدرلين ثم استسلمت إلى النوم حتى الساعة. وحدثت هي إلى الفندق في النامنة، فاحتسنا بعض الببب في غرفتي ثم خرجنا فسرنا على لقدم حتى الحى الصبى قالت لي أنها أمصت فزة ما بعد الظهر في التجول حول المتحراثات فتركت سبب الإجهاد الواضح عليها احسبنا شيئاً من ببب كاليفورنيا مع وحبنا، فبدأ غيبب الاسترخاء وراحت تتحدث عن مشاكلها وفشلها عن (اصلاح) روحها المصاب بالشذوذ الحبسى، وعن تحاربها العاطفية مع عدد كبير من اللدعب الرثعب - فابها لا تستطيع أن تقوم أي شخص بشبه الشاعر أو الرسام أو الفيلسوف - وحينئذ بدأت في رؤية المشكلة الحقيقية: الكسل، والضعف، والرغبة في أن "تحدث" لها شيء ما، أن يظهر حكيم ما لكي يبعثها الإحابة - وحينما بدأنا في شرب الزحاجة الثانية من ببب "الميدان" أصبحت هداة رغبعة رغبة بالعة ومجاملة للغابة، وقالت لي أنها كانت تحاول أن تلتقي بي منذ أن كنت هبا في شهر بنابر الماضي وقالت أنها لا تطلب مني شيئاً أكثر من أن أكون صديقاً لها. أكتب لها الرسائل من حين إلى آخر، وما إلى ذلك وأخبرتها بأنني سأبدل القصى ما أستطيع فقالت "تبست للسألة أنني أريد أن أنام معك، فانا أنام مع الكثيرين"، وكان شعوري هو أنني لا أحد ما أشعل رعبتي فيه عن النوم معها - كنت في مساء اليوم الماضي قد ظننتها جذابة، بل وحسنت جيم على اللبلة التي قصاها معها، ولو أنني فابلتها منذ عشر سنوات لكنت قد نمت معها على أية حال، دون تفكير في النتائج أما الآن فقد كنت أدرك بوصوح أنها كانت تحاول أن تعقد معي صمعة، بأن تمحني شيئاً ما "في مقابل" شيء آخر أستطيع أن أمنحها إياه، ولم أتنا أن أكون دائماً لها.

أضينا ساعة في "مكتبة أضواء المدينة" وقابلنا عدداً من اصداقنا، ثم انتقلنا إلى مقهى يقع عبر الطريق لشرب للزبد من الببب. وفي منتصف الليل، قلت لها أن علي أن أعود

إلى غرفتي فقد كان علي أن أستيقظ في الصباح التالي لكي ألقى محاضرة في "تألو تلو" فقالت أنها تود أن تسير معي حتى حي "ساتر" لأنها بحاجة إلى استنشاق الهواء البقى. وعند ناحية شارع ساتر، حاولت أن أقنعها بأن تستقل إحدى سيارات الأجرة، فقالت أنها بحاجة إلى قح من القهوة لكي تستعش وهكذا دعوتها إلى حجرتي وأنا شديد الامتناع (كان الكاتب الليلي في الفندق صديقاً لي، وله بفعل أكثر من أن عمر لي بعينه، ولم أعرف في أنها تحمل في ذهني فكرة إعواني - فابها له ببب عليها أكثر من نها تعاني من الشعور بالوحدة ولكبي صكت مصمماً على أن لا يحدث شيء مع هدا على أي حال) أمصت عشر دقائق في الحمام بينما صكت أعد القهوة، ثم ذهبت إلى الحمام، وتركتها لكي تحبب القهوة، فوجدت الحمام بسج في رائحة العطر - وحتى اللحظة له يكن يوسف أن تخيل ما صكت تفعله بهذا العطر. لأنها له تكن تحمل منه شيئاً - وحينما خرجت من الحمام، صكت رائدة على أحد السريريين المتقابلين وقد أمصت عبيها، وبدا عليه الشحوب الشديد سأنها أن صكت تشعر بأنها على ما يرام، فقالت أنها ليست كذلك، ولكنها ستتحس في لحظات وصعت القهوة على المصعدة بصعيرة لحدودة لتسير، فممت بيها تحدث عن بيدي حتى أمصت بها وفانت

"هل تسمح بأن تقبلي مرة واحدة، من فضلك؟"

صكت ما أزال أشعر بحوها بتلك العاطفة الأدبية فخرجت أربت على رأسها قائلاً "أجل، أجل، بالطبع"، وأحببت قولها، كان فهمها لبناً وجذساً، رغم أن سمعتها السفلى كانت مشفقة قلبلاً كان تقبلي لها نوعاً من الصدقة - شعور بشبه ما صكت أحدثها عنه من قبل عن ابتلاع مشروب بارد ومجرد التفكير فيه أنت هي بعد أن فبلتها، ورفنت في مكانها دون أن تعمل شيئاً، وحينما حاولت أن أتراجع عنها، سمعت في حلقها صوتاً يشبه الأبين من حبيب - وله يكن هدا الوصع مريجاً - صكت رفعتي تؤني - ولذلك فقد وصعت ركبة واحدة على السرير - وهداة بدأت تتبمس بعقب وبانتظام، كما لو صكت قد استراحت راحة هائلة، وبدأت بعدها تمسح سروالي، كما لو كان هدا بالصادفة، استقرت في مكانها هباك وحدثت الاستحابة الحنمية - صكت اتسائل طول النهار إن صكت ترتدي جوارب أو سراويل صبقة - صكت أعرف أن هدا هي فرصتي الأخيرة، فلو أنها صكت ترتدي السراويل الضيقة، وحتى إذا صكت ترتدي حمالة جوارب مشدودة إلى سروانها الداخلي، لأمكنني أن أعبت قلبلاً بانب، ثم أطلب منها أن تحبسي فهونها، بينما تحبو رعباتي الطائرة وتعلمن حنونها أما إذا لم

بكن ذلك.. تباعد فخلها حينما لست بدي ركبتها، وحينئذ لست اللحم العاري فوق الجورب. وبعد لحظة، وصلت يدي إلى ملتقى الطرق. فوجدت أنها لم تكن ترتدي سروالاً داخلها. ولا بد أنها قد خلعت في الحمام... وفي خلال دوان قليلة كنت قد أصبحت داخلها ولا بد أن اعترف بأنه كانت هناك دفعة غامرة من البهجة الخالصة. كان هذا نوعاً من الامتراج المجرد بين الذكور والأنثى. دون وجود لشخصية كل منهما. وبدلي أن دفعتها. حينما أحاطتني بساقها. كان دفناً طال إعداده من قبل. ولكن امتزاجنا لم يستغرق سوى وقت قصير. كان كل منا مستثاراً بشدة لردة أننا بلعنا دروة نشوتنا في دوان معدودة رفقت وأنا في داخلها للحظة أخرى. وأنا أنظر إلى وجهها. فبدت لي مسألة تماماً وهائلة. وحينئذ قالت:

- "فلنخلع ملابسنا وندخل إلى الفراش"

وكان هذا الاقتراح مقبولاً. ففناه على الفور. ولكن ما تبقى من الليل لم يشبه تلك اللحظة الأولى. كانت قد حصلت على ما أرادت الحصول عليه. وكنت أنا قد وصلت إلى ما كنت حريصاً على أن أتجنبه. ولكن أكثر ما أزعجني هو أنها بدت لي عاجزة عن التعاطف. كانت تستمتع بالجنس في تفران جسدي لم يتح لي أن أعرف مثله كثيراً. كان هذا برهاناً حليماً أي على أن النساء اللواتي لا يميزن كثيراً في علاقاتهن الجنسية لس بالضرورة بارديات أو فائرت. ولكنها في اللحظات التي تخللت دورات امتزاجنا، كانت تريد أن تتحدث عن مشاكلها. وعني وعن علم النفس. وعن محاضرتي... وكان علينا أن نتبادل الحديث بالهمس حتى لا نزعج النزلاء في الغرف المجاورة.

في القطار المتجه إلى "بانو التو"، لعنت نفسي لأنني لم أجلب معي كراسة مذكراتي. لراضة الأشياء التي أود تسجيلها فيها. لم أكن أرغب في النوم مع هيلغا لأنني كنت أعرف مقدماً أن هذه التجربة لن تخلف شيئاً وراءها. إذن فلماذا لا أحصل بالفعل على مثل تلك النبعة من ديانا رغم أنني تروحتها منذ سبع سنوات؟ لقد مصت علي عدة سنوات حتى الآن. وبأن حاول تحييد سس الدفاع الجنسي ناداً "مبني" نرحل ما أن يرعب في علاج عضوه لتجسد داخل امرأة ما؟ لابد أن نمة سياً ما. والقول بأن هذه "عريضة" لبس حواياً حقيقياً حسماً. كان موبسي (اسمي) طفلة صغيرة. كنت تسأل دائماً. لماذا ترضع دائماً إلهام يدها بيدها. تمسك أيتها بيدها الأخرى. ثم لاحظت ظملاً أحمرين بمعلون ذات الشيء. وأني

لأتساءل إن لم يكن هذا مرتبطاً بالرضاعة من الثدي. وما إذا كان الطفل يمد يده بصورة أوتوماتيكية لكي يمسك بالحلمة الأخرى بينما يكون مشغولاً بتناول طعامه من الحلمة التي في فمه. فهو يعامل ابنه معاملته للحلمة؟ وهكذا لابد أن يكون هناك تفسير مشابه للدافع الحسي

قصت علي هيلغا قصة عريضة، فحينما ذهبت إلى الكلية لأول مرة. كانت سيدة شابة مكبوتة كسناً شديداً قد جاءت من الغرب الأوسط وتحمل آراءً متشددة حول ممارسة الجنس قبل الزواج. خاصة وإن أمها كانت قد أخبرتها بأن الرجل يستطيع دائماً أن يخمن إن كانت روحته عذراء أم غير عذراء. وإنه من المحتمل أن يهجرها على الفور وطوال ستة شهور أو نحوها. طلت تخرج مع أولاد عبيدين. وتسمح لهن ببعض التلامس القليلة. ولكنها كانت توفهمه عند حلهم إذا حاولوا أن يحلوا. سروالها. وفي بداية عامها الأول، انتقلت لكي تسكن مع فتاة أخرى. أخبرتها بأنها حلت مشكلة باستخدام عصو أنثوي صناعي. وبثبت هذا الشيء حول الفخمين بواسطة حراء. وكان شيئاً يزيد قليلاً عن أنبوبة صنعت من نوع ما من المطاط تثبت فوق العظم المعاني. ويجب أن يربط مدخل الأنبوبة ببعض من ريت الريمون. وقالت هيلغا أنها لا تظن أنه يمكن أن يكون عملياً. ولكن صديقها كرك قد قال لها بالفعل أنه سوف يقنع علاقته بها. إن هي لم تتنازل عن رأيها. ولكنها حربت هذا الجهاز بعد أن استعارته من صديقها. ولشد ما دهشت حينما وجدت أن فولد لم يهتم بذلك. كانا بنات من سوب في الفمادق الصغيرة أثناء عطلات نهاية الأسبوع. وكانت هي تصر على الإبقاء على سروالها دون أن تحلها. حذر من أن تشتعل شهوة الفتى ولكنها قالت أنه حتى لم يحاول أن يقوم بمصاحبتها بشكل طبيعي. فقد كان بعد أن يبلغ بشوته. بلاطها قليلاً ثم يزكها. وبعد ذلك استخدمت هي نفس الجهاز مع صديقين آخرين. معتقدة أنها بهذا الشكل سوف تكون فاصلة بصورة رائعة. حتى جاءت ليلة ما فاشتعلت بالرغبة وطلبت من صديقها أن يمارس معها الجنس بشكل عادي.

تذكرت حينئذ أن ديانا كانت قد أحترس بشيء مشابه لذلك حول تحاربها الجنسية الأولى. فقد حلت مرة أن تشجرت مع صديقها. فذهبت إلى الفراش مع رجل كانت قد قابلته عصر ذلك اليوم نفسه. لكي تعيط صديقها ولكنها قبل أن تتشبس. في غرفة

لرجل قالت له انها عذراء وانها تود ان تظل كذلك. فوافق عل الفور. وظلا طوال الليل يربت أحدهما على الآخر ويلاطفه، ولكن دون ان يمارسا العملية الجنسية بشكل طبيعي.

خطر في ذهني في تلك اللحظة بان هذا يمكن ان يكون مفتاحاً هاماً. إن الرجل "طبعاً" نه يكن رزانياً ولا محتشماً. كان هناك ديانا، وهي فتاة جميلة، من الطبقة المتوسطة ذات حسد رشيق وأخلاق محتشمة. اما هو فيريد أن "يعرفها" انها بالنسبة له مثل شيء وضعت في صندوق زحاجي داخل المتحف وكتب عليها، "ممنوع اللمس". وهناك قصة لوياسان عن محرم هرب من سجنه وتنكر في ملابس النساء، وعمل كخادمة في منزل إحدى السيدات، وظل يساعدنا على خلع وارتداء ملابسها طيلة شهر. هذه هي كعبية رغبة الرجل في معرفة المرأة التي تجلس أمامه في مترو الأنفاق، او تقف أمام قسم العطور في أحد المحلات العالية. إن الإيلاج المعلي في عضوها هو أقل أجزاء المسألة أهمية بالنسبة إليه، إنه ليس سوى دمر لبهاني للاستسلام إنه يستطيع ان ينظر إليها فيقول لنفسه: "كم أود ان أحصل عليها" لكنه يكون قد حصل عليها بطريقة تكاد تقترب من حصوله عليها إذا ما قضى معها ليلة كاملة في ححرتها، فظل يراها وهي تلعب ملابسها، وراح يتجول بينه فوق حسنها ضحكها. ويشعر سيديها فوق بلبه، ويراقبها وهي ترتدي ملابسها وتمشط شعرها، ويرى الأساليب التي تستعمل بها أدوات وموائد التحميل، ويوع معجون الأسنان الذي تستخدمه (إن جوع الذكر للأنثى هو جوع لأبوتتها، ثوبتها، غريبتها عنه، وإلى كل شيء فيها)

مرّة أخرى أحب أن أقول أنني كنت شديد الإعجاب على الدوام بقصة كلايست^{١١} عن غريبيش هون. وفيها أن بعض الجنود الروس يعبرون بلدة صغيرة فيها جدون تكونتية نشية لكي يعتصموا. ويقدّمها صالط روسي. فبعض عليها بسبب ما شعرت به من الرعب وبعد شهر قليلة ندهش عندما تكتشف أنها حامل. ولكنها وثقة من برائها ثقة كاملة لدرجة أن تعين في تصحف مضامة والد ضلعها بان يتقدم ليعرفها بنفسه. وبعد قليل، يتقدم

^{١١} برت هيريش ويلهلم هون كلايست ١٨٠٠-١٨٧١. شاعر وكاتب ألماني. يصر واحد من رواد حركة "المنفعة" التي ضمت الرومانتيك. اسمه بصيغة وقت صوبه" وزعمه قصير حياته وصانه من حبيبته فقد ضاعت بضمه أهمية كبيرة بدرجة قبل معه. ان تأثيره على فرنس ضاهك ضان فويا لتمامه وتكن حياته نفسها كانت بعد فترة. فبعد ان وصل إلى حالة الجنون أطلق النار على حبيبته "هيرييت بوجيل" ثم انتحر.

الولد بالفعل - إنه الضابط الشاب الذي أنقذها. وكان كلايست من حسن التقدير بحيث حاول ان ينهي القصة نهاية سعيدة. ولكن أكثر الرومانتيكين كانوا جديرين بان يجعلوها تنتحر فراراً من العار، ثم يدخل الضابط الدير بدافع الندم لكي يصبح راهباً فيكفر عن ذنبه ولكن غوته تحلت بخشونة واضحة عن قصة كلايست. مصرحاً بانها من السخف بحيث لا يمكن ان تقترب من الحياة الحقيقية. الأمر الذي يوضح ان كلايست كان يعرف عن الطبيعة البشرية أكثر بكثير مما يعرفه غوته - او على الأقل فيما يتعلق بالجنس. ليست هناك حاجة إلى اظهار ان الضابط كان افاقاً لا أخلاق له. إنه ينقذها بروح فارس من فرسان المائدة المستديرة. وحينما يغشى عليها، يرقدها برقة فوق أريكة ناعمة. وترتد هي يسكون كما لو كانت نائمة، ويشعر هو بنوع من الفضول إلى معرفة كيف يبدو النصف الأسفل من جسدها إذا خلعت ملابسها، وهو يعرف ان ليس عليه سوى ان يرفع ذيل ثوبها إلى وسطها لكي يراها عارية - فقد كانت تلك هي الأيام السابقة على اختراع السراويل الداخلية، ويقوم هو بهذا العمل في حذر، خشية ان تستيقظ، ويدس يده بين فخذيها لكي يبعد ما بين الساقين. ثم لا يكون من الهم ان تستيقظ او لا تستيقظ. ففجأة يصبح كل ما يهمه حقاً هو ان يحلج ببطولونه الصيق وأن يلمس عريها بعريه. ويقوم بذلك ويكتشف ان الإيلاج سهل، ويصل إلى دروة نشوته على الفور. ثم يسحب، شاعراً بالخجل، متوقفاً ان يراها تقفز في مكانها مفرعة. ولكنها تظل رالدة في مكانها في سكون. ويعيد ترتيب ملابسها، ثم يرتب ملابسها، ويخرج بحثاً عن بعض الماء لكي يغتسل. حينما يعود، يجدها جالسة، تنظر إليه بامتنان. هذه هي الفضة، هل ستعلم ان غريباً قد زار أكثر اعماقها ظلاماً؟ ولكنها مليئة بالكدمات تشعر بالرجفة نتيجة لهجوم الجنود، لدرجة انها لا تشعر بشيء من فعلته، أجل، لقد أدرك كلايست فضول الذكر الثائر الذي يتلظى إلى معرفة الأنثى كما تتعطش الأرض الجافة إلى الماء. ولابد ان غوته قد أدرك شيئاً من هذا هو الآخر. وإلا فأي شيء آخر دفع هاوست إلى اغواء مارغريتا؟ إنها فتاة ريفية عادية، ليس فيها ما يلمع او يخطف الأبصار بصورة غير عادية. ولو أنه كان طبيها الذي يعالجها لشعر انهاء نوع من عاطفة الأبوة ولكنها أجبية عنه، غريبة، إنه حتى لا يعرف ما ترتديه الفتاة الريفية تحت تنورتها الواسعة التي لا تلبسها إلا في ايام الاحاد، وهو بحاجة ملحة إلى ان يعرف

وهذا ما يفسر لا مبالاتي المسببة. راء هينغا في صباح اليوم التالي. كانت قد سلمت نفسها عارية إلى بالفعل. سلمت هزيمتها، وكسلتها، واشتياها إلى الاهتمام واستعادة الثقة

بنفس وله يكن هناك سوى شيء واحد آخر ينبغي اكتشافه هل كانت ترتدي جوارب مبيقة أم سروالاً داخلياً؟ وكان الإيلاج الأول فيها مجرد جرس محض. ذلك النوع من الجنس لندي نمرسه الحيوانات بالقطع حينما تتسافد فيما بينها ولكن بعد ذلك، برز عقلانا لكي يقطع الطريق على ذلك الجنس ونكي بصللاد

وقد كنت لي بعد ذلك مرتين المرة الأولى لكي تصف معنساها في علاقة مع مدير متوسط العمر لإحدى الشركات، والمرة الثانية لكي تعلق لي خطبتها إلى طالب من ولاية سان فرانسيسكو. وله أكرر قد تمكنت بعد من الإجابة على حضانتي الثاني حينما سمعت بانحازها

جعلني أحذر انحازها. شعر بقوة الاصطدام بالحقيقة. تبينت أن إجهاد هذه الحولة من المحصرت كان إجهاداً زائفاً. إن نتيجة الافتقار إلى الاحتكاك بالحقيقة هو ما أدى بها إلى التآخر. كانت آخر مرة رأيتها فيها في شقة حيم. سميت، فقد عادت سان فرانسيسكو على مسيرة الليل في نفس اليوم. وكان قد وضع أسطوانة تسجيل على جهاز التحكي لديه وقرب منه إبرة اللافتة، ولم يحدث شيء في تلك المرة. ليس سوى الصمت. وأحتر مكررات الصوت. سان وضع نفسه عليها، وحقق حيناً في إبرة اللافتة لكي يتأكد من أن شيئاً من الرعب لم يعلق بها. ثم أسقط ذراع اللافتة مرة أخرى. ولم يصدر أي صوت. ثم لاحظت أن الذراع كان يسقط على جزء من الآلة صممه بحيث يمنع الإبرة من حداث الأسطوانة. فقلت له إن هذا الحر، ربما يمنع الإبرة من الالتصاق بالأسطوانة بشكل كامل. وخطط حيم على يديه ورؤيته. وبصر إليها من أسفل. وقال إن لا. فالإبرة تلمس الأسطوانة بالفعل. ومع هذا فقد عدل من وضع الجزء. فحسب بعض الشيء. وعلى الفور متلات الحجرة بالموسيقى. كان قد سقط إبرة مسافة إصافية لا تزيد عن جزء واحد من مئة جزء. من الموصلة لكي يلمس الأسطوانة. فكانت قريبة منها للدرجة أن العبر المحرقة لم تكن تستطيع أن تلحظ المسافة الدقيقة التي تفصل بينهما. ومع هذا فقد كانت مسافة كافية لكي تخلق العازق بين الصمت والموسيقى.

إن ما يشغلي حقاً هو (المسافة التي تفصل بين العقل والحقيقة)، إن الصجر المسرف بوسع من هذه المسافة، وكذلك الإزدهاق. ولكن هذه المسافة المعاصلة يمكن أن تكون صنبلة إن النرجحة التي تجعل كل المذاق والحواس تنوّه. إن تحنك بالحقيقة احتكاكاً مباشراً

ثم يحدث أن تقع صدمة مفاجئة فيمتلئ النوحود الداخلي بالموسيقى، فتعرف أنه لم يكن هناك احتكاك حقيقي. كنت مخدوعاً. كنت وحيداً في فراغك الخاص، تحنق ببطء حتى الموت



فيما بعد - في الطريق إلى نيويورك.

أشعر بأنني مدين بشيء من الامتنان لهيلفاً لقد احتضمني انحازها أو انزعني بشوذة لكي أخرج من حالة الافتقار إلى الإرادة التي كنت أترك نفسي لكي أنساق فيها. إن الكائنات البشرية تتشابه إلى حد كبير مع إطارات السيارات. فلنكي تحصل منها على أحسن النتائج، ينبغي أن تحتفظ في حالة من الامتلاء المناسب. فإذا كان إطار سيارتك فارغاً من الهواء، وفقدت السيارة لمسافة ميلين، فإنك سوف تدمر تماماً. ويحدث ذات الشيء، إذا كانت الإرادة خاوية. كنت اتعمد ترك إرادتي تزداد حواناً بانتظام طوال الأسبوع الماضي أو نحوه، وكنت أتساءل لماذا كنت أشعر بالإجهاد إلى هذا الحد.

يقول دي صاد أن الناس ساديون، فحتى الفضل الناس يحصلون على نوع معين من الإنساع من تأمل ما أصيب به الآخرون من حيلة أمل أو صدمات قاسية. وإنه لعل حق. ولكن ليس لهذا أية علاقة بالسادية. إنه لسبب غريب ما، يجعلنا الصجر يفقد كل ارتباط بالحقيقة. إنك قد تظن، على سبيل المثال، أن رجلاً تم إيقاده من خيمته المائية الباردة في القطب الجنوبي، قد لا يكون قادراً على الصجر طوال ما تبقى من حياته، لأنه في شكل مرة بهذا فيها في التسليم بالأمشياء على ما هي عليه. فإنه، ببساطة سيسنعبد اللحظة التي كان فيها قريباً من الموت. كل القرب، ثم يرى كيف أن ظروفه الحالية جميلة إلى أقصى حد. بصرف النظر عن قناعتها، ولكن في الحقيقة، فإن مثل هذا الرجل حدير بأن يشعر بالصجر بنفس القدر الذي يشعر به رجل انفق حل حياته في مررعة رابعة، وربما كان صجره أكرر إن سوء حظ الآخرين، أو ما يقابلهم من فسوة الحياة، قد يوقظنا من سباتنا العريب.

هذا الجريان السائب في الطبيعة البشرية هو ما يسحري - إذ بعمره في فلورينا وجود الضجر. اجثت هذا الضجر وهذا التسبب، وسوف تحصل على السوبر مان

السبت، ١٢ أبريل، حريت بيك، لونغ ايلاند.

□ الإجهاد يجعل من عملية اتخاذ أية من القرارات الجيدة أو المحافظة على تلك قررت أمراً في غاية الصعوبة. وصلت إلى مكسيدي في وقت متأخر من الليلة الماضية. وقابلني هوارد فيلشر، كان سنيل الحجة، إيطالي الملامح، مثيلاً بالحماس والسرعة في الاقتحام. قادني إلى منزل جميل على قمة تل صحري، يقول أنه اشتراه من امرأة رجل مشهور من رجال المافيا قتل في جريمة له تكشف العازها. إن فيلشر هذا واحد من أولئك الناس الذين توحى طريقتهم في التصرف بأنك لابد أن تحبهم. هانت تشعر بمساةة بانك وهو تشتر كان بالكثير من الأشياء... ظلت اتوقع منه أن يضع ذراعه حول مكفي وأن يناديني "يا ولد". ومن الواضح أنه يشترك في عدد كبير من الأعمال الصالحة خلاف البشر - وفي الحقيقة، لقد راودتني الشكوك في أن دار ليندن للنشر ليست سوى عمل جانبي أنتجه لأغراض صرتبية. وبينما كنا عاندين بالسيارة، قال بوفاز بأنه قد عرف فور اطلاعه على كتابي "اليوميات الجنسية" أن هذا الكتاب ليس نوعاً من الأدب المكشوف الداعر. وأني شخص مخلص يحمل أفكاراً ويريد أن يعبر عنها وقد مكثت لنا وحافظت على صمتي. وعندنا إلى المنزل في حوالي الحادية عشرة والنصف، وفتح الباب. فوجدت قناد سونا، دت جمال مذهل قدمها إلي باعتبارها سكرتيرة. وكانت هناك أيضاً فتاة أصغر سناً، اسمها بيغري. بدت حانية الجمال بالغارسة إلى الفتاة الأولى. وقال أنها تشترك في أسكر مع سارة (السكرتيرة) وأنها تدرس في إحدى مدارس السكرتارية. ووضعت الفتاتان على المائدة عشاء بارداً ممتازاً، تضمن سرطانات البحر وجراد البحر أيضاً. وبعد أن تناولت الطعام، وشربت قحجين من البيرة، شعرت بأنني أقل عداء نحو مضيفي، ولكنني كنت متعباً لدرجة أنه كان من الصعب أن أحتفظ بعيني مفتوحتين. ولكن هوارد (وقد أصغر علي أن يتحاطب بالأسماء الأولى على الفور) أصبح في الحقيقة أكثر تقحماً وحماسة بعد منتصف الليل تحدث عن الحرية الحقيقية في الأدب، وعن التمرد في الجامعات، وقال أن هناك جيلاً جديداً لابد من البحث عن ملامحه ودراسته. وأنه حبل جانع إلى الأفكار، وإلى حرية التعبير. وإلى الحديث المباشر المخلص. وحاولت أن أكتشف ما يعنيه بالأفكار وحرية التعبير. ولكنني لم أستطع أن أكتشف إلا أنه كان يعني حرية التعبير عن الدواعي العلوية دون قيود ومن خلال التعبير الداعر الذي لا يكبته شيء.

كان علي أن أؤدي اهتماماً وحماساً بكلام هوارد الذي استمر في الكلام دون انقطاع إلى ما بعد منتصف الليل. وفي حوالي الثالثة صباحاً، قادني إلى غرفتي. وبينما كان ينتهي لتأديرتي. غمرني تعبته وأشار إلى باب الغرفة المحاورة وقال "بمفرتي في هذه الحجرة فإن كنت تريدنا" وعممعت بكلمات غبت بها أن هذا تعطف شديد منه علي. ورحبت بعد هذا في سمات أشبه بالإعفاء. وقبل أن أعرق في النوم مباشرة تذكرت أنني نسيت أن أطلب ديانا بالتليفون في بيوهاض.

في الصباح الثاني، أيقظتني بيغري في حوالي الساعة التاسعة وهي تحمل طعام الإفطار وسألني إن كنت قد نمت جيداً. ظننت أنني رايت تعبيراً خاطفاً على وجهها يدل على السخرية. وتساءلت - في داخل عقلي - إن كانت باردة متحفظة كما تبدو. وكنت أشعر بالانقباض. كان الإصفاء لهوارد طوال ثلاث ساعات في الليلة السابقة قد دفعني إلى حالة لم أكن أريد إلا أن أخرج منها لأفقت من قبضته. كنت أريد أن أصرخ: "أتركك وشائي". أنني أكره كل شيء لعين تدافع أنت عنه". ولا أظن أن هذا كان من الممكن أن يعضبه أو يجيره على السكوت. كان من الممكن أن يقول: "كلا إنك لا تذكر شيئاً من ذلك إنك فقط تظن أنك تكرهه...". ثم يمضي فيتحدث بسرعة أكثر مما كان يتحدث في البداية.

دخل إلى حجرتي بينما كنت أتناول طعام إفطاري - إهطاراً إنكليزياً يضم البيض ولحمياً من فخذ من خنزير ومرس بالبردة - فداونني مخطوط كتاب دونيللي ولم يكن حجمه يزيد على ستين صفحة كتبت بخط اليد سألته عما حدث لبقية الكتاب فقال:

"أجل، حسناً، إيه. هذه هي المشكلة"

وبعد نصف ساعة من التفسيرات الكثيرة المتصاعفة، والتأكيدات بأنه يقف دائماً إلى جانب صداقته، بدأت في إدراك ما كان ينبغي علي أن أتنبهه في الليلة السابقة أنه يشعر بالتفيرة من دار "مكروف للنشر" لأنها نشرت بعض مكتب دي صاد، وحاصة كتاب "حياتي السرية" قبل أن يفكر في هذا الكتاب أي شخص آخر. ولكنه لم يكن يرى ما ينبغي أن يمنعه من التقدم إلى ما هو أفضل من ذلك بأن ينشر كل كتاب جاء ذكره في القائمة التي وضعها اللورد أوشي عن "بيلوغرافيا الكتب للمنوعة". وهو بهذا هذا للشروع بالفعل بنشر ترجمة

لاعترافات الأخ، اخازيوس من مدينة دورين، وهو راهب من طائفة الكابوتشان^(١) Capucin
 يكون جمعية كان يجلد بناء على تعاليمها تابعاته من النساء قبل أن يضاعفهن. واعارني
 هوارد مخطوطة الكتاب التي كتبت على الآلة الكاتبة ومن المؤكد أنه كان واحداً من تلك
 "الكتب التي تقرأ بيد واحدة". وكان قد شرع أيضاً في طبع كتاب يدعى "القساوسة
 الفاضحون" وإن كان لم يوضح لي من أين حصل على مادة الكتاب

واخيراً وصلنا إلى الهدف من كل هذا الحديث. إنه مستعد لأن يدفع لي خمسة آلاف
 دولار مقابل كتابة بحث حول "مويكولان وباليكاهين" - مسقط رأس دونيللي - وهو مبلغ
 يكفي لتغطية تكاليف المقدمة. فإذا كان باستطاعتي أن أنتج "مادة" إضافية للكتاب نفسه -
 أي إذا كان باستطاعتي أن أكتشف مزيداً من الكتابات التي تركها دونيللي نفسه، أو أن
 أزورها بنفسي - فإنه سيدفع لي عشرة آلاف إضافية من الدولارات. ومن الواضح أنه لم يكن
 يبالي كثيراً بما إذا كنت سأكتشف هذه الكتابات أم سأقوم بتزويرها. وأشار إلى أن اليكس
 ترونشي قد كتب بقلمه أكثر من خمس الكتاب المسوب إلى فرانك هاريس تحت عنوان
 "حياتي وتجاربي في الحب" وأنه منذ ذلك الحين كان يطبعه باسمه هو لا باسم هاريس.
 والسؤال الرئيسية هي أن أكون مستعداً لأن اتحمل أي نقد يوجه إلى الكتاب، إذا حلت ووجه
 إليه مثل هذا النقد.

كان الحصول على مثل ذلك المال كله أمراً مغرباً. وكنت سأعتبر نفسي سعيد
 الحظ لو تبقى لي خمسمائة دولار من مجموع المال الذي وصلني مقابل تلك الجولة من
 المحاضرات. ولقد لفليشر أنني سأفكر في الأمر. ففادرنى مع المخطوط بين يدي.

امصبت ما تبقى من فترة الصباح في الفراش، بينما كان يتردد انقباضي كلما
 توغلت في قراءة دونيللي. إنني لا أفهم كيف استطاع أن يحافظ على صداقته لأشخاص
 مرموقين مثل شيريدان وروسو. إنه يبدو في صورة لا تزيد عن صورة متشرد قدر العقل.
 والأسوأ من هذا، هو أنني أشك في ألا يكون ببساطة، كادياً. فالنساء اللواتي أعواهن - بدءاً من
 شقيقته وخادمة المنزل - يبدون جميعهم كما لو كان نسخاً مختلفة من نفس الصورة
 الخيالية للرغبة في التحقق. إنهم يبدون جميعاً بال مقاومة بشكل يوحي بالمصيلة وهن بقلن،

(١) طائفة من رهبان الفرنسيسكان انشقت عليها وكويت جماعة جديدة للرهبنة في عام ١٥٢٨

"واو، يا للعار!" وحينما يدفع إصبعه إلى داخل "الشق الرحاسي المستطيل"، يتنهدين، بينما
 أفخاذهن: "تنمرج كما لو كان ذلك يتم بصورة تلقائية" ومند تلك اللحظة، تمصي كل
 قصة إلى الأمام دون تعبئة واحدة حتى تنس كل امرأة منهم مستتية في الفراش. إن فليشر
 لم أن يكون أبليهاً غيباً أكثر مما يبدو عليه، وإما أنه يعلم تماماً بأنه قد خدع ولا يبالي
 بذلك أدنى مبالاة.

حاء إلى عرشي وقال إننا ستوقع وصول ضيوف يتناولون معنا طعام العشاء. وكان
 ذلك أشبه بالقشة الأخيرة التي قصمت ظهر الجمل - لم أكن أشعر أبداً بأنني على استعداد
 لاستقبال الناس في ود لطيف ذهبت إلى الحمام، وفتحت "الندش" فوق رأسي. فجأة شعرت
 بدوار. وكان علي أن ألتصق بعمود ستارة الحمام جلست على مقعد الرحاض. وحدثت في
 مفرض. حمام للزركش بالورود، شاعراً بموجات الانقباض تتلاحق فوقني وتراكم. فكرت
 في هبلغا، في ذلك الصباح الأخير، بينما كانت قد جلست على حافة الفراش، ترتدي جواربها
 وتجنّبها إلى أعلى ساقيها. قالت حينذاك: "إنني سعيدة لأننا نمنا معاً، ربما كان علينا أيضاً
 أن نأخذ أي متعة نستطيع أن نحصل عليها". ولم تزد على ذلك حرفاً، ولكنني فهمت ما
 كانت تريد أن تقول. كانت تعني أن الحياة لا معنى لها. كنا قد صعدنا إلى الفراش معاً،
 وتضاجعنا مثل حيوانين. وغرقنا في النوم وصحونا من جديد، ولكننا كنا غريبين. أكثر
 أمانة من أن تراودنا لبة أو هام عن الحب أو الحنان - كل منا غريب عن الآخر وعن الكون
 وفجأة أردت أن أشرح لها ما يدور برأسي أردت أن أقول لها أن العالم يبدو لها بلا معنى لأن "لا
 وعيها" قد عرق في سبات عميق وحينما يكون سعيداً، تظل فقااعات المتعة تتصاعد من
 أعماق اللاوعي - ذكريات وروائح وأمكنة. وحينما يتملك الإجهاد، يكف اللاوعي عن القيام
 بعمله، وتكون النتيجة هي الحالة التي يدعوها سارتر "الفنثيان". ساعته تترى الأشياء دون
 ظل المعنى القصير الذي يلقيه على الأشياء في أعماق العقل يقول سانت أوغسطين: "ما
 هو الزمن؟ حبسنا لا أسأل نفسي هذا السؤال. أعرف الجواب" تماماً إن عزل شيء ما في داخل
 الوعي ينزع عنه معناه. إن حقيقة أن الوعي يرى العالم خالياً من المعنى إنما هي حقيقة لم
 تبلغ شيئاً من شيء. فليس من المفروض في الوعي أن يدرك المعنى، المفروض فيه أن يدرك
 "الأشياء"، للوضوحات الخارجية المستقلة عن الذات. ولكن كيف كان لي أن أشرح ذلك لفنثاة
 سقطت تخبط دون مهرب في حالة من الإجهاد العصبي الكامل؟ وكان للمفروض - من أجل
 إخراجها من هذه الحالة - أن يتم إقناعها بأن تبذل شيئاً من الجهد. وهي لن تبذل أي مجهود

لأنها تقول أن كل جهد لا معنى له ولا هدف ولا نتيجة. لقد وقعت في شرك دائرة مغلقة، مفرغة.

كنت مصمماً على ألا أقع في نفس الخطأ أخرجت نفسي من هذا الجمود كما لو كنت أصحو من إغماءة، وخطوت إلى تحت مياه "الدش" الساخنة، ورحت أفكر في أنني سوف أرى ديانا غداً، وأن بإمكاننا العودة إلى بيتنا بعد عشرة أيام.

لم أتفاجأ من رداءة طعام الغداء فقد كنت أتوقع ذلك. كان من الواضح أن الضيوف جيران أغنياء، وكان فليشر قد دعاهم إلى مائدة لا شيء إلا لأنهم جيران أغنياء. وفكرت في كثرة ما يحدث في أمريكا من مثل هذه الأشياء - أناس يشربون ويتبادلون الأحاديث دون أن يكون بينهم أي شيء مشترك - وعرفت مرة ثانية في حالة من الانقباض للرعج. شعرت بأن فليشر لا يملك الحق في أن يصب على رأسي كل هذه الصور اللعينة من أنواع الضجر. رجال الأعمال السمان وزوجاتهم البلهاء وورثتهم عن "الفيلا" للحصص للعطلات والتي اشتروها في فلوريدا أو على هضبة الكارميل. وكانت بيغري جالسة في الطرف البعيد من الحجرة، مع شاب سمين من النوع العملي النموذجي، كانت زوجته قد رحلت بعيداً لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، وأزعجني هذا أكثر من أي شيء آخر لأنني شعرت أنها لم تكن موجودة هنا إلا لكي تسلبني - حتى ولو لم أكن راغباً في النوم معها. إنما أردت أن يكون هذا "اختباراً" مني. أنا.

خرجت إلى الشرفة القائمة إلى جوار بحيرة السباحة الصناعية الساخنة والقيت ناظري عبر الأصوات المتصاعدة إلى أراضي كونبكتيكان. كان الهواء دافئاً ومعتدلاً. وهجاء قررت أن علي أن أدلي برأي لفليشر. أنني لا أريد أن أفلح أي شيء في كتابه اللعين. بل أنني حتى لا أستطيع أن أتعلم مسؤولية كتابة المقدمة دون نوع من عدم الأمانة، لأن دويللي بدا لي في صورة شريرة مملّة. لا بد لي من مغادرة هذا المكان بعد الغداء مباشرة لكي ألق الحق السيارة العامة بعد الظهر فأنهض إلى نيويورك.

كنت على وشك الخروج لكي أقول لفليشر كل شيء حينما خرجت بيغري إلى الشرفة حاملة لي صحفاً من سمك السالون المدخن وقدحاً من البيرة. قالت:

"يبدو عليك الصجر"

قلت - بشيء من الغضب كما لو كنت ألومها - "إنني ضجر حقاً إنني أشعر بالقتيل من كل هذه المسألة اللعينة" وقلت لها أنني نويت أن أعاد المنزل بعد الغداء مباشرة وأدهشي اهتمامها. قالت:

- "كلاً ليس لك أن تفعل هذا انتظر حتى يذهب الآخرون"

أثار انتباهها لي عروزي. فوعدها بالاستئذان. وبعد خمس دقائق، جاء هوارد وسألني عن حالي وما أشعر به. فقلت إنني بحير وإنني أفكر في الترحيل في اليوم نفسه، وثار اهتمامه جداً هو الآخر. وهرع إلى داخل المنزل.

أكلت السالون وبعض اللحم البارد، وصعدت إلى حجرتي. كنت جالساً على الفراش أقرأ في مخطوطة دونييلي حينما دخلت بيغري. بدت غير واثقة تماماً من نفسها. وقالت: "جئتك بشيء من فطيرة التوت البري".

شكرتها، فجلست إلى جوارتي على السرير. قالت:

- "يقول هوارد أن علي أن أفلحك بالآ ترحل"

- "ماذا؟"

ترددت، ثم قالت: "هذا يعني الكثير بالنسبة لي أريدك أن تبقى".

قلت ثانية، "ماذا؟" وقد ازدادت دهشتي.

تكلمت بكلمات غامضة عن أنها لم يبق لها سوى عام واحد في الدراسة، قبل أن تتمكن من الحصول على وظيفة ذات راتب جيد، وتوضح لي بالتدريج أن فليشر كان يدفع لها مصروفات دراستها، وأنها بدورها، كان عليها أن "تسلي" ضيوفاً مثلي. واهترطت أن كل شيء يتفق مع هذا الاستنتاج. كانت سارة سكرتيرة فليشر وعشيقته. وكانت بيغري تشارك في شقة مع سارة. ثم أدركت أن فليشر قد غضب منها لأنها لم تمنح اليلة معي. قلت: "ولكن ألم توضحي له أنني كنت عارفاً في نوم عميق؟"

قالت: "أجل، أعرف ذلك. فقد جئت إلى حجرتك في الليل"

سكنت أكل فطيرة التوت الري - رغبة أنني لم أكن أريدها - إنما أكلتها بدافع الحرج. كان الموقف واحداً من تلك المواقف المحرقة الغريبة له بكر بمقدوري أن أقول "حسناً، أخلي ملايسك، وسوف نعوض ما فاتنا من الوقت"

قلت، "ولكنني وضعت لهوارد أن زوجتي وبنتي ينتظراني في بيوتهن"

قالت في تعاسة، "جل، أعرف هذا"

قلت، ولكن ما لفرق بين أن أكون قد قصيت اللبلة معك أم لا؟"

ولكنني في الحقيقة سكنت قادراً على تحمين الفارق. كان هليشر واحداً من أولئك الرجال الذين يصممون على أن يمضوا في طريقهم إلى غايته. وكان قد قرأ كتابي وقرر أنني الشخص الذي كان بحاجة إليه لتقديم كتاب دونيلي في صورة تبعث على الاحترام. فإذا سكنت قد أمضيت عطلة نهاية الأسبوع في منزله، مع فتاة حليها من أجلي، فإني أكون تحت نوع من الالتزام نحوه بشكل ما.

قلت، "سمعي لا أظنني قادراً على قبول هذه المهمة. إن هذا الكتاب مجرد مؤلف من الأدب المكشوف وهو حتى ليس أدباً مكتوباً بكتابة جيدة. إنه لا يقنعني" قرأت لها المشهد الذي يمضي فيه إلى الفراش مع شقيقته وهي في فترة الطمث، وتسمح له شقيقته بأن يسال عن ربتها ثم قلت، "فتاة إيرلندية في ثمانينات القرن الثامن عشر ما كانت تسمح لأخيها حتى بأن يعرف أنها في فترة الطمث"

ومع هذا فقد وجدت أن قراءة هذا المشهد بصوت مرتفع قد أُنحت إحساساً قلقاً في أعلى السافين جعل من السير أمراً لا يبعث على الارتياح، ولذلك فقد جلست على حافة السائدة العريضة بشكل كاف. واعتصمت هي على أساس أن الأخلاق كانت أكثر مما طنبت حرية في القرن الثامن عشر، وأنه من المحتمل أن يكون دونيلي بمسافة كاتباً مهماً أعمل الحظوات الهامة في عملية الإغواء. قلت،

"حسناً، فما رأيك إذا في هذا المشهد؟"

تحولت إلى المشهد الذي يصف فيه إغواءه لرميلة شقيقته في المدرسة تحركت بغيري لتتقرب من مكثمي، وتركت نهداها بضغط عليه. كان المشهد يصف كيف كانت الفتاة

تقف معه، تتأهّد استعراضاً بغير أمامهما وبجل هو رباط ثوبها العلوي وبمض حلمتها. ثم بدس أصبعه في "أشق المرحاسي المستطيل" وينتهيان بأن يتصاحفا وهي خالسة على ركنتيه؟ وقلت أسي أظن في هذا المشهد نوعاً من الاستحالة لشافية للعقل، ولكني سكنت أشعر بأن صوتي قابضاً متوتراً. كان ارتباط المشهد الداعر، بينها الصعق بقوة على مكثمي قد دفعني إلى حالة من التوتر. كان من الممكن أن تظهر واضحة للعيون لو أنني لم أكن قد وسعت الحطوطة في حجري. كانت ترتدي صداراً من الصوف، ثكت لفر مري، تكثف عن مكثمها، وكانت الصدارة تتناسب جداً مع بشرتها الذهبية، وحبما انتهت من القراءة، بللت أصبعها الأوسط بلعابها، ودارت يداها حول راسي، فوصفته برفقة في لبني لا أعرف أين تعلمت هذه الحيلة، ولكن تأثيرها كان مروعاً. فجأة أصبح الموقف ملكها هي، وكانت هي تعرف ذلك. وكان الحرج الذي ساد الموقف في البداية قد احتفى. ملدت يدي وحسنت صدارها ليكشف عن مكثمها، ثم حنبت دائرتي حمالة صدرها إلى أسفل، وكانت الدائرتان صغيرتين، لا تزيدان عن "بقعة" ضئيلة من مادة ناعمة. كانت حلمتها منتصبتين وشلبتي الاحمرار، أخذتهما في فمي واحدة بعد الأخرى، ورحبت أدلكهما بلساني، ثم لقت لتجلس على ركنتي. ودفعت الحطوطة لتقع على الأرض. جلسا كذلك في هذا الوضع، وقد نقل تلمس كل مما تسألت ببني وبني بمسي إن كانت تريد أن تنتقل إلى الفراش، ولكن أصابعها راحت ترتب علي بنوع من المهارة جعلني أزعج في البقاء ساكناً في مكاني. لأنركها تمضي في عملها. كان يوسعي أن أرى ما وراء مكثمها، ما خارج النافذة، الخطوط الحارحية السوداء للأشجار على صفحة البحر. بيست فروعها فقط تنعطي براحه أوراق خصر، صغيرة. بلت الأوراق والأغصان صلبة صلالة رائعة، كما لو كانت قد صنعت من ١٠٠ من ما، يتراوح بين المضي والأسود. حينذاك بلغت ذروة نشوتي، وتمايلت الأشجار، وتصلب في حليتي شيء، ما صلالة لا حد لها، حتى لقد كان كل ما نظرت إليه يمثل هذه الصلالة. سلباً وحبلاً حملاً حارفاً، حبلاً كما لا ينبغي لغير الصلب أن يكون. انحنيت فوقي، ودست سانيها في فمي، وتركتني في مكانه حتى تراحت بالنديج في يدها. حنبتني من يدي، ففجر مكثنا إلى الفراش. وبمسافة رفدا عليه، بكامل ملايسنا، سكنت على وشك أن أعرق في المعاس حينما سمعت صوت إصاءة مصباح ما ففنت عيني في الرافة، رنيت صورة الباب وهو يفتح. حطف فلبشر نظرة إلى الداخل، ورأنا، ثم تسحب ثابته على الفور. كانت يمهري نعمة، وقد تمرحت شماتها. وفجأة شعرت بالإشفاق عليها، وعمري إحساس دلق. كان

هو "الحب" بشكل أساسي. فكان فليشر قد أمرها بأن تأتي إلي لكي تمنحني نفسها. وقد بدت
فصل ما في وسعها. حاولت أن تمنحني المتعة دون تفكير في منعها هي. ومبدئي يحمل
التيحة قبلت تمنحنيها لتفرحتين. وحينما جعلت قليلاً، قبلت حببتها

عندما هبطت إلى الطابق السفلي، قلت لفليشر أنني أريد أن أرحل على الفور، ولكنني
سأقبل التعاهد معه فقال:

"بالناكيد يا رجل هذا هو رحلي" ووضعتني في صمتي بود

❖ ❖ ❖

نفس اليوم، فيما بعد.

تركيت (جريت نيك)، مسافراً إلى نيويورك للحاق بديانا. وقضاء بضعة أيام معها، في
سفر هذا شغل ذهني تعثر وتلعثم بـ "جسون" (1). وهو يحاول الإجابة على إحساس هيلفا
باللامعنى. ففي إحدى مقالاته، وصف كيف أن ساحراً من سحرة الاستعراضات السحرية
(هاودين)، كما أطلق قد درب ولده الذي كان يبلغ الخامسة من عمره، على الملاحظة
الفورية الحافظة حيث هاودين يطلق ولده على قطع لعبة "الدومينو" ولكنه له يكن يسمح
له بأن يحصي عند ما رسم عليها من نقاط سوداء. ثم يسأله بعد هذا أن يتذكر كم كان
عدد النقاط، أي أنه كان عليه أن يحصي النقاط "في حباله". ثم كان يطلعه على
مجموعتين من قطع الدومينو، ويأمره بآلا يحصي النقاط، ومرة أخرى، كان عليه أن
"يتخيل" تلك النقاط بعد أن تبعده عنه القطع ويطلب منه أن يتذكر عند ما كان عليه من
نقط سوداء. كان الصبي بهذا الشكل قد درب على أن يلتقط صورة فوتوغرافية منظرية
(مرئية) يتذكره. وفيما بعد، كان يوحد لكي يقف لمدة ثانية واحدة أمام وجهة لمحل من

(١) هيري بـ "جسون" (١٩٤١-١٩٤٢) فيلسوف أمريكي معاصر حاز على جائزة بوبل بلاد عام ١٩٦٧. عرف عنه
اعتماداً على الحس المباشر كوسيلة للحصول على المعرفة بدلاً من وسائل العلم القائمة على التجربة
وبالملاحظة والاستدلال من أهم أعماله كتاب "التصور الخلاق"، عام ١٩٠٧، و"كتاب الأداة والذاكرة"، عام ١٩٩٦.
و"كتاب (المصحك) عام ١٩٠٠

محلات بيع دمي الأطفال، ثم يطلب منه أن يكتب أسماء أربعين أو خمسين من تلك الدمي.
من المذاكرة. كان هاودين يدرب الصبي على التطاهر بأنه يملك حاسة سادسة وكان
على الصبي أن يصعد إلى المسرح، فيحتضن لوحة سريعة على التفرحتين لمدة دقيقة واحدة أو
نحوها بهما يقدمه والده إلى الجمهور. وفي تلك المرة القصيرة، يكون الصبي مشغولاً بـ "تصوير"
كل الأشياء المرئية التي يستطيع أن يراها - سلاسل الساعات وما إليها - ثم تعطي عيناها بغطاء
معكم، وبإشارة ما من والده، يكون قادراً على أن يتبين الشيء، أو يتعرف عليه - بشكل عام
كان يمكنه - بالطبع - أن يسمع صوت الرجل الذي ناول الشيء إلى أبيه، فيكون قادراً على
تقدير موضع جلوسه في صالة المسرح

ويشير بـ "جسون" إلى أن جوهر هذه الطريقة هو "عدم" السماح للصبي بأن يحصي
النقاط السوداء. وبدلاً من أن "يمسر" ما رآه، مثلما يفعل نحن جميعاً في أثناء استيعابنا اليومي
لما يحيط بنا، لم يكن يطلب منه سوى أن يسمح للمستوى الأعلى من عقله بأن يصور هذا
الذي رآه في لوحة حافظة. وأصبح المستوى الأعلى من عقله منفصلاً ومستقلاً عن حواسه.
وحده، وأحكامه... الخ. وأصبح قادراً على أن يتحرك بسرعة أكبر بكثير. كان أشبه بـ
"الصوت المتحرك".

إن الصغار من الناس - والمهرة منهم بالتحديد - سرعان ما يتعلمون هذه الحيلة -
خاصة إذا كانوا يتعرضون لنوع من الامتحانات. إنهم يتعلمون كيف يفصلون بين
مستويات العقل. ولكن لاحظ ما يعني هذا. إنك تعلم نفسك أن تصور "الحقائق" دون معناها
فإنني لو منلت أن أتذكر محتويات واجهة لأحد محلات بيع لعب الأطفال لقلت، "هناك آلة
إطعام في الوسط. ودمية عروس في ذلك الركن. ودب أسمر في الركن الآخر". ثم لا أكون
قادراً على تذكر أكثر من شينين أو ثلاثة أشياء في عدة ثوان.

ومن السهل أن تصبح عادة إدراك الأشياء دون معناها. وبصحب من الصعب أن تعيد
ربط مستويات عقلك العليا بـ "الركن" وحواسك. إن الجواد سرفس أن يعاد لكي يربط إلى
الغربة مرة أخرى مثلما كان في البداية. إنك تمضي فلا تفعل أكثر من أن "تري" الأشياء
دون أن ترى معانيها. ثم تقول "إن لغتي لا معنى له"

الأثنين ١٢ إبريل. شارلستون. س. من.

□ إن يوماً من أيام الأحد فضيبته مع ديانا وموسي جعلني أشعر بأني أكثر عقلاً. قصبت يوم أمس في مداعبة فكرة تمزيق الشدائد التي كتبها دويللي وكتابة كتاب كامل - لفلينشر - عن مدحكات دويللي. ولكن حدث هذا الصباح. وقبل أن أغادر نيويورك مباشرة أن اتصل بي فلينشر تليفونياً. وكان قد تذكر لتوه أنني كنت ذاهباً إلى "باتون روح" وأراد أن يقول لي. أن واحداً من سلالة دونيللي - الكولونيل منديرو دونيللي - يعيش في مدينة "دينهام سبرينغز". وسوف أكون هناك لمدة ستة وثلاثين ساعة، على أن أحاول الاتصال به.

ظللت أفكر في بيغلري، لم أكن أفكر فيها فقط، وإنما فيما حدث للأشجار حينما حدثت فيها. حاولت التعبير عن ذلك بالكلمات. كان ذلك شديد الشبه بما يحدث حينما نشعر بالتعاسة. ف يبدو كل ما تنظر إليه ممتزجاً بتعاستك - يصبح نوعاً من "الرمز" لتعاستك، مثل السماء الرمادية أو تساقط أوراق الخريف - كذلك هو الأمر في اللحظة التي تلوي فيها النشوة كل جزء من أجزاء الجسد، إذ يصبح كل شيء رمزاً للإحساس بالقوة. وهذا ما يفسر السبب الذي جعلني أرفض دونيللي. إن لحظات نشوته الفاترة الخالية من أي طعم. لا تؤدي إلى أي مكان. إنه لم يحاول أبداً أن يقتفي آثارها بحثاً عن منبعها في ذاته.

(بوميات الأسبوع التالي تم حذفها)

□ في صباح يوم السبت الماضي. ومرة أخرى في مساء اليوم نفسه. ألقبت محاضرة في جامعة ولاية لويديانا - وكانت محاضرة جيدة رغم هذه العبادة من التعب التي تفرمني دون أن أستطيع خلعها أو التخلص منها. (إنني لا أستمتع كثيراً بإلقاء المحاضرات. إنني أصبر على تذكر ذلك التعليق الذي قاله ماركييز هالبفاكي: "إن الغرور الذي تبعته عملية

تعليم الآخرين في النفس. ليفري الرجل دائماً بأن ينسى أنه صاحب عقل مغلق". وفي ساعة باكورة من صباح يوم الأحد. تناولت البطاري في غرفة الفندق الصغيرة واستأجرت سيارة لتقلني إلى منطقة "دينهام سبرينغز". التي تبعد مسافة عشرة أميال (وكان فلينشر قد عرض علي أن يدفع هو أية تكاليف). ولذا فقد استأجرت سيارة لهذا الغرض وقد صممت أن تكون من سيارات "دينهام سبرينغز" بنفسها. وكان سائق السيارة رنجياً متوسط العمر. سألته إن كان يعرف أين يسكن الكولونيل دويللي. قال: "أوه. نعم" وكان يعرف الكولونيل بالفعل. وقال إن الكولونيل يسكن على بُعد ميل واحد خارج المدينة. وسألني إن كنت صديقاً للكولونيل. فقلت له إنني لم أقابله من قبل أبداً. ولكنني أمل أن أجدّه في بيته. فقال:

"طيب. اسمع، في هذه الحالة قد يقابلك وقد لا يسمح لك بمقابلته. فإنك لا تستطيع أبداً أن تتنبا بما سوف يفعله الكولونيل"

وانتهت الرجل لي أنه ثرثار بدرجة لا تقل عن ثرثرة أكثر سائقي سيارات الأجرة في أمريكا. وفي خلال عشرين دقيقة كان قد أخبرني بالكثير عن دونيللي. ولم يكن فيما نقله إلي من المعلومات ما يمكن أن يهمني كثيراً. كان قد جاء إلى ولاية لويديانا قادماً من ولاية مكسيكو بعد الحرب بفترة قصيرة. فاشترى مساحة من الأرض خارج البلدة. وقد حصل على الأرض بثمن بخس لأنها كانت مملوكة بالنعابين. فاستأجر بعض المعدات الثقيلة. حتى جفف الأرض ونظفها. ثم بدأ في الزراعة. فاستنبت الأرز. وقصب السكر وغرس أشجار البرتقال. كان يدفع أجوراً طيبة، عرف عنه أنه كان يقسو على نفسه وعلى عماله. فقد كانت الأيدي العاملة - ومعظمها من الزنوج - تعيش في أبنية خشبية ككتكات الجنود القديمة. وكان دونيللي طاعية تماماً. رغم ما عرف عنه من هوس بالعذلة والحق. كان يقضي في الساعات بنفسه. وكان أحياناً يأمر بجلد بعض العمال. بل كان يقوم بعملية الجلد بنفسه. وكان يوسع من بريد الرحيل أن يرحل. كان يسكن بمفرده. ولم يعرف عنه أبداً أنه نام مع امرأة. وكان خادمه الوحيد رجلاً مكسيكياً كتوماً. هائل الجثة. وكانت هناك شائعات تقول بأنه يضرب الرجل - فقد كانت أصوات الضربات واللغظات تسمع أحياناً من داخل مبنى الزراعة. ولكن الخادم لم يشك الأمر إلى مخلوق على الإطلاق ثم مات بمرض التيفوئيد بعد عدة سنوات.

وفي عام ١٩٦٢، اكتشفت شركة "ستاندارد أويل"، التي كان لها مركز كبير في "باتون روج"، المتروك في أرضه، فعرضت عليه ثمنًا كبيراً لها ولكن دونيللي وافق على أن يؤجر لهم قسماً من الأرض. ورغم أنه احتفظ بنفسه كبير منها يصلح للزراعة، فإنه أفلح عنها. وصرف عماله، وعاش حياة ناسك وحيد. وكان يعيش بمفرده منذ ذلك الحين، يردد بحولاً وحساسية. وكان يحتفي عدة مرات في كل عام. وكان يعتقد أن يذهب إلى سيواورنيانر. وزعم أحد سكان "دينهام سريبنغر" أنه رآه هناك في بيت للدعارة، ولكن لم يصدق ذلك إلا القليلون.

كنا قد أصبحنا على بعد أميال قليلة من "دينهام سريبنغر" ونصحني السائق بأن أرفع رجايا ماقدني. وفسر لي الأمر بأننا كنا على وشك أن نمر بمعمل لتفريخ الدواجن ونبحها كان قد احترق منذ فترة قصيرة، وأن أجساد الطيور الميتة لم تكن قد دفنت بعد أو نقلت من المكان. وعبر بالكان عن يميننا. ولم يكن "العمل" أكثر من سقيفة خشبية كبيرة، يقدر ما كنت قادراً على الحكم من خلال ما رأيته من بقايا تعلوها آثار الحريق. ورغم إغلاق النوافذ، فإن الرائحة الكريهة تسالت إلينا. وأخبرني السائق بأنهم يوافقون الكثير من الحرائق في المنطقة. فإن مساكن العمال في مزرعة دونيللي قد احترقت، كما احترقت حظيرة ملاي بحزم القش المضغوط.

لم يدهشني هذا. فإن الشيء الوحيد الذي يدهشني في القسم الجنوبي من أمريكا الشمالية، هو أن المنطقة نفسها لا تلتهم مشتعلة بالنار في منتصف الصيف. ورغم أن الوقت لم يكن قد تجاوز الحادية عشر صباحاً، فإن الهواء كان ساخناً مثل الفرن.

سارت بنا السيارة عبر شوارع البلدة الصغيرة الناعسة، حيث بدا كل شيء خالياً تماماً ومكتمل الهدوء في صباح يوم الأحد. ثم دارت السيارة إلى اليمين هابطة منحدرًا معشياً كان يتعرج أسفل للمينة. وبعد نصف ساعة من القيادة الحاذرة البطيئة - بهدف تجنب قمزات السيارة - وصلنا إلى أبنية مزرعة خشبية تقاوم القدم. وقد بدت كالمهجورة. دفعت للسائق أجره وخرجت من السيارة. فقال:

- "أفضل أن أنتظرك لأرى إن كان سيسمح لك بالدخول أم لا؟ فإنه قد يقرر ألا يستقبلك"

وهكذا عبرت الفضاء الشرب، ماراً بمعدات المزرعة التي علاها الصدا، متجهاً نحو البني الرئيسي. نبح في وجهي ككلب صحم أصفر اللون. ولكنه لم يهذل أية محاولة للنهوض من رفليته

فتح الباب قبل أن أصل إليه، ووقف دونيللي على عتبة. عرفت أن هذا الرجل لابد أن يكون هو دونيللي. فقد بدا أوروبياً إلى درجة أكثر من أن يكون أي شخص آخر. إنه رجل من النوع الذي اعتاد أن يرى الإعلانات القديمة في الصحف عن شاي "بلانتر" وفهوه "كامب"، نحيل القامة، لوحات الشمس جلده، يحمل وجهاً تظهر من خلال بشرته كل عضلة من عضلاته. رأيته وأنا ألتزم دون أن يتكلم. ثم قال:

- "أنت مستر سورم؟"

وكان هذا باعناً على الراحة. فقد كنت أتوقع أن يقول: "من أنت بحق الجحيم؟" أجبت بآني أنا سورم. أو ما إيماءة مختصرة للغاية. ثم فتح الباب على سمته لكي يسمح لي بالدخول.

كانت الحجرة عارية ونظيفة ومرتبعة، مثل فمزة صابطة في سفينة. ولم يكن دونيللي قد لبس أو حاول مصالحتي. ولكنني التفت حينما دخل خلفي من الباب - وكان قد وقف قليلاً يراقب السيارة وهي تبعد - فخيل إلي أنه كان يرمقني وقد بان على وجهه تعبير غريب. وراح يتأملني مثل قطعة ترافق فنفاً برياً. قال:

- "أيمكنني أن أقدم لك الشاي؟"

قلت نعم بحماس، خرج. وغادرني بمفردي. كان من الواضح أنه يعيش في تلك الحجرة الوحيدة. كان هناك سرير من أسرة المسكرات، ومقعد ذو مسندين غير مريح ومقعد آخر عادي مصنوع من الخشب، ومائدة صغيرة يمكن طيها. وكانت أرضية الحجرة عارية ونظيفة، وهناك خزانة خضراء قديمة في ركن الحجرة، وست صور طباعية على الجدار، تمثل عنداً من الملاكين يتبادلون الصريات بالقبعصات العارية، وتمثل أيضاً جياتاً جميلة. ولم تكن هناك كتب.

عاد دونيللي يحمل الشاي، وصحنا ملأه بشطائر صغيرة مقعدة دهنت بالزبدة. راودني إحساس بأنه يريد أن يتحرر قليلاً من تخشبه، وأن يقول شيئاً ما بطريقة ودية، ولكنه كان قد نسي كيفية القيام بمثل تلك التصرفات. وبينما كان يصب الشاي سألني إن كنت قد قمت برحلة طبية حتى منزله. فأجبت: نعم. قاومت الإغراء بالكلام لكي أملاً فراع الصمت، وبينما رحلت أرتشف الشاي - الذي كان قد صنع بطريقة جيدة - تذكرت عبارة هايني في تعريف الصمت باعتبارها الحوار بين الإنكليز، فوجدت أنه من الصعب ألا ابتسم. وأخيراً، توقفت عن مقاومة الإغراء بالابتسام. نظر إلي دونيللي في تلك اللحظة. فحولت ابتسامتي إلى تعبير ودي، وقلت: "حسناً، إنه لمن الممتع حقاً أن يعثر المرء على سيد إنكليزي في هذه البقعة الناحلة".

قال بصرامة "إنني أيرلندي".

"لنهما شيء واحد على هذا البعد" هكذا أجبته. وأنا اتساءل إن لم يكن قد فننني بشيء ما، ولكنه ابتسم ابتسامة باردة كان النلج وقال:

"أجل، أظن هذا".

ولسب عريب ما، تحطم النلج، قال:

"وهكذا فانت نقيه في موي كويلان؟ أين بالصبط؟"

فوصفت له الكوخ الذي استأجره، والمنزل الذي انتقلنا إليه. فسألني إن كنت أعرف شيئاً عن جريمة قتل "دومينيك". المنة التي كانت جنتها قد وجدت عند فاع مرتفع (موهير) الصخري منذ عامين. وكنت أعرف كل ما يتعلق بهذه القصة. فوصفتها له بالتفصيل. كانت فتاة أمريكية قتلتها عاشقها لكي يحصل على ما كانت تحمله من تحويلات مالية تصرف للمسافرين. وكنت أعرف صباه الأسماك الذي عثر على الجثة، وعصو الحرس المحلي الذي استدعي لكي يلقي عليها نظرة لعله يتعرف عليها. ومن الواضح أنه لم يمكن التعرف على وجهها، ولكن القاتل كان قد ارتكب خطأ الوحيد تركه قطعة ثياب واحدة على الجثة - وكانت هذه القطعة سروالاً من التابلون الأسود. وكان السروال يحمل علامة واسم الصانع الأمريكي. وبالتالي فاد هذا إلى معرفة هويتها. وكنت أيضاً قد بادلت الحديث مع ممثلي الشرطة السري في دبلين الذي كان قد حمل مسؤولية تحقيق

القضية، فأخبرني ببعض التفاصيل عن الأساليب التي نحا إليها في التحقيق. وسحرت كل هذه المعلومات المباشرة دونيللي، فبدأت أمل في أن يتعرف بطريقة ودية هيما يتعلق بموضوع أسلافه.

وعندما انتصف النهار كانت حرارة الجو قد أصبحت قاتلة لا تقاوم. فخلع دونيللي صدره الصوفي وحلّس أمام المائدة لا يرتدي غير القميص - الذي كان مفتوحاً حتى وسطه - والينطلون وخلعت لنا سترتي واقترح هو أننا ربما كان علينا أن نتناول مشروباً، فوافقت وحاء دونيللي برحاحة من الروم الأسود. وكنت أعرف أنني لن ألقى أي محاصرات حتى يوم الثلاثاء. ولذلك فقد وافقت دون شعور بالحرج وحاء دونيللي بالزبد من شطائره المقعدة المدهونة بالزبد. وفتح بعض علب السردبن المحفوظ. وبعد أن تبادلنا كلمة "صحتك" اندفع إلى موضوع إيرموند دونيللي قائلاً:

"أض أن هذا الولد الناصر قد أخبرك بأنني قلت له أن يذهب إلى الحميم؟"

"كلا، لم يخبرني".

كان هذا هو تصرف فليشر المودحي. أن يقترح علي الذهاب إلى دونيللي دون أن يوضح لي أنه قد تلقى استقبالا عذاباً وربما كان قد تصرفاً حسناً من جانبه، فإنني ما كنت سألني إليه لو أنه أخبرني بذلك.

سألني: "هل رأيت تلك الحطوطة؟"

"أجل. وقد جنت بها معي". أخرجتها من الجيب الداخلي لسرتي، فتناولها بلهمة.

وبعد أن قرأ نصف صفحة. ألقى بها على المائدة مع إشارة تدل على الاهتمام.

"تماماً كما كنت أضل تزوير مجرد تزوير غي نعين".

دهشت كالصوق. سألته: "أنت متأكد؟"

"أنا متأكد طبعاً أنه تقرأ يوميات إيرموند؟"

"أخشى أن أصارحك بأنني لم أقرأها بل أنني لم أكن أعرف بوجودها قبل الآن. هل

نشرت؟"

"إنها منشورة بالطبع نشرت في دبلن عام ١٨١٧"

خرج من الحجرة. وبعد دقائق قليلة عاد وقف على السربير محلاً صغيراً دا علاف من الجلد وكان العنوان "يوميات إيزموند دوبيللي" وكان الماشر هو "دار تيلفورد" في دبلن وكان الإهداء الرسمي موحهاً إلى اللورد تشستر فيلد - وهذا نصه.

"سبدي اللورد، لقد كان لدي دائماً من الاسباب ما يدعوني إلى أن أندكر قولك بأن أسوء الرجال تربية في أوروبا، إذا سقطت مروحة إحدى السيدات، لجدير بالتأكد بأن يحني هينماول المروحة ليعيدها إلى صاحبها، وإن أفضل الرجال تربية في أوروبا لا يستطيع أن يفعل أكثر من هذا. وقد كانت هذه الفكرة التأقية، حول تشابه المواهب بين العطلة والوصيغ في إطار مجالات محددة للنشاط، هي ما دفعني إلى أن أقدم إلى سيادتك هذا الجلد الخالي من الادعاء."

ولم تكن هناك حاجة إلى النصي في القراءة بعد هذا فإن الرجل الذي كان باستطاعته أن يكتب هذا النثر الأنيق الجيد الصياغة لا يمكن أن يكون هو ذلك الصبي الأبله الذي كتب بقول "وفي خلال نوان قليلة كان خمسمائتي الكبيرة المخطوطة، قد اندست داخل محرابها بغيري. وسألني النوي يحمل خصيتي تنمفخان كالبالونة". وهذه العبارات الأخيرة التي اقتطفتها هنا تشير بوضوح إلى جوهر أسلوب المخطوطة التي قدمها لي فليشر. وإنني لعاجز عن المجادلة دفاعاً عن فكرة أن رجلاً واحداً هو الذي استطاع أن يكتب الإهداء الرسمي إلى اللورد تشستر فيلد والجملة الأخيرة. ولكن حسناً طارناً تصاعد إلى مستوى اليقين جعلني أشعر بأن الأمر لا يصح أن يكون على هذا النحو قلت،

"أستطيع أن أرى ما تعنيه. إنك لا تظن أنه من الممكن أن يحتلف أسلوب مذكرات خاصة اختلافاً شديداً. بالضرورة. عن يوميات يكتبها المرء أثناء السفر؟"

"إنه أسلوب يختلف أيضاً عن أسلوب يومياته غير المنشورة"

"هل رأيت أنت تلك اليوميات إذن؟" كذلك سألته وأنا أحاول ألا تظهر في صوتي رنة

لهمة الشديدة.

"أوه، أجل" قالها بطريقة عابرة، وصمت لنفسه مريداً من الشراب اكلت سناً من أسماك السردين، وصككة حافة مذهوبة بالزبد قبل أن أشرب المزيد، وفكرت في أنني أستطيع أن أمضي ما بعد اظهر والنساء قائما في غرفتي بامتدق الصغير

وحينئذ أحرت دوبيللي بلقائي مع فليشر. ووصحت له أنني له أكن قد سمعت باسمه حده أبداً قبل تلك القابلة. وواقفي هو على أن ذلك له يكن بذا من الفاحش بالنسبة له. فبن يوميات دوبيللي لا تريد في قيمتها عن العشرات من أمثالها في ذلك العصر الذي كتبت فيه يوميات أشخاص مثل توماس تيرر. ومازي كاوير. وإيرل إجمويت، وهي ببساطة لا يمكن أن توضع في نفس الكنة التي توضع فيها يوميات فاني بيربي. كان إيزموند دوبيللي معروفاً لظلمة الأدب الإيرلندي، ولكن ذكره له يرد حتى في مجلد "تاريخ كامبريدج للأدب الإنكليزي"

وبدافع من رغبتي في الكشف عن دوافع فليشر نشرت إلى أنه من المأدر أن يكون هناك دحان من غير بار. وإنه إذا كانت هناك شائعة تقول بأن دوبيللي كان يدوم على كتابة "يوميات حسنية"، فمن المحتمل جداً أن يكون نمة أساس لهذه الشائعة حديق في وجهي بعيبه الماردين. وليس على وجهه أي تغيير. وقال لي

"أفترض أن لهذه الشائعة بعض الأساس. فهل تفرص أن أحماده بئلهمون على رؤية مثل تلك الأشياء مطبوعة منشورة على الناس؟ أنك تعرف إيرلندا."

أدركت ما يرمي إليه فالإيرلنديون لا يتساهلون فيما يتعلق بأمور الأخلاق. من المؤكد أنهم يتمتعون بشيء من المرونة ولكن مرونتهم تقف عند أمور الأخلاق ولا تستطيع تجاوزها على الإطلاق. وهناك الكثير من حوادث منع الكتب. والفهرس ما يزال شيئاً لابد من التمسك فيه. وكان يوسعي أن أدرك أن عائلة دوبيللي القاطنة في بلدة "نالي كاهين" قد نحد نفسها فجأة ذات سمعة سيئة محررة، حتى ولو كانت مريحة

وحينما أقررت الساعة من الواحدة، كتبت محموراً بشكل واضح، وقلت أنه أصبح علي أن أرحل ونشد دهشتي أعترض على ذلك قائلاً

"لا لا يمكنك أن تتناول طعامك هذا سأنهض بعض الببص ولحمه الحارير. فإذا لم يعجبك هذا، لندي بعض القمح الطرخ لأحضر" وذهب إلى المطبخ، ورحلت أنا أقرأ بعض

بتكلم لم ينم عن أمة نوبيا ساذجة. وتذكرت فجأة حكاية أنه قد عاش وحيداً لمدة طويلة. كان جائعاً إلى الجنس معزولاً في وحدته عن البشر. ولا شك أنه استمتع بالحصول على من يبادل له الحديث. ولم يكن في هذا أي شيء غير طبيعي.

ولكنني بدأت أتمنى لو أنني كنت قد أخرت موعد زيارتي إلى وقت متأخر من هذا اليوم. لقد بدأت أشعر بأنه ينوي أن يحتفظ بي هنا طوال فترة ما بعد الظهر والنساء. كان يوسعي أن أرحل. بالطبع ولكن دونيلي كان هو المصدر الوحيد للمعلومات عن جده بالنسبة لي. وكنت سأحصل على خمسة آلاف دولار إذا كتبت عن هذا الرجل. كان يوسع الإحساس بالنفد وحده أن يبقيني حالماً في هذا المكان. طالما أنني كنت ألقى الزحبيب.

وحينما انقضت فترة العصر وأقبل المساء. بدأت أتأهب مرة كل دقيقة. لكن يبدو أن دونيلي لم يلاحظ ذلك. كان قد أتى بمقعد لا يظهر له ولا مساعد وجلس عليه. ورفع ساقيه على المقعد الخشبي وأصر على أن أجلس أب على المقعد غير المريح ذي السنتين. ورفع ساقي على السرير. هكذا في تلك اللحظة لشرب البيرة. من نوع المادونيرر الغمما في علب من القصيح. وكان يدخن سيجاراً من نوع الشيروت. وحاولت من حين إلى آخر. أن أعيد الحديث إلى موضوع دونيلي. ولكنه كان يتحسس. وأجبرني في حوالي الساعة الرابعة. سألني إن كنت بحاجة إلى بعض المشي فوافقت على اعتبار أنها محاولة لكسر هذا الدور المشبه بالتلويح الغناطيسي. كنت قد بدأت أشعر بالأسراع في مسجتي. وكان يوسعه أن يرى أن المعاش بدأ يسبطن علي. وربما كان من واجبه أن يقترح علي أن أأتم مدة نصف ساعة على الأقل. أو أن يزككي لكي أقرأ مذكرات إيرمويد دونيلي. ولكنه كان يريد أن ينكته. ومن الواضح أنه لم يكن يهتبه بما إذا كنت أريد أن أأتم أم لا.

رغم حرارة الجو. رندي دونيلي قميص نظيف ووضع رباطة عني. وارتدى ستره الرياضية أما أن حملت سرتي على ظهري وأصبح هو في هيئة من يتخذ طريقه إلى ناديه لخدم في لندن ليجنسي كان في فترة ما بعد الظهر. ما بدأ شعرت بالجلال الإرددة. وأنا عذراً عن اتخاذ قرار ما. نأرقاً في عراقي. وأنا كنت قد صبحت وعيد لأنه يتحدث بدافع دجني فاهر. فإني نه عند نمت إلى ما يقول. لا بدراً. وإن كنت مصت في سريري إلى حاشية على أرض الحقول المنجورة التي تصلبت نريتها. وتبعاً الكلب الأصفر النصح. وكان سافاد من الطول بحيث بدا لي كما لو كان صورة سيمائية تعبر من بالحركة البطيئة. وسار

دونيلي بخطوات واسعة. مشيراً بعصاه إلى أشياء مختلفة تنير الاهتمام. "هذه الشجرة تعرف باسم شجرة الإعدام الفوري. لقد أعدم عصاة "الكلان" ثلاثة من الزنوج هنا منذ سنوات فلانل"

- "ماذا كانوا يفعلون؟"

- "كانوا يشعلون النار في مخازن القنن"

كانت بعض المناطق للعبث التي سرنا فوقها حميلة. ولكنني دهشت بسبب كمية قصائح الصغيرة الصنعة وزجاجات الكوكاكولا الفارغة التي كانت ملقاة في كل مكان. تكاسا على سور فائهم لنرقب حفارات البترول. وفجأة لاحظت أن دونيلي كان يحمل مسدساً في حزام معلق بكتفه تحت سترته. سألته:

- "ماذا تحمل هذا السلاح؟"

- "بسبب الأفاعي."

ومن الواضح أنه شعر بأن ضخمة الحفارات كانت تغطي على الحديث. لأنه سارع باجتنابي بعيداً. ولاحظت أنه ظل ينظر إلى ساعتني من حين إلى آخر سألته:

- "كنت ذاهب إلى مكان بعيد؟"

توقف طوقان الكلام للحظة ثم قال "كلاً" وبدأ أنه كان صادقاً بدأت أشعر بالعطش. وكان تونرد ينقل لي بالتدريج. قلت:

- "إلى أين نحن ذاهبان؟"

"أوه. طلبت أنه من المستحسن أن يسير مسافة ميل حر أو نحو ذلك. ثم يعود إلى البيت"

وكانت ضلعة "سير" غير مناسبة على الإطلاق للتعبير عن سرعة مشيه حتى أنني انسمت وقلت. "يسمعي أن أفكر الآن في العودة" ولكنه تجاهل ملاحظتي. وإن كان قد عاد فحضر مرة أخرى إلى ساعتني. كان الكلب الأصفر النصح يبيح ويرمج أمام دغلة كنيمة من الحشائش في إحدى الحمر الكبيرة. بطرت في الحمرة. فرايت أفعى كبيرة سوداء تتلوى

حول نفسها وتنفخ، وحينما رأته، انتصبت برأسها واقفة. وتوقعته من دونيللي أن يطلق عليها النار. ولكنه اكتفى بأن قال: "هيا بنا".

تسلقنا سوراً واطناً فتخطيناه إلى طريق ضيق قدر. وكانت هناك ابنية للزرعة على بعد عدة مئات لليلة من الباردات، ورأيت صندوقاً للريد أشار إلى أننا الآن نسير فوق أرض شخص آخر.

فجأة قال دونيللي:

- "هبدو أن هناك حريقاً".

- "أين؟"

أشار إلى حقل مجاور لمبنى للزرعة. ولكن كان كل ما استطعت أن أراه خبثاً واهناً من الدخان يتصاعد من حظيرة مفتوحة ملأى بالقش ولكن بعد دقائق قليلة، كانت السنة اللهب تتصاعد بعنف في الهواء. والدخان الأسود يتكاثف ويتلوى مثل جني يوشك أن يتجسد خارجاً من قممته الصغير. فجأة كان دونيللي يجري ومسده بتارحج ليرتطم بهمو خرفته، والكلب الكبير يجري إلى جواره وقد لوى رأسه نحو سيده مثل جواد السياق الأصيل الصغير إذ يجري إلى جوار أمه. تسلقنا جداراً واطناً آخر وعبرنا حقلاً تناثرت فيه الحنازير التي تحفر الطين بأقدامها بحثاً عن غذاء. وكان هناك أيضاً رجال يجرّون من اتجاه مبنى المزرعة.

أدركت سريعاً بعدم جدوى جريها بهذه الصورة، فقد أصبح واصحاً أنه لم يكن بوسعنا أن نفعل أي شيء، ومن المؤكد أن النار ما كان يمكن أن تتمد قبل وصولنا إليها وهكذا خففت من سريري وبدأت أسير بيطي، عمر الحقل، وبدأي في جيبتي وبعد خمس دقائق كنت قد لحقت بدونيللي ومن المؤكد أن الحريق كان ضخماً. وكانت السنة اللهب من القوة بحيث كانت تحمل أجزاء كثيرة من أعواد القش المشتعلة التي بدأت تمطرنا بأحزائها الصغيرة المتساقطة، أو تنصر مع الهواء في بقع رمادية وكان من المستحيل أن يقترب أحد من الحظيرة المشتعلة لمسافة تقل عن خمسين ياردة. فقد كانت الحرارة قطيعة، سمج شيء ما ربما كان برميلاً وسقط حراً، من السقف تصاعدت دقات الشرر كما لو كانت نوعاً من الألعاب النارية. فنت شيئاً ما لدونيللي، ولكنه تجاهلني بطرت إلى وجهه، ثم صرخت بطري بسرعة. كان هكه الأسفل بارزاً ومتصلباً، وكانت عيناها تهلجان في حمود كما لو

كانتا مصنوعتين من رجاج أزرق. كانت حالته أقرب ما تكون إلى من يضع بطوقهات تصحى والدخان الذي يشاهده أمامنا وحتى عندما هب الدخان ناحيتنا، ودمعت عيناها منه، ظل هو يحدق كما لو كان ميوماً. كانت قبضاده متصلبتين داخل جيبتي ببطوقه كان هناك شيء ما في برور وجهه جعلني أنحني من أن عاطفة مروعة تحتاجه من الداخل وبشكل ما، كان يوسعي أن أفهم هذه العاطفة. كانت العين حليمة وهائلة، وكانت هناك سمة موسيقية متاعمة تجمع بين أصوات التشقق والحرارة وطوقهات الشرر

شعرت بأن بعض المتفرجين كانوا يظنّون أنها شيء من المفور، كما لو كنا لا نملك الحق في الوقوف في ذلك المكان. ولذلك فقد تراجعت نحو السور وجلست فوقه وبعد نصف ساعة. حينما لم يكن قد بقي شيء من الحظيرة سوى بعض القوائمه المعدنية، وصلت سيارة الإطفاء

قال شخص ما من حلمي "تسمح بإحضاري داسك؟" ووجدت شرطياً ضحكه العنة يضطر إلي بصريفة تبعه على الرقص الكامل وكان رجلاً بققان حلمه، يحملان المناديق. وبدا عليهما أنهما من عمال الزرعة. أعطيته سمي، وقلت أنني كنت مع الكولوميل دونيللي عندما قال أكثر الرجلين نوافعين وراء الشرطي.

"أود، إنك مع دونيللي، أليس كذلك؟"

دهشت للجملة العذبة في صوته. توجه الشرطي في وجهه، ثم قال لي:

- "تسمح بأن نحبرني صك من الوقت طللت هذا؟"

- "بعد بداية النيران بقليل كنا نتمشى"

أدهشني الأسئلة التالية، ولكنها بدت أكثر سهولة سألني

"من أنت؟" وحينما وصحت له أنني أحاصر في جامعة "باتون روج" أصبحت لهجة أكثر تهديداً كان عقد فبامي بالحاضرات في جيبتي، وبضاقه هوية كنت أحملها في أمريكا؛ على الدوام وكنت على وشك أن أسأل إن هناك من الأمور الخارجية على القابض أن أتوقف لأراقب حريق، ولكن بدالي أن هذا السؤال لا جدوى منه فحص الشرطي زورافي، وشكرني بأني. ثم سار بخطوات واسعة نحو دونيللي، يتبعه الرجلان. وقف الكلب الأصفر النصحى إلى

حوار دويللي، وحينما اقترب منه الرجلان بدأ يسبح بناحاً حافئاً، فكما لو كان يتنهاى للفرح. أمسك دويللي بحرام رقبة كلبه، وكانت المحاوره قصيرة، ورايته يشير نحوى ثم جاء إلى وهو يتنأب وقال: "حسناً، اعتقد انه من الفضل لنا أن نعود".

كانت آلة الإطماء قد راحت أحرأ تصب الماء فوق المقاب الملتئمة، وتصاعدت سخابات البخار حاملة ذرات الرماد وشظايا صغيرة من الخشب المتفحم.

"فيم كان كل هذا؟"

"أوه، إنهم يشكون بشدة في الإعراب في هذه المنطقة".

"ولكن ما كان بوسعهم أن يشكوا في أننا نحن الذين أشعلنا الحريق؟"

هر كتفيه ثم بدأ بصفر بعمه لحناً إيرلندياً سار عائداً بنفس الخطوات الوسيعة ولكن بدا لي أنه لم يعد متوتراً كان خلال القسم الأول من مسيرتنا يتكلم ويسير وكأنسان آني، أو مثل رجل تر ككر عقله بنبات على شيء أحر سوى ما يتحدث عنه: "ما الآن فكان بشراً سوياً، مستريحاً، وحينما دخلنا المنزل، بالغ في سرورد وبهتته، فوضع يده فوق كتفي وقال: "حسناً، اطلنا أننا نحن الاثنين سنحقق مشروباً بارداً كبيراً".

حاء بز حاجات من الجمعة الإنكليزية - من نوع "وورثينغتون" وبينما كنت أرقبه وهو يصب الجمعة في الكوبين، ويترنم لنفسه بلحن ما، طراً شيء ما، أبله، على رأسي كان الإجهاد قد عمرني بإحساس من اللامبالاة. أطلعت هذا الدافع الداخلي القلاب وقلت:

"لا اعتقد أن لك علاقة بهذه المسألة، اليس كذلك؟"

للحظة سألت نفسي إن كنت قد أسرفت في البوح بما شعرت به، ولكنه قدم إلي ككاس الجمعة وهو يبتسم ببتسامة التلميذ الريبة السعيدة، وقال:

"يا له من سؤال غريب، كيف كان يمكنني ذلك؟"

وهجأة، وبهقين لا يمكنني أن أشرح أسبابه، عرفت أنه كان على علاقة بالحريق. ربما كان السبب هو طريقة نطقه لإجابته على سؤالي، أو فهمه الفوري للسؤال. إن رجلاً بريئاً كان جديراً بأن يتردد قليلاً، وأن يتساءل إن كان قد فهم السؤال على النحو الصحيح.

حسنت في التقعد ذي السنين، وشربت الجمعة باستغراق ونهم، وحينما نظرت إليه مرة أخرى كان ذلك اليقين قد اختفى. وكان شكى معناه أن الرجل كان معي طول اليوم... سمعته يقول:

"أشرب في صحة إيرموند دويللي"

شربت، وبدأ لي هذا الحب دون مناسبة

لذهب إلى المطبخ وسمعت أصوات إعداد الطعام. كان قد أدار مفتاح الباب - وهذه علامة أخرى تدل على الارتياح، هبت سمة باردة من خلال النافذة المفتوحة. وكلما أمعت في التفكير في المسألة، كلما زاد مبلي إلى تصديق إنه كان على علم مسبق باشتعال النار في ذلك النوع ككل شيء، يتناسب تماماً مع هذا الافتراض، محاولاته بإقناعي بالبقاء، الحديث البكاسيكي الحالي من الرعية الحقيقية، المسيرة الطويلة الحالية من المعنى في عصر يوم حار، السلس الذي حملته، والكلب الضخم الذي اصطخبه معه، تزايد اتساع خطوته حينما اقتربنا من دجلة الفس ونطراته المتلاحقة إلى ساعتها، إن الرجل ولا شك مصاب بهوس الحرائق ومن المحتمل أن يكون هو الذي أشعل النار بنفسه في مباني مررته، وربما كان هو الذي أحرق معمل تفريخ البواجر أيضاً. وهجأة شعرت بصدمة باردة حينما قلت لنفسي إنه من المحتمل أن يكون هو الذي أشعل الحريق الذي أعدم من أجله الزنحيان. ولكن كيف استطاع أن يفعل ذلك؟ أكان شريكاً له هو من أشعل النار حينما اقتربنا من المبنى. إن في هذا خطراً عظيماً، بالتأكيد. إذن أكانت وسيلته أداة للاشتعال ذات توقيت لا بد أن هذا هو الجواب

انتهيت من ككاس الجمعة وبدأت أشعر بالنعاس صحوحت حينما حاء بالطعام. بطاطس مشوية بالطريق الفرنسية وسجق من لحم البقر، صب لنفسه مزيداً من الجمعة. وأكلت على صينية وضعها فوق ركبتني. كان من الواضح أنه شديد الجوع ولم يكن يشبه الكونت درايكولا في شيء، وهو حريص على سره المرعب وإنما بدا مثل رجل متعب أنهكتة سنواته الخمسون، اعتاد أن يقسو على نفس بشدة ولم يكن يهتم بأن يتناول وجبات من الطعام الجيد. وعرفت أن من وحيي أن أدلي بشكوكي إلى شخص ما - ربما إلى رئيس قسم اللغة الإنكليزية في جامعة لويديانا ولكنني كنت أعرف أنني لن أفعل هذا. لقد كان مصيبي، ولم يكن لي إلا أن أمل أن يقبض عليه في وقت قريب.

كانت الساعة قد قاربت التاسعة حينما انتهيت من تناول الطعام. ثم قلت:

"لقد كنت شديد المظف حقاً، ولكن لابد لي بالفعل من التفكير في العودة.."

كان يجمع الصبحون فوق صينية، قال بطريقة عابرة:

"ماذا؟ تر حل قبل ان ترى مخطوطة دويللي؟"

كنت عاجزاً عن تصديق أنني سمعت بطريقة سليمة، سألته: "مخطوطة؟"

"هذا هو ما حنت لأجله. اليس كذلك؟"

"أتملك حقاً شيئاً من مخطوطاته؟"

أوما براسه وهو يحمل الصينية ويخرج بها. وحينما عاد، أخرج مفتاحاً من جيبه.

وفتح الخزانة الخصرء في الركن. قال:

"ليست هذه اللصكرات للبشر، بالطبع."

كان هناك صندوق خشبي في القسء العلوي من الخزانة، وعلى الرف السفلي عدد من المطاريء المنمخة، تناول أحد تلك المطاريء وناولني إياه. كان يحتوي على ملف ضخء من الأوراق ربطت بخيط شمعي. كان الحط متميزاً شديد الخصوصية. ولكنه سهل القراءة إلى الدرجة الكافية.

"قالاوت. ٦ مارس. ١٧٨٧"

الرياح تفرق. الرياح الغربية تهب برفق فوق المياه، والدحان يتصاعد بهوء إلى سقف الحجرة. والبحارة يتناهبون بضجر على باب كل حانة من حانات الجعة. لقد غادري بيكمورد لكي ينهب للبحث عن سيدة قلبه فوق التل. وبقيت أنا هنا، يداعب النعاس جفوني وأنا في هذه الحالة من السكينة الهادئة، أرقب هتاتين شابتين، جميلتي التكوين، ترتديان برشافة أنواعاً جميلة من الثياب المحلية، وتسيران على حافة البحر. يا لتلك المخلوقات اللئيدة

الحبيدة! من الذي يستطيع أن يجادل فيما أكدء زوزيموس البانوبوليتاني^(١) من أن المرأة لم تثبت من نفس العنر الذي أثبت للرجل، وإنما خلقت للناس من كوكب آخر بعيد، ثم سمح لها بأن تعيش في كوكبنا هذا، كوكب الذكور، كما لو كانت خاطرة من حطرت الخيال! ألبست المرأة هي لغز الخلق الجليل، الحضور الرئي للسحر في هذا العالم المتحلل البيوطي^(٢)؟

قال جودوين أن أسقف كامباري الشهير كان أفضل وأكثر قيمة من خادمته، ولكني نسيت على استعداد لأن تبادل الجميلة الصغيرة التي شاركتني الفراش في الليلة الماضية بعشرة من الأساقفة. كانت القادة - التي تسمى كلارا - قد خدمتنا على العشاء ليلة الفصح، وقال بيكمفورد - الذي لا يروق لنوقه نوعها - أن للفتاة مؤخرة كمؤخرة الصبي. وقلت أنها مؤخرة مستديرة بأكثر مما يمكن لفتى، على الأقل. إذا كان لي أن أحكم بناء على العهد الصغير الذي كان يوسعي أن أراه حينما أحننت على المائدة لكي تصب البريد الذائب على قطعة اللحم أمامي. وحينما انزبت مني همست لها بأني على استعداد لأن أتنازل عن تاج ملكة في مقابل قبلة منها، فصحكت وأحمر وجهها. ولم أكن قد أوليتها إلا القليل من الاهتمام حتى تحلت بيكمفورد عنها. ولكن تركزت الآن الأفكاري عليها، وتسلل إله للتعبة الشتافة الصغير إلى صدري وجعل قلبي وسادة لراسه. في كل مرة كانت تدخل فيها إلى الحجرة كنت أنظر إليها كما لو كنت قد وقعت في الحب منذ برهة وجيزة. ومن المؤكد أنه لابد قد لاح لي أن الزواج بها ليس بالثمن الباهظ في مقابل أن أفضح مفاتها فحماً أكثر دقة. ورغم أنني أعتقد أنني أتمتع بقدر من صفات الأنودة أقل مما يتمتع به بيكمفورد.

(١) زوزيموس البانوبوليتاني، مؤرخ يوناني عاش تحت رعاية الإمبراطور ميو ديسيوس الثاني وألف عدداً من الكتب عن انهيار روما من سيطرة أوغسطس حتى عام ٢١٠م متجاهلاً الفترة من حكم بروبروس حتى عام ٢٠٢ م. لم يكن كتابه الأخير قد اكتمل حتى عام ٢٢٥م واعتمد في كتابته على مصادر مؤنوق بها مثل ثورجين ديكسيوس وثوبانيوس ولم يكن عمله يحلو من أحكامه التاريخية ولا من لحن الأسلوب، وإن لم تكن دقها في نثر التواريخ وكثيراً ما تناول عصوراً طويلة بطريقة عابرة.

(٢) البيوطي نسبة إلى "بيوطيا" مملكة مديسة لبرهة الإغريقية القديمة التي كانت مهمة رحلتها الأساسية هي الزراعة والحرب.

هائتي مدين لفضول بانديورا^(١) للهلك بقدر يستطيع أن يدفعني إلى تجاهل كل الاعتبارات الأخرى. وحينما اقرت مني لكي تعيد ملء سكاكي، ملدت ذراعي من حولها وسمحت ليدي بأن تستقر فوق فخذها، عارفاً بأنها إذا اعترضت على هذه الخطوة، فإسأ لن نتقدم إلى ما هو أبعد منها. ولكنها وقفت بهدوء، مثل جواد أحسن تدريبه. ثم دخل صاحب البيت بمزيد من خمر الليمون والسكر، وسحبت يدي. ولم تتج لي فرصة أخرى للاطفتها خلال تناول الطعام ولكنني عندما غادرت الحجرة، دسست في يديها جنبها ذهبياً، وهمست لها، "هذا لك يا عزيزتي. وهناك خمسة أخرى تنتظرك إذا أنت حنت إلى غرقتي حينما باوي بكل من بالبيت إلى فراشه". ولم تقل شيئاً وهي تخفض عيبيها، ولكنها أخذت النقود. وقال لي بيكفورد فيما بعد أنه قد اكتشف أنها متزوجة من صياد. وأني ربما أكون قد أضعت نقودي سدى. فأجيبته بأن النقود التي تعطى لفتاة حميلة لا تصبح أبداً سدى، إذا ما كانت فاضلة. لأن هذه النقود لابد أن تعتر قرباناً يقدم إلى أروبيت، التي سوف تعترف بهذه الصلاة وهذا الثناء. حينما بطيب لها، وفي أي وقت تشاء.

لم تمضي على مقولة بيكفورد بأني أضعت نقودي سوى عدة ساعات حتى تهدمت تماماً، وثبت بالدليل على خطأ تصور بيكفورد. لأن العروس الجميلة انزلت تحت عطاني في الساعة الثالثة من الصباح. بعد أن كنت قد تخلت عن كل أمل. ولم تنكسر علي شيئاً بعد ذلك. سالتها هامساً عما كان من أمر زوجها. فقالت أنه كان قد حرج مع أسطول الصيد وكانت ترتدي ثوباً فضفاضاً من التيل الخشن. سرعان ما رفعته إلى ما فوق رقبته. قبلتها ودعوتها بالكثير من الكلمات الرقيقة، لأنني ما كنت أبداً أطيع صرا مع الأصدقاء الذين يسلبون فتاة فضيلتها. ثم يعاملونها بعد ذلك كما لو كانت عملية السلب قد حرمتها من كل حق في التفسير والحيان بصاف إلى هذا. إنني عرفت أن الفتاة كانت هبة من هبات التربة التي ولدت من ريد البحر^(٢)، ونها تستحق فسماً من الصلوات الواحبة لقاء عطيتها

(١) بانديورا في الميثولوجيا اليونانية هي شبيهة هواء، أم البشر التي خلفها زيوس صمير لأنه طغى بفساد حياة الإنسان (الرجل) الذي خلفه بزمينوس بأن أرسل معها صياداً هدية لرجل وامرأته لا تمنحه ولكن فضولي (الذي زرعه فيها زيوس) لفتح صندوق هيفيست من حديد من الآلام وتعذب مع هرقة "الأمم" المصاة الوحيدة

(٢) هي "هينوس" أو "فروبيت" ربة الحب والجمال والروح في الميثولوجيا اليونانية التي خلفها زيوس من ريد البحر وخرجت من صخرة نونوة في البحر قرب قبرص

ثمينة. وهكذا فقد لاحظت أنبها بالكلمات الناعمة وبطرف لسانی، ثم سمحت لفصاحة هذا اللسان بأن تتحدث إلى نهديها. بل وبأن تتحدث حتى مع الجدران القטיפية للمعبد نفسه. وفي ذلك الحين، كانت تقصصات رديها تنطق بالرغبة. وحينذاك، نقلت لسانی إلى مستقر الصبح في قهها. وأخذتها بنعومة تسلل الرجل إلى فراشه (...). وظللت أقبل شعبيها كما لو كنت أعوض ما فات من عمر بأكملة من الإمساك والزهد. وقد صعب علي أن أصدق أن هذه الكاهنة البيضاء كاللبن كانت هي كلارا ذاتها التي صبت الدهن على قطعة اللحم للشوية أمامي ومنعتني لمة خاطفة من حلمتين لاحقاً لي وكانا نمتلكنا منذ لحظة وجبة وزعم أن رديها كانا ساكنين الآن. هذان الردهان اللذان كانا مستديرين بأكثر مما ينبغي لعلام. فقد ارتعش جوادي في داخلها، كما لو كان عاجزاً عن أن يصدق أنه آمن في داخل مثل هذا المسكن اللذيذ... ومضينا في رياضتنا حتى فبلج الصبح حينما غادرتني. رفقت في مكاني ورحلت أكر في المناقشة التي دارت بيني وبين بيكفورد في العربية بالأمس، حول الأسلوب الإعرابي في الحب أكثر روحانية وحلااً من ذلك النوع المعروف بين الرجال والنساء. وفي خلال طوفان إحصائي كان يوسي أن أتمنى لبيكفورد صحبة زوج كلارا! صياد السمك - علي أن يحملته معه في عرسته ذات الجياذ الأربعة. ولكن أما كان من الممكن مثل هذا. انلقاء أن يكون لقاء نافر العروق مشمعا بالنشوة. كما لو كان أصداد العرسان يتصادمون بحرب من اللحم! إن مثل هذا اللقاء قد يكون حراً من عالم سيد الشمس الذين العسلات. وليس جزءاً من عالم الماء السحري الأحصر الذي تحكمه ارتميس^(٣)

كنت أقرأ ناسياً وجود دويليلي وقد جعلتني ملاحظته عن أن هذا المحطوط لم يكن للنشر. جعلتني أهد ما شعرت به من توتر في إطار صديق. ولكنني شعرت بأني قد مرست مثل ذلك من قبل. في لحظات حرجة أخرى من حياتي (مثلاً حينما فانيست أو سيني في معرض أعمال دياحليم) كان شعوري أن يكون إحساساً بنكرار مشهد كنت قد حرته من قبل

(٣) هم هينوس (بولو) رب الشمس والشمس. عالمه الحساسيه والأسعد الكوس
رئيس ربة القمر. أميت هينوس أو لونيوس وسمه بروماني دياسا وهي ربة الصيد والعبادة المحللة بالتصايف.
عالمه هو الليل والتصايف. عذراء لينة لم تتج في أي حب رعه حملها

كان دونيللي قد عاد إلى زحاجة الشرب ورفضت الكأس التي عرضها علي منه. ولكنني قبلت ككوباً من جعة البادوايزر. وحينما بلغت نهاية المشهد، وضعت المخطوطة المجلدة على المائدة. سألته

- "كنت وافق تماماً من أنك لن تكون راعياً في بشر هذا المجلد؟"

- "أظن هنا."

قلت: "سيجعل هذا للوقف من المشروع كله مجرد هراء. يعني أنهم الآن ما عنيتهم من أن نسخة فليشر كانت من قبيل التزوير. ولكنني لا أتبين كيف استطيع أن أوصي فليشر بأن ينشر نسخته. سيكون هذا نوعاً من العبث."

- "وافقت على هذا؟"

- "أبست هناك فرصة للالتقاء في منتصف الطريق؟"

أشعل سيجاراً جديداً. قال:

- "ستغضب الأسرة للغاية إذا نشرت هذه الأوراق."

- "ولكنك قلت أنك لست على علاقة طبية بالأسرة."

- "كلا. لست على علاقة طبية بهم. ولكن لا أريد أن يكون هذا سبباً لإثارتهم."

لم استطع احتمال هذا للوقف، خاصة أنه جاء من نفس الرجل الذي أحرق مخزن شخص آخر منذ وقت قصير. ولكنني تمألت نفسي واستطعت جاهداً أن أغمر أسلوب معالجاتي للموقف، وسألته كيف وصلت الأوراق إلى حوزته. ولاح عليه أنه يفكر في الإجابة على السؤال اللحظية، ثم قال:

- "أجل، أعتقد أنه لا ضرر من إخبارك بهذا. حينما قام دونيللي بزيارة روسو في

نيوشاتل عام ١٧٦٥ - وكان دونيللي في نحو السابعة عشرة من عمره في ذلك الوقت - أهدى

إليه مقالا، مكتوباً بالفرنسية، يرفض فيه فلسفة هيوم 'ودالامبير' وقد ورد ذكر هذا اللقاء وما دار فيه، في كتاب جون مورلي عن "حياة روسو" وأصبح دونيللي وروسو صديقين، رغم فارق السن بينهما. ولكن روسو كان يحتاز في تلك الفترة مرحلة صعبة من حياته فقد كان كل القساوسة في نيوشاتل يملأون عطاتهم بالهجوم عليه، وجرى اتهامه بأنه سحر رجلاً كان قد مات بالنتسم الكحولي. وذات صباح، اكتشف دونيللي أن شخصاً ما قد وضع صخرة ضخمة على باب منزل روسو من الخارج في وضع متوازن بحيث تسقط فوقه لحظة حروجه. ومن المؤكد أن الصخرة لو سقطت عليه لقتلته وأراح إيرموند الصخره. وفي الليلة التالية نصب بنفسه الفخ القاتل خارج منزل الحداد - الذي كان عدواً بارزاً لروسو. وكان أيضاً الرجل الوحيد الذي تسمح له قوته العصبية بأن يرفع الصخرة فيصعها في مكانها الأول دون معوية من أحد. وحطمت الصخرة ذراع الحداد وعظم ترقوته. ولكن هذا الأمر لم يكن ذا جدوى بالنسبة لروسو السكين ومن كل الوجوه، فقد كان عليه أن يغادر البلدة على أي حال - وكان الناس قد وصلوا إلى مرحلة فقهه بالأحجار في الشوارع. وبعد ذلك بعامين، حينما كان روسو يعيش في لندن مكثيف على ديميد هيوم، سأله دونيللي عما كان من أمر مخطوطته، فقال روسو أنه ترك مخطوطة المقال وراءه في باريس، وأنه سيعيدها حينما يعود إلى هناك. ولكنه لم يفعل ذلك أبداً.

"وقد حلت بعد الحرب بفترة قصيرة، إن كنت مقبماً في مدينة لوران وتعرفت ببائع كتب يدعى كلوزو كان له عمل ما في نيوشاتل وأحرقته - بقصة مخطوطة مقال دونيللي فقال لي أنه قد يكون قادراً على مساعدتي وبعد ستة شهور، كتب إلي خطاباً وعرض علي أن يبيعني المخطوطة - بسعر معتدل إلى حد كبير - وهذا ما ينبغي علي أن أضيفه هنا. وأظن أنه عثر عليه في منزل الرجل الذي كان روسو قد استأجر منه منزله، في

(١) ديميد هيوم ١٧١١ - ١٧٧٦ - فيلسوف اسكتلندي ومؤرخ مؤسس لمزعة الوصية التجريبية في الفلسفة الحديثة.

عرف عنه تقديده للمعرفة الإنسانية بممارسة التجربة والانتطاعات ممارسة حربية وهربية، وكان ذا تأثير بالغ الخطورة في تفكير نيتشه بريكي الحديث

(٢) جان لوروند دالامبير ١٧١٧ - ١٧٨٣ - عالم رياضي وفيلسوف فرنسي، شارك مع ديدرو في تحرير "نشرة المعارف"

وكان من مؤسسي المزعة اللادينية لعلمية الحديثة، للمعمدة بالفهم التاريخي والجنلي لحركة الكون وللجتمتع

صديق قديمه للأشياء المهمة والمتألعة وقد عثر أيضاً هناك على مكراسة لتذكرات الرحلات كان دونبيلي قد كتبها.

"وبعد ذلك بعدة سنوات، كتب إلي كلورو ليسألني إن كنت ما أزال مهتما بمخطوطات دونبيلي. وكان قد عثر بالصدفة على مخطوطة أخرى في جنيف. وكنت أعرف أن إيرمويد قد استأجر منزلاً في جنيف فأمضى هناك الجانب الأكبر من العشرين عاماً الأخيرة من حياته. ولكنه كان قد انتقل عائداً إلى إيرلندا قبل عام واحد من موته في عام ١٨٣٠، وأحد معه معظم ممتلكاته الشخصية. وليست لدي أية فكرة عن كيفية تركه لهذه المخطوطة بالذات في جنيف عند رحيله عنها. رغم أنني أملك بالفعل نظرية لتفسير هذه الواقعة قد تكون على شيء من الأهمية. كان بايرون قد راز إيرمويد في جنيف. وكان قد التقى به عن طريق شربدان وبعد هذه الزيارة ببضعة أسابيع، كان بايرون يكتب لصديقه "جوب هاور" من مدينة سيرا الإيطالية، ويقول له أنه يقرأ الآن "كثير المخطوطات التي راها عهراً وتنبهت بقله إيرمويد العجوز". وأنا افترض أن "إيرمويد" المذكور في رسالة بايرون كان هو دونبيلي. وفي هذه الحالة، يكون بايرون قد استعار المخطوطة من إيرمويد دونبيلي ونسي أن يعيدها".

كان علي أن أعجب بالطريقة الحاذقة التي روى بها دونبيلي قصته. ورغم أنه كان قد شرب معظم رجايته الثانية من الشراب، فقد كان يتحدث ويتناقش مثل كاهن محترف يتناقش في موضوع بحث الجسد والروح بعد الموت.

ولكن الشيء الغريب هو أنني كنت قد بدأت أشعر فجأة باللامبالاة الكاملة بالموضوع كله. وقد أقول أنني رفضت أن تكون لدونبيلي مثل هذه السيطرة علي. وكنت بالفعل قد قررت أن أعيد إلى هليشر مبلغ الخمسة آلاف دولار وأن ألقى الموضوع كله. وهكذا لم أهتم أبداً اهتمام بما إذا كان من الممكن اقتناء دونبيلي بأن يغير رأيه أم لا. وحالاً قررت ذلك لم أعد أهتم. شعرت بالحرية واللامبالاة. وقررت أنه مهما حدث، فإني سأرحل عن هذا المكان في خلال نصف ساعة فأعود إلى هيلفي الصغير. سألت دونبيلي عن كيفية بذمة اهتمامه بحده الأول فقال إنه كان قد اكتشف مذكرات الرحلات المنشورة في بيت الأسرة في بالي كاهان سألته كم من السنوات من عمره قصاها هناك.

"سنوات قليلة جداً. لقد انتقلنا إلى دبلين حينما كنت في الخامسة من عمري. ورحلنا إلى اللابيو وأنا في التاسعة".

"هل فكرت في كتابة يوميات لرحلاتك؟"

طرحنا هذا السؤال من دون أدنى اهتمام حقيقي. فقد كان السؤال ليجرد شغل الوقت بأي شيء، مهما يكن، وكانت النتيجة ضوفاً من البوح والكشف عن الذات لا يكاد يصدق.

قال وهو يتنفس بصعوبة:

"لم أداوم أبداً على كتابة يومياتي، لأنه كان هناك الكثير جداً من الأشياء التي لم أحرز أبداً على تسجيلها".

"ولكن هذا السبب لم يمنع إيرمويد من كتابة يومياته".

ابتسم ابتسامة غريبة، معتصبة وقال:

"كانت حياة إيرمويد الجنسية من النوع الذي كان يوسع أن يكتب عنه. أما حياتي أنا الجنسية فلبست كذلك".

طسبت أنه كان يشير إلى إحراق محرر القش أو مات بتعاطف وقلت أنني أدر كنت ما يعنيه وفهمته. فقال بنوع من التحايل الذاتي المحمد:

"أشك في أنك قد فهمت ما عنيته تماماً حينما كنت في الثامنة من عمري. كانت لدينا مربية اعتادت أن تضربنا على مؤخرتنا وأن تعت بآعضائنا الجنسية".

"من تعني بصيغة الجمع هذه؟"

"أخي إيرمويد، وأنا. وكان إيرمويد يكرسي عام واحد. كانت هذه الممثلة اسكتلندية من مدينة كلاسكو. واحدة من أولئك الخادمت دوت الأحساد الصالحة والصحة الجيدة. لقد أحبها كل منا إلى حد العبادة منذ اللحظة التي رأيناها فيها. كنا نستمعها أينما ذهبت مثل كلاب الراعي وذات يوم كنا نجري ويطارد أحداً الآخر حول مائدة وضعت فوقها مزهرية من اليورسلين الثمين. ووهفت المزهرية وتحطمت. وكان والدنا

بالخارج. ورجونا بريدجيت ألا تخبرهما بالأمر. فوافقت على أن تقوم بإحفاء الشظايا. ولكن بشرط أن تعاقبها هي بنفسها. فابتهنا كلانا. لهذه الفكرة. فأمرتنا بأن نصعد إلى حجرنا وأن يطلع كل منا بطلونه. وحينما عادت بأعضا كنا عاريين بالمعمل جلست على السرير وأمرت كلانا بما بأن يحكي على ركبتيها. ثم صربت كلانا ما عشر صربات رديفة.

- "هل أشارك هذا حسياً؟"

- "كيس بصورة حقيقية. على الأقل له ثنرني العقوبة البدنية. أما ما أثارني فهو كوكبي عارياً أضغط بجسدي على ركبتيها."

لن أحاول أن أسجل هنا بقية قصته بكلماته نفسها. لأنه راح يرد كل التفاصيل للصغرى التي لم تكن ذات أهمية حقيقية. وكان ما قاله. أنه وأخيه اتفقا على أنهما استمتعا كثيراً بذلك العقاب. وأنهما قررا أن تبقى تعاقبهما بريدجيت لمرات عديدة. ولذا عندما انفردا معها في المنزل في المناسبة التالية. تمعنا أن يكسرا شيئاً ما. ثم قاما بنفس العملية بكاملها مرة أخرى. كان هذا في عام ١٩٢٨ - عصر الملابس القصيرة. فكان يستطيع أن يضغط بعضوه التناسلي على ركبتيها أثناء ضربها له. وقال أن إحساسه بهذا الوضع كان بالغ الحد للرجة أنه كان يغشى عليه بعدها. وفي هذه المرة. رأت بريدجيت أن عضوه كان منتصباً وهو يبتعد عنها. فملت يدها إلى أسفل ولسته. وقال دونيلي. أنه منذ تلك اللحظة. لم يكن يفكر - هو وأخوه - في أي شيء آخر إلا في كيفية إقناعها بصريهما مرة أخرى وبعد أسبوع أو بحود. لم يعد من الضروري أن يحظما شيئاً لكي يبالا منها ما يربدان من الضربات فحالما كانوا يسفردون في المنزل. كان - هو وأخوه - يقترح أن يلعبوا لعبة المدرسة. فنقوم هي بدور المدرسة. ويحبسان على أسنلتهما إجابات حاطنة عامدين. فثامرهما بعد قليل بالتوجه إلى غرفتهما وهناك يخلعان ملابسهما. ويقومون جميعاً بالاستعراض كاملاً مرة بعد أخرى...

وبتمت هذه المرحلة حينما بلغا التاسعة. فقد نقل والدة إلى الملايو. حيث كان يعمل ممبراً لأحد مجامع الصميج. وحينما كانوا بعيداً عن بككترنا سمعوا بأن بريدجيت قد تزوجت. فغمرهما البأس. وكان كل منهما قد راهن الآخر على أنه سوف يتزوجها عندما يكبر.

بعد ذلك بعامين. كما قد بسيا ذكرى بريدجيت أو كادا. وفي أحد الأيام. سألتهما وألتتهما عن رأيهما فيما إذا جاءت بريدجيت لكي ترعاهما مرة أخرى. كان زوجها قد تركها. وكانت هي تريد أن تباعد عن اسكتلندا. ولحققت الفتاة بهم حينما كانوا يقصون إحدى إجازاتهم في لندن. ثم عادت معهم إلى الملايو. وقال دونيلي أن جسدها كان قد اردد صحامة ونقلأ. وأن كلأ منهما قد وجدها أكثر جاذبية مما كانت من قبل. وحالما اتبحت الفرصة للانفراد بها في المنزل. سألها شقيقه إن كان ستضربهما إن أساءا سلوكهما فقالت "بالطبع" وقال دونيلي أنهما اهتزأ من البهجة لهذه الإجابة

وطوال الأسابيع الأولى بعد عودتهم إلى الملايو. لم يحدث شيء. فقد كان ليههم خدم من الأهالي. وخشيت هي أن تبذل نفسها أمامهم. ولكن الطقس الحار ولافتقار إلى التنفيس الجنسي سرعان ما جعلها تصرف النظر عن حرصها

كان الرجال من الأهالي يتجولون عراة تقريباً فزعمت أن تنسنتها كانت تنشئة دينية وأنها تشعر بأن هذا الوضع يصدم مشاعرهما وكان الصبيان يستمتعان بإغاضتها وأحياناً بـ "فرصها" فكانت تصفعهما. وكان يوسعهما أن يشعرأ من تزايد قوة الصربات أنها كانت متنفساً لشيء آخر إلى جانب الضيق. وحدث أن رأتها عاريين ذات ليلة بعد الاستحمام. فصدت عنها ملاحظة عن تطور عضو دونيلي الجنسي. وثار غيرة ليرموند. وفي تلك الليلة. تعارك هو وشقيقه عراكاً مريعاً. انتهى بكدمات سوداء في عيني كل منهما

وذاة يوم. ضبطتهما مختبئين في كوخ في الحديقة بدخان السجائر. وقالت لهما أنها سوف تعاقبهما على الفور. وكان هذا هو ما ينتظرانه منذ زمن طويل. وكان من المستحيل عملياً أن يخلعا كل ملابسهما. فانزلا بطلوبهما فقط وصغطا نفسيهما على ركبتيها. وقال أنه حينما انتهت هي من "العقوبة" إن كل منهم قد احمر وجهه وراح يتنفس بصعوبة. وكان هو واثقاً من أنها قد بلغت ذروة نشوتها (رغم أنه بالطبع لم يدرك هذا في ذلك الوقت).

وبعد ذلك بعدة أيام. صادف أن اصطليحت والدته شقيقه ليرموند إلى البلدة القريبة لتشتري له بعض الملابس. فصعد هو إلى حجرة بريدجيت ووجدها خالصة. ففتح خزانة ملابسها. وعثر على الثوب الذي اعتادت أن ترتديه حينما كانت تضربهما في دبلين. وهو ثوب بني اللون صنع من مادة صلبة. خلع ملابسها كلها. وهرد الثوب على المرائش. ورفد

هواؤه، وراح يتنعم رثحته للتميز. وهجأة سمع صفعة الباب، وعرف صوت خطوات بريدجيت في الطابق السفلي ونهبت هي عبر المنزل إلى المطبخ. وأراد هو أن تراه رافداً فوق نوبها، فقلب شيئاً ما واسقطه على الأرض بصوت مرتفع. هتفت: "من هناك؟" ثم صعدت إلى الطابق العلوي. تظاهر بأنه نائم، وفتح عينيه متظاهراً بأنه حافل، أمامها وهي تحديق فيه. وكانت في حالة شلبد من الصيق كونه عبت بخزامة ملابسها، ونظراً إلى ما بداخله. وقالت: "سيكون علي أن أعاقبك - قم" وحتى قبل أن ينحني فوق ركبتها كان عضوه قد انتصب. ولكنها تظاهرت بأنها لم تلاحظ ذلك. التقطت هرشاة شعرها وأمرته بأن ينحني فوق ركبتها. وفي هذه المرة، لاحظ أن ركبتها كانتا متباعدين أكثر من المعتاد، وأنه عن طريق الضغط بجدر على أعلى نوبها، يستطيع أن يجعل النوب يرتفع إلى هخلها. وحاول أن يحديق إلى أعلى ساقها، ولكنهما كانا يواجهان الباب، وله بكس هناك ما يكفي من الضوء. وهجأة هنت.

"هذا المكان ليس مرتفعاً بما يكفي. تحرك حول الفراش، إلى الجانب الآخر".

ثم انتقلت إلى حافة الفراش الأخرى - للواجهة للنافذة. انحنى فوقها مرة أخرى، ودون مقدمات جذب نوبها إلى أعلى. وفتحت هي ركبتها أكثر، ورفعت إحداها مسندة إياها على مسند للأقدام. واستطاع أن يرى كل شيء، إلى قمة فخذيها. كانت ترتدي سروالاً داخلياً غير محكم له فتحات سيقان واسعتان. ومع انفراج ساقها لم يكن "حجر" السروال يغطي شيئاً. وبدأ يحرك عضوه المنتصب على ركبتها وهي تضربه. ثم غيرت وضعها، وبدأت يدها الأخرى تحنك بعضوه، ثم أطبقت يدها حوله ببطء. وهجأة بدأت تضربه بغضب، وتخط بكل ما تملك من قوة، وفي نفس الوقت شعر بلذة حادة بين خنثيه جعلته يشعر كما لو كان سيخشي عليه. وكاد يسقط بين ساقها، بينما استمرت هي تضربه. وأخيراً ارتجعت وألقت بهرشاة الشعر. قالت: "أوه. لقد جعلتني أشعر بالمرض"، ثم رفدت على ظهرها فوق الفراش، وقد أغمضت عينها. ورافد هو الآخر على الفراش. وقال أنهما كانا مجننين، ولم يحدث شيء آخر في ذلك اليوم. وحينما سمعا صوت الأم، وقد عادت إلى المنزل، أسرع إلى حمبرته. وقال لشقيقه فيما بعد: "سوف أتزوج بريدجيت وأجعلها تضربني كل يوم".

استمر هذا الوضع طوال سنوات ثلاث، وفي خلال هذه الفترة، خطبت بريدجيت إلى مهندس من مهلهسي الناجم، وبدأت تمارس معه الجنس بصورة طبيعية. ولكنها ظلت تؤجل رواجها منه لأنها قالت أن مسر دونيلي لن تستطيع أن تسريح دون معونتها في المنزل. ولكن السبب الحقيقي هو أنها أرادت أن تظل قريبة من الشقيقين وأن تستمر في عمليات الصرب. وأخيراً، فاز للمهندس، فترزوجه. وانتقلت معه إلى أمريكا الجنوبية.

ولمدة أسبوع أو نحوه، شعر الشقيقان بالوحدة، وبأنهما مهجوران. ثم حدث ذات يوم أن قال إيرموند: "تظاهر أنت بأنك بريدجيت" ورافد على وجهه وفق السرير. وراح أخوه بضربه بعزام جلدي. وبلغ إيرموند نشوته. وبعد ذلك، تسلم إيرموند الحرام، وتخليل دونيلي أن بريدجيت هي التي تضربه، وبلغ نشوته هو الآخر.

وحينما عادت الأسرة إلى إنكلترا، وكان دونيلي في الرابعة عشرة، أرسل هو وأخوه إلى مدرسة عامة صغيرة. وأصبح دونيلي تابعاً لأحد التلاميذ الصفار FUG (حسب الأوضاع التي كانت سائدة في المدارس الإنكليزية)، أما إيرموند، الذي كان يكبره بعام فلم يصبح تابعاً. ولم يكن دونيلي تابعاً مرضياً حتى إنه كان يستمتع بأن يضرب مرة كل أسبوع. وذات يوم، وبعد أن ضربه التلميذ للكلف يحفظ النظام، جعله هذا التلميذ يخلع بنطلونه ثم اغتصبه. ولما كانت مؤخرته ما تزال تؤله من الضرب، فإن التجربة كانت مؤلمة للأزدوجاً، واستمتع بها دونيلي استمتاعاً يفوق كل متعة شعر بها من قبل. ولكنه اكتشف أن اللواط دون الضرب المصاحب للعملية، لم يعطه أية لذة.

وليس من الضروري هنا أن أقول أنني لم أرحل بعد نصف الساعة الذي كنت قد حددته لنفسي. بل أنني قبلت مزيداً من الشرب. وظل دونيلي يتحنك ويتحدث، شارحاً بالتفصيل كل تجاربه في كل مبعي زاره في أرجاء العالم. وكان الرجل مصاباً بالكثير من العاهات النفسية والكوابح والثوابت حتى أن الأمر لبتطلب عشرين صفحة أخرى لسردها هنا بالتفصيل - مكان متعلقاً بشعر النساء، وأحنية النساء الجلدية الرقيقة، وقمصان التنس، أحنية للطر ذات العنق الطويل وللمصنوعة من المطاط والمعاطف الواقية من المطر، والبنادق، والسيات، والعصي. وشغرت الخلافة.. وفي حوالي منتصف الليل، أطلعتني على مجموعته من البنادق، والصور الفاضحة، والسيات والعصي. وناولني سوطاً مصنوعاً من تسعة من ذبول

القطط وسألني أن أحرره. فرفعت بالسوط في الهواء، فاعصر عينيه كما لو كان يصفي إلى موسيقى ممتعة. ثم قال بلهجة حائلة:

• "تحب أن تستخدمه؟"

• "على جسدك أنت؟" سكنت قد حميت أن هذا هو ما يسعى إليه.

• "أجل"

• "كلا. سأشعر بالبلاهة"

قبض على ذراعي وقال:

• "حتى ولا في مقابل الخطوطة؟"

• "تسمح لي بأخذها في هذه الحالة؟"

• "يمكنك أن تنسخها ثم تعيدها إلي"

• "وهو كذلك"

أصبح صوته نوعاً من "التحنحة" وهو يقول:

• "تعال إلى الداخل. هناك"

دخلنا الحجرة الأخرى. لم يكن هناك شيء سوى سرير ضخم، من طراز قديم، لشخصين، مزود بوسادة كبيرة لاحت لي غير مريحة كما لو كانت لوحاً من الخشب. وفي كل ركن من أركان الحجرة علفت أحزمة جلدية تنتهي إلى قابضات يمكن أن تمسك بالأيدي.

خلع ملابسه ببطء، ودون ما علامة توحى بالحرج. لاحظت أن الستائر على النوافذ كانت ثقيلة جداً. وعرفت الآن السبب الذي جعل دوسيللي يشعر بالسعادة للتخلص من عمال مزرعته. فهي مبنى خشبي من هذا النوع. كان صوت الصربيات حتماً سيسمع ومن مساهمة بعيدة، وخاصة في الليالي الجنوبية الساكنة، حيث يمكن أن يسمع صوت مكروان صغير على بعد ميل كامل

راقد على الفراش عارياً، ووجهه إلى أسفل، ونظرت إليه نظرة مباشرة طويلة لأول مرة منذ دخولنا هذه الحجرة. كان ظهره، وورقاده، وفخذه تحمل أكثر قليلاً من مجرد آثار ولباس السباط. بدا جلد في هذه الأجزاء، كما لو كان طريفاً عطاه الصفيح ثم مرت عليه ست عربات جيئة وذهاباً عدة مرات. وكان من الدهش أن يستطيع أن يشعر بشيء ما تحت كل هذه الندوب القديمة، ذات الجلد اللين.

كان علي أن أحكم القوامض فوق معصميه. ثم فوق كاحليه. وأن أشد الأحزمة الجلدية شداً محكماً حتى يتمدد جسده تماماً في البداية تركبت الأحزمة الجلدية دون إحكام، ولكنه صرخ بي نافذ الصبر "أكثر إحكاماً" وبعد ذلك، أدار وجهه ناحيتي فمضض العين تحشرج صوته وهو يقول: "الآن"

سكنت أعرف أنه لا فائدة من الزاجع. وكان ما تسألته عنه في داخلي هو ما إذا كان باستطاعتي أن استمر في صبره حتى أحمله بسألني أن اكف مكتفياً بما ناله من الضربات وهكذا رفعت الشيء الذي أعطاني إياد فوق رأسي. وكانت له قدرة فائقة على الارتداد والتلوي. ثم هويت عليه بأقصى ما أملكه من القوة. أصدر السوط هسباً مثل صاروخ ينطلق ودهشت حينما رأيت العلامة الحمراء العميقة التي صنعها على ظهر الرجل تردت للحظة، فقال من بين أسنانه اللطيفة: "استمر، استمر. لا تنوقف"

وهكذا، وقد تذكرت نصيبي من الصفقة، هويت مرّة أخرى عليه بكل قوتي. ونو أنني كنت أنوي إيذاءه لكان هذا مستحبلاً بالنسبة لي. ولكن كان من الواضح أنه يحصل على أكثر ما يمكن من البهجة للريجة المشوطة من هذا الصرب. انزعجت حينما بدا الدم يتصبب من الفتحات التي تركها السوط. كما بدلت قطرات الدم تصببي في وجهي مع طرف السوط كلما رفعتني إلى أعلى. ولكنني كلما توقفت كان يصيح في أذني: "أرحوك". وعند لحظة معينة قال "كف". وطنت أنه قد بال كفايته. ولكنه قال: "والآن. العصا". وكان علي أن أبحت عن عصا مروعة لشرطي معطاة بالجلد. وأن أصربه بها على رقبته وساقيه وفي البداية، حاولت أن أحملها "تفرقع" بأن أصرب بكل ما أملك من القوة. وكانت ذراعي قد بدت تكل. ولكن هذا لم يؤد إلى أي اختلاف فإني قد تحيت فقط وبعد عشر دقائق، جلست متهاوياً على مقعد خشبي وقلت:

• "لا فائدة. يجب أن استريح"

ورقد هو في مكانه ساكناً، وتبينت أنه كان قد فقد الوعي وحاولت أن أهرده من كتمته، ولكن أجماعه لم تصدر أية حركة. وسررت عندما رأيت أنه ما زال يتنفس فهو أنه مات. لكن من الصعب علي أن أفسر موقعي بالنسبة لكنت لأفعل ما فعلته في سبيل قصة الأدب

عدت إلى الحجرة الأخرى وصبيت لنفسي قدحاً من الميرد. ثم ذهبت فأحلت مفتاح الحرفة من جيب ينطويه وفتحت الحرفة. لم أجد أي شيء ذا أهمية يتعلق بدونيللي الكبير. سوى بعض الظاريف التي لا تحتوي إلا على بعض الحطابات والأوراق المختلفة. كان هناك صندوق في الجزء العلوي من الحرفة، أحلته وبطرت ما فيه. أنشأ صليب أحمر على أحد جوانبه إلى أنه صندوق للمواد الطبية، وعند النظرة الأولى أكتلت محتويات تلك الإشارة لفافات كبيرة من الصمادات. وعلبة معدنية تحتوي على شرطة لاحقة معقمة، وزجاجات من المواد المعقمة والخففة. خطرت في ذهني فكرة أنه إذا استطاع دونيللي أن يحصل على من بصريه مرة واحدة كل عام فقط، لكان في حاجة إلى مخزون كبير من الصمادات والمواد المعقمة. وحينما فحصت الصندوق بمزيد من الدقة. لاحظت أن هناك بعض الأشياء التي لم يتضح لي الغرض من وجودها بشكل هوري. كان هناك عدد من الأنابيب الخضراء، وقد أنصق عند كل من أطرافها عطاء، مستدير صغير نذلت منه أسلاك تعرفت عليها أنا نفسي باعتبارها فتائل تفجير. ثم كانت هناك راحة من مسحوق بني اللون خشنة لقوام فحصت أحد الأنابيب، وكان مصوغاً من البلاستيك. ذا عطاء من البلاستيك عند كل من طرفيه ويمكن تحريكه. نزعنا العطاءين. وحاولت أن أنظر من أحد أطرافه فكانتظر في التيسكوب. ولكنه كان مسدوداً عند منتصفه من الداخل. كان الأنبوب مقسماً إلى جزئين تحت ضوء الصباح المعلق في السقف. لاح لي أن السدادة التي تقسم الأنبوب كانت مصنوعة من العنق

فتحت راحة السحوق وشملت ما فيها. كانت لها رائحة متميزة. ولكن لم أعرف عليها. تناولت راحة أخرى تحتوي على سائل أصفر. وأرحت عطاءها الرخاوي. تعرفت على هذه الرائحة حين تذكرتها في أيام مدرستي. حامض مر كبر. إما أن يكون حامض لهيدروكلوريك أو حامض نيتريك. عثرت في المطبخ على وعاء صغير يستخدم لتقديم الفيتلات. وبطرت إلى دونيللي في عرقته حين مررت على بابها. فصببت كمية ضئيلة من

سحوق البني في الوعاء. ثم صببت بحدس كمية ضئيلة من الحامض في الجانب الآخر من الوعاء نفسه. حتى تكونت منه بحيرة صغيرة رفعت جانب الوعاء بحدس حتى سال الحامض عذره. وحالاً التقى الحامض بالسحوق، حدث تفاعل عنيف بصوت قوي. وقفزت أنا إلى الحنف تباثر شيء ما على وجهي في قطرات صغيرة، وحرق مكانه اندفعت إلى المطبخ وندعكت وجهي بقطعة مبللة من القماش. وكان الدخان ما يزال يتصاعد في الجانب الآخر للحجرة ويسدق إلى الممر الموصل للمطبخ. وكان السحوق في الوعاء ما يزال يطفئ ويصدر حميماً مسموعاً. وتطلق منه شرارات ملتهبة. فتحت الباب الأمامي للمنزل. ثم مددت يدي بحدس إلى الوعاء. وحينما لمستته انشقت إلى نصفين ولكن التفاعل كان قد انتهى وتوقف انصوت. وحسنت قد استخديت كمية ضئيلة للغاية من السحوق. وصغت بصفي الوعاء في سحبة قديمة. وأخذتهما إلى الخارج. كانا ما يزالان ساخين جداً للدرجة أن أوراقنا صلبة اسودت وتعلقت. وتطلب تنقية هواء الحجرة من الدخان أكثر من عشر دقائق بعد أن تركت الباب مفتوحاً.

وهكذا حلت مشكلة حريق مخزن القش. وكانت الطريق بسيطة وتبينت نوعاً من الحذر. ولكن كان للفروص أن يوضع للسحوق البني في أحد قسمي الأنبوب. ثم يحمل الحامض إلى موقع الحريق في زجاجة صغيرة. وكانت هناك زجاجات صغيرة كثيرة في الصندوق. ثم يفرغ الحامض هناك بعناية في النصف الآخر من الأنبوب. على أن يصنع نفث صغير في غطاء هذا النصف لكي يسمح للهيدروجين المتصاعد من الحامض بالخروج. وبعد ذلك يوضع الأنبوب بحرص على طرف الجزء المحتوي على السحوق. لكي يظل الجزء المحتوي على الحامض مرتفعاً إلى أعلى. في وسط الحظيرة أو مخزن القش. ومن المفترض أن دونيللي كان يعرف بالتحديد الوقت اللازم لكي يأكل الحامض الحاجر المعدني الفاصل بين جزئي الأنبوب. وإذا خفف الحامض قليلاً لا يمكن أن تستغرق عملية التآكل ما يقرب من أربع وعشرين ساعة. وربما كان قد وضع قبيلة الحامض الصغيرة في مخزن القش في الساعات المظلمة الماسكرة من صباح يوم الأحد. فلا عجب إن بدا عليه تسرور وهو يراقب النار. فقد كانت الميزان انتصاراً للتوفيق الذهني

اعدت الصندوق للحرفة. إلى جانب الأوراق الأخرى. ثم أعلقناها. وأعدت المفتاح إلى جيب ينطول دونيللي. تملكني شعور قوي بأن علي حل مشكلة دونيللي الأخلاقية مع

تهوسه بإشغال الحرائق عن طريق صنع واحدة من قنابله الحمضية. وارتكها في الحديقة وسط الأوراق. حتى يمكن تدمير مخزن سلاحه السري. ولكن مثل هذه القنبلة يمكن أن تحرق المنزل دونيللي في داخله. وربما كان في هذا نوع من العدالة الشعرية التي تحلت عنها أرسطو. ولكنها ستكون عدالة فاسية فسوة لا ضرورة لها (إم أنه قد يستمتع بها).

غضبت دونيللي المرشد بأغطية الفراش. ولكنني تركته مربوطاً إلى أركان السرير. فإني إذ كنت أنوي أن أنام في هذا المنزل. فإني جدير بأن أفضل الشعور بأمان. وكانت مجموعته من البنادق والشفرات للأصية تصيبني بالتوتر بعد ذلك أغلقت الباب ونمت على السرير الصغير وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي. ذهبت إلى حجرة دونيللي. فوجدته نائماً. كان تنفسه منتظماً. حللت القوابض عن ساعديه وكاحليه. فقلب وأن وعندما كانت الساعة السادسة وال نصف. كنت أسير متجهاً إلى البلدة. عثرت على مقهى على جانب الطريق مفتوحاً. فأكملت ببطء مقلباً. ولحم خنزير. وجنود خضروات طازجة. ثم اتصلت بسيارة الأجرة التي جاءت بي إلى هنا. وفي الساعة الثامنة كنت قد عدت إلى الفندق الصغير. وكتبت أكثر هذه الملاحظات قبل أن أعاد الضيق لكي الحق بطائرتي بعد الظهر. وقد أرسلت بالبريد محظوظة دونيللي إلى ديانا. حتى يمكنها أن تنسخها بالآلة الكاتبة قبل أن نظير إلى "شانون" يوم الخميس وإذا وضعت في اعتباري كمية ما شربته من الكحول في الليلة واليوم السابقين. فإني أشعر بأنني في حالة جيدة إلى درجة ملحوظة

- ٦ -

٢٢ إبريل. دالاس. تكساس.

□ وجلتني اتساءل هذا الصباح. عن السبب الذي جعلني أحصل على متعة من نوع معين من خلال ضرب دونيللي. وهل هناك مركب سادي خفي في داخلي. لمسة من شخصية "أوستيه"؟ ولكن. خطرت الإجابة على ذهني بعد محاضرتي هذا الصباح. هبشك عريب. تقدم عاهات دونيللي دللاً على حرية روح الإنسان. الحيوانات كلها تجعل من الألم وتنكمص أمامه. أما دونيللي فقد "حصل" عامداً على الموقف المعاكس. لقد اختار الموقف الذي يقول بأنه ينبغي أن تكون للألم قيمة. وقد جعل هو من الألم قيمة. شيئاً يستمتع هو به. أنا

- ٨٢ -

أعرف أن هذا التفسير يقوم على أفكار من نوع معين. وما إلى ذلك. مثل بريدجيت والجنس والألم. ولكن هذا لا يؤدي إلى أي اختلاف. فإذا استطاع رجل أن يختار ممارسته للمتعة عن طريق الصرب. فإنه يستطيع أن يختار ممارسة النشوة الصوفية لمرأى شجرة أو ورقة ساقطة من شجرة. إنه ليس بالضرورة صحية عواطفه المتقلبة أو احتياجاته الجنسية و"هذا" هو السبب الذي جعلني غير قادر على خيانتته إليه بشكل مشود. يحمل سمة من سمات القنبيس إنه فليس لا هدف له ولا غاية.

في يوم الجمعة. الخامس والعشرين من إبريل طرنا عائدين إلى لندن. ولم يعد لدي المزيد من الوقت لكتابة فقرات طويلة من المذكرات. لأسباب سوف تتضح فيما بعد.

كان في نيتنا أن نعود عن طريق البحر ولكن العجز الأدبي. الذي جسده إيزموند دونيللي جعلني أتعجل العودة. كنت أخشى أن يصل باحث آخر إلى "بالي كاهان" قبل وصولي أنا إلى هناك. ولكنني أردت أن أمضي يوماً في مكتبة التحف البريطانية. لكي أبحث عما يمكنني العثور عليه عن دونيللي. وقبل مغادرتنا "نيوهاوس" (حيث كانت ديانا تقيم مع بعض الأصدقاء) كانت محظوظة دونيللي قد أعيدت إلى "دينهام سبرينغر" عن طريق البريد المسجل. وكانت ديانا قد نسخت منها نسختين وكانت رحلتي بالطائرة من كينغدي إلى لندن هي فرصتي الأولى لدراسة المخطوطة.

كانت المخطوطة قصيرة بشكل فظيع. ولم أكن قد تبينت حين أطلعني عليها فكونونيل دونيللي. أن المخطوطة كانت تحتوي على مقالة دونيللي عن "رفض نظريات الدكتور هيوم". مع بعض الإشارات إلى "المجادلات الأولية" التي كتبها "دالامير". وكنت قد افترضت أن دونيللي قد اشترى المخطوطة وقد ضمت أجزاءها وألصقت بعضها إلى البعض. ولكن اتضح أن الأمر لم يكن على هذا النحو. كان "الرفض" يقع في نحو ثلاثين صفحة أما مذكرات دونيللي فلم تزد على العشرين.

كان أكثر ما أثارني من جانب إيزموند دونيللي هو حداثة عقله. كانت اللغة هي لغة والبول^(١) أو كراي^(٢). أما الفكر فكان دائماً أكثر قرباً من غوته أو حتى ولبهام بليك

(١) هورس والبول (١٧٧٧-١٧٩٧) اللورد الرابع لارفورد سياسي وكتائب إنكليزي مشهور بروايته "قلعة لوتورمنو" عام ١٧٦٤ التي تعد نموذجاً للرواية القوطية
(٢) توماس كراي ١٧٦٠-١٧٩٧ شاعر إنكليزي وصديق هورس والبول واحد رواد الحركة الرومانتيكية الإنكليزية تتميز أعماله بمشوق الطبيعة وفنانات الكنبية والحبان المرص الحري

وكانت النقطة المركزية في مناقشته ضد هيوم والدأمبر بالغة البساطة: هو أنه حينما يشب الإنسان عن طوق السلطة الدينية، فإنه يصبح في العادة ضحية لتفاهته الخاصة. متى يمارس الإنسان الإحساس بالحرية، هكذا يسأل. نه بحبيب: حينما يشعر بالصحر. "لصحر هو أن يكون الإنسان حراً، ولكن دون أن يشعر بدافع معين يدفعه إلى الانتفاع بالحرية". وبعد ذلك يستكر صورة لجنم خرائي، على طريقة سوييت^(١) لكي يصور ما يقصده من فكرته يقول أن بين قمم الجبال العالية في بلاد التتار، يقع واد يسكن فيه شعب ينتمي إلى جنس ضئيل الأجسام ولكنه قوي وينتم بصحة جيدة. "منذ بداية تاريخ هذا الشعب في الأزمنة السحيقة، كان من الالتزامات الدينية لهذا الشعب أن يحمل كل فرد منهم حملين ثقيلين - على شكل زحاجنين تملأن بالماء، وتعلق كل منهما على أحد جانبي وسط الإنسان. ولم يكن بمقدورهم أن يفكروا في السير إلى ما وراء بلادهم على طول الهوييت هول. فكانوا يعلقون هذين الحملين في خصورهم من البلاد إلى الموت، وكانت هناك عقوبات صارمة لكل من يخلع حمليه. ولكن أعظم متعة عند هذا الجنس كانت هي تمارين اللي. وفي إحدى الفترات أعلنت مجموعة معارضة أن القصور من وضع هذين الحملين هو جعل السر صعباً وغير مربح. وبعد ذلك، أعلن أكثر هؤلاء المتمردين جسارة، أن الإنسان ينبغي أن يكون قادراً على الطيران مثل الطائر أو أن يطفو مثل البالون، وأن تلك الأحمال إنما فرضت عليهم بفرض منعهم من الاستمتاع بالحرية التي خلفوا من أجلها. وتشعل الثورة، ويعدم الملك (وهذا تنبؤ حدير بالملاحظة بإعدام الملك لويس السادس عشر) ويمزق الناس أحزمة أحمالهم ويخلعونها عنهم. ولشد ما يدهشون حينما لا يحدث شيء، باستثناء أنهم يجدون السير صعباً من دون تلك الأحمال. وأن المحافظة على توازنهم تصبح مستحيلة. ولكن الأشخاص الأكثر تعقلاً ومحافظة يستمرون في حمل أقالهم، أما الأكثر جسارة فيتدربون على السير من دونها، وسرعان ما يعلنون أن الأمر ليس سوى عادة، وأن العادة هي مرجع الوحيد. وتستبد بهم البهجة بهذا الإنجاز الجديد حتى أنهم في البداية، يمشون في السير ليلاً ونهاراً، ويترعون الوادي

(١) جوليان سوييت (١٨٦٧-١٨٥٠) شاعر وكاتب تكلمي إنكليزي. عرف بكترياته وحسابته. من أشهر أعماله مجموعة "رحلات حليم" التي استخدمها في خلق عوالم ومجتمعات خيالية وكان تأثيره يحددها جانباً من فهم دور حورية الصاعدة وتطويرة في عصره.

من اقصاد إلى اقصاد، بل إنهم يحاولون تسلق الجبال، وسرعان ما يكتشفون أن الجبال ليست سوى جدران جرداء من الصخور لا يمكن الوصول إلى منتهاها أو اختراقها. ثم حدث أن سقط بعض ممن تخلصوا من أقالهم فريسة لعصب حيواني. فيسلفون منهوسين من طرف الوادي إلى طرفه الآخر حتى يسهاروا من الإجهاد. ويحاول آخرون أن يحرقوا الجدران لصحرية النساء ليخرجوا من الوادي، فإما أن يسقطوا من مرتفع عالٍ حينما ينال منهم الإعياء والكلال، أو يقتلوا بأنفسهم بسبب الرعب أو اليأس. نكس مع مرور الوقت، يفصل العدد الأكبر ممن تخلصوا من أحمالهم أن يجلسوا في بيوتهم، وقد تملكهم الصجر تماماً، طالما أنهم عرفوا شكل سر من الوادي. وكانوا يهاجمون الآخرين الذين احتفظوا بأحمالهم، فيسبونهم بالحجارة التي تؤمن بالخرافات ولكن بعد أجيال قليلة، يموت هؤلاء الذين تخلصوا من أحمالهم، لأن افتقارهم إلى الحركة وتدريب عضلاتهم جعلهم يسمنون إلى درجة هائلة فيموتون في سن مبكرة. وأخيراً لا يبقى على قيد الحياة سوى أولئك الذين حافظوا على أقالهم. فيقومون بانتخاب ملك جديد عليهم، وطوال أجيال عديدة لا تعود "الثورة العظمى" سوى ذكرى مرعبة. حتى تظهر فئة من الشعب تعلن أن الإنسان قد خلق لكي يطير كالطير...

يبدو القصة متشائمة إلى حد كبير، وأنها استعارة رمزية من قصة الخطيئة الأصلية. ولكنني أميل إلى رفض هذا الرأي، لأن دوسيلي يقول: "لقد كان هناك نفر من بين أولئك الذين حاولوا تسلق الجبال، لم تقع عليهم أبصار أحد بعد أبداً، ومع ذلك فإن عدداً من الرعاة الذين ترعى أغنامهم تحت ظلال الجدران الصخرية العظمى التي تحف بالوادي، اكدوا أنهم سمعوا أصواتاً تنادي وتلفظ من فوق ارتفاع شاهق فوق رؤوسهم، حيث كانت قمم لجبال نحني وراء السحب". وبكلمات أخرى، فربما استطاع عدد قليل من أولئك المتسلقين أن يصلوا إلى الأراضي الوعرة الواقعة فوق الجبال.

إن مايقوله دوسيلي - وهذا تصور حدير بالاحترام إذا كان صادراً عن جانب صبي في السابعة عشرة من عمره - ليس هو أن "الناس يحتاجون إلى أقال"، وإنما يقول أن الناس "في الوادي" يحتاجون إلى أقال. إنهم أصحاء، ألوياء، يحيون المقامرة (أي يحبون اللي) والوسيلة الوحيدة التي يستطيعون بها أن يحافظوا على تلك الميراث في وديهم الصيق الصغير هي أن

يحملوا انتقالاً على الدوام. ولكن ثمة عدد قليل من بينهم، عند قليل جداً، يولدون وهم يحملون روح منسلفي الجبال الجسورين.

وقد كان دويللي منسلفاً جسوراً للجبال بالفطرة. منذ ولادته، وكان هذا واضحاً وهو ما حدعني. لقد عاش هذا الرجل حتى بلغ الرابعة والثمانين (طبعاً لما قاله الكونونيل دويللي)، وكان كاتباً موهوباً، ومفكراً أصيلاً، وصليحاً لروسو وويلكز. فلماذا إذن لم يترك سوى هذا الأثر الصنيل على التاريخ؟ فإذا كان "رفض فلسفة هيوم" ومذكرات الرحلات المنشورة، هي كل ما املكه لكي أبدا عملي. فإني قد أجد لزاماً علي أن أستنتج أن أمامنا موهبة أضاعت نفسها مبكراً، مثل رامبو أو وولف. ولكن للمذكرات غير المنشورة لا تترك مجالاً للشك في أن موهبته ظلت دون أن يلحقها الفساد إذن. فلماذا حدث؟

ولابد لي أن أشير وأؤكد، في شكل جملة اعترضية، أن الجزء الفلسفي من "الرفض" والذي يضم بعضاً من أكثر صفحات هذا اللقال أهمية، تميز بنوع من العمق والرصانة التفصيليتين سبقتا زمانهما بقرن كامل على الأقل - ولا يمكنني أن أفكر في وجود شيء يماثلها ظهر قبل ظهوره - هـ برادلي^(١) - إنه يفتنطف مقالة كاملة لهيوم هي "تجريد لرسالة في الطبيعة البشرية" بنبت فيها أن فكرة العلة والنتيجة عند هيوم مرتكزة على عاداتنا، وأنها لا تمثل "علاقة ضرورية" بقول هيوم. "نفترض أن رجلاً مثل آدم قد خلق وهو يستمتع بالقدرة الكاملة على الفهم، ولكن دون تجربة" أفلا يكون من المستحيل بالنسبة له أن يرى ضرورة الارتباط بين العلة والنتيجة؟ وعلى سبيل المثال، إذا كان يراقب مكرتين من مكرات البليارد وتصطدم إحدهما بالأخرى، فإنه من المحتمل ألا يستطيع أن يخمن اعتماداً على ذكائه وحده - أنهما سوف يصدران صوتاً كالفرفعة الصغيرة عند اصطدامهما، ثم يندفعان في اتجاهين متضادين إنه سيظن، اعتماداً على معرفته الضئيلة، أنهما قد يلتصقان أو يقفزان في الهواء، أو يقفان بهساسة جنباً إلى جنب.

وينقص دويللي بسرعة على العبارة التي تقول "يستمتع بالقدرة الكاملة على الفهم" ويشير إلى أنها زلة قلم. "يتضمن كلام هيوم أن إدراك آدم لمكرات البليارد سوف يكون إدراكاً بريئاً وغير متحيز، بينما - في الحقيقة - لا يمكن لإدراك كامل الرأفة - مثل إدراك

(١) فرانسيس هيربرت برادلي (١٨٤٦ - ١٩٢٤) فيلسوف إنكليزي مثالي يرتبط فكره بفكر هيجل

طفل حديث الولادة - أن يستوعب المكرات على الإطلاق - أو بالأحرى - قد يدرك وجودها ولكن دون أن يستوعبها، مثلما قد ننظر إلى خطاب كتب بلغة لا نعرفها فإذا كان آدم قد سمح له بالقدرة الكاملة على الفهم، وبقدر كافٍ لكي يراقب مكرات البليارد واهتماماً، إذن فلماذا أيضاً أنه قد سمح له بشيء من القدرة على معرفة العلة والنتيجة، إنه ربما لا يعرف أن مكرات الكراتان سوف تقفزان منفصلتين أو تمتزجان مثل قطرتين من الماء. ولكنه يعرف أن شيئاً ما سوف يحدث، الأمر الذي يعني أنه يعرف أن نتيجة ما يسعى أن يتبع السبب.

إن رجلاً يتمكن من إيجاد هكذا فلسفة أو تصور وبهذا الشكل المميز، كان حربياً من جانب آخر أن يخلف وراءه صورة دقيقة عن الفترة التي عاش فيها، إذن فكيف تحول الأمر إلى أن لا يعرفه أي شخص حتى إنني لا أكون قد سمعت به مطلقاً قبل تكلمي بهذا الأمر؟ وحتى إذا كان هو نفسه لم يكتب إلا القليل - فلا بد أن يكون الآخرون قد ذكروه - بورويل^(٢) على سبيل المثال أو حتى كراب روبينسون^(٣)، إن الإطلام الكامل الساقط فوق مثل هذا الرجل لشيء لا يمكن فهمه

صحت قد صكت لصديق يعمل في المتحف البريطاني من دالاس. أسأله إن كان يستطيع أن يعثر لي على أي مادة ممكنة حول دويللي. وأسرعني إلى هناك فور وصولي إلى لندن في التاسعة والنصف من صباح يوم السبت، ودعاني نيم موريسون - الذي يعمل في إدارة مكتب الطبوعة - إلى شرب الفحاح من القهوة في غرفة اللوطين. وصكت قد أخبرته بكل ما دار بيني وبين فليشر - وحتى عن الفتحاح أن القوم بتروهر بعض المحطوطات باسم دويللي. إن بضرة نيم إلى الحياة وفورة ومحادرة - وهو يعطيني دائماً انطباعاتاً لرجل يحدق بحذر من فوق حافة هاوية وهو يعالج موضوعاً ما بطريقته المزددة الموقفة قال،

- "أعتقد أنك تعرف ما فعله أعني أنك لا تريد أن تنتهي إلى السجن بسبب الاحتمال على القراء..."

(١) جيمي بورويل ١٧٢٠-١٧٩٥، أشهر كتاب التراجم في إنكلترا، أشهر بكتابه عن (صامويل جونسون)

(٢) هنري كراب روبينسون (١٧٧٥ - ١٨٧١) كاتب يوميات ومذكرات (أشبهه بالترجمة) إنكليزي.

واكدت له ان ليس ثمة خطر في ذلك، وأبررت له المخطوطة المسووحة على الألة الكاتبة من مقالة "رفض لفلسفة هيوم". راج بقراها بعناية لمدة عشر دقائق، بهما رحت أن أحسنني فهوني وتطلع إلى عناوين صحيفة "الحاربان" وأخيراً قال:

"كاد أحرم أن هذا يبدو أصيلاً وليس هناك ما يزعجني سوى شيء واحد لا أعطي هذا المقال لروسو؟ إنه بآزنة تلك لا بد كان يظن أن روسو أبه كامل البلاء؟"

"لست وثقاً من السبب. ثمة عنصر من التناؤل في شخصية دوسيللي وفكره ربما تتجاذب مع روسو. هذا إلى جانب أن روسو ليس بسيط الفكر كما يبدو أن معظم الناس يظنون إنه في الحقيقة لم يتفكر أبداً أنه ينبغي للناس أن يعودوا إلى الطبيعة"

قال "كلا، كلا" وبدأ عليه الشرود. سأته إن كان قد عثر لي على أي كتاب عن دوسيللي فطلب جيبه وهو ينظر إلي داخل فدهج فهوته ثم قال:

"من الأفضل أن تأتي لكي تنظر بنفسك"

عشنا إلى مكتبه، الذي لا يصل إليه المرء إلا بعد متاهة من الممرات وعدة مجموعات من الدرجات الحلزونية. كانت غرفة المكتب مرتبة بطريق توحى بخلوها من أي خطأ أو عيب. وعلى المكتب نفسه كانت هناك ستة محللات برزت من خلال صفحاتها فصائص من الورق. قال لي أن أحلس أمام المكتب، ثم جلس هو على المقعد الكبير المواجه لي، وأشعل سيجارة، ثم عاد إلى مقالة "رفض لفلسفة هيوم"

كانت الكتب التي عثر عليها مخبئة للأمال وكانت هناك طبعة من مذكرات الرحلات التي كتبت قد رتبها بالفعل من قبل، مطبوعة في لندن عام ١٨٢١ في دار النشر الملوكة لشخص يدعى جون موراي، وهو الناشر الذي كان يصدر مجموعاً بإيرون الشعرية. وكانت الطبعة مرودة بمقدمة قصيرة بقلم الناشر يصف فيها دوسيللي أنه، "سيد ودارس أبريندي" ولكنه لا يقدم أية معلومات أخرى متعلقة بحياته. ولا حتى إن كان دوسيللي ما يزال على قيد الحياة عام طبع الكتاب (وقد كان حياً بالفعل يومها، فقد كان في الثامنة والسبعين عام ١٨٢٠) وكانت هناك إشارة قصيرة إليه في كتاب جيليس "بومبات إنكليزية في القرنين السابع عشر والثامن عشر" الصادر في عام ١٨٧٠، ثم اقتباس من مذكرات رحلاته في كتاب عن مدينة البندقية أنه كاتب سبب اسمه وحانت الإشارة الهامة

توحيداً إلى دوسيللي في خطاب مكتبه بإيرون لفرانسيس هودجسون في شهر يونيو عام ١٨١١ (وجاء الخطاب في أعمال إيرون الكاملة، التي أشرف عليها بروتير وكونولريدج، المجلد التاسع من ١٨٢٠)، ويقول فيها: "قال لي شيري (شيريدان) إنه لم يعرف أبداً شخصية أكثر وحشية من ولدي (جاءت الحسرة بإيرون) رعه أنه كان قد عرف ويلكيز ودوسيللي في أيام شبابهما" ويقول إيرون في خطاب آخر إلى ويليام جيمورد (المجلد ١٣ ص ١٩٢): "لقد أدهشتني وصدمتني حد تأكيدت إيرمويد دوسيللي والتي أشار فيها إلى أن خلوا وحلو عالماً نسبياً من المعنى. حينما نوصع في مقاربة مع الكل القهار، الذي نسا فيه مع عائشة سوى درة صنيلة، هو ما دفعه لأول مرة إلى تحيل أن طموحاً إلى الأبدية والخلود يجب أن يتصاعف عدة مرات"

وبهنا كتبت أسجل في مذكرتي مختلف المواد التي حصلت عليها. فقد كان لابد لي أن أهر مقدمتي على نحو من الإنحاء. - كان تيه بمحض بعض الأوراق في خزانة قريبة، وحينما انتهيت من الكتابة، وضع أمامي ورقة واحدة. كانت الورقة صورة مكررة لصحيفة من حد المخطوطات. ولم تكن قراءة الحط مستحيلة، رعه ما كان هناك من تكرار لحظاً كتابة حرف "ف" بدلاً من حرف "س" وكان يص المكتوب في الورقة

" كان مقتنعاً بأنه قصد إلى الوفاء بالتزامه

وحينما ذكرت عادة أكل الكلاب في أوتاهايت، قال حولد سميت أن هذه العادة شائعة أيضاً في الصين، وأن جزار الكلاب شائع جداً مثل أي نوع آخر من القصابين، وأن مثل هذا الشخص إذا رحل إلى خارج بلاده، تهاجمه كل الكلاب

جونسون، "ليس هذا راجعاً إلى قنله للكلاب يا سيدي إنما ذكر قصاصاً في بلد لنينشيلد، كان معرضاً على الدوام لهجمات الكلب الموجود في المنزل الذي كنت أسكنه. إن رائحة الدم والقتل هي ما تثير هذه الحالة وتستفز الكلب للهجوم، مهما كان نوع الحيوانات التي قتلها.

حولد سميت، "أجل، فإن الحيوانات عموماً تفيض أي علامة تدل على الذبح أو تشير إليها وتنفر منها. فبذلك إذا وضعت وعاء صغيراً ملئاً بالدماء في حظيرة للجباد، أصاب الحيوانات ما يشبه الجنون".

جونسون، "إنني أشك في ذلك"

جولد سميت، "كلا يا سيدي إنها حقيقة يعترف بها العارفون"

وتلت هذه الفقرة عدة سطور مكشطت بحمر أسود وثقيل وبغاية بالغة ثم تستمر السطور بعدها تقول،

تريل، "كان الأفضل لك أن تهرن على هذا قبل أن تضمه كتابك عن التاريخ الطبلي إنك قد..."

نظرت إلى تيم وقد استنه على الأمر، وطلعت أنه قد أعطاني صحيفة أخرى غير مألوفة لي، ولكنه وضع أمامي صحيفة أخرى مصورة، غير أنها صورة لسطور كتبت على الآلة الكاتبة وكانت تقول:

جولد سميت (مستمراً)، "لقد قبلت لي هذه الحقيقة على لسان إيزموند دونيلي الذي قال لي أنه حاول تملك التجربة."

جونسون (وقد بدأ بسحن)، "اد، يا سيدي، إنني لا أشك في أن هذا الرجل يمكن أن يكون قادراً على إثبات ذلك وما هو أسوأ منه؟"

جولد سميت، "إنه لا يفتقر إلى صفات محب للرح والعريضة"

جونسون، "بالناكد، إنني أعتقد أنه من جماعة العنقاء ذوي الميول العربية الممعة بالشر، ونفس الشيء يمكن أن يقال عن الشيطان"

جولد سميت، "ومع ذلك فإنه يعرف الجهاد"

تريل، "كان الأفضل لك أن تهرن على هذا..."

قال تيم،

"كان من عادة بوزويل دائماً أن يكتشط بالحبر الأسود ككل الفقرات التي يريد أن يلقيها حتى لا يمكن قراءتها. وهذه صفحة من كتابه "حياة جنسون". وقد سمحت لنا جامعة بيل بالحصول على صورة من غالبية مجموعة لينام وقد استطاعوا أن يصلوا إلى حقيقة أكثر ما كان مكتوباً في الفقرات الملقاة."

"مدهش. كيف عثرت عليها؟"

"لم أعر عليها أنا. وإنما حدث أن ذكرت اهتمامك بدونيلي للرجل الذي كان يصف الصور وبالمصادفة البحتة - كان قد رأى اسم دونيلي في اليوم السابق"

"وإن فريما تكون هناك إشارات أخرى إلى دونيلي في مخطوطة بوزويل؟"

"هذا محتمل. سأنصل بك إذا وجدنا أية إشارة."

أمضيت بقية اليوم في قاعة المطالعة، ولكنني لم أعر على شيء آخر له قيمة. وعندما عدت إلى مبدان كينستفون (حيث كنا نقيم مع جيرمي وورنيغتون، أحد مديري شركة جون جامبسون لإنتاج الوبسكي) ناقشت ما أنجزته اليوم مع ديانا ومع سو وورنيغتون. واتفقنا على أنه من الواضح أن جونسون كان يكره دونيلي، الأمر الذي لاح لنا أنه يشير إلى أنه كان يعرف شيئاً عن شهرة دونيلي كمصموم كبير. ولكن لماذا كان من الضروري أن ينور غضبه بهذه السرعة لدى ذكر اسمه؟ لقد كان بوزويل هو الآخر صعلوكاً كبيراً، وكذلك كان ويلكيز، الذي كان جونسون قد وصل إلى نوع من الاتفاق معه. فلماذا السخط على دونيلي والهجوم عليه؟ ماذا كان يعنيه حينما قال: "إنه يمكن أن يكون قادراً على إثبات ذلك وما هو أسوأ منه؟"

وقالت سو أنه من المحتمل ألا يكون قد عني شيئاً بالتحديد على الإطلاق، فبم عدا أن جونسون كان منزعجاً من سذاجة جولد سميت وسهولة انخداعه. وكنت مهالاً إلى الموافقة على ذلك. وحينئذ قالت سو،

"يجب عليك أن تسأل جيرمي عن بوزويل. إنه يعرف شخصاً اكتشف مخطوطة ما لبوزويل."

وكانت هذه أخباراً هامة. كنت قد أمضيت جانباً من اليوم في قراءة مذكرات بوزويل، وقصة اكتشافها، التي كانت قراءتها من الأمور الخالية. ولما كانت هذه القصة عل علاقة ما بما أسرده الآن، فسوف أخصها باختصار

مات بوزويل في عام ١٧٩٥ في منتصف العقد الخامس من عمره، ربما بسبب إصابته بتليف في أنسجة الكبد. وعين ثلاثة من أصدقائه مشرفين على طبع تراثه الأدبي، الكاهن

ويليام تمبل، وسير ويليام هوريز وإدموند ماثون. وكانت تعليمات بوزويل تقول أن هؤلاء الأصحاء الثلاثة ينبغي أن يقرأوا مذكراته الخاصة وأوراقه وأن يشعروا بكل ما يطلبونه هاماً ويستحق أن ينشر. وهما الثلاثة ما وجدوا من أوراق. ولكن من الواضح أنهم قرروا أن المادة كانت إما شديدة الإملال، وإما أنه تصدم للشاعر والأدب إلى درجة أنها لا تستحق أن تنشر. وبعد مقالة ماكولي الفاتلة ضد بوزويل (١٨٤٣) هبط رصيده الأخير هبوطاً شديداً حتى لقد نسي تقريباً. وكانت السيدات الميكنتوريات من أسرته. فلواتي كمن من حين إلى حين بلقيس نظرة سرية على الأوراق، يشعر بالصدمة إزاء ما رآه، حتى أنه شعر بما يحرر لهم ترويح إشاعة تقول بأن مذكرات بوزويل قد أحرقت ويستطيع المرء أن يدرك تأثير الفقرة مثل لفقرة لتالية من المذكرات. (كُتبت في نوفمبر ١٧٦٣).

"التقطت فتاة من شارع ستراند، وذهبت في عربة وفي بيتي أن أستمع بها مثل عراة أي باستخدام مانع للحمل). ولكنها لم تكن تحمل مثل هذا النوع فلهوت بها قليلاً ونعجبت هي لحجم عصوي، وقالت ليني لو كنت قد قصصت عذرية نية فتاة لجعلتها تنزف. أعطيتها شيئاً ثم أجرت نفسي على أن أتركها تذهب دون أن أمسها".

وفي منتصف سبعينات القرن الماضي، ذهب بيركهيل هيل - ناشر كتاب بوزويل عن جونسون إلى بيت الأسرة في بلدة أوتنبيلك لكي يطلب إلقاء نظرة على المذكرات، ولكنه لم يلق سوى خاطرة تقريباً.

وفي عام ١٩٠٥، تلاشى آخر خيط من ذكرى بوزويل ومن أسرته، وانتقلت ملكية المنزل وما يحيط به إلى اللورد تانوت من مالاهايد. بالقرب من ديزن. وكان من بين ما انتقل إلى حوزته، العرقة المعلقة الصغيرة التي تحتوي الأوراق التي ذكرها بوزويل في وصيته. وظهر أسناد أمريكي، يدعى تشويس تينكر، قد هب بوزويل وأعلن في الصحف الإبرلية طناً أي ماذة مسية له. ونسلم الأستاذ خطاب من مجهول يفتخ عليه أن يحاول البحث في قلعة مالاهايد فأرسل خطاباً إلى مالاهايد لم يكن له تأثير. فقرر تينكر أخيراً أن يذهب بنفسه إلى هناك وكان سعيد الحظ في هذه المرة. وسمح له اللورد تانوت بأن يرى جانباً صغيراً من مجموعة أوراق بوزويل. وبعد ذلك، ظهر صانع أمريكي برتبة ليونتلانت كوتوبيل، ويدعى رالف لينشام. وقد سمع عن الأوراق، وبحث في شرائه من اللورد تانوت في عام ١٩٢٧. وشرع ابن من لماحتين، هما البروفيسور جيوهري سكوت، والبروفيسور فريدريك بونل، شرعاً في عملية

نشر تلك المادة الهائلة الحجم - التي تزيد على مليون كلمة وعند ذلك الحين استمرت مخطوطات بوزويل في الظهور. فقد تم العثور على صندوق قديم للملابس في قلعة مالاهايد وكان يحتوي على البريد من خطابات بوزويل. بالإضافة إلى مخطوطة كتابه "رحلة إلى حرر الهيريدز مع الدكتور جونسون". وفي عام ١٩٣٠، كان البروفيسور أبوت من جامعة لندن يعمل في تحقيق أوراق السير ويليام هوريز. وهو أحد مبعذي وصية بوزويل. فكتشف كمية كبيرة أخرى من الخطابات والمخطوطات. وكان من الواضح أن هوريز قد استعار بعضاً من الأوراق لكي يفحصها، تنميلاً لما جاء في وصيته، ثم نسي أن يعيدها إلى أوتنبيلك. وفي عام ١٩٤٠، تم العثور - مرة أخرى - على المزيد من أوراق بوزويل في حظيرة قديمة للأبقار في مزرعة مالاهايد. وكانت هذه الأوراق تتضمن كتاب "حياة جونسون". وقد جاءت الصفحة التي رأيتها في المتحف البريطاني من تلك المخطوطة. ولم يحدث أبداً أن قرر أحد كيف وصلت بعض أوراق بوزويل إلى حظيرة للأبقار.

من الواضح أن أوراق بوزويل كانت قد بعثرت وتفرقت في أماكن متباعدة. وفي الحقيقة، فإن أول ما اكتشف من أعماله ظهر في عام ١٨٥٠ على يد البحور ستون في بلدة بولوسي. وكان قد اشترى شيئاً ما من دكان يقال. فوجد بضاعته قد لفت في ورقة كتب عليها خطاب موقع باسم "جيمس بوزويل" وكان في مقدور ستون أن يشترى حكومة كاملة من الخطابات التي كتبها بوزويل إلى القس ويليام تمبل. وهو كاهن كان بوزويل قد عترف أمامه بأفقر أعمال حياته - ثم قام ستون بنشرها بعد ذلك بعد أن فحصها وهذبها وحذف ما كان فيها من فحش. ويبدو أن تلك الخطابات كانت قد وصلت إلى بلدة بولوسي على أيدي أسة تمبل التي كان زوجها القس قد انتقل إليها في عام ١٩٣٥. وحينما ماتا، بيعت أوراقهما - أو أعطيت إلى تاجر من تاجر ورق اللع باعتهما بدور لليقال.

إن اهتمام آثار التاريخ للعقد لأوراق بوزويل جعلني أدرك الصعاب التي قد أواجهها في طلب حقيقة إيرموند دوسيللي. فمن الواضح أنه ما له يكن الحظ حلفي فإن أي قدر من النصر والإصرار والمناورة لا يمكن أن يكون منمراً. على الإطلاق. ولكن كان من الغريب أنني كنت أملك إحساساً غريباً باليقظة، ربما كان ببساطة راجع لاهتمامي العميق والبالغ بدوسيللي وبأنسب الرحلة التي يستمي إليها. فلو استعدنا بليك وعوته، فإن كتاب القرن

الثامن عشر عموماً كانوا لا يرتفون إلى أن يصفهم بالكتاب. وهو واقعاً السبب الذي يقف خلف عدم دراستي لهم. لقد كانوا مخبيين للأمال بشدة

وعلى أساس ما أخبرني به سو وورثينغتون. افترضت أن جيرمي يعرف أحد أفراد أسرة تالبوت، أو ربما كان يعرف الشخص الذي اكتشف الأوراق في حظيرة الأبقار. وحالما ظهر جيرمي على باب للسكن، سأنته:

"ما اسم صديقك الذي عثر على بعض أوراق بورويل؟"

"أوي، إنه لم يعثر عليها بالفعل في الحقيقة وإنما عثر عليها شخص يدعى اورورك في بلدة نورتمارنوك"

"كم يعثر عليها في مالاهايد؟"

"كلا، ليس في مالاهايد، رغم أنه من المؤكد جداً أنها جاءت من مالاهايد. فعلى قدر ما أستطيع أن أستنتج، كان فمس متقاعد يدعى اورورك قد استعار بعضاً من أوراق روزويل في أثناء الحرب العالمية الأولى، ولكن هذه الأوراق لم ترد إلى مكانها أبداً. وقد عثر عليها ابنه بعد وفاته."

"فماذا حدث لها؟"

"حسناً، اسمع. إنها تحت يدي شخص عجوز غريب مجنون يدعى إيزاك جينكينسون بيننس، ويعيش في دبلين. وابن أخيه هو أحد طاقم الاختبار في مصنع التخمر عندنا وقد أخبرني ذات يوم بأمر تلك الأوراق."

"هل رأيت هذه الأوراق بنفسك يوماً؟"

"كلا، إن الولد العجوز شديد الحرص عليها. ومن الواضح أن هذه الأوراق مملوكة في الحقيقة لزراعة مالاهايد - أو ربما كانت من حق تلك الجامعة الأمريكية التي اشترت الأوراق"

"ونكن ألا نعرف أي شيء عنها؟"

"ليس الشيء الكثير، فيما عدا أن بعض محتوياتها دأبوا إلى درجة كبيرة."

"هذا يبدو غريباً، أعني، ماذا يمكن لقسيس أن يفعل بمثل تلك الأوراق؟"

"ربما كان رجلاً عجوزاً سبى الحلق أو فذر التفكير"

"هل تعرف عنوان تلك الشخصية" التي تدعى جينكينسون؟"

"العنوان ليس تحت يدي الآن. ونكن علي أن أطلب دليلين بالتليفون يوم الاثنين -

وسوف أسأل هيرد - وهذا هو ابن أخيه"

وتوفعت العملية عند هذا الحد في عطلة نهاية الأسبوع. وكنت أعرف أن الفرص الناحية لي لرؤية الرجل العجوز محدودة، إذا ما كان حريصاً بالدرجة التي ذكرها جيرمي، ولكن لم يكن هناك سوى أمل واحد، وهو أن يمارس ابن أخيه عليه نوعاً من الضغط.

- ٧ -

□ لم تكن تنقضي عدة أيام حتى اتصل بي جيرمي من مكتبه، وكان قد تحدث لتوه مع ابن أخيه الرجل العجوز وقد أكد هيرد أن جينكينسون بيننس كان بالغ الحذر والحرص في مسألة اطلاع أي مخلوق على المادة التي يملكها ولكنه من خلال المحادثة، كان قد ذكر شيئاً لاح أن فيه شيئاً من الأمل كان بيننس شديد الاهتمام والتعلق بجرائم القتل ولذلك فإنه قد لا يستبعد أن يكون قد قرأ كتابي "سوسيولوجية الجريمة العسيفة". واقترح جيرمي أن أكتب إليه رسالة حول موضوع جريمة القتل في أيرلندا في القرن الثامن عشر، وأن أحاول التعرف عليه عن هذا الطريق. وأعطاني جيرمي عنوان بيته في شارع باجوت في دبلين.

ولم يكن لدي ما أفعله أكثر من هذا في لندن. فأمضيت هناك يومين آخرين، قابلت خالتيهما بعض الأصدقاء، وتناولت القاء مع أحد الناشرين، وشربت الكثير من "الكوكتيلات". ولو كنت في ظروف عادية لكنت قد استمتعت بالتغيير الكامل للجو الذي عشته أثناء جولة الحاضرات، ولكنني كنت عاجزاً عن التفكير في أي شيء باستثناء دونبلي. كتبت خطاباً إلى "ملحق التابز الأدبي" حول اهتمامي بدونبلي، وأمضيت أمسية عقيمة في المتحف البريطاني محاولاً أن أعرف إن كان إيزاك جينكينسون بيننس قد كتب في حياته أي

كتاب حول حراره القتل. ولو انه قد كتب مثل هذا الكتاب، فإنه ليس موحوداً في مكتبة المتحف. وفي صباح يوم الأربعاء، اصطحبنا سو وورثبعتون في سيارتها إلى مطار لندن لكي يلحق بالطائرة المتوجهة إلى شانون. وقبل أن يغادر المنزل لحظة واحدة، اتصل جيمي بالتليمون وطلب أن يكلمني قال

"كنت أتكلم الآن لتوي مع جيم هيرد مرة أخرى، وذكر شيئاً ربما أعانك في محاولة إقناعك من بيتس العجوز، من الواضح أن الرجل العجوز يؤمن بأن قاتل "حريرة آي" الإيرلندي كان بريئاً، فهل تعرف أي شيء عن تلك القضية؟"

"تذكر عنها القليل، ثمة رجل يدعى "كيريون"

وكانت هذه المعلومات ثمينة للغاية. لحقنا بطائرتنا في منتصف النهار، وهبطنا في شانون بعد ساعة واحدة بالضبط. وكان نوم مكبي المسؤول عن ماوى للسيارات الذي نحنط فيه بسيارتنا، قد قاد السيارة القديمة إلى المطار لكي يقابلنا وبعد ساعتين كما قد علنا إلى موكوللان.

ثمة إحساس هائل بالراحة في العودة إلى البيت بعد رحلة طويلة. إنني أحب إيرلندا الطرقي الصيقة، ولندن الصغيرة القديمة، وحضرة الحفول التي لا تصدق، والسحب المصفصة والبحيرات الفاتنة. بدأت أشعر بشيء مثل الكراهية إزاء دونيللي، لأنه كان بمنعني من الاسترخاء الكامل لمدة أسبوع أو نحو.

يقع منزلنا على بعد نصف ميل خارج موكوللان على ناصية حارة ضيقة مبلطة بالأحجار تتحول إلى مجرى مائي في فصل الأمطار. والنزل مسكن خوري بني في منتصف القرن الثامن عشر، وشيد من الحجر الجيري الرمادي اللون، وقد غطيت الجدران بنباتي الحرارز واللبلاب للتسليق. كنا قد اشتريناه في عام ١٩٦٣، ونهعنا ثمنه من مستحقاتي من كتاب "كوميكية الجيسية". وفي أثناء غيابنا، كان روج ديانا السابق، روبرت كيرستين، يرعى المنزل بدلاً منا. والذي كان قد أصبح منذ عام ١٩٦٠ "مؤلفاً موسيقياً مقبهاً" في عدد من الجامعات الأمريكية، وكان قد حقق نجاحاً هائلاً وفي الخريف للناضي، قرر أنه بحاجة إلى فترة طويلة من الوحده لكي يؤلف موسيقاه، ولذلك فقد دعونا للإقامة معنا. وكان يسكن عندها منذ شهر يناير، وكانت مسز هيلي، زوجة الراعي الذي يسكن إلى جوارنا،

نظمو له طعامه. وكان كيرستين قد رحل إلى دبلن قبل وصولنا بثلاثة أيام، فقد كانت ستان من موسيقاد تعرضان هناك وكان عليه أن يعود الأوركسترا. وكان المنزل خالياً بمعمماً بالهدوء. وكان مسز هيلي قد أشعلت النار في مداخل حجرة الطعام وحجرة نومنا، فأضمت النار على الحجرات بريقاً مرحاً. كان منزلنا قريباً من العتمة على الدوام، لأن شجار العالية تحيط به من ثلاثة جوانب كما كانت جدران بعض الحجرات مغطاة بحشب ناهوحي الأسود، ولولا الأصواء الكهربائية، لكان صالماً لأن يكون مسرحاً لإحدى روبت نوهانو.

وقفت وراء نافذة حجرة نومنا. وكانت موسي تتفاخر على السرير، فتجعل لوشبه نتر. ورحت أنظر إلى غابة "لوف كوريب". كان هناك غيم واطن قليل بدا أثقل قليلاً من الصباب، ولاحت الأشجار، براعمها البازغة، داكنة مبلولة. إن الجزء الذي نعيش فيه من إيرلندا، يتمتع بخاصية "تنويمية"، حتى أن زوار منزلنا يجدون أنفسهم قادرين على النوم مدة اثني عشرة ساعة يومياً على الأقل، ثم يظلون يتنامون حتى الساعة الرابعة عصراً. بينما كنت أفق وراء النافذة، وصوت النار يترافق على الجدران، شعرت باسترخاء هائل، بناسب أو بفوق وحجم الإجهاد الذي تملكني في جولة المحاصرات التي قمت بها أجراً، حتى بدت لي مشاعري كما لو كانت تفرق في فراش عميق من الري، وطفى علي إحساس عظيم من السكينة والشعور بالعزلة وخطر لي فجأة أنه من المحتمل أن يكون إيزموند دونيللي قد أطل على هذا المشهد، منذ ما يقرب من القرنين، فرأى الكثير مما أراه أنا الآن، ثم ذكرت ما أكدته لي هليشر من أن دونيللي قد أغوى ابنتي القسيس المحلي غير الشرعيتين، وهو الأب ريبوردان، فشمرت بأبني اضطرب وأعجز عن التفكير. لو أنها كانت ابنة واحدة - فتاة واحدة - لكان الأمر مفهوماً، إنها فتاة ريفية بريئة جميلة، ربما يكون قد قام على تربيتها مراراً من الجيران أو راع للأغنام أو ربما يكون هذا الراعي من أسلاف سين هيلي)، ومن المحتمل أن تكون هذه الفتاة قد رأت دونيللي وألما في دكان البقال في القرية يطلب حاجة من الويسكي أو الخبز فسحراها وحلب لبها السيد المهذب الذي يرتدي ثياباً أنيقة. وربما يكون دونيللي قد نظر إلى الخدين المتوردين المنمحرين بالصحة، وفكر في اللقمة التي يمكن أن يحصل عليها لو أنه رفع طرف الثوب الطويل المصنوع من القطن وحرك بيده على

(١) حوريف نيريدان لوفانو ١٨٩٤-١٨٧٢، كاتب روائي إيرلندي، أشهر بروايته "العم سيلاس" عام ١٨٦٤

الجسد الجميل كما لو كانت الفتاة جواناً أحسن تربيته. لو كانت الحكاية قد جرت على هذا النحو لكانت قد أصبحت طبيعية ومبهجة، ولكن إغواء فتاتين إنما يدل على نوع من النزعة الحسية، وخضوع مطلق للرغبة في التملك والانتصار.

هجاة قالت موبسي: "باب. أيمكنني أن أستحم الآن؟" فقصت سلسلة تفكري. خلعت لها ملابسها، ووضعتها في حوض الاستحمام. ثم هبطت إلى الطابق الأسفل لكي أفتح زجاج نبيذ بورجوندي التي جئت بها من كاليفورنيا والتي كنت قد وضعتها إلى جوار النار. كنت قد احتفظت بها طوال مدة طريق العودة حتى أتمكن من الاستمتاع بشربها في حجرة الجلوس الخاصة بي. وضعت اسطوانة موسيقية على الحاصي - كونسرتو الكمان والأوركسترا - للليوس - ثم تركت نفسي لكي أغرق في حالة من الكابة الناعمة الغامضة. مكان النبيذ دافئاً دهنياً خفيفاً للغاية. ويقول أكثر الخبراء في شؤون النبيذ أنه لا ينبغي للمرء أن يعرض النبيذ مباشرة لمصدر الحرارة، ولكنني أجد أن تعريض النبيذ العادي للنار المباشرة لمدة عشر دقائق لا تؤدي إلى أي ضرر - سببت لنفسي كاساً كبيراً، وجرعت نصفها مرة واحدة - وهذه هي طريقتي في شرب أول كاس من النبيذ في مساء. فهو - بهذه الطريقة - يلطف الظما، ويمنح حاستي التذوق والشم أفضل ما في نكهته ورائحته. وينتج على الفور ومضة من الدهشة. كانت حقائبنا لا تزال متناثرة إلى جوار الباب، دون أن تفتح، ولكنني أردت أن استمتع ببعض العود إلى بيتي. تتمتع حجرة جلوسنا برائحة متميزة ليست سيئة - تماثل إلى حد ما رائحة الكتب القديمة. وكانت ديانا هي من اشترت معظم أداثنا في المزادات العلنية المحلية - وهي تحب حضور عمليات البيع بالجملة وبالزاد - وليس في هذا الأثاث قطعة واحدة يمكن أن توصف بالحداثة. وإذا نظرت حولي، خطر لي أنه من المحتمل أن يكون إيزموند دونيللي قد جلس في حجرة تماثل هذه تماماً، وأنه رغم كل ما أعرفه، ربما يكون قد جلس في هذه الحجرة نفسها. مدت يدي ففتحت إحدى حقائب السوق التي كانت ديانا تحملها في الطائرة، وعثرت على المخطوطة المكتوبة على الآلة الكاتبة لقال دونيللي "رفض لفلسفة هيوم" وفتحتها كيفما اتفق. قرأت..

".. إنني لا أعتقد منطق مسر هيوم، وهو منطق مفهم من مختلف جوانبه، وإنما أزعج أن مزاجه من نوع يمكن أن يخفي عن صاحبه صوراً معينة من الأحاسيس. يستطيع منطقته أن يزيل من الوجود مطامح السيمبانيين وأمالهم، ولكن، ما الذي يعرفه عن رؤاهم؟"

توقفت عن القراءة لكي أفكر في تلك الجملة. كان من الواضح أنها تستحق "هامشاً" نقدياً، يشير إلى التشابه بينها وبين فكرة بليك^(١)

كيف لك أن تعرف أن كل طائر يقطع طريق الهواء والريح

إنما هو عالم هائل من البهجة، مقلق أمام حواسك الخمس؟

عند ذلك بدأت أتساءل مرة أخرى متعجباً، كيف أمكن لئيل هذا الرجل أن يكون صورة ممسوخة من (كازانوفا) يتباهى بغزواته النسائية، ويصاد النساء، وأن يكون كما وصفه جونسون (واحد من جماعة العنقاء ذوي الليول العربية للنعمة بالشر)، وأن يكون من جانب آخر يمثل هذا الفكر والفلسفة التي تشر إليها مقالة (رفض لفلسفة هيوم).

انتهت الاسطوانة للموسيقية، ونهبت لقلبي على وجهها الآخر، وللحظة نظرت إلى الخارج من النافذة التي تطل على الغرب. كانت السحب المنخفضة معلقة فوق تلال "باركوكنت"، ولكن السماء وراء التلال كانت مشرقة. وعلى الجانب الآخر من التلال، انتصب صف من أشجار الحور مرتفعاً على صفحة السماء. للحظة عدت إلى غرفة النوم في لونغ بيلاند، لتدق النكهة الدخانية اللطيفة التي عرفتها في حلمتي بيفرلي الصغرى وما شعرت به بعد ذلك من انفجار الدهشة بين الأقفاذ، بينما كنت أنظر من فوق كتفها إلى الأشجار الباسقة فوق قمة القل الصخري. أزحت جانباً كتابتي الغامضة، وتمسكت بعطر الصلابة الذي كان يقوم ويهوم فوق أشجار الحور، وعرفت مرة ثانية في تبصر داخلي مفاجئ شامل أن الكائنات البشرية لا ينبغي لها "أبدأ" أن تقبل مقومات أو مكونات الوعي للبشر الناشء عن اللحظة القائمة، وأن الأفاق الأعظم والأرهب تقع دائماً فيما وراء حدود الأحكام والتقدير الفورية المباشرة. للحظة كنت أنا إيزموند دونيللي، أتساءل عما عرفه هيوم عن رؤى السيمبانيين. اختفت التناقضات، وهجاة فهمت دونيللي. فبالنسبة له، لم يكن السيمباني هو من يحاول تغيير طبيعة المعادن، وإنما هو من يحاول تغيير طبيعة الوعي، وكان الجنس هو حجر الفلاسفة الذي كان يوسعه أن يغير المعادن الوضيعة للوعي العادي فيحولها إلى رؤيا.

(١) ويليام بليك ١٧٧٠-١٨٠٧ شاعر ورسام صوتي إنكليزي. درس الرسم وفن النحت. تميز بأسلوبه الرمزي الذي عزله عن معاصريه. إلا أنه بقي من أهم بناء النزعة الرومانسية في فلسفة وفن الغربيين في العصر الحديث.

صرخت موبسي: "بابا، أريد أن أخرج". ناديت ديانا فأخرجتها من مطبخها وأرسلني إلى الطابق الأعلى. كنت أريد أن أثبت هذا الإدراك للتبصر الداخلي وأن أكتشف قصائده لأنه كانت هناك - لا تزال - مشكلة واضحة. لا يستطيع أحد أن ينكر أن الجنس يملك هذه القدرة على رفع الوعي إلى درجة أعلى من الحدة. فمند لورنس، أصبح هذا شيئاً شائعاً ومعروفاً من ضمن الأشياء الشائعة في القرن العشرين. ولكن لورنس عرف أيضاً سرّاً آخر من أسرار الدافع الجنسي، "إن ما تعجز نساء كثيرات عن إعطائه، تستطيع امرأة واحدة أن تعطيه". ومنذ أن بدلت حياتي مع ديانا، اصطلح اهتمامي بإعواء النساء، حتى أصبح مجرد نوع من الفصول وحب الاستطلاع. يوسعي أن أنظر إلى فتاة جميلة فأتساءل بيني وبين نفسي عن نوع حمالة الصدر والسرابيل الداخلية التي ترتديها، أو عما إذا كانت ترفد في سلبية على الفراش أم تتحرك بعنف. ولكن هذا الفصول لم يكن من القوة بحيث يمكن أن يؤدي إلى المتابعة العملية. بل إنني في الأعوام الأخيرة، كنت أدهش دائماً إذ أكتشف ميلاً متزهداً إلى رفض تلك الأشكال غير الصادرة من الإشباع المتبادل التي تقدمها إليك علاقة ما ولكن "دون شد أية لوتار". وقد حدثت في إحدى الحفلات أن قالت لي فتاة ما بصراحة: "لأننا لا نرفد معاً في فراش بعد ذلك؟ هذا أفضل من ممارسة العادة السرية في فراشين منفصلين" ولكنني في الصباح، أدركت أن عدم وجود أية أوار لم يكن صحيحاً صحة مطلقة. لقد تداخل حسنا، وبالتالي فقد تداخل عالمنا أيضاً. إن عالمها لم يرق لي بشكل خاص. فقد كان عالماً شديد الغموض والعقم. ومثل كوكبين تقارباً أكثر من اللازم، كان كل ما قد تسبب في نوع من الاضطرابات الأرضية عند الآخر. وأنا لم أعد قادراً على أن أتذكر، كيف كانت تبدو في الفراش، ولكنني أستطيع أن أتذكر بوضوح حكايات معينة سررتها علي، حول فشلها في رواحها، وهي الحكايات التي ما زالت تزعجني. ولقد كان من الأفضل لي لو أنني تركتها تدور في فلكها الخاص.

وهذا هو ما يجعلني أشك في صديق كاريوف. إنه لم يكن عسياً ولا محروماً من الإحساس. وهذا واضح إلى حد كبير. ولكن ليس هناك سوى القليل من الأدلة في "المذكرات" التي توحى بأن تلك الاضطرابات المتبادلة قد حدثت. إن فتاة ماء شابة و"مقبولة"، ترفض الحريات التي يحاول أن يمارسها معها، حتى تستطيع مجاملاته وملاطفاته أن "تبدل غضبها إلى أفعال أكثر رقة". وبعد أن تجعله بعدها بالاً بهجرها بعد ذلك، تسمح له بأن يحل أربطة مشدداً الداخلي. وحتى إذا كانت الفتاة عذراء في السابعة عشرة من

عمرها خرجت لتوها من مدرسة البحر، لا نلمح هناك أي إحياء بالصعوبات المعتادة، الجنسية وخصية، لا بعد سوى تلميحاً غامضة عن تمصية "عدد ساعات للنهضة" أو "تسلم أنفسنا سنوة من المتعة تلوم حتى الصباح". هناك جو أشبه بجو الحلم يخلق حول جو هذه "مذكرات" بأكملها.

- ٨ -

□ لم يكن دونيللي صورة من "السيبوراك كارتوفا دي سينكالت"، وكان هذا إنساناً وكان الاحتياج إلى اكتشاف المزيد عنه قد أصبح شبيهاً بالتوتر الجسدي ذهبت إلى حجرة الطعام، حيث احتفظ بكتني التي تبحث في القانون وعلم الإجرام. ورحلت أبحت حتى عثرت على القصة الكاملة لقضية "قاتل جزيرة آلي" الإيرلندي. وكانت قضية عادية بقدر كبير. كان ويليام بورك كيروان فتاناً عاش في بلدة "هوت" مع زوجته في عام ١٨٥٢. وفي عصر يوم من أيام سبتمبر، استأجر ملاحاً يقاربه، لكي يحلف بهما إلى جزيرة "آلي" لايرلندية. وهي الجزيرة الجديبة الصغيرة التي تقع على بعد ميل من ميناء "هوت"، وهي على مرمى البصر من مالاهايد. كان يوماً هادئاً الحو. وفي الساعة السابع من مساء، سمعت صرخات صادرة من الجزيرة. وفي الساعة الثامنة، وصل الملاح يقاربه مرة أخرى إلى الجزيرة، فوجد كيروان ما زال مشغولاً برسومه. وهذه ولعة تنير الشكوك، طاملاً أن الظلام كان قد سيطر بالفعل. وقال كيروان أنه ليس وفقاً من المكان الذي ذهبت إليه روحته. وقرص أنها كانت في مكان ما على الجانب الآخر من الجزيرة، لا تزال تسبح. وبعد بحث عنثروا عليها في بركة ضحلة صغيرة ضحلة، وقد امتلأ وجهه بكدمات كثيرة، وامتلات رنتاها بالماء ورعه وصوح انبيسة على أن موتها كان نتيجة لحادث عارض من هذه الظروف كانت مثيرة للشكوك للدرجة التي دفعت إلى تشريح جسده. وأدهش كيروان شهمة قتل روحته على أساس الأدلة المستمدة من الظواهر نفسها. وكان قد زعم بأنه لم يسمع لصراحات التي كان من الممكن أن تسمع من الشاطئ. وكانت له عشيقة وضعت له طفلاً في دبلن. وقد اعتقد كثير من الناس أنه مرتب، أنه استبدل حكم الإعدام الصادر صده بحكم بالسجن مع الشغل شاقة. وخرج بعد هذا من السجن لكي ينزوح كسيفته، نه، هاجر إلى أمريكا

ذهبت إلى غرفة مكتبي، واشعلت اللقطة الكهربائية، وكتبت على الآلة الكاتبة خطاباً إلى إيريك جيبكينسون بيتس، لأقول له أنني أنوي أن أكتب عن قضية قاتل جزيرة كي الإبرلندية في مكتب عن الجريمة وتساءلت إن كان في مقدوره أن يشرح لي سبب اعتقاده في براءة كيروان. ثم خرجت فهبطت لثل وأرسلت الخطاب بالبريد. وبعد ذلك، شعرت بما يكفي من الاسترخاء لكي اقرأ لويبي قصة عن الأرنبه بيتز.

-٩-

□ استيقظت مبكراً في صباح اليوم التالي، وتمشيت طويلاً حول بحيرة "روس" وحينما عدت أخبرتني ديانا، (اتصلت بك مبس دونيللي من جروم وتريدك أن تتصل بها لاحقاً).

-هل كانت لهجتها ودية؟-

-بشكل ما. تقول إنها كتبت لك خطاباً.

كان هناك صندوقان كبيران من الورق للقوى، ملئين بالرسائل التي وصلت في أثناء غيابنا، ولم تكن لدي حتى تلك اللحظة أية طاقة لفحصها جميعاً. وبينما راحت ديانا تعد لي الإفطار، من البيض والباكون، أفرغت أنا الصندوقين على أرضية غرفة للكتابة. فلت لويبي أن تخرج بنفسها كل الرسائل التي وصلت إلى ناشري أولاً ثم أعاد توجيهها إلي. فإن مثل تلك الرسائل يمكن أن تنتظر. فتحت صندوقين صغيرين من التسجيلات الموسيقية. وعدة مكتب من ناشرين يأملون لو أنني افتطفت منها فيستخدمون ذلك في إعلاناتهم (وللأسف، فإنهم نادراً ما يرسلون إلي الكتب التي أتمنى أن أحصل عليها مجاناً، لا يرسلون سوى الكتب التي تتعرض لها اللقالات الصحفية بشكل سيئ) وأجيراً عثرت على الخطاب الذي يحمل خاتم بريد "لايم ريك"، وقد كتب عليه العنوان بحظ ذهبي واضح.

ولابد لي أن اعترف بأنني له أكتب صريحاً معها صراحة كعامة في الخطاب الذي أرسلته إليها في بيوهاغن. فإني لم أر هاندة من أن تصفق الأيوت في وجهي منذ البداية ولهذا

فقد أحرقتها ببساطة بأنني سمعت عن إيرمويد دونيللي في أثناء جولة محاضراتي. وتركت هذا أن تستنتج أن شخصاً ما من بين المستمعين إلى إحدى المحاضرات قد ذكر الاسم أمامي. وبسي أردت أن أكتب عنه مقالاً أو فصلاً في مكتب سائره في المستقبل ثم خاطرت بذكر سي قد تبادلنا حديثاً مع الكونوتويل دونيللي وبني رأيت عند نسخة من مذكرات رحلات دونيللي الكبير

جعلني زدها أشعر بالحجل من نفسي فإنها - بشكل وفور وإن لم يكن ودنيا - تقول إنها كانت سعيدة عندما سمعت بأن حديثاً أذكر له يكن قد سي بعد سبباً كاملاً. وإنها قد مضت عدة سنوات في محاولة إقناع أحد الناشرين لكي ينشر طمعة جديدة من المذكرات وقالت أنها وشقيقتها ستعطينان نرويتي في أي وقت أذهب فيه إليهما. وفي نفس الوقت فإنهما ستكونان للمحامي الذي يحتفظ بأوراق دونيللي في خزانة خاصة لكي يأتي بتلك الأوراق إلى ليل

ومرة أخرى شعرت بوحررات الصمير، وأخذتني إحساس بالبل إلى نجاهل الأمر كله ونكسي ندرعت بنظرة إلى الخطوط الذي كتبت قد نرعت عنه غلافه بالفعل. وقررت أنه سيكون من السخف أن تخلى عن معامرة كانت يدبنتها منمرة إلى هذا الحد اتصلت بمركز التحويل الهاتفي وطلبت منه أن يوصلوني برقم الأسمه دونيللي، أجابني صوت قاطع حاد بأن كان إنكليزياً بقوله.

٥٣. مستر سورم كان عطفاً منك أن تتصل بي لقد أخبرتني روحك بأنك لم تعد من أمريكا إلا بالأمس. وفي وقت متأخر لابد أنك محهد تماماً

قلت إنني أشعر بأنني بحير، وسأنتها متى تتوقعان وصول الأوراق من مكتب المحامي

٥٤. أود إننا هما الآن لقد كان سريعاً جداً وكما بقراها الآن إننا مادة أخاذه ببساطة كيف تتوقع أن تسافر إلى هناك بالفطار؟

وحينما قلت أنني سأسافر بالسيارة سأنتني لماذا لا أقود سيارتي الآن فوراً لكي أتناول معهم طعام الغداء. نظرت إلى ساعتني وقلت لها إنني إن فعلت هذا فلن أصل قبل العصر وقبل أن أنهي للكاله قالت،

"أمل ألا تستاء إذا سألتك سؤالاً واحداً" وغاص قلبي في صدري بينما قالت: أمل ألا تكون مهتماً بأية قصة من الأفافيسيس الرديئة التي تحكى عنه؟

"أفافيسيس رديئة؟" هكذا تساءلت وأنا أشعر بمفسي واقعاً في شبكة عنكبوتية من اللبورات وإمصاف الحقائق، ولكنها قالت:

"لقد رأت شقيقتي واحداً من كتبك في المكتبة، إنه كتاب عن جريمة القتل، فأمل ألا تكون مهتماً بالشائعات البلهاء عن دونيللي واللادي ماري حليتي؟"

وكنيت قادراً على أن أقول، مع إحساس هائل من الارتياح، بأنني لم أسمع أبداً شيئاً من تلك الشائعات. قالت في صوت يشبه صوت رجال الأعمال:

"حسناً، إنني سعيدة بأن أسمع هذا"

سمعت فرقة صغيرة، ثم سمعتها تصبح: "تينا، هل تتسمعين على الخط الآخر؟"

"أجل، يا عزيزتي."

"لا أريدك أن تفعل ذلك. فهذه عادة تبعث على الصبغ."

وهذا الغفل الخط، نظرت في السماعرة لعدة لحظات متسائلاً، ثم وضعت في مكانها.

- ١٠ -

□ قبل أن أعاد المنزل، اتصلت بصديق قديم من جامعة كاليفورنيا، وهو البروفيسور كيممين روش، وقال لي مساعده أنه في بيته، فاتصلت به هناك.

"هل تعرف شيئاً عن إيزموند دونيللي؟"

"الشخص الذي يكتب كتاباً عن اقتضااض العداري؟"

"أعتقد حقاً أنه يكتبه."

- ١٠٤ -

"لا أرى سبباً يمنع من الاعتقاد في ذلك. الصفحة الأولى من نسختي تحمل اسمه"

"هي لديك هنا؟ ليمكنني أن أني لكي أراها؟"

"بالأنا كيد، متى تحب أن تأتي؟"

قلت: "الآن". وفي حلال خمس وأربعين دقيقة كنت في عرفة مكتب مكيفين للطلبة على خليج غالادوي، والتي يمكن أن أرى منها مشهداً جميلاً لغابيتي اينيشمان واينيشمور.

كنت قد قررت أن أمضي في سياستي القائمة على الصراحة، لأن الأخبار تنتقل بسرعة في أيرلندا. وهكذا، بعد أن تبادلنا التحيات، وقيلت كاساً صغيراً من نبيذ "باشميل"، تولت مكيفين مخطوطة "رفض فلسفة هيوم" وقلت له أنه قد طلب مني أن أعدد لها للنشر وأن أكتب لها مقدمة. قال:

"إنها قصيرة، أليس كذلك؟"

أمل أن أعثر على أشياء أخرى، خطابات ومذكرات. إنني ذاهب الآن لكي أزور الأنستين دونيللي في بالي كاهان.

ناولني الكتاب ذا الغلاف الورقي الذي كان موضوعاً على مكتبه، كان صادراً عن دار "ويليسك" للنشر في باريس، بعنوان: "عن اقتضااض العداري" تأليف إيزموند دونيللي. وكانت هناك ملاحظة تمهيدية صغيرة موقعة باسم "هنري ف. ميلر" تكرر الحقائق التي عرفت بها بالفعل عن دونيللي: تاريخ مولده ومكانه، وإشارة إلى مذكرات رحلاته، ثم يقرر حقيقة أن هذا الكتاب كان قد نشر بالألمانية وصدر عن دار نشر "بروكهوس" في لايبزيغ (وهي نفس الدار التي نشرت مذكرات كازانوفا) في عام ١٨٣٥، ثم قام ناشر هولندي مجهول بنشر نفس الكتاب - في ترجمة عن الألمانية - بالإنكليزية في عام ١٨٦٣، فتحت الكتاب على فصل عنوانه: "حول خرافة أن كل النساء منشابهات في الظلام"

روبين، أنوسل إليك يا سيدي، أأكمل تعاليمك. لأنني متعلق بكلماتك تعلقي بمعرفة مصري.

- ١٠٥ -

لورد كوكوالد، بئس نثير عروزي، يا ولدي العزيز، ولكنني أحد حزائي الحق في تعافك معي على أهمية الحصول على هذه المعرفة الرفيعة، علينا الآن أن نسطر في امر الحرفة، التي روح لها كلود دي كوريبيون ومستر كليلاند، والتي عبر الناس عنها بالكلمات التي تقول "ضل القسط في الطلام، رمادية اللون"، يمكنك أن تصدقي في هذا الأمر، حينما التمت إلى الورا، نحو حياة بأسرها في معرفة النساء، لم تمكن من أن أتذكر أن امرأتين منهما كانتا متشابهتين حينما تفرج السيقان، إنني لا أتحدث الآن فقط عن مناقض النجعة المحمصة التي قد تكون ممثلة أو باررة العظام، لحيمة أو نجمة، غائرة أو نافرة، ولكنني أتحدث عما يسعى لي أن أعوده بالروح التي تقبى في هذا المكان، وليس هناك رجل طيب الدهن يمكن أن يخلط بين نبيذ بروكسودي الداكن ونبيذ بورديو الأصعب، ويستطيع حتى الطفل أن يذكر الفرق بين التفاحة والكمثرى، رغم أن ثمرة قد تكون باعمة كثيرة العصاره، وقد تكون أخرى صلبة جافة، هكذا الأمر مع النساء، تماماً مثلما تحكه على مذاق النبيذ من خلال الجربة الأولى، فإن النكهة المتميزة لفتاة ما يمكن أن تدرك بوضوح في حركة اللامسة الأولى حينما تستقبل الشفتان الورديتان الطوليتان الرأس القطيعي بينهما، لقد عرفت خادمات سكن حاديات وطازجات، مثل تماحة تأكلها تحت ضوء القمر، وأحريات صكى رطيبات باعومات مثل كمثرأة أو ثمرة خوخ، وأحريات ملمسهن صلب تستنبر أجسادهن لحظة العناق، ولكن داخلهن كان حلو المذاق، مثل ثمرة شمام ناضجة..

وصغت الكتاب جانباً، ونطرت عبر المكتب إلى كيممين، الذي كان ما يزال مستغرقاً في قراءة مقالة "رفض لفلسفة هيوم"، لو أنه قد رفع بصره إليه، لكنت جديراً بأن أقول، هذا شيء مزيف آخر، ربما يكون دونيللي هو كاتب الصفحة الأولى، لأنها تتميز بذلك الافتحام سيكولوجي الذي أصبحت أعرفه وأتوقعه عنده، ولكن الفقره، المكتوبة عن الشقيقتين تحمل نسة من تأثير كتاب دي صاد "فلسفة في حجرة اليوم"، أما الجملة الأخيرة فتحمل أثراً قوياً عن نفوسة التي لا يبررها حتى ما تتميز به من تنصير سيكولوجي واضح.

إلا أن كيممين رفع بصره عن المخطوطة بعد قليل، وكنت قد عبرت رأبي وفهرت ألا أتكلم، فلو أنني وصحت الأسباب التي تدفعني إلى الطل بأن ما قرأته الآن كان عملاً مريباً لكان علي الاعتراف بأنني أعرف للريد من أعمال دونيللي، وني نسخة لقارنتي بأعماله التي أعرفها، فإني اعتقد بأن هذه المخطوطة كانت عملاً مريباً وهكذا، فقد أبدت - بدلاً من

هذا - بعض الملاحظات حول ما في هذا الكلام من حاذبية، أما كيممين نفسه فكان معتبطاً بمقالة "الرفض" وسألني إن كان له أن يأمر بنسخها، لكي يكتب مقالاً حول تطور أسلوب دونيللي

ووعده بأن أتيح له فرصة الحصول عليها بعد أن أطلع الأنتستين دونيللي على الموضوع، ثم تركته وانصرف. كان النهار قد جاوز منتصفه، وكان علي أن أذهب إلى "ليمريك"، وبعد أن جاوزت أورايمور فقط تذكرت أنني قد نسيت أن أسأله إن كان يعرف أي شيء عن قصيدة ذكر فيها اسم لادي ماري جيلبي

تركنت ديانا ومويس في ليمريك حيث كان بإمكانهما أن يقضيا بضع ساعات في شراء الحاحيات والتجول بين البصانع، ثم ركبت السيارة عن طريق كورك، عبر ريف مسطح ناعس كانت خضرة كثيفة ساخنة قد جللتها تحت شمس إبريل الساطعة توفقت في بلدة "باللي كاهين" لكي أسأل عن قلعة دونيللي، فقيل لي إنني قد توغلت في الطريق إلى أبعد مما كان ينبغي لي، وإن علي أن أعود ثانية صوب بلدة "دير" لكي أدور مع الطريق من ناحية معاكسة. وعلى هدي هذه التعليمات، تمكنت من التوقف عند باب قلعة دونيللي حوالي الساعة الثالثة.

ولم يكن البيت قلعة بالطبع، وإنما منزلًا من الطراز الذي ينسب إلى عصر الملكة آن، وقد شيد بأحجار فضية، وأحاطت بمدخله أعمدة كوريبنية من صخور حمراء، وكانت الجدران مكسوة بالسناج، واكتسى المنزل بحو من الإهمال الشائع في المنازل الإيرلندية العظيمة، وبشكل خاص في مقاطعتي "كونوت، مويسز" فادني السلم اللطيف ذو الدرجات الخشبية الأربعة عشرة إلى الباب الأمامي، كانت سطوح الدرجات المصقولة غير مستوية حتى أنني تعجبت كيف يستطيع أي إنسان أن يصعد أو ينهب دون أن يلتوي مكاحله، كان نهر "ماي" يجري إلى جانب المنزل، وإطلال دير أبي تنتصب عند الأفق، وشمرت بالصدمة حين حطرت لي فكرة أن هذا المنزل كان يبدو جديداً وجميلاً حينما ولد فيه دونيللي - لأنه كان قد شيد حوالي ١٧٠٠، وأن الجدران لم تكن مكلفة بالسناج كما هي الآن حينما كان هنا، كانت هذه "الدكري" أشبه بالقفر إلى الورا نحو الماضي، تولد عنها إحساس مرعج بحريان الزمن السريع.

وقبل أن أبلغ قمة النرج، فتح الباب، وبلت وراءه سيدة قوية شبيطة في ثياب ركوب الخيل، وكانت قد جمعت شعرها الرمادي بلون الحديد فوق رأسها، ووقفت مباعدة ما بين ساقها مثل صورة لواحد من سادة الريف في لوحة من لوحات رولاند سون، وكانت مصافحتها قوية وذابئة مثل مصافحة الرجل. قالت:

"أنا آلين دونيللي سعيده لقابلتك".

كانت لهجتها تتطابق ولهجة الطبقة العليا من الإنكليز، مع لمحة من اللهجة الإيرلندية تبدو في مخارج الحروف، ثم أضافت تقول، "يسعدني أنك جئت بالفعل".

كان المكان مقبصاً وبارداً، وبدأ في مؤخرته سلم صخري كثير الدرجات يؤدي إلى الأقسام العليا من المنزل التي يبدو أنها لم تعد تستعمل. كان هناك قدر كبير من الرمر الذي يتناقص بغربة مع ورق الجدران الفيكتوري المتناثر في كل مكان. ولكن غرفة المكتبة الواسعة التي قادني إليها كانت تضم باراً كبيرة في المدهاة وكانت هناك سيدة أخرى، تعمل بإيرتها إلى جوار النار، وإن لاحظت عليها سمات الرجولة هي الأخرى. قدمتها إلى السيدة الأولى باسم "ميس تينا". كانت ضئيلة الحجم، حلوة الوجه، ولابد أن الثياب النسائية كان يمكن أن تناسبها أكثر. وخمنت أن سرابيل الركوب المنفحة كانت بهدف الاحتماء من البرد. عرضاً علي أن أشرب الشاي، ومضت ميس تينا لكي تعده. وقفت ميس آلين أمام النار، وقد باعلت ساقها، ووضعت يديها وراء ظهرها، ودخلت معي في محادثة عامة حول الطقس والريف وما إلى ذلك. ثم تكلمنا حول أمريكا. وبدأ عليها أنها شديدة التطلع إلى معرفة كل شيء عن أمريكا، وبعد عشر دقائق أو نحوها، قالت بطريقة عابرة أنها سمعت أن هناك من الأمريكيين من هو على استعداد لدفع مبالغ ضخمة من المال لقاء منازل من هذا النوع. قلت إنه من المحتمل أن يكون الأمر كذلك فعلاً. سألت، كم يدفعون؟ فحاولت أن أخمن قيمة المنزل بسرعة ثم قلت أن الشخص العادل من المحتمل أن يدفع خمسة وعشرين ألفاً لقاء هذا المنزل. سألت بسرعة، "جنهات أم دولارات؟". قلت، جنهات. وعند هذا بدا عليها أنها تفكر بجدية وباستغراق كاملين. وبينما كانت ميس تينا تصب الشاي، مستخدمة طاقم شاي جميل من القرن الثامن عشر من المحتمل أن تكون كبرستينا شقيقة روبين قد استخدمته بنفسها، تبهنت فجأة لماذا كانتا مهتمتين إلى هذا الحد، بعملية إحياء ذكرى إيزموند دونيللي ولعاش شهرته. لم يكن لهاتين المرأتين أي أطفال، فلماذا لا يبيعان هذا المنزل الضخم

عبر الريح، ثم يشتريان شقة جميلة في لندن، وبدأ شعوري بالذنب. بسبب هذا البحث عن دونيللي. يتناقض، إن نشر كتاب، "مذكرات آفاق إيرلندي" يمكن بالتأكيد أن يزيد من شهرة أحدهما أكثر مما يمكن أن يزيدها كتاب مذكرات الرحلات أو مقالة "رفض منسية هيوم".

سألتني ميس تينا عن كولونيل دونيللي، فأخبرتها بالقليل عن أطوار حياته في سنوات الأخيرة، وبدأ عليها الحزن الشديد. قالت أختها،

"بالرجل المسكين، علينا حقاً أن نكتب إليه يا آلين".

"ربما. يبدو أنني أتذكر أنه كانت هناك بعض الشائعات حوله، هل وجدته غريباً أو شاذاً يا ميس سورم؟"

قلت، "كلا، بأي شكل من الأشكال".

قالت ميس آلين وقد غرقت في التفكير دانية، "بالطبع، إنه ليس سوى ابن عم من الدرجة الثانية".

كان بوسعي أن أرى أنها تفكر في الزواج - ربما من أجل تينا. وخطر لي أن الكولونيل دونيللي ربما أعجب بالين، فقد بدت كما لو كان تملك يداً ماهرة في الإمساك بسوط الركوب القصير. وسجلت ملاحظة باطنية لكي أتذكر من بعد ضرورة خلق اتصال من نوع ما مع دونيللي.

قالت ميس آيلي، "حسناً" إذا كانت زوجتك في ليمريك، فإنك بالتأكيد لا تريد أن تفصي كل فترة ما بعد الظهر هنا فيما اعتقد. إن ليمريك هذه بحق مكان مخيف. هناك الكثير من اللصوص الملاحين. لقد أحرقوا أحد أجدادي قديماً في عام ١٥٤٠. إنه الأسقف دونيللي المعروف باسم جو القلنس. لم ترق لهم موافقه وأراؤه السياسية".

قادتني وهي تتحدث إلى حجرة صغيرة ملحقة بالمكتبة. كانت هناك مدهاة كهربائية ذات قضيب معدني متوهج واحد، ولذلك فإن الغرفة لم تكن شديدة البرودة، كذلك فإن الحجرة كانت قد نالت شيئاً من دفء الشمس التي مالت إلى الغرب. على مائدة صغيرة كانت هناك مجموعتان كبيرتان للأوراق من النوع الذي يصنع بحيث يتخذ شكل

الكتاب. فتحت إحدى المجموعتين. فتسارعت نبضات قلبي وأنا أحاول التعرف على "الخط" الذي كتبت به الصفحة الأولى من الأوراق الصفراء الكبيرة الحجم. قالت مس ليلين.

"لقد وصفت قصاصات من الورق في الأماكن التي ظننت إنها قد تنير اهتمامك أكثر من غيرها إنه يصبح في غاية الإبداع والجمال عندما يبدأ بالتوصف حسناً. سوف أتركك الآن مع لخطوطه. وسوف تظل تبينا في المكتبة لكي تناديهما إذا احتجت إلى شيء ما"

تركتني بعد هذا بمفردي. وبدأت أقرأ - بسرعة - على الفور.

"شارع جراند شومير. ١١ سبتمبر ١٧٦٦

(أي حبيما كان دونبيلي في الثامنة عشرة على الأرجح)

"بابا العزيز

كان خطاب التوصية الموجه إلى مسيو بليزبو مفيداً للغاية، ولقد تناولت العشاء مع أسرته في الليلة الماضية. وهو يبحث إليك بآرق تمسياته وأفضلها. لقد عانى عمله من بعض الانعكاسات في الأعوام الماضية. ولكنه ما زال يعمل طبعاً لما تفرضه التقاليد والأوضاع المقررة تماماً. إنه يستكشف في حجرته في ساعة مبكرة بسبب إصابته بمرض التقرس. وقد اصطحبني مدام ليزبو وابنتاهما اللطيفتان في برهة على الأقدام على طول الحديقة التركية التي تبدو مقاهيها مناظر مذهشة ومتفردة إلى أقصى حد. هذه المقاهي لا تردحم بالداخل فقط، إنما توجد حشود أخرى خارجها ودائماً تطل من النوافذ المرتفعة أيضاً. يستمعون جميعاً في "الفضول دون مبالاة" إلى مغنين وعازقين من نوع معين يطلون على جمهورهم من فوق المقاعد التي يعتلونها...

عبرت ما تبقى من الخطاب بنظرة سريعة. كان في مجموعه ممتعاً. يحتوي على مادة إخبارية من النوع الذي يمكن أن تتوقعه في كتابات هوراس والبول أو ارثر يونغ. كان من الواضح أنه خطاب شاب يرغب بشدة في أن يؤكد أنه لا يصبح حياته ولا أمواله سدى ونظرت سريعاً إلى الخطابات الأخرى. ورحت أنتقي خطاباً من هنا وآخر من هناك عشوائياً لكي أقرأه كله. ومن خلال القراءة، تعمق لدي إحساس بخيبة الأمل لم يكن هنا شيء من النوع الذي لم يكن يوسعي أن أجده في "يوميات الرحلات". وفي الحقيقة. لا يمكن أن يكون

- ليس هناك في هذه الأوراق ما يشير إلى أن دونبيلي كان "عضواً في جماعة العنقاء" -
مبول شريرة لا تخبو". فيما بررت من خلالها في صورة الشخص المحترم الوفور".

قالت: "وود. لا أظن أنه كان محترماً إلى درجة شديدة جداً".

- كم لا؟

- "وود. لا أعرف. كانت هناك الفاصيص - شائعات. لا شيء محدد تحديداً كاملاً. لقد امضى أوقاتاً كثيراً في سويسرا وإيطاليا. ليس كذلك؟

وأنا اعتقد أن الناس كانوا أشاروا إلى حد ما في ذلك الوقت".

قالت عبارتها الأخيرة في كتابة وحزن وهي تنظر من النافذة إلى النهر حيث كانت أشكال الشجرات وجذوعها الطويلة منعكسة بوضوح. وبعد لحظة إضافية تقول.

- "طبعاً. لابد أن الدكتور جونسون كان يقصد نوعاً من النورية. فإن غلاف منكرات إيزموند يحمل صورة لطائر العنقاء".

فكرت في هذا للحظة خاطفة. ثم قلت.

- "كلا. إن هذا مستحيل. لقد قال جونسون ملاحظته تلك في عام ١٧٨٢. ولقد صدرت الطبعة الأولى من منكرات الرحلات في عام ١٧٩١"

- "لا أظن هنا صحباً. وأنا واثقة من أن لدينا طبعة تسبق هذا التاريخ. أسمح بأن تأتي لكي تبحث عنها؟ فليمان ليستا على ما يرام.

ذهبنا إلى المكتبة. فقالت بغموض ودود تحديد.

"يبدو أنني أتذكر أن الكتاب موجود على أحد الرفوف العليا هذه".

كانت الكتب تتصاعد إلى ارتفاع يزيد على عشرة أقدام أخذت سلم المكتبة الذي كان مستنداً إلى أحد الجدران. وتسلقته إلى الرف الذي أشارت إليه. مضت خمس دقائق من البحث قبل أن أصل إلى عدد من المجلدات ذات الأغلفة الجلدية وقد طبع اسم دونبيلي على "كعب" كل مجلد. وكان بعض هذه المجلدات نسخاً من الطبعة الصغيرة - بحجم الجيب -

من يوميات الرحلات التي كنت قد رايتها عند الكولونيل دوبيللي. وكانت هناك طبعة جرى من يوميات الرحلات تقع في أربعة مجلدات، وقد طبعت في لندن عام ١٧٩٣. ووردت فيها ملاحظة تقول: "الطبعة الثالثة". وكان هناك أيضاً مجلد أكبر حجماً، صنع غلافه الجميل من الجلد الذي ظهرت عليه علامات الزخرفة حتى بعد قرنين من الزمان. وكان عنوانه: "ملاحظات حول فرنسا وسويسرا" تأليف إيرموند دوبيللي، طبع من أجل ج. ج. جونسون أنه قائمة كبيرة بأسماء أخرى). لندن، ١٧٧١، وكان الغلاف الأمامي والصفحة الأولى يحملان صورة لعنقاء تهب من بين نيرانها. وقد رسمت بالأسلوب اليهود لرسم الشعارات الذي يمكن أن يرد على أوراق الرسائل القديمة. وحينما حدثت فيه خطر لي أن الريش للنصب على صدر نظائر يمكن أن ينظر إليه أحد أصحاب مدرسة التحليل النفسي الحديث باعتباره رموزاً للعصو الجنسي للذكر. إن الريش على صدر الطائر العادي، على أي حال، لا بد أن يكون تحاهه إلى أسفل، بينما تكون أطرافه ناعمة مستديرة. أما هذا الريش فكان منتصباً إلى أعلى، وأخذت أطرافه شكل أصابع "السحق". قلت:

"من الغريب أن أحداً لم يذكر هذه الطبعة من قبل، ولا يبدو أن الكولونيل دوبيللي يعرف عنها شيئاً".

"هذا محتمل. وأنا أعتقد أن كل نسخ هذه الطبعة قد دمرت".

"لماذا؟"

"لقد شب حريق ما. وسوف تجده منصوصاً في أحد الخطابات. لقد رايت هذا الخطاب بالأمس فقط".

هبطت من فوق السلم، حاملاً معي الكتاب. وذهبت مبسّ تينا إلى الحجرة الأخرى، وبعد بحث استغرق خمس دقائق سلمتني الورقة الأخيرة من أحد الخطابات. كانت الورقة تقول،

"مكارثة! لقد أخبرتني توك الآن بأن مطبعة جونسون قد احترقت عن آخرها. وإني لسميد الحظ لأن هذه الحادثة لم تكلفني شيئاً.

وكان تاريخ الخطاب ١١ سبتمبر ١٧٧١. إذن فإن هذا ما يفسر أن كنت "ملاحظت" حول فرنسا وبكلية "طل مجهولاً دون أن يسمع به أحد وبالإضافة إلى هذا، فإن حتى هذه النسخة، مثلما يمكنني أن أرى، لم تقرأ قراءة كاملة من البداية إلى النهاية. لأن كثيراً من صفحاتها لم تكن قد قطعت بعد. رحت أقلب الصفحات حتى توقفت عيناى على كلمة "عنقاء". قلبت ثاني إلى الصفحة السابقة وقرأت الفقرة كلها. في هابندلج بمسرت العربية التي كان من المفروض أن يستقلها دوبيللي في رحلة خارج للنينة. وقال له صاحب الفندق أنه لم يكن من الممكن أن يوفر له غرفة أخرى. ولكنه أخرد بأن الحوري المحلي، النفس كثره يملك غرفة يؤجرها أحياناً للضيوف الرموفين. وعثر دوبيللي على كرايز في حديقته يتطلع إلى مراعاة الزنايق. فآخذة لكي يرى العربية التي كانت موجودة في حظيرة قريبة وقال الحوري أن العربية لم تستخدم طوال الشتاء وأنها قد تكون مزينة مبيلة. وبطر دوبيللي إليها وقرر أنها ستكون عربية جميلة بعد خمس دقائق من العمل في تنظيفها. ورفض الحوري أن يأخذ بقوداً لإيجاراً لعربته. وفي طريق الخروج من الحظيرة، لاحظ دوبيللي صورة حنيبية لطائر العنقاء ملقاة على الأرض وقد غطى نقش نصها. وسأل الحوري عن سبب وجود هذه الصورة في هذا المكان، فقيل له إنها كانت ضمن صفقة أثار كان قد اشتراها من مراد منذ أكثر من عام. ولما شعر بأنها شيء لا يتلاءم مع حوري محترم فقد ألقى بها إلى الحظيرة. وفي شيء من الدهشة سأل دوبيللي عن السبب الذي يجعلها لا تتلاءم مع فس محترم.

"بلت عليه الدهشة لجهلي. وسألي أن كنت لا أعلم إن هذا الطائر كان رمزاً لجماعة من الهراطقة المجدفين، يعرفون أحياناً باسم "أحود أرواح الحرة" وأحياناً يعرفون باسم "جماعة العمياء". وأجيبته بأسى لا أعرف إلا أن العنقاء كانت تستخدم أحياناً كرمز يعلق على دكاكين العطارة أو الصيدليات، وأني كنت أفترض أن لهذه الصورة معنى كيميائي من نوع ما. وهنا راح الرجل العلبه يحاصرني في تاريخ جماعة العمياء. فقال إنها ظهرت في أوروبا في عصر الطاعون (الموت الأسود)، حينما شاع اعتقاد بقول بأن الإعراف في اللذة الجنسية وشهوتها وقاية مؤكدة من المرض. وكانت الحجة الأساسية لهذا الاعتقاد تقول إنه لا يمكن أن تكون هناك روحانية أصيلة من دون أن تكون هناك روح داخلية عالية الشفافية. إن الإنسان لا يستطيع أبداً أن يعرف الحقيقة بينما هو يتطلع إلى الخارج نحو ما يحيط بروحه، مغرقاً نفسه في الأشياء الخارجية. إن الروح في دروة اللذة الجنسية تكون أكثر تركيزاً منها في أي لحظة أخرى. وقد اعتقد "أحود أرواح الحرة" إن "الله" كامن في

كل مكان وفي كل شيء. وإن كل اختلاجة من اختلاجات شبهة إنما هي ككشف من الله وتكادراً على هذا الاعتقاد، راحوا يمارسون كل أشكال الإسراف الشهواني، ويحدث هذا حباً فوق اللبج نفسه. وقد اختلفت محاكم التفتيش هذه التعاتيم من جنورها بقسوة عسمة. ولكن ثبت أن "جماعة العنقاء" كانت تحمل الطبيعة الأسطورية التي نسبت إلى الطنزة الذي اتحنه رمزاً لها، فبرزت من جليده، مرة بعد أخرى، من وسط رماد عمود الإحراق الذي مات عليه بعض اعصائها. وطبقاً لما قاله هيرودوتس من أن عمر العنقاء يبلغ خمسمائة عام، فإننا يمكن أن يؤكد بنقطة أن هذه الجماعة سوف تستمر في الازدهار على الأقل لمدة قرن آخر.

وأخيراً بآني قرأت في رسالة سانت كليمانت لرماني إلى أهل كورننته قوله أن العنقاء، رمز للبعث للسبحي، ولكن الرجل الطبيب أجابني بأن هذا نوع من الشيطنة البابوية، وأن كل الناس يعرفون بأن سانت كليمانت قد قيد إلى مرساة سفينة والتي به في البحر كعقاب له على مبالغاته، وحينئذ عرضت عليه أن أخلصه أو أريحه من أمر هذا الرمز للأحطاط البابوي، فاتفقنا على ثلاثة تأثيرات ثمناً للصورة الخشبية.

كانت هذه هي نهاية الفقرة، ثم لا أذكر ما حدث لصورة العنقاء المحفورة على الخشب. نقلت الفقرة كلها بخط اليد ثم نهيت إلى المكتبة وسالت ميس تينا إذا كانت تعرف شيئاً عن وجود صورة محفورة على الخشب لطائر العنقاء في المنزل - فقد بدا لي أن مثل هذه الصورة يمكن أن تكون رمزاً ملائماً لكي يوضع على غلاف المجلد المقترح طبعه من مدكرات دونبيلي. قالت إنها لم تسمع عن وجود مثل هذه الصورة أبداً، ولكنها أبدت استعدادها لسؤال شقيقتها. وقبل أن تتمكن من إيقاظها كانت قد غادرت الحجرة جلست على نراع أحد المقاعد، ورحلت أنطلع إلى "الملاحظات" دون اهتمام. انزلت الكتاب من فوق ركبتي وسقط على الأرض. هولف على حافته وقد انفتحت صمحاته وحينما كنت أتفحصه، أدركت أن شعرت بأن الغلاف الحلفي كان أكثر سمكاً من الغلاف الأمامي، والأكثر من هذا، كانت الورقة اللاصقة للغلاف غير محكمة الالتصاق، وعلى عكس الورقة العاقبة للغلاف الأمامي، فإنها لم تكن ملتصقة بالورقة الأخيرة من الكتاب. ثبتت الغلاف بخفة، لكي أرى السبب الذي جعله مفتوحاً بهذا الشكل. فتيببت أنه يوجد ثمة جيب بين الغلاف للصنوع من الورق للقوى وبين الورقة اللاصقة للغلاف نفسه. وكان الجيب قد صنع بالصاق

الأطراف الخارجية لهذه الورقة إلى الورق القوي. وفي داخل هذا الجيب كانت هناك ورقة غير مطوية. سحبت الورقة من مكانها وفتحتها. كانت الورقة من نوع ممتاز، شديدة البياض وشديدة الرقة، ولم تكن تحتوي إلا على رسم رفيع لعنقاء طالعة من عنقا الملته بالنار، وكتب تحت الرسم *relix qui potuit rerum cogroscere causas* وهي جملة لاتينية استطعت أن أتذكر أنها مقتطعة من المعنى الذي أورده فيرجيل: "سعيد هو الرجل الذي استطاع أن يكتشف أسباب الأشياء". أما ما أثر في حقاً فكان الطائر نفسه كان الجناحان وريش الذيل من الذهب، مثلما كان الذهب المتصاعدة من العنقا. أما بقية جسد الطائر فكان مرسومًا بالفضة التي تراها في رسوم بليك. وفي الركن الأسفل إلى اليمين، وبخط إيزموند دونبيلي الذي لا يمكن أن أخطئه كانت جملة تقول،

"تسلمها في ١ سبتمبر ١٧٧١". ولو أن هذا التاريخ لم يكن منسكراً لكان من العسير علي أن أصدق أن الرسم لم يكن أحدث عهداً به بكثير. لأن الورقة كانت أكثر بياضاً ورقة من كل ما رأيت من أوراق تلك الفترة من التاريخ، ولم يكن يبدو عليها أي سمة من سمات تقادم الزمن.

سمعت خطوات ميس تينا في عودتها، فندست الورقة في الكتاب. قالت لي إنه من المؤكد أن ليس ثمة صورة خشبية لعنقاء في المنزل، إلا إذا كانت مخبأة في إحدى الغرف العلوية للغرفة. شكرتها واعتذرت لما تسببت فيه من إزعاج، ثم أعدت كتاب "الملاحظات" إلى مكانه على الرف. دخلت ميس ألين وسألتني عن تقدم عملي، ثم بدت عليها خيبة الأمل بوضوح حينما قلت أن علي أن أرحل فوراً. أكلت لها نتي وجدت عدداً كبيراً من المعلومات القيمة بين الأوراق وأطلعتها على كراسة مذكراتي لكي أثبت ذلك. اصطبلحتني الشقيقتان معاً إلى باب المنزل، وقالتا لي أن أعود في أي وقت.

قلت سيارتي إلى ليمريك وأنا غارق في أفكار متضاربة، ربما يمكن أن يقال أن هذه الساعات قد ضاعت دون فائدة، ولكن هذا القول لا يمكن أن يكون صائباً بكل الصواب. لقد عرفت أن شخصية إيزموند كانت ذات جانبين، الابن البار المخلص وكاتب يوميات رحلات الدؤوب، ثم "للسافر الشيق" إذا حق لنا أن نستعير هذه العبارة من السير ريتشارد بيرتون ولا يمكن لأي دارس للمادة الموجودة في قلعة دونبيلي أن يخمن وجود السافر الشيق.

ثم لقد كان هناك اللفز الصغير الذي تمثله صورة العنقاء. تحدثت بشأنه مع ديانا سيما كما يعود بالسيارة إلى غالاواي إن الخطابات تقرر أن كتاب "ملاحظات حول فرنسا وسويسرا" قد نشر في شهر يوليو من عام ١٧٧١. أما حكاية هايدلبرج - حيث اشترى صورة لعنقاء الحنوبية - فقد وقعت في شهر أغسطس من العام السابق. والسبب ما، استخدم دوبلي صورة العنقاء كرمز لكتابه على الغلاف - ربما كانت الصورة التي طبعت على غلاف الكتاب نسخة طبق الأصل عن تلك التي اشتراها من الخوري في هايدلبرج. وفي اليوم الأول من سبتمبر "تسلم" رسم العنقاء الجميل الذي رأيته مرهقاً به ذلك الشعار اللاتيني الجميل عن اكتشاف أسباب الأشياء. ومن المفترض أن هذا معناه أنه قد تسلم الرسم عن طريق البريد. واعتزيت ديانا قائلة أن لعنقاء الأقرب أن دوبلي قد تسلم الرسم من الشخص الذي كان هو قد كتبه بصنعه. ولم أوافقها على ذلك بقولي فلو كان هذا صحيحاً فلماذا كتلف نفسه على كتابه، "تسلمته في ١ سبتمبر". ولو أنني تسلمت بالبريد كتاباً كنت قد طلبته، فإني سأفعل قد أكتب عليه اسمي وتاريخ وصوله. ولكنني لا أكتب "تسلمته" لأنه من الواضح أنني قد تسلمته. لذا نستخدم كلمة "تسلمته" - تم تسلمه "لكي نوضح عملية دفع قيمة لصكوك، أو للتحدث عن خطاب أو رزمة. أما نظريتي فهي أن إيزموند قد تسلم رسم العنقاء دون توقيع من جانبه، أن الرسم وصله دون توقيع ودون أن يحمل اسم صانعه - وإلا لكان بالتأكيد قد كتب، "تسلمته من فلان أو فلان" أو حتى لكان قد احتفظ مع الرسم بالخطاب الذي أرفق به.

إن فمن الذي يحتمل أن يكون قد أرسل الرسم؟ شخص ما مهتم بالعنقاء باعتبارها رمزاً؟ أو - وأنا اعتقد أن هذا قد يكون مقنعاً أيضاً - أحد أعضاء جماعة العنقاء كان الخوري كيريز قد ذكره؟ كان الاحتمال الأخير احتمالاً متبراً، رغم أنه لا يمكن إلا أن يكون احتمالاً بعيداً. وقالت ديانا أنه احتمال بعيد بقدر بعد احتمال أن تكون إحدى السيدات قد أرسلت إليه الرسم هدية أو تذكاراً ربما أرفقت به رسالة غرامية. تمنيت لو أنني قد فحصته بدقة أكثر. وربما كانت الورقة تحمل علامة مائية تشير بشكل أو بآخر إلى أصلها. البس من المحتمل أن ورقة ثمينة من هذا النوع لابد أن تحمل الرمز الخاص بصانعها مدموغاً في نسجها الداخلي؟ وكان علي أيضاً بالطبع أن أقارن بين الرسم الموجود على الورقة وبين الشعار أو الرمز الذي حمله غلاف الكتاب. ولو أنهما كانا متطابقين، لكان هذا حجة مؤكدة

تتميز إلى أن إيزموند قد كتلف شخصاً ما بصنع رسم للطائر الخرافي الذي كان قد نشر صورته من القسيس كيريز.

وكانت هناك أيضاً تلك الحقيقة العجيبة القائلة بأن إيزموند قد كتب بقول نسخ الطبعة كلها قد دمرت بعد أقل من أسبوعين من تسلم رسم العنقاء. ومن المحتمل أيضاً أنه من الأمور ذات المفزى - أو غير ذات المفزى على الإطلاق - أنه ربما كان قد عدل استخدام رمز العنقاء على كتبه بعد ذلك أو أنه لم يستخدمه بعد ذلك أبداً - إنني أعرف عن الأقل أن هذا الرمز لم يكن موجوداً على طبعة مذكرات الرحلات التي رايت نسخة منها في لويزابانا، أو على تلك الطبعة التي رأيته في قلعة دوبلي.

ولم تكن لدي أية فكرة عن الكيفية التي يمكن بها للمرء أن يتحقق من أن مثل هذا الحريق قد حدث أبداً. كان هناك الافتراض البحث عما حدث لمؤسسة ج. ج. جونسون ومحاولة إظهارها. ووجدت أن هذه الفكرة لا تبعث على التشجيع، فإني لا أملك الوثيقة اللازمة للقيام بهذا النوع من الأعمال البوليسية. ومن سوء الحظ أن بوزويل كان في لندن يتلقى تدريباً على أعمال العمادة في السنوات بين ١٧٦٩-١٧٧٢، وإلا لكان بالتأكيد قد ذكر شيئاً عن ذلك الحريق. طالما أن ج. ج. جونسون كان أيضاً هو الناشر الخاص للكنتور جونسون.

□ هذا هو ما يقدم السبب الذي جعل أياي التالية لبرارتي لقلعة دوبلي خالية من أي شيء ذي أهمية يتعلق بهذه القصة. كانت خطابات دوبلي هي أملي الذي تعلقت به، أما الآن فلم أكن وثقاً مما ينبغي علي أن أقوم به بعد هذا. طلبت بالتليفون أو زرت كل مكتبة عامة بين مدينتي كورك وسليكو. وكانت بعض هذه المكتبات تملك نسخة من "مذكرات الرحلات" ولكن لم يكن لدى إحداها أي شيء آخر. وحاول كاتبين روش أن يقدم نوعاً من العون، مقترحاً اللجوء إلى بعض معارفه من الأكاديميين الذين ربما كانوا يعرفون شيئاً عن دوبلي، ولكن لم يؤد أي من هذه الاقتراحات إلى شيء نافع. كتبت إلى تيم موريسون في المتحف البريطاني، وإلى كل بائع كتب قديمة أعرفه. ورغم أن تيم كان

ساحراً عن اكتشاف مريد من التراجع التي تشير إلى دوبيللي. فإنه كان قادراً على إضافة فكرة وحدة إلى "الملف" الحاصل لدي جماعة العنقاء وكان ما كونه كما يلي.

"تقد تبادلتي حديثاً مع تيد مالتوري، وهو حبيراً المتخصص في شؤون الكنيسة في عبور الوسطى، ودار حديثاً حول ما أسميته "جماعة العنقاء" وكانت لديه تنف مقيدة من المعلومات. قال لي إنه ليس هناك دليل يثبت أن جماعة العنقاء وأخوة الروح الحرة كانوا سبباً واحداً فقد كانت هذه الأخيرة جماعة من الهراطقة الجديين. أسسها رجل يدعى بريت دي بينما كان قد طرد من جامعة باريس عام ١٣٠٤ ومات في عام ١٣٠٩ وكان أساس تدعيمهم أن الإنسان يمتزج في الله عن طريق العشق. وأنه حينما يحدث هنا تصبح الخطيئة مستحيلة بالنسبة للإنسان ولهذا فقد مارست هذه الجماعة حرباً جنسية كبيرة، وأحرق عند كبير منهم على أعمدة منصات الإحراق. وكانت بين هؤلاء امرأة تدعى مارغريت من فيبول، وهي راهبة مزيفة، يبدو أنها كانت مصابة بداء الشبق أو القلعة".

أما الإشارة الوحيدة إلى جماعة العنقاء التي استطاع تيد أن يعثر عليها فوردت في كتاب سانت نيلس سورسكي (١٤٣٣-١٥٠٨) في نهاية مقالته الثانية حول الصلاة الروحية وهذه هي ترجمتها عن الألمانية من طبعة عام ١٩٠٢. وهي ترجمة بدائية جداً وخشنة،

"من الأفكار التي شاع اعتناقها في أوقات مختلفة أن المعتقدين الناحرة على العقيدة الصحيحة والهرطقة لا تهدد بالخطر سوى أولئك الذين يعتنقونها، ولا أولئك الذين يتصلون بأولئك أو يقعون تحت سيطرتهم. ولكن القديس ثيودوسيوس يقول لنا إن الله ينقصهم في حد ذاتهم. وأنهم قد يتسببون في عذاب أو معاقبة الأبرياء. وإن حالة جماعة العنقاء في مقاطعة سيميريشنسك لتقدم أكثر الأمثلة رعباً على ذلك لقد آمنوا بأنه يمكن للرجال والنساء أن يحصلوا على الكشف الإلهي المقدس من خلال اللذة الجنسية بدلاً من الصلاة. وأن قريبتهم (معسكرهم) بالقرب من بحيرة أسيكول كانت مليئة بالفسق والدعارة ثم كان أن أرسل الله العرير وباء فحصى عليهم جميعاً ثم انتشر الباء من هناك في طول بلاد السكبين الشماليين وعرضها. ومن ثم في العالم كله. وكان هذا في عالم الرب ١٣٢٨".

وبهذه المناسبة، قد يكون من الأمور الهامة بالنسبة لك أن تعرف أن الأثري الروسي تشوفولسون يؤمن بأن الموت الأسود (الصاعون) قد بدأ في معسكر بسطوري بالقرب من بحيرة أسيكول في مقاطعة سيميريشنسك. وهي مقاطعة في بلاد أفرعير بالقرب من

حدود الصين والهند. وقد دافع عن هذا الرأي وأيده البروفيسور ر بوليتزير في مقالة "الصاعون" في نشرة منظمة الصحة العالمية الصادرة في جيبف عام ١٩٥٤ في الصفحة رقم ٢٠٣.

كان شكل هذا ساحراً للب بالطبع، ولكنه أثار عدداً من الأسئلة التي لا يمكن الإجابة عليها بحيث أنه كان أيضاً دافعاً إلى الشعور بالإحباط والحيرة. من الذي أسس جماعة العنقاء ولماذا؟ ماذا كانت تعاليمها؟ كان القرنان الحادي عشر والثاني عشر عصراً تأسس فيه كثير من الجماعات الهرطقة، الوالدنيين، والإلبيجانيين، والخليسيين - وقد اتهم الأخيرون دنماً بأنهم كانوا يقيمون احتفالات دينية ذات جو محموم تتحول إلى ممارسة حبس جماعية مسعورة. فإذا كان ينظر إلى جماعة العنقاء باعتبارها مسؤولة عن وباء الموت الأسود، فلماذا لم يعثر لها على وثائق كافية؟

ولم يكن هذا بعيداً عن موضوع بحثي مثلما يبدو من مظهره. فلو أنني لم أستطع اعثر على المزيد من المعلومات عن إيزموند دونيللي، فإني قد أتمكن على الأقل من تعذيب مقدمتي بمثل هذه المادة. أما فيما يتعلق بالنص نفسه فإنه يمكن أن يتكون من مقتطفات من كتاب "عن التضاض العناري" ومن كتاب هليشر المتحول، "م.س"، بالإضافة إلى المحلولة التي لا شك في صحة نسبتها والتي حصلت عليها من الكولونيل دونيللي، بالإضافة إلى مقالة "رفض لفلسفة هيوم". وكان معنى هذا أن مشكلتي الأساسية ما تزال هي العثور على مريد من المادة لمقدمتي.

في يوم السبت التالي لعودتنا من أمريكا، وقعت إحدى تلك المصادفات التي تعلمت منها أن أسلم ببعض الأشياء التي تتضمن أي نوع من أنواع الهواجس أو الأفكار المتسلطة كانت ديانا، وماري التي تأتي يومياً لمعاونتنا في شؤون المنزل، تفحصان صندوقاً قديماً مليئاً بالخطابات، واضعتين في اعتبارهما أن تلقيا إلى النار بأحكر عدد ممكن منها. والتفتت موبسي خطاباً يحمل علامة خاتم على شيء من الدقة تعبر طرفة الأعلى. وتمثل العلامة صورة الحبة ملتفة حول جذع شجرة التفاح، وهي تهمس لحواء. وبالطريقة التي تنصرف بها الأطفال حين يشعرون بأنهم لا يحصلون على ما يكفي من الانتباه، جاءت موبسي إلى حجرة المكتب حيث كنت جالساً أكتب وقالت، "انظر إلى ما جئت لك به، يا بابا". وطننت أن ديانا هي التي أرسلت الخطاب معها فالتفت نظرة سريعة إلى التوقيع وفكرت، "كلوس ديكلمان" ثم نظرت إلى الخطاب نفسه. كان تاريخ الخطاب عام ١٩٦٠ وكان خطاباً متملقاً حول مكتب

"يوميات الحنسية" الذي كان قد صدر في فترة باكورة من ذلك العام. وكان كاتبه حضرت بسنتي إن كتبت على علم بأعمال ويلهله ربيع. ثم راح بسجل عناوين كتب بسبعي عسي في زنيه أن أقرأها. كان خطاباً من نوع مألوف، وحتى بالنسبة إلى الإيحاء بأن كانت حضرت بملك الكثير الذي يمكنه أن يعلمني لياذ لو أبي عنييت بأن أصفي إليه. وإن علينا أن نبدل الكثير من الخطابات الطويلة. وكانت دباباً قد كتبت عليه بحض مهوش:

"تمت الإجابة عليه ٦٠/١١/٩" وأعتقد أنني قد شكرته على إفراحائه. ووعده بأن أقرأ لكتبه لني ذكرها. وكنت على وشك أن ألقى الخطاب في سلة المهملات القائمة إلى جوارتي حسم التفطت عيني اسم "دوبيللي" وكانت الجملة تقول: "من الطبيعي أن تكون أفكارك خورير قد أثارها كتابات مفكرين متعددين: دي صاد وكروبولي و" دونيللي" وكيرارار وديارد سيلون. الخ" من الواضح أن كورنر كان تلميذاً لربيع الذي اعتقد أن الشهوة الحسية تحتوي سر الصحة النفسية.

وكان العنوان على الخطاب هو "كومبيلين جارديز، هامبستيد العربية". وبدلي له من غير التوقع أن يكون كاتب الخطاب ما يزال مقيماً في نفس العنوان بعد تسع سنوات ولكن الأمر كان يستحق المحاولة. وهكذا فقد كتبت إليه خطاباً أذكر له فيه شغامي بدونيللي.

وفي يوم الاثنين التالي، كان علي أن أفكر من جيد في المشكلة المخرجة التي تمثلها الانسنان دوسيللي المقيمتان في قلعة دونيللي وصل خطاب في ذلك اليوم، يحمل توقيعيهما معاً. ولكن يمكن أن يفترض أن كاتبته هي ميس آلين قالت أن مقابلتها لي كانت أمراً ممتعاً. وكيف أنها كانت قادرة على أن ترى من لحة واحدة أنني كتبت جديراً بالثقة وأن سمعة إيرمويد سوف تكون في أمان بين يدي. رحت أن تحت وطئ شعوري بالحرج وأنا أقرأ الخطاب. كانت مسرورة من أن كاتباً له مثل سمعتي قد اهتم في النهاية. إيرمويد وشعرت بأني سأكون الشخص المناسب للقيام بكتابة ترجمة ذات قيمة له. أقيمت بالخطاب على الفراش واحتسيت قدح الشاي. كان عزمي الأول أن ألقى به في سلة المهملات وأن أنساه. رويدتي فكرة أنه ليس سوى نوع لعين من المضايقة وأنهما يجب أن نترككاني وشائي. إن لدي أشياء أخرى أقوم بها الفصل من كتابة ترجمة معتمدة لها قيمتها. ومن الطبيعي أن يكون إحياء الاهتمام بإيرمويد شيئاً في صالحهما إلى درجة عظيمة.

فإنهما سوف تكونان قادرتين على بيع أوراقه إلى إحدى الجامعات الأمريكية بمبلغ كبير من المال

إلا أن المشكلة ظلت تؤرقني. كتبت قد عقلت العزم ألا أعود إلى الاتصال بهما ثانية وعلى شكل حال، فإني له أستفيد في شيء ما من المادة التي تملكها. إنني لست متدياً نهما بشيء. وعليّ الآن أن أمعن في الحداغ. أو أن أقوم بعمل من أعمال كصح النفس بأن تجاهل خطابها. وفجأة قررت أنه ليس هناك سوى سبيل واحد بسيط، أن أحبرهما بالحقيقة كاملة. ارتنيت بسرعة ثوباً ميرلياً وهرعت إلى حجرة الكتب، منلهاً على الحلاص من هذه الفكرة بتعديها. كان خطاباً طويلاً. وكان لابد له أن يكون يمثل هذا الطول، فإذ إنني كتبت مصمماً على التحلل من حملي. بدت بالإشارة إلى أنها لابد تعرف أن كتاب "عر اهتمام العداري" كان مسوياً إلى دوسيللي. بل إنني رأيت منه نسخة في بيت أستاذ في غالاواي وأخبرتها بأمر الناشر في نيويورك، وشرحت لها أنه كان مصمماً على النصي في هذا العمل على أي حال. سواء تعاونت معه أم لا. وبينت لها أن محطوطة فليشر لم تكن سوى عمل مزور. وأنه في تقدير الحاص، ليس هناك سبيل لترنة دمة إيرمويد. في ظل الظروف الحقيقية القائمة، سوى نشر أكرر عند مكن من أعماله الأصلية الحقيقية. وبصراحة أيضاً أخبرتها بأنه لم يكن ثمة في الأوراق التي تملكها ما يمكن أن يكون ذا نفع لي. طالما أن خطاباته التي كان يرسلها إلى بيته كانت خالية من كل ما يدعو إلى اللوم، بالقدر الذي لابد لكل إنسان أن يتوقعه.

وفي طريقي إلى صندوق البريد قلت لنفسني أنه من المحتمل أن يكون ما أعله الآن عملاً غيبياً. إنني لم أذكر ما أقوم به لديانا، طالما أنني كتبت وفقاً من أنها ستبدل جهدها لكي تمنعني به. بل إن ميس دوسيللي قد كتبت خطاباً إلى الناشر وإلى هيئة حقوق المؤلفين تستنكر فيه مشروعني فتحجب عني كل مصادر المعلومات ولكن كانت هذه المخاطرة لابد لي من القيام بها وتحمل نتائجها أسقطت الخطاب في صندوق البريد شاعراً بإحساس الرحل الذي يسدد مسدساً إلى رأسه بنفسه.

وفي الصباح التالي، كتبت ما أزال محذراً من نشر اليوم حينما دق جرس التليفون رفعت دباباً السماعه للوضوعة إلى جوار الفراش ثم قالت:

"ميس آلين دوسيللي تريد أن تكلمك"

كانت تملكني حالة من الضجر. وشعرت بما يفريني أن أصلب منها لإبلاغها أنني لست في المنزل. ولكن ضميري تدخل وكسب الموقف، وقلت أنها لو اختلفت معي، فسوف أستطيع على الأقل أن أمضي في خطتي دون أن أكره نفسي.

جاء صوتها في التليفون، "هيللو، مستر سورم؟"

"هو الذي يتكلم".

"لقد تسلمت خطابك الآن توت، إني شديدة السرور لأنك كنت صريحاً معي إلى هذا الحد. هذا منتهى الرفقة والدمانة من جانبك. لقد طلبت الآن لكي أقول لك أنني أفهم ما تقصد تماماً".

"أفهمين قصدي حقاً؟"

كنت مبهور الأنفاس للمفاجأة. وكنت أتساءل متعجباً عما ترمي إليه في النهاية.

"سمع. استنتج مما تقوله أنه ليس هناك الكثير الذي نستطيع عمله مع ذلك

الناشر"

"أخشى أن يكون الوضع بهذا الشكل".

"حسناً، بالضبط. إذن فإن أحسن ما يمكن عمله بعد هذا هو التأكد من أن الأمور لن تملت من أيدينا. علينا أن نحرص على مراقبته باستمرار. لقد اتفقت أنا وبنينا أنعلينا أن يقدم كل مساعدة ممكنة".

قلت أنني أشعر بالابتهاج بالطبع. ولكنني في الحقيقة لم أكن أعرف ماذا يمكن أن أقوله أو أفكر فيه. كنت بحاجة إلى بعض الوقت لكي أستجمع أفكاري ولكنها لم تمنحني الفرصة.

"لما نود أن تناقش هذا الأمر معك. متى يمكنك أن تأتي إلى هنا؟"

"أي وقت ملائم لكما سيكون ملائماً لي".

"ما رايك في اليوم بعد عدة ساعات؟"

قلت إني موافق على هذا. وشعرت بموجة من الراحة تجتاحني حينما أنهت المكالمات وانقطع خط الاتصال.

في تلك اللحظات كانت ديانا قد أعدت الشاي. وكنت قد بدأت أفهم ما حدث. إن الشقيقتين دونيللي لا تملكان ما تفقدانه بنشر "اليوميات الجنسية" التي كتبها إيزموند. وخاصة إذا ما استطاعتا أن تبعا المنزل. وقد أكلت لهما أن اليوميات لم تكن مجرد أدب داعر مكشوف، وأنها قد تؤدي إلى خطوة حقيقية نحو بحث سمعة إيزموند. وأن في هذه الأيام الحالية حيث تسود الصراحة الجنسية لن يطرف أحد حفته إزاء نشرها. وكنت قد أشرت إلى منكرات بوزويل وما إليها، ولابد أن ميس إين قد قررت أنه من الأفضل لها وأختها أن تدخلا غمار هذه التجربة وأن يكونا في مقدمة المتلهمين والساعين في خوض التجربة. واكتشف عما يمكن الكشف عنه، ومن المؤكد أن الكشف الكامل عن أوراها سوف يكون نافعا في كتابة الجانب التاريخي عن حياة إيزموند في المقدمة. ولكنها إذا كانت تأمل في إلقاء فليشر بلدغ خمسة عشر ألف دولار أخرى في مقابل استخدام تلك الأوراق وما تملكه من مواد عن إيزموند، فإنها لابد ستنتهي بأمالها إلى الإحفاق والخيبة.

كنت أشعر بكتابة لا حد لها وأنا أقود السيارة إلى ليمريك بعد ساعات قليلة من منتصف النهار. وكنت قبل هذا قد اتصلت بكيمبي روث واستعرت منه نسخة من كتاب "عن التضاؤض العذاري". وكنت أحمل معي الآن النشرات الأخرى من "اليوميات الجنسية". ربما في ذلك محطوط فليشر الأصلية. ولكنه مكان يوماً حميلاً. كانت رائحة الهواء طازجة وبدا كل شيء مجللاً باللون الأحمر حتى لقد كان من المستحيل ألا يستمتع المرء به. وحالاً استرخت أعصابي وقررت أن أنسى الشقيقتين دونيللي. احتاحني إحساس عظيم بالسلف، والخصوصية. وبإمكانات واحتمالات العالم الهائلة التي تحجبها ميوننا إلى البقاء محصورين في سجون دوقعنا الصغيرة. وتصور هذا الإحساس أكثر حينما جلست لكي أحسني قدحاً من البيرة خارج دكان تسع لبقائه على بعد أميال قليلة إلى الجنوب من حورث. محسباً إلى حرير المهد وهي تنساب تحت الحسد وتجرى نحو "نوف كوتور" وهذات أصبحت شيئاً غير ذي بال سواء ذهبت إلى ليمريك أم بقيت في مكاني. سوف يستمر الماء يسيل في مجراده. وسوف تبقى على جانبها هذه الشجرة بأوراقها ذات الألوان الليمونية والتي تطل على النجى مكانها ترأفبه أو ترعاه بدا لي وأصحا أنه يكمن هنا واحد من أعرب وأهه ما يتعلق

لأن وجود الإنسان، هذه القدرة التي يمتلكها العقل الإنساني على الابتعاد بنفسه عن الناس ولا حدث، وعلى التوقف عن تشبيه نفسه بالعواطف الإنسانية أو العنور على ذاته فيها، وعلى محاولة التعرف على ذاته - بدلاً من ذلك - من خلال اللانهائي وما لا زمان له، عالم الطبيعة. ماذا يحدث؟ وففت على حافة الجسر ورحلت أرقب الماء وهو بعكس أشعة الشمس، وبدأ لي أن شيئاً ما في داخلي يسير مع سريان الماء ويجري معه في مجراه، وينطلق بعيداً في اتجاه البحيرة. وحينما عدت إلى السيارة وبلات أقودها، أجنأحي إحساس عريب كانما تحررت روحي من الجسد، وكانما كانت تطير بمحاذاتي مثل طائر طليق يحلق أحياناً في الأعالي ثم ينقص فجأة إلى أسفل من حين إلى حين، وحينما عاد عقلي إلى الشبقتين دونيللي، كان إحساسي بالاحتناق والصجر قد اختفى

حينما رأيت ميس إيلين وهي تهبط درجات السلم لتقابلني عبرت بي لحظت فهم مباحنة، ولكنها قصت على هذا الفهم بأن أحتت يدي في قبضتها فحولية وراحت تقول: "حسناً، حسناً، من بواعث السرور أن أراك ثانية" ثم دخلنا إلى قاعة للكتبة ولم تكن ميس تينا هناك اتخذت مجلسي على مقعد مخرب ذي مسندين وكان من مقاعد القرن التاسع عشر. كان معرضاً لأشعة الشمس، تاركاً ميس إيلين تتولى مهمة الكلام. وكان علي أن أعبت يدهنها الوفاء

كانت تقول -

"حسناً، ليس هناك مرور فيما أرى للوقوف في وجه هذا الكتاب ومنلما قلت أنت، فإنه كان من القدر له أن يصدر، حلاً أو عاجلاً وهكذا فإن أحسن فكرة ممكنة هي محاولة الاحتفاظ به بين يديك وبهدد الناسبة. في أي جامعة كنت تعمل؟"

أحتتها بأنني لم أكن أعمل في أي جامعة، ولكنها تجاهلت ذلك وأراحتة جانباً ثم قالت "لا تعتقد أن لهذا أية أهمية من نواصح أنك هتي من نوع كمو ودعني، فلو أنك ضحت لنادى بكذلك عن إيرمويد، فسوف يكون على الآخرين أن يشعوك حيناً"

ضاحت تسلم بدهة بأنني يسعي أن أكتب ترجمة كاملة لدونيللي، ولم أكن أحب أن أحيب أمليها في هذه الرحلة، وهكذا فقد أومات براسي ونه أقل شيئاً وجاءت ميس تينا بالشاي والشطائر، حيثي كصديق قديم، وحينما أحد كل ما قدحه وطبقه، قالت

"يجب علي أن أقول، إنها كانت مفاجأة كاملة لي أن أسمع أن إيرمويد كان سين السبعة إلى هذا الحد. إنني لم أبدا بهذا الكتاب الذي تدعوه "بافتضاض العنار". نطقت بهذه العبارة دون أي بادرة تدل على الحرج، فانتهزت أنا هذه الفرصة لكي أخرج الكتاب من حقيبة أوراقي، بالإضافة إلى النسخة التي كتبت بالآلة الكاتبة نقلاً عن مخطوطة الكولونيل دونيللي، وبينما كانتا تلقيان عليهما نظرات عابرة، قلت،

"ترى هل يمكنكما السماح لي بأن أقي نظرة أخرى على كتب دونيللي؟"

ثم أنزلت "اللاحظات" والمجلدات الأربعة لكتاب "يوميات الرحلات" من مكانها، ثم عدت فانتخنت مجلساً على المقعد القريب من النافذة، حتى لا أشعرها بالحرج، ومن حين إلى آخر، كنت أسمع ميس إيلين وهي تغمغم فائلة، "انظري!" ثم تدفع بالكتاب إلى ميس تينا، التي كانت ترمقني حينذاك بنظرة سريعة، ثم تقرأ بتعمق ولسانها يصدر أصواتاً متلاحقة

صوتهم

فتحت مكتب اللاحظات، وأخرجت رسم العنقاء، رفعت الورقة لكي أعرضها للضوء، أجل، كانت هناك علامة مائية، أخفي الرسم جزءاً منها. وعندما أمنت النظر جيداً كان علي أن أصحح ما انتابني من رغبة في الضحك بصوت مرتفع. كانت العلامة المائية على شكل عنقاء!

فأرنت بين الرسم الدقيق للي، بالدوائر الدقيقة (أو ما يمكن أن يدعي بالخطوط المحفورة المتلاحقة) بصورة العنقاء، المحفورة بطريقة الضغط على الغلاف. كانا متشابهين في خطوطهما الخارجية، ولكن كانت هناك ستة اختلافات. لم يكن الرسم واحداً بشكل قاطع تماماً.

حينما رفعت ميس إيلين عينيها لكي تنظر إلي، أطلعتها على رسم العنقاء، نظرت إليه بسرعة ثم قالت، "أم، إنه جميل، إلى حد ما" ثم أعادته إلي، لم تكن مهتمة اهتماماً حقيقياً

قالت ميس تينا، "هل طلعت مستر سورم على لحظات، يا إيربرتي؟"

آد كلا، لقد نسيت"

ذهبت إلى الحجرة الصغيرة المجاورة، وعانيت بحرمة من الأوراق حرمت بشرط. قالت: "حزني بهذا أنك أدت أن تعرف أن كان هناك حصر على الحشيش لظائر العماء في الخرابية عويبة. ولذلك فيما يبحث دقيق. ولكن كما لم نعتبر على عنقائك. غير أنه عثرنا على الكثير من الأوراق القديمة - صناديق صغيرة مليئة بها ولا أضل أن لأكثرها علاقة بإيرمويد. ولكن يبدو أن هذه الأوراق كانت خطابات موجهة إليه"

حلت عقدة الشريط بسرعة، وحانما بدأت في فصل الأوراق عن بعضها سقط على درص شيء ما من مظهر ممتوج. التقطت هذا الشيء. كان رسماً دقيقاً محفوراً دون صبر. وقد رسم على قطعة صغيرة تحت من فوهة معارة ربما كانت من محارات اللؤلؤ. كان الرسم لمتاد شديدة الجمال. وقد تدلى شعره في حلقات متلاحقة حتى الكتمين. ولم يكتب عليه شيء.

ثم تكى الخطابات نفسها بخط يد إيرمويد دوبيللي. وبدأ أن بعضها كان مراسلاً من شخص يدعى ثوماس والجريف، وبعضها ممن يدعى ويليام استون. وبعضها ممن يدعى ثوراس حنبلي. ولم يبد على الأوراق أنها كانت حاصصة لأي نظام أو ترتيب. وكان بعضها داخل غلفة وبعضها الآخر دون غلاف، ومن الواضح أن والجريف كان قساً من ديلين. أما منون فقد عاش في كورك وسرعان ما تبين أن حنبلي كان زميلاً من زملاء الدراسة رفيق دوبيللي في غوتسعين ومن الواضح أنه كان أيضاً للورد "جليبي أوف جو لساى" في مقاطعة شاتر لاند. وفي وسط هذه الكومة من الخطابات، كان هناك غلاف خاص لم يكتب عليه شيء. وبدخله، عثرت على قصاصة من الورق. قطعت أطرافها بحيث تتشابه مع الرسم المحفور على الحارة، وكتب عليها بخط يد إيرمويد دوبيللي، "لادي شارلوت أنجستر الابنة الثانية لإيرل فلاكستيد" وفي داخل الغلاف نفسه كان هناك ما ثبت أنه صحيفة من خطاب كتب بخط إيرمويد دوبيللي. وحينما قرأت هذه الصحيفة عرفت أنني قد عثرت على شيء جديد لكتابي. كانت الصحيفة تقول:

"قال فولنير في قاموسه الفلسفي أن التحزب والخطأ مترادفان طالما أنه ليس هناك مكان للرأي المتحيز في الأمور التي يعرف أنها حقيقة صادقة. كما نرى على سبيل المثال في الهندسة أو العلم. وهو يقول أن معتقداتنا الدينية ينبغي أن تقوم على أمور تتحقق عليها ككل العقول ولكنه يمحسني لكي يؤكد أن ككل العقول تتفق على عبادة الله وعلى الأمانة

والصدق وليس هذا صحيحاً، لأن البوديين لا يقبلون بالله، وللبسوعيين تحفظاتهم على مسألة الأمانة. فهل ثمة إذن أي أساس مشترك للاتفاق الديني؟

إن حجتي أيها الصديق العزيز تقوم على قولتي بأنه ليس هناك رجل ذكي لا يستطيع أن يقتنع بأن هذا العالم لعز غامض. إننا لا نحتاج إلا للحظة واحدة من التفكير لكي نعرف أن ككل معتقداتنا التي ترفى إلى مرتبة اليقين ليست سوى معتقدات قامت على أساس من الشك. تعود. نطبعها مثلما نطبع قواعد لعبة "البيكيت" أو "التهويست" من ألعاب الورق، ولكن دون دليل يبرهن أو يؤكد صحتها.

والأدبيات تؤكد أن ما يقع خارج نطاق قواعد الألعاب التي نمارسها مجهول ولا يمكن معرفته. أو أن الله وحده والملائكة يعرفه ويعرفونه. ولكن العلم قد علمنا أن من الممكن أن نفهم أي شيء إذا كان منهج البحث متكامل بما فيه الكفاية ومنطقياً

وقد أصيب إلى حجتي أيضاً قولتي بأن معتقداتنا التي تصل إلى مرتبة اليقين، أو أن ما نحن موقنون بوجوده) ليس مما يمكن رؤيته، وإنما مما يمكن أن يحس به، مثلما أحس الآن بشفء الشمس فوق يدي في أثناء الكتابة. وقد أقول أيضاً أن ما تعودنا عليه من محاولة الوصول إلى الحقيقة بوسائل الإبصار أو الاستنتاج العقلي. قد اعتمدنا بما تحمله من طبيعتها الحقيقية، مثلما هي حالة الرجل الذي يحاول أن يعرف الفرق بين عصافير الكناري وبين الشاي البارد عن طريق حاسة الإبصار وحدها. إن لغز العالم الغامض يصبح ماثلاً أمامنا في تلك اللحظات التي تنحرك فيها أرواحنا حركة شديدة عميقة أو حينما يستبد بها القلق أو برعجها شيء ما إرعاجاً قوياً. وذلك إذا ما كانت الحركة الناتجة حركة منتظمة ومتناغمة. في لحظات الفموص تلك يصبح كذا لو كنا قد أدر كذا وجود تبار قوي يجري تحت الأرض، مثل ذلك التبار الذي سمعت صوته بالقرب من قبري. وربما نشعر أحياناً بشدة قربه منا حتى ليمكننا حينذاك أن نسمع صوت جريانه.

إنني حينما أشكو من السام، فإنني أصبح مثل من أصابه الصمم بسبب إصابة برد في الرأس، حينذاك لا نسمع شيئاً وحينما أرفع بصري لكي أنظر إلى وجه شارلوت أنجستر، يحتفي بالصمم. وسمع صوت جريان الماء تحت قدمي

ومن المؤكد أنه إذا كان تدين هو ذلك الإحسان بعموض العالم والحليقة، وبصخامة
وإعداد ذلك للعر العامص، إذن فإنه ليس هناك من شيء يمكن أن يدلنا على الطريق المقدس
الفضل من المساء والجمال؟ لماذا لا ينبغي أن يكون "

تنتهي القصة هنا، في منتصف الصحيفة، كما لو كان الكاتب قد قاطعه شيء. ما
بإحدى كلمات "يه الصديق العزيز" بنت لي كما لو كانت توحى بأن دونبيلي إنما كان
يكتب مسودة أولية لخطاب، وأنه قد قرر فجأة أنه قد يكون من الأفضل أن بشرع في نسخ ما
كتب في الخطاب نفسه وأن يكمله بعد هذا مباشرة دون حاجة إلى مسودة فمن الذي كان
يستلحق هذا الحصاد؟ كان الغلاف الذي احتوى القصة موصوفاً وسطحاً حزمة الخطابات
الوردة من هوراس حليبي، وكانت صفحات حليبي إلى دونبيلي تكثر من الاقتطاف من
صفحات فونتين وهونابيل ودالامير، كان الأفاضل العقول إذن أن يكون حليبي - وهو زميل
دوبيللي في الدراسة بالكنيسة العليا في غونينغين - هو من يتلقى حواضر دوبيللي الخاصة
وشاملاته السبية

كانت ميس إيليس قد وضعت نسخة المحفوظة جانباً، وراحت تنظر من نافذة
لحرة غائمة، سألتها:

"هل حدث أن سمعت عن سيدة تدعى اللادي شارلوت أنخست؟"

حملت الأختان معاً لدى سماعهما هذا السؤال وكانت ميس تينا هي التي قالت بعد
أن رمقت أختها بنظرة سريعة:

"لماذا؟ أجل كانت ابنة إيرل فلاكسفيد."

ثم توقفت عن الكلام، كما لو كانت قد شعرت بالحرج، ولكن ميس إيليس أنهت
كلام أختها بقولها: "وشقيقة لادي ماري أنخست التي أصبحت فيما بعد ماري حليبي".

لم تكن بحاجة إلى من يذكرني بهذا الاسم الأخير، فقد ظل الاسم عالقاً بذهني منذ
الأسبوع الماضي حينما ذكرته ميس آين أول مرة في شتلمبور. قلت:

"هل حدث أن عرفت أن إيرموند كان يحب اللادي شارلوت؟"

قالت ميس تينا: "يقولون إنه كان يحب الثلاث"

"الثلاث؟"

"لادي ماري ولادي شارلوت، ولادي موريس" قالت هذا أنه نظرت إلى أختها بصيق
هزت ميس آين كتبها وقالت:

"أعتقد أنه سيكتشف حقيقة الأمر على أي حال"

قالت ميس تينا: "لقد كان جميعاً حميلات حداً بكل تأكيد"

"هل توحد لهن أي صورة؟"

"أوه، أجل إلى الصورة التي رسمها رومي مشهورة تماماً"

"آين هي؟"

بنت عليهما إمارات الدهشة لجهلي، وقالت تينا

"هنا، بالطبع"

"يمكنني أن أراها؟"

نهضت ككلاهما دون كلام، وفاتناني خارج الحجرة، وفي البهو، اختفت ميس إيلين
للفائق قليلة، ثم عانت وهي تحمل مفتاحاً ضخماً. عرنا البهو نحو بابين كبيرين من
خشب الماهوجني قالت ميس تينا:

"بصر رجال شركة التأمين على أن تظل قاعة اللوحات مغلقة، فإن بعض الصور
تساوي قدرأ كبيراً من المال."

فتحت ميس آين الباب، فهبّت علينا هبة من هواء بارد قوي الرائحة. أضاعت الأبواب،
قدخلنا إلى "العرض الطويل" وكان بارداً كالثلج. كانت المواقف مغطاة بالصلف الحشبية،

(١) جورج رومي (١٧٣٢-١٨٠٢) رسام إنكليزي رومانسي شتهر بلوحاته التاريخية وتصويره للوحود ونوحه
الشخصيات المعاصرة

ويعتمد والمقاعد محتمية تحت الأغصان. كان من السهل أن أتصور أن أحداً لم يدخل هذا المكان منذ سنة واحدة كاملة على الأقل فانتيتي إلى صورة صغيرة نوعاً ما معلقة على الحائط الأخير كانت الصورة بحاجة إلى تنظيف. ورعه هذا فإن ما علق بها من أتربة لم يحجم جمال الوجود الثلاثة. كانت الفتحات في وفقة ثقلية تبدو وراءها خلفية من لانسج وجيء من مع ماء جار كانت شانلوت - التي رايت صورتها منذ قليل - معروفة لدي بسهولة وعلى الفور وكان الجمال هو الشيء الوحيد الذي تشترك فيه الشقيقات الثلاث. كان وجه شانلوت بريئاً ذا حنين وورديين. كوجه أركادي أصيل "ما نفاد الجانسة إلى حوارها مباشرة وهي تلاعب كلاً صغيراً كئيف الشعر. فكان من الواضح أنها أكثر ذكاءاً. وجهها الناعم الرفيق المرتفع على رقبة مثل رقبة البجعة. أما شعرها فقصر بكاد يشبه شعر الصبيان قالت لي ميس تينا إن هذه هي ماري. انني أصبحت فيها بعد لادي ماري حنبي أم موريين. والتي كان من الواضح أنها أصغرهن. فقد كان لها وجه لابد أنه أصبح بعد ذلك بالغ الجمال. وكانت تبدو هي الأخرى رفيقة كريمة. كان من الواضح أنها فباسة العاطفة داهنة القلب. من النوع الذي يمكن أن ينفجر في البكاء عند سماع قصة محزنة امتدت إحدى يديها لكي تلاطف الكلب هذه الإشارة الواضحة الرمز إلى طبيعتها لبرعة بالتعاطف

قالت ميس تينا بكبرياء: "لقد دفع إيرمويد وحده ثلاثين جنيهاً لرومي في مقابل تلك اللوحة وقد عرست عليها خمسة آلاف جنيه نمياً لها"

كان يوسفى أن أرى السبب الذي دفع إلى رواج الشائعات عن وقوع إيرمويد في هوى الشقيقات الثلاث جميعاً. فبعد التحديق في صورة الوجود الثلاثة لمدة خمس دقائق أصبحت لما يمسي قريباً من الاقتناع بهذا الهوى الثلاثي كحقيقة ممكنة. كانت لكل واحدة منهن مميزات خاصة تلوح على وجهها تبدو كما لو كانت تبرز وتطفو على سطح الوجه كلهما طال الرء التحديق فيه لقد كان يوسفى أن أكتب رواية عن ثلاثتهن

"لنتمكن صورة يبدو فيه وجه إيرمويد؟"

"أوه. أجل. لنبدأ اثنتان واحدة بربشة ريبورن والأخرى بربشة رسام يدعى زوفاني"

له نوح إلى لوحة زوفاني إلا بالقليل كان الوجه حامداً لا يهت عن حركة. ممتد إلى أي أنر من شرائع الحياة كان دويللي في الصورة يرتدي زي الضباط متكناً على شجرة كان من الواضح أنه بالغ الطول بحيف القامة. أم الوجه فكان طويلاً. بارز الفك. مستقيماً الأنف.

أما لوحة ريبورن فكانت أكثر إيجاء. لم يكن فيها أي ادعاء أو تطاهر. ولا تكاد تظهر فيها أية خلمية. ومن بعض جوانبها كانت تبدو كما لو كانت رسماً تخطيطياً سريعاً تهينة لرسم الصورة نفسها. ولكن ريبورن كان قد استطاع أن يقبض على تعبير يعلو لوجه ينم عن اللهفة. حيناً رسمه متطلماً إلى الأمام كما لو كان بصفي إلى قصة ممتعة. لم يكن الوجه من ذلك النوع الذي يمكن أن يقال عنه أنه وجه وسيم. كان الأنف ذو العظمة الباتنة والخدين البارزين قد جعلاني أفكر في صورة شرلوك هولمز. ولما التفتت عن هذه اللوحة لأبظر مرة أخرى إلى لوحة زوفاني، رايت مميزات أخرى في تلك الأخيرة: حجم الصدغ الذي يوحى بسوء من السيطرة على وضع الوجه وما يعلوه من تعبير. مثلما يمكن أن نراه على وجه جود أصيل جيد التدريب وفقاً كالتتمثال في ساحة العرض قبل بداية السير.

وبينما كنا نقادر الحجرة - وقد تجمعت أجساد ثلاثتنا - قلت:

"أظن أن إيرمويد كان يمتلك كل المميزات اللازمة لجذب حشود من المعجبين والمعلقين".

"هل تظن هذا؟" وبنت على كلتيهما سمات اللهفة إلى الإجابة.

"إن هذه الحكاية عن وقوعه في هوى ثلاث من الحسان تجعله شخصاً ملانماً تماماً للحكايات العاطفية - شخصاً "بيرونيًا" تماماً. إنه شخصية أكثر إثارة للاهتمام من بورويل نفسه".

"لقد رايت ذات مرة فيلماً عن شوبان. كانوا قد صنعوا هذا الفيلم بطريقة جيدة وكنت أبكي طوال العرض" قالت ميس تينا

"أتخيل أنهم قد يروون لهم أن يصنعوا فيلماً عن إيرمويد"

"لنمكننا أن نربح الكثير من المال؟"

"تحيل هذا؟"

قالت مبسب تينا "إذن لقاسمناك الروح معنا"

"هل تعرفين شيئاً عن حكاياته مع الشقيقات الثلاث؟"

"ليس على وجه التحديد، إنه أقرب إلى أن تكون حكاية عائلية"

"وماذا عن موت نورد جليبي؟"

قالت مبسب لينين، "لقد أصيب بالرصاص. ولست أعرف الكثير من التفاصيل، ولكن أبي فرأه مرة في مكتبة دليل القومية، وتلك فإنه ليس من الصعوبة البالغة أن تراجعها. كان هناك همس حول ما أحاط بايزموند من شكوك، ولكن أبي قال إنه ليس من المحتمل أبداً أن يكون الفاعل. أتمنى أن تتولى أنت توضيح ذلك الأمر."

"موف أبلل جهدي بالتأكد"

قبل أن أعاد المنزل، صعدت معهما لمشاهدة الخزائن العلوية. كانت شديدة الظلام، مملوها تراب كثيف، مليئة بركام كثير من شتى الأشياء التي تراكمت عبر القرون؛ اطارات صور مكسورة، كتل وأشكال أخرى من الخشب لا يمكن معرفة الغرض منها، قطع أثاث معطمة، أنية اغتسال من الفوسلين، حزم من الأوراق التي يمكن أن تكون أي شيء، من حسابات لنزاع إلى اليوميات المفقودة. نظرت إلى هذه الحرم نظرة عابرة وفهمت ما كان لبروفيسور أبوت قد شعر به بالتأكيد في الخزائن العلوية في منزل فوربس، عندما أحاطت به المخطوطات. ولكن ذكرى أبوت منحتني فكرة جديدة

"أليس كذلك؟ أليس كذلك؟"

نريته الأدبي؟"

نظرت إحداهما إلى الأخرى نظرة لا تنم عن شيء،

"كلا سوف نحاول أن نكتشف ذلك"

وقبل أن أعاد المنزل قلت لنبي لايد أن أعود مرة أخرى في موعد قريب جداً لكي أنظر في الأوراق وحيداً - ولشدة دهشتي - قالت مبسب تينا "ليس الأبسط إذاً هو أخذها معه، يا

عريزتي؟" فقلت مسرعة أن دور تردد "نود، بالتأكيد". وأحدثنا في معاويتي في عملية نقل الأوراق ووضعها بشكل فيه بعض الترتيب في مقعد السيارة الحلفي. ورفضنا بشدة قبول ما عرضته عليهما من دفع نوع من التامين ورحلت أفود السيارة وأنا أشعر بما يشبه النقل يحط علي بسبب ثقتهما عندما أحدثت أفكر في هذه الثقة، سرعت في فهم السبب. لقد كانت وحيدتين وأقرب إلى الإفلاس رغم أنهما تعيشان في ظل هذه العظمة العاخرة مع شح الموارد والمعين، دون أي احتمال لشيء جديد إلا أن يتقدم بهما العمر نحو الشيخوخة ومن المحتمل أنهما كانتا تنساء لأن ابهما سوف تغيب قبل الأخرى عن هذه الحياة. حينما تموتان، فمن المحتمل أن يذهب المنزل ميراثاً لأحد أبناء الأسرة البعيدين من الذين يقيمون في كندا أو نيوزيلاند. ولكن سكان العالم الكبير بطرق الآن بابهما. كان هناك شيء ما تحلمان به - الناشرون، تعويضات العيول، الدارسون المتخصصون وهم يتهاشرون جماعات جماعات لريارتهم. وقد أراستا أن تؤمنا بكل ذلك وأن تصدقاه. وتلك فقد أراستا أن تؤمنا بي وأن تصدقاني. أو تقبلاني قبولاً كاملاً. وأن تنظرا إلي بشيء من الود الكبير أما ما اعتبرته أنا أعظم العقبات - وهي سمعة إيزموند باعتباره من كتاب الأدب الداعر المكشوف - فقد تحولت لكي تصبح شيئاً لا علاقة له بالعقبات أو المواقف، منذ أن أعلن لهما عن زيف وصف كتاباته بالأدب الداعر أو عدم معقولية هذا الوصف، وصرحت لهما بأنني أنوي أن أعلن هذا الرأي في الكتاب المنشور نفسه. كانت الأجزاء التي حصلت عليها من مذكرات دونيللي - عن طريق الكولونيل دونيللي - صريحة من الناحية الجنسية، ولكنها لم تكن أكثر صراحة من مذكرات بوزوبل، وكانت قبل كل شيء، مكتوبة بأسلوب جيد.

جعلتني هذه الاعتبارات أشعر بأنني في حالة أفضل. كنت قد ظننت أنه ليس هناك فرصة معقولة لإحياء ذكرى دونيللي حينما أعطاني فلبشر مخطوطة "المذكرات". ورغم كل شيء، فقد كانت هذه نظرة مرضية.

حينما فحصت حزمة الخطابات الجديدة، عرفت أننا قد حصلنا على كتاب، سواء ظهرت أم لم تظهر أية مخطوطات أخرى لدونيللي. فإذا استبعدنا مخطوطة دونيللي، كانت هذه الخطابات أكثر ما حصلت عليه حتى الآن جانبية وإثارة للخيال.

من الصعب أن تتخيل ثلاثة أشخاص يتبادلون الرسائل ويكويون ذوي شخصيات أكثر اختلافاً من توماس والجريف وويليام استون وهوراس جليبي، إلى جانب أنهم قد

كنتموا عن تعقد شخصية دونبيلي نفسه. كان والجريف رجلاً من دبلين اهتماماته الرئيسية هي الفلك والرياضيات. وكانت خطاباته إلى دونبيلي تهتم أساساً بهذين الموضوعين. ما استون فكان يدرس اللاهوت في إحدى المدارس البروتستانتية في عام ١٧٧٢. وهو رابع الخطباء الأول. وأصبح هبما بعد فسيماً في باليليكولج. بالقرب من مدينة كورك حيث كان يقع منزل عائلته). وقد أزعجه إلى درجة كبيرة ما ظهر أنه ميلان متنافسان في شخصية دونبيلي. اتحاد عدم الإخلاص واتحاد "انحماس" (أي التعصب أو الإيثار العبي). فحينما كان دونبيلي يفتبس من فونير وبابل ومونسكيو. كان استون يجيبه بحج مستمدة من مواعط جورتيين وأوجليس. ديبيلوستون وسمارليدج وشيرلوك. وقد وجدت كل ذلك حسوا لا لزوم له. وكنياً إلى درجة لا تصدق. المناقشات الطويلة الدقيقة دقة من يريد أن يشق شعره بالطول إلى نصفين. حول موضوعات التناسخ والجيرية ومقدار ما في لاجبل من حقيقة الخ. ولكن كان من الواضح أن أبرز مود له يكن يرى أن هذه المناقشات قد تكون مصجرة. ذلك لأن إجابات استون كانت ضويلة مطيبة. مما يشير إلى أن رسائل دونبيلي مسبوقة لها في تطول والإطباء.

ولكن خطابات جليبي كانت هي التي تلاءمت مع ما كنت أعرفه بالفعل عن إيرمود دونبيلي. فبعد أن قمت بترتيبها طبقاً لتسلسلها الصحيح (مع قدر معين من انحنمين. فقد كان الكثير منها غير مؤرخ) تضح أنها استمرت من شهر مايو. عام ١٧٦٧ حتى عيد الميلاد عام ١٧٧١. كان جليبي وايزموند معاً في غوتيفين أغلب تلك الفترة. ولذلك لم تكن مراسلاتهما مطولة. كما كانت الحالة في مراسلات استون ومن الواضح أنهما كانا يتبادلان لرسائل حينما كانا يفترقان لمدة طويلة. ولكن هذا الافتراق لم يتكرر كثيراً لأنهما كانا صديقين إلى حد كبير.

أما قصة علاقتهما. وهي التي أصبحت قادراً على تجميعها من خلال خطابات جليبي فكانت كالتالي. حينما التقى ايزموند دونبيلي بروسو وبيوزوبل في بيو شاتل. انتقل بعد ذلك إلى ميلان حيث قضى عيد الميلاد في عام ١٧٦٤. وفي شهر يناير قضى أسبوعاً في البندقية. ثم قضى أسبوعاً في مدينة غراتز. في طريقه إلى غوتيفين. وهناك تعرف على جورج كريسٹوف ليتشنيرج. الذي أصبح فيما بعد فيلسوفاً بارزاً (ولكنه كان مهتماً في الأساس في تلك الفترة بالرياضيات والفلك) كما تعرف بالفيسس هوراس جوردون جليبي. وكان هذا

الأخير شاباً وسيماً ذا كمن البشرية. يكاد يكون يهودي اللامح. وكانت لكتبه استثنائية واضحة في نطقه للإنكليزية. وكان أكبر بقليل من دونبيلي. ولكنه أقل ثقافة بكثير. وكان الابن الثاني لأحد سادة الريف الاسكتلنديين جاء من المناطق غير المأهولة أو المنحصرة من تلك البلاد. كان هناك شيء واحد يشترك فيه الثلاثة. ليتشنيرج وجليبي ودونبيلي. وهو الاهتمام الدائم بالحس الآخر. وكانت عوتبعين ملبنة بمفنيات للرائع الشابات المترعات بالصحة والعافية. وهن اللواتي وصفهن ليتشنيرج بقوله "الحلوقات التي تتقافز مرحة في وديان هارز أو وديان وسلينج ولواتي لم تقع نظارهن أبداً على مبلغ من النقود أكثر من النائر الواحد. واللواتي يظنون إلى قبعة السيد النبيل الريبة بانريش بطرة فرع بينما تبدو طلمات أصحاب تلك القبعات كالأوامر الملكية". وكانت عوتبعين بلدة دت شهرة أكاديمية سامية. على العكس من هال أو بيس أو جيسين وهي المدن التي كانت ملبنة بأدعياء العلم الذين كان محط اهتمامهم الرئيسي هو المازرات. ولكنها مثل أكثر المدن الأخرى في ألمانيا. كانت منظمة تنظيمياً رقيقاً. بسودها انصااط صارم حيث اعتاد الملاحون أن يطيعوا الأوامر سادتهم مع الإشارة هنا أن تلك الأماكن كانت جزء من إكلترا. وكان الملك جورج الثالث دوقاً لهانوفر بالإضافة إلى كونه ملك بريطانيا العظمى. وهو واقعاً ما كان قد دفع والذي إيرموند إلى احتيازها مقر لدراسة ولدهما. وقد انتهج إيرموند وجليبي حينما اكتشما أن تلك الخلوقات اللبدة له تكن بحاجة إلى الإغواء مثلما كانت الحالة مع الفتيات في الوض. ويذكر جليبي في أحد خطاباته أن ليتشنيرج اعصه باتهامه إيهاد بأنه كان يسعى إلى اقتصاص كل عذراء في مقاطعة هانوفر. استعداداً لأن يقضي حياة كاملة من الحرمان حينما يقدر له أن يعود إلى وطنه الطهري المترمت.

ولكن جليبي كان أبله إذا ما فورس بايزموند. أو أنه كان رجلاً صديق الأفاق. وقد سيطر عليه إيرموند سيطرة كاملة. ومن الواضح أن جليبي قد أثار ثائرة أستاذ لهما بدعى كاستنر حينما قال له أن إيرموند واحد من أعظم العقول في أوروبا بعد موسير مندلسون (وبعدها. اعتاد كاستنر أن ينادي ايزموند ساخراً باسم "الأستاذ الأعظم") وكان ما سحر جليبي في شخصية دونبيلي هو ما كان يتمتع به من جمع بين الحيوية الجسدية والسمو العقلي. كان ليتشنيرج شديد الدكاء واسع الثقافة. ولكنه أيضاً كان ضعيف الجسد عاجزاً كالأحلب. كان ايزموند يملك مؤهلات كبيرة وجيدة في استخدام السيف. وكان هارساً جيناً وسباحاً ممتازاً. ومحباً إلى النساء. كما كان أيضاً قريباً من أن يكون شاعراً وفيلسوفاً

ومنصوراً أم حليبي فكان قد حصع لسبطرة ابوية شديدة الوضاعة. وكان مبالاً لأن يكون نائب متهوراً. وفي عصور شهور قليلة كان دويللي يصعبه بأنه "نموذج للشهامة والشهوية والإعواء والبداءة والعماد والقدره على الفزاع العذارى" ولكن سرعان ما تملكهما الصخر من خادمتها المنيمة دوت الأجساد الصالحة. وشرعا في توجيه استباههما إلى بيئات الأساندة وغيره من المواطنين المحترمين ومن الواضح أن الدهشة قد تملكتهما وعمرتهما البهجة لما فسد من نجاح. وكان إيرمويد أن يتعرض لحظر كبير على اثر علاقة كانت تتحول إلى نروج من الأنسة الصعري لقيس في بلدة بورتين هارديرع. وهي الأنسة نولريكادوسان ولكن عيب لا يفترض أن إيرمويد وحليبي له يكونا يفترقان أبداً ومن الواضح أن حليبي ما كان يمكن أن يبتلع لو أنهما افترقا. ولكن إيرمويد كان بهته أيضاً بقراءة كانط وندارسة برهاسيات والملك ويشير حليبي إشارات عديدة إلى إهمال إيرمويد لشأنه. ولكنه كان يعجب بإيرمويد إعجاباً حاراً حتى لقد كان على استعداد لأن يقبل أي قدر من انتباه يمكن أن يوجهه إيرمويد له

إن الخطاب الذي أرسله حليبي إلى إيرمويد في التاسع والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٣٦٠ خطاب نموذجي حقاً. أنه يستهلك صفحة ونصف صفحة من الشكوى من أن دويللي قد أهمل دعوته له لتمضية عيد الميلاد في منزل الأسرة بالقرب من حلوسي. وفي وصف مناهج الرحلة شمالاً في أواخر شهر نوفمبر. ولابد من قراءة وصف حليبي للطعام الذي التهم في يوم عيد الميلاد حتى يمكن للقارئ أن يصدق أن هذا هو ما كتبه بالفعل. لقد بدأ الطعام في سابعة والنصف صباحاً بإفطار من شطائر الشعير وأسمالك السلون للسلوفاة. ولحم الخنزير ولحم سيقان الخنزير. والحلوى والمواكبه المسكرة ولكن الموضوع الرئيسي في الخطاب - بشكل حتمي - كان متعلقاً بوصف معاصرته الغريبة في أثناء العطلة. "كنت قد قررت في البداية أن علي أن استنجد على صكره فتاة تدعى مارجي ماث بين. وهي ابنة أحد الملاحين الذي يؤجرون أرضاً. والتي كانت قد أعربت عن بعض المشاعر الرفيعة تجاهي قبل أن تموت غيبوبة. رغم أنها كانت قد أقسمت في ذلك حين أنها تفضل أن تموت على أن تفقد حزامها لفسها" وقد ثبت أن التخصيص مارجي كان أسهل بكثير مما كان يتوقع. وقد نه ذلك في أحد مخازن الحبوب بعد حفلة رفيع كان السيد الشاب في أثنائها محور اهتمام المنبات كلهن (وهي مثل هذه البطقة النائية. يحتلظ السيد بأحارانه ومؤجري أرضه بحرية كافية). وشعر حليبي بنوع من الإغراء يدفعه إلى مواصلة قصة غرامية مع مارجي.

الأمر الذي صكت حليبي بأن أقوم به في الماضي دون أي تفكير. ولكنني في هذه المرة راجعت نفسي على سوء ميلئك العطيعه بمائل بأن الهدف الأساسي في الحياة هو تحقيق نوع من طراحة التحرية وحدتها. وكان علي أن أعترف بأن رغبتني في الفتاة كانت تفقد حرارتها تدريجياً. وأن رؤية قبعته الحربية الخفيفة وإبرازها الملونة لم تعد تؤدي إلى تأثيرها الغنيمة وقد حاولت دون نجاح أن أكرس عقلي للدراسة "

"وفي اليوم الثامن والعشرين عانت شقيقتي ماري (التي قابلتها أنت في سيرت امر ضيفتاريين. حيث كانت قد لعبت عيد الميلاد مع فيونوتوري وهي سنة سديقة لعيدة لامي وأختي كما تعرف. نحيفة ضئيلة الحجم بالنسبة لسنها (الرابعة عشرة) وبمكسبي - القول. دون كبرياء لا مبرر له. إنها تحمي بدفء لم أفعل أنا سوى القليل لكي أستحقه. وقد أحسست بما يشبه الصدمة حينما اكتشفت أن فيونا قد تعبرت إلى درجة عظيمة في سنة الثمانية عشر شهراً التي انقضت منذ رأيتهما لأول مرة. إنها تمر بتلك المرحلة الساحرة حيث تبقى أفكار وأساليب الطفلة. بينما يكون الجسد حسد امرأة. إنها تملك وجهاً ساحراً وردياً وشفة عليا الفصير بكثير من رهيبتها الأمر الذي يعطي لهما شكلاً بارزاً قد يظنه البعض تجهماً على سبيل الخطأ. كانت في طفولتها أقرب إلى الصبيان في ألعابها وسلوكها (لذا حردت هذه العبارة من كل ما تدل عليه من عدم تواضع أو رقة) ولطالما تعارضت معها وصارعتي وأمسكتها من ساعديها بقوة. أما الآن. وطالما أنها أصبحت على مثل هذا الحال. فقد قررت أنني قد أفعل ما هو أسوأ من اتباع نصيحة مسر شتيرن فأنشئ علاقة عاطفية معها. حتى ولو كانت من جانب واحد إلى حد ما

(نقد وصعت أنا هذه النقاط في الأماكن التي يبدو فيها من كلامه نوع من الانحصار في روحه. طالما أنها لا تؤدي إلى عرض ما. وقد ثبت أن هذا كان أكثر سهولة مما توقعته. ذلك أن كل ما كان علي أن أفعله هو أن أعاملها مثلما أعامل ماري. باهتمام كثير ويود حوي. إنني أقول لك في أمانة كاملة أن أفكاري حتى تلك اللحظة كانت برينة إلى الدرجة التي يمكن أن يتمناها الراعي الصالح حاييس. كانت في حيرتهما مدفأة جيدة. وقد قصبت هناك ساعات طويلة أحسنها أهدأ من الشاي وأصف لهما عادات هانوفر وأهلها. شاعر بالعاله كله مثلما كان يشعر به عطيل العربي. ولقد وجدت أن الانتباه الرقيق الصادر عن شاتين الطفلتين أكثر متاعاً ومسرّة من دراسة هلاكوس وألعبت نفسي في لحظة ما بأن

قد هو ما عناه روسو وما كان يفكر فيه عندما تحدث عن النعيب الثاني الذي تهناه إياه
لنضيفة.

"ولكن للأسف، لقد لقيت مشاعري السامية هربمتها الأولى في اليوم الثاني من العاد
الجديد. قبل حوالي نصف ساعة من تناول العشاء، كانت الفتاتين تلعبان حينما دخلت
الحجرة، وحينما انشركت في لهوهما، لم استطع أن منع نفسي من ملاحظة هزازات ردي
فيونا حينما ففرت فوق السرير لكي تهرب من ماري. ولا شكل سمائي سافيتي الجمينتين
حينما تحست إلى الأمام مرة ثانية. وحينما مدحت ما طرا على شكل حسدها من تعير، نه
بند عليها الحرج. وإنما صحكت على ما قالت. وقالت ماري أن السبب يرجع إلى تناول الكثير
من اللحم السمين. وبعد ذلك طلبنا مني أن أقرأ لهما من كتاب "حريديسون"، الأمر الذي
قيمت به تلبية لسنولهما، جالساً أما نار اللهاة على البساط السميك، بينما جلست إلى حوارتي
نحيطان النوبين الأزرقين من اللوسلين اللذين كان عليهما ارتداؤهما في حفلة الرقص التي
ستقام في "ستراشبيغري" في شهر فبراير. وبعد قليل، استعرفت ماري تماماً فيما كانت
نسمعه حتى لقد ألفت بالنوب جانباً ووضعت رأسها على حجري مادة سافيتي لكي ترفعهما
على مقعد صغير قريب. وبعد لحظات قصيرة حدث فيونا حدودها. نه تحركت ماري إلى
على بطريقة جعلت خلفية نوبها ترتفع فوق فحديها، كاشفة عن أحمل سافين رتيهما في
عيد الميلاد. وحينما دق الجرس يدعو أهل البيت إلى العشاء، فتتهجت حينما لاحظت ترددها
في النهوض. وتظاهرت بأن هذا الزيت كان لأنها غرقت في النوم. ولكني أنا، الذي كان
يوسعي أن أرى حركات جفونهما، أعرف الحقيقة.

"في اليوم التالي لم يقع المزيد من التقدم، لأن نورير كان يريد أن يرد على دعوتنا. نه
أحدهما أبي وأخي موراي في سزعة بالعربة لكي يطلعاها على مبصر أبراج قلعة داتروبيس.
ونكن حينما رأيت فيونا قبل أن يتناول طعام العشاء، قالت: "لقد اقتعدا قراءتنا اليوم. عليك
عند أن تقرأ ضعف ما قرأناه أمس". حبستها قريباً مني وتركت يدي تتحول فوق ظهرها
مأنني عما فعله. فقلت: "أرى لكم من الأروار غير مثبت في موضه".

"كان اليوم الثاني، الأربعاء، مشمساً وبارداً، وكان "اللورد" جلبي بالحارج طيلة اليوم
في طلب سيدة عحور تستكي أمر اغنامها، وحينما أحبرني حامي هذا الحير، قلت له أنني
ساستمر في النوم لكي أتناول طعام إفطاري، وأطلب الماء الساخن في العاشرة. وبعد ذلك بقليل،

وبينما كنت في شباب يومي واقفاً أؤدي تمرينات الصباح، دخلت ماري وسألني إن كنت
أحب أن أتجول معهم في غرف القصر الخالية وسرعان ما جاءت فيونا للبحث عنها. وأتعب
الانسان بفعاش فميص يومي الذي كان واحداً من تلك القمصان التي اشتريتها في ستراسبورج
من سوق الحرير. وحينئذ ففست فيونا حكاية عن خادم يعمل لدى عمتها الذي كان بحري
وقد ارتد أكمام قميصه دون قميص حقيقي لكي يعد رائدة للصيوف. وقالت له إن يرتد
سزته فأحايها. "بالتأكيد يا سيدتي، ولكن السزة تحمل كثيراً من الأشياء الصغيرة التي
تجري هنا وهناك وقد برعنا الآن لنوي. وأنا أكره أن أحلج سرتي وصداري. ولا أدري ر
متى ساطل قادراً على تحمل هذه "الأكمام" الباردة". وصحكا جميعاً على هذه تنكته
ولاحظت في رصا وكيف أنها نظرت إلي وأنا في هذه الثياب الليلية دونما حرج يريد على ما قد
تسعر به ماري. الأمر الذي دلني على أنها تفكر في مثلما تفكر في أحيا الشقيق وهكذا، فقبل
أن أستا. لهما في الخروج، لكي ارتدي ملابسني، أحطت خسر كل منهما بدراع وضغطتهما إلى
صدري، ولاحظت أن امتلاء فيونا قد يحفظ للرجل دفنه دون حاجة إلى قميص للنوم.

"لبس علي هنا، يا عزيزي تيد، أن أصف الصباح وصفاً كاملاً، وبلا لأصبح هذا
الخطاب في مثل طول موعظة من مواعظ مار بورنون. ولذلك قدعني أكتفي بالقول إننا قد
فرحنا وصحكنا كثيراً، واشتهرت أنا بكل فرصة لكي أطارد كلامهما، من أجل أن أشعر
بالدفء في ذلك الجناح البارد من القصر، ولكي أجعل فيونا تتعود على أن تالفتي. وكان علي
بالطبع أن أكرس الكثير من انتباهي لماري، لكي لا أثير الإحساس بالإنافس بينهما ولكي
أجعل فيونا تتقبل لمساتي كشئي طبيعي ولم ألق في هذا المجال أية مقاومة، لأنهما جميع
كانتا تتمتعان بروح رياضية عالية. لسوف تسجل ملاحظة عن الدرس المستخلص من
كل هذا يا تيد، لكي تضمنتها تاريخك. إن الموقف هنا يكشف عن حقيقة وصدق ما يؤكد
ليستنبرغ من أن للشاعر والأحاسيس تتداخل وتمتزج مثل المواد الكيميائية. لقد كانت
ماري شقيقتي، وقد انتهزت كل فرصة لكي تؤكد ذلك لميونا، كما لو كنت شيئاً قديلاً
للاقراض. وقد قبلت فيونا هذا القرص وما تبعه من أنواع الرعاية والاهتمام الأخوي. وب
كنت الآن قد حصلت على تصريح بأن أعامل فيونا مثلما أعامل ماري، فلم يكن علي
حيثذاك سوى أن أعامل ماري بالألفة التي أريد أن أعامل بها فيونا حتى أجعل الأمر كله
يبدو طبيعياً دون الاعتال

"ولقد ظهرت مبيرة هذا الوضع في وقت لاحق لعصر ذلك اليوم، حينما ذهبت إلى عرفتنيما لكي أقرأ لهما من كتاب "حرائيسون" كنت أعرف لهما توبان تحربة النوبيين الأبريقين من اللوسلين قبل القيام بحياطة الأشرطة. ولذلك فقد ذهبت مبكراً. كانت فيونا م ترضي تخطيط ثوبها، ولكن ماري وقعت في فميصها الداخلي، تحاول أن تحرب مشدا مصنوعا من عظام الحوت وطلبتا مني أن أقدم النصيح من وجهة نظر الرجل، الأمر الذي قمت به سعادة بالغة، بينما كنت أساعد ماري في شد أربطة المشد. قلت لهما أن بساء باريس، في تالاط الملكي، بفصل ارتداء ثياب ترك صدورهن كلها عارية.

وبعد ذلك ساعدتها في ارتداء الثوب، وتحدثت مثل مليونير عن المحاسن النسبية لكل من المواد المعدنية أو العظام في صناعة الأزرار، وعن محاسن اتحاد بعض العرز المتبسة فوق عروة الرزاز!

"حينذاك، كانت فيونا قد وصعت لبرتها حاساً، فسألتنيما إن كانت تتحانني لكي ألك أزرارها، هذه الأزرار التي كانت بين نهديها هذه المرة. وبدأ عليها الحجل، ولكن ماري التحصنة لي أكننت - مثل تاجر شرقي ذكي - أنها لن تمور أبداً بمثل هذا الحاد المريب، وساء عليه، دخلت الفتاة في جو اللعبة، فسمعت لي بأن ألك أزرارها وأن أجنب ثوبها إلى ما تحت الكتفين، وفي هذه المرة لم أسمح لنفسني بمزيد من الحريات مع الكرتين المتاعمتين اللتين كانتا مكشوفتين أمام عيني، لأنني شعرت أن ماري قد تجتاحها العيرة. وبدلاً من ذلك ساعدتها على ارتداء ثوبها الأزرق..

"دخلت الحادمة لكي تزود النار بالحطب، فجلست على مقعد وتظاهرت بالانعماس في قراءة كتاب ما، ولكن حالما أصبحنا وحيدين مرة أخرى، افترحت أن يعود إلى قراءتها قبل أن يسود الظلام (لأن الساعة كانت بعد الرابعة). قالت ماري إنهما لابد أن تبدلا ثيابهما أولاً، ولكي قلت لها أن الأمر لا يستحق هذا التعب، وأنهما على أي حال يمكن أن تعرفا إن كانت مادة نسيج الثياب من النوع القابل للتكسر أم لا وأقبعتهما تلك الحرج، فجلستا إلى حوارٍ على المساط السميك وحالما بدأت في القراءة، عادت ماري فوضعت رأسها على حجرٍ، وسرعان ما حلت فيونا حولها وتحدثت بكل منهما وصعاً لا يسمح لها برؤية الأخرى، تكسي اتخذت إحرا، وفأنيلاً صافياً ضد التلصص المتبادل بأن أسندت الكتاب إلى رأس ماري بحيث يمكن أن يسقط إذا هي تحركت. وبممكنك أن تلاحظ أن هذه الحيلة تركت يدي

كلتنيهما حرتين. وفي هذا الوضع شعرت صدي مشعور "محسور" بين حرائيسون القاصر وبين رهرتي الشائنتين. وأنا كانت فتحة ثوب فيونا واسعة هابطة إلى أسفل، ولحمها مفضوحاً، فلم تكن هناك مشكلة في أن تدس يدي إلى ما وراء الإبط، ثم إلى ثديها الأيمن ثم حركات حلدتها تحت ملاطعاتي أن هذا التقدم لن يكون موضع الرقص. وحينما بدت في الصعق على الحلقة اليمنى، لم يكن بوسعي أن أحكم على النتيجة إلا من ترديد معدل نفسي شهيلاً ورهيرا. وحدثت في ذلك بهجة كبيرة حتى أنني بعد قليل، حركت يدي، في فمي وصعقت على الشعة السفلى. ثم لعبت بها قليلاً بين لهماي وسابتي وأطلقت هي نفسها حول لصبع السبابة، وراحت ترصعه كلما لو كان حلقة طفل صاعبة تعطى له لكي يه حتى يأتيه الطعام. وحينما تعبت من هذه اللعبة، دس يدي إلى صدرها مرّة أخرى، ولكنني توغلت هذه المرة تحت الجانب الأمامي من ثوب..

ثم قالت فيونا، "لقد ساد الظلام بدرجة تمنع القراءة، حدثنا عن عوتبعين" قلت "مادا تحبان أن تعرفا؟" قالت، "أحك لنا مرة ثانية حادثة قتل الطلبة مع الرحانة" وهكذا تعمست عدة مرات بعمق حتى أستعيد سيطرتي على نبضات قلبي. ثم أعدت عليهما الحكاية القديمة المعتادة

"كننا نعرف جميعاً أن الجرس سرعان ما سوف يذق، وأضاف هذا إلى متعنا متعة أخرى.. وحينما قلت، "سرعان ما سيحين وقت العشاء" ففعممت فيونا نافذة الصبر. وجعلني هذا أقرر أن الوقت قد حان للتقدم إلى الأمام. سمحت للبد التي استقرت على ردف فيونا أن تتحرك إلى أسفل، وجنبه جانباً فماش الثوب وبعد لحظة واحدة، كانت يدي مستقرة على مؤخرتها العارية، مبتهجة بنعومتها ورقة استدارتها. ومن المؤكد أنها كانت شيئاً ممتع الملامسة، حتى لقد كان بوسعي أن استمر في ملاطعتها حتى دق الجرس...

"أسرعت هابطاً إلى مائدة العشاء وحينما سألتني الوالد عن الفتاتين قلت أنني له أهد. ثم أرسلت جامي إلى الطابق العلوي لكي يدعوهما. هبطا بعد أن ارتدت كل منهما ثوباً آخر. واعتدرا بالنوم أمام نار المدفأة..

"والآن يا صديقي العزيز، وأنا أختته هدد الرسالة الجرائيز ونيانية، يحب علي مرّة أخرى أن أتي على التعاليم اللطيفة التي أدت إلى هذه النتائج المرضية فإن الرجل الذي

بمنطوق أن يمضي ساعتين منكناً على مثل هذه الشؤ السامية إما يكون قد مارس حاسماً من حالة الأنفة، ولابد أن تصبح روحه أكثر بعد تلك المادبة

ويستهي خطاب جلبي بصمحة ونصف صمحة في تأملات من هذا النوع ولن اقتطف هذه التأملات لأن في أسلوبها الكثير من الفعقة الساتحة عن التفاخر، ولا تصل إلى مستوى بحر، لسابق من الخطاب وإن جانب التأملات، يؤكد في النهاية أنه سوف يستفيد مما حفه من بحاثات، وأنه سيحاول استكمال العمل الذي بدأه ولكن قبله في ذلك يظهر من خطاب كنهه في شهر يونيو التالي، حيث يهتن نفسه لأنه لم يكمل خطته، لأن التفكير في تعقيدات التي كان يمكن أن تنشأ يجعلني أعرق وأهتز من الخوف والآله وأظن أنه يشير بساطة إلى التعقيدات التي لابد أن تنشأ من وقوعه في هوى فتبات برينات مراد كاملة ويعيدت بعد كمالاً عن أي نقالة، وقد أصبح عنيفاً لقبونا في عام ١٧٦٨، أي بعد تاريخ كتابة ذلك الخطاب بعامين

- ١٢ -

□ لقد اقتطعت الفقر السانقة على طولها لأنها توصح أشياء كثيرة، هناك أولاً، الإشارة إلى "العاليم للهممة" التي توحى بأن جلبي يعتبر نفسه تلميذاً لأبرمويد في مثل تلك الأمور هل يستطيع أحد، في الحقيقة، أن يقل كل ما كتب عن عصر ذلك اليوم الثاني من شهر يناير عام ١٧٦٧ كان مهلي الأول هو أن أرفض الكثير منه باعتباره نوعاً من الإعراب عن رغبات كائنة أكثر منه استعادة لأحداث وقعت بالفعل، وعلى أنه يشبه - بوجه خاص - مجموع تطور الفقرة التي تشير إلى ما كان للأخوين كريببون وكليباند من نمود وتأثير ولكن ظهر لي بعد هذا أن جلبي لم يكن ذلك الرجل الماهر بل إن بعضاً من التعبيرات اللينة في الخطاب كانت مستعارة من أبرمويد نفسه، وأحق أنه قد يسعى للمرء أن يقول أن الأهمية الرئيسية لتلك الخطاب هي أنه يكشف عن مقدار ما تأثر هوراس جلبي بطابع أبرمويد وشخصيته. كلاً بل لمي اعتقد أن ما حدث هنا كان أكثر أهمية بكثير فقد كان جلبي - مثله في ذلك مثل أكثر السلاء المشين في أيامه - شديد الميل إلى سرعة تحسية الشهوانية منذ سن مبكرة، وهو يدكر في مكان آخر أن روحه أحد العالحين قد أعوته وهو في الحادية عشر من عمره، ويدكر في مكان ثالث أنه قضى أسبوعاً سبناً للعبة

- ١٣ -

حيهما استعرفت المدورة الشهيرة لعنانه ولما أطول مما ينبغي، ولكن كان شهوانياً بطريقة لا حبال فيها، مولعاً بقرص أرداف الحدمات، وكان سريع الصجر دالغ الكية على لغتبات اللوتي يستمير إلى طبقته، وكان يحسن لسانه في فمه تماماً مع النساء اللوتي يعجب بهن حقاً كان أبود يقسو عليه نه فرض عليه حمايته من بعد ذلك، كما كان في تعب مستمر مع شقيقه، الأكبر (الذي مات في عام ١٧٧٠ بالتسمم الكحولي، بعد أن أحد يشرب البرمدي والمادربا طوال ثلاثة أيام متواصلة في رهان) ولكنه لم يكذب يعرف أمه التي كانت قد انفصلت عن أبيه قبل هذا التاريخ بعشر سنوات لأنه صربها بسوط من سباط الركوب كان هوراس جلبي أحد سادة الريف المتخلفين عاطفياً، ثم حدث أن التقى بأبرمويد الدكي المتوفد، الذي ربما كان أكثر منه نصحاً بما يعادل عشرين عاماً من التجربة، ولست أظن أن هوراس جلبي كان شاداً جنسياً، ولكنني أظن أن الطريقة الوحيدة اللانمة للتعبير عما حدث في غوتيين هي القول بأنه قد وقع في حب أبرمويد، لقد أخذ عنه أفكاره، وأساليبه في التصرف، وأسلوبه الأدبي، والأشياء التي يشغل بها نفسه، كان الأمر يشبه الوضع بين "الأسطى" للعلم الكبير، وبين صبيه الذي يتدرب عنده ويتلقى أسرار الصيغة والحرفة، كانت النساء يتنهذن ويستسلمن كما لو كان ذلك بسحر ساحر، وكانت المسألة كلها تحمل طابع خاصية مذهشة أشبه بتحقيق حلم من أحلام اليقظة، وعندما عاد إلى "جلوسبي هاوس"، عاملته الغتبات كما لو كان بطلاً مظفراً عائداً من الحرب وعلى الرغم من أنه كان يعيش على بعد أريعمانة ميل أو نحوها عن "حبيبة" فإنه راح يعيش ويفكر كما لو كان لا يزالان معا في غوتيين، وبدلاً من أن ينام مع كل فتاة يقع عليها بصره، حرص على نفسه نظاماً قاسياً، وراح بدرس هوراس وأرسطو، ثم عقد عزمه على إقامة علاقة "عاطفية" - أي أنها علاقة بحسدة وعلى قدر من التباعد - مع صديقة شقيقته: الحميلة - ولد كان يقيم تلك العلاقة، فإنه كان يستلهم بوفليس وبو ودوسون وعدة آخر من الرومانتيكيين الذين وقعوا في حب فتيات في سن الطمولية ولما ألهمته مثله العليا وأفكاره، أصبح قادراً على تجاوز حدوده الصيقة والارتفاع عنها، ولكنه عاد بعد ذلك - برهاناً على أن الأنفة ما تزال معه، وأن السحر بعمل عمله دون شبهة في الفشل كما كان أبدأ - عاد فتبين أن هاتين الطفلتين تعجبا به مثلما أعجبت به ما حي ما صبيد والقرويات الأخريات، وأنه يستطيع أن يلعب بالنار، معرضاً حتى لباب قلبه للحريق ويظل حلم اليقظة دون أن يقطعه أو يحطمه أحد - لم يكن لديه أي اهتمام جيسي بشقيقته، فقد كان يعرفه جيداً جداً ولكنهما مثل أوراق الأشجار، سقطا في

- ١٤ -

دومة حلم البقعة، ومن مكره الساحق كالألثة، كان باستطاعته أن يختار ما يحسح
بأن كان من الحكمة - من جانب والده - أن يضع المقاتلين في سرير واحد ويقصت أيام
عصاة، وفي منتصف يناير، بدأ رحلة العودة إلى عونعين، متخذاً الطريق الضويل والضاق لئلا
يبدن من أجل أن يسافر مع أبرمويد بدلاً من أن يسافر بالطرق الأقصر والأقل مشقة من
دربي إلى "سوكسهافين"

كان باستطاعة المرء أن يدرك من أن طول الخطاب وما حشي به من تفاصيل تلك
الكبرياء المتفجرة التي شعر بها حليبي وهو يكتب تقريره إلى معلمه بأن الرجل الذي كان
وحيماً، من دون أن يكون معه من يصحبه أو يوجهه خطأ، اجتاز الامتحان بأحسن العلامات
لمكنة

وعلي الاعتراف هنا أن خيبة الأمل كانت هي استجابتي الأولى إزاء خطابات حليبي
ضما إلى مشاعري إزاء دويللي عادت - بتأثير تلك الخطابات - فعمرت بأزمة هبوط من تلك
ذيمات الدورية السابقة، ولكن من الضروري أن أوضح هنا أنني لم أرفض تلك الخطابات في
المنه على أساس أخلاقي - مثلما سيعرف ذلك أي قارئ لكتابي "اليوميات الجنسية" لقد
كنت دائماً - مثل دونيلي - مسحور اللب بمشكلة الجنس، لأنها تبدو كما لو كانت
تحتوي على المفتاح المؤدي إلى أسرار نوع من الوعي أكثر عمقا ولقد سيطر علي دائماً شيء
كانها جنس المتسلط عن الكيمية التي تبدو بها التحررة الجنسية وكأنها تنزلق من بين
الأصابع كالتزيق أو الذهب المسحور في الحكايات الخرافية، ولابد لي هنا من سرد - مكرراً -
علداً من التجارب الأساسية التي تبدو لي أنها تحتوي على مفتاح هام يؤدي إلى الكشف عن
ذلك الغموض

في عام ١٩٥٥ كنت قد قضيت عصر أحد تلك الأيام في الفرش مع فتاة تدعى
كارولين، وهي طالبة في أحد معاهد الدراما كنت قد تعرفت عليها عن طريق جيري رود
كوبينس وقد كانت كارولين - ولم أعرف لذلك سبباً حقيقياً - واحدة من هؤلاء الفتيات
للواتي يولدن عندي مستوى حاداً إلى درجة غريبة من مستويات الشهوة، أي من الرغبة
الحسية المجردة من أي شيء آخر - وقد قالت لي ذات مرة - إنني حينما مارست الجنس معها
تظاهرت هي أحياناً بأنها كانت تعنصب، وإن هذا قد رد من منعها وقد جعلني هذا تبيين
بضريقة تكاد تكون لا شعورية، بأنني كنت أظاها باعتصامها، فأعاملها تماماً مثلما يعامل

رجل خارج قطعة حيدة الطهو من اللحم، فيقضمه ويلتفه بشهية متمتحة كشهية حيوان
وفي عصر ذلك اليوم بالذات، مارست الجنس معها سبع مرات كان الأمر أشبه بمباراة وبعد
إحدى هذه المرات عدت من الحمام، فوجدتها حالسة بسرواتها الداخلي، وهي تحاول أن تربط
منشك حمالة صدرها دفعتها على ظهرها فوق الفراش، وحدثت ساق السروال، وولحتني
بحركة واحدة تقريباً ومرة أخرى فيما بعد، وحينما كانت قد ارتدت كل ثيابها وك
على وشك الانصراف مارست الجنس معها مستنداً على الباب كان هناك دائماً عنصر من
الصدمة والمفاجأة في التحامنا.

وبعد ذلك شعرت بالإجهاذ الكامل، والاسترخاء الشبيه باسترخاء المتعب الهادئ النفس،
كما لو كانت كل رغبة جنسية في داخلي قد عصت تماماً وحقت، حتى أستطيع أن
أذكر ذهني على أشياء أكثر أهمية فتحت الباب بعد ذلك وحرحت لكي أتناول راحة
اللس من على عتبة الباب، وكنت أسكن في شقة أرضية في أحد المنازل، وكانت هناك فتاة
تسير في الطابق الأعلى بمحاذاة سور الدرج الحديدي قريبة منه إلى درجة أنني كنت قادر
على إلقاء نظرة حاضمة إلى ساقها حتى أطراف حواربها العلوية كان هذه النظرة مثل
صربة قوية على أعلى المعدة تبينت مصدوماً أن رغبتني الجنسية لم تكن قد تضبت، له يكن
قد نصب سوى قصوي المباشر ورغبتني المؤقتة إزاء كاريولين كان من الواضح أن المرء لا
فرار لها

ونحقت من الشيء نفسه بعد عدة شهور، حينما كنت في طريقني لكي أمضي الليلة
مع كاريولين والتي كانت في ذلك الوقت تشترك في شقة واحدة مع صديقاتها، دخلت محلاً
لبيع حاجيات النساء لكي أشترى لها روجاً من الحوارب وفي المكان الذي وقفت فيه من المحل،
كانت وزنتي مجموعة من تلك "الحبات" ذات الستائر التي تجرب فيها النساء ثيابهن
الجديدة انعمت بطريقة عارضة، فرأيت أن سيداً كانت داخل إحدى تلك الحبات، وقد
أولتني ظهرها، من دون فهمي داخلي ومرة أخرى، تملكني صدمة الرغبة الهائلة، ورغم أن
المرأة كانت متوسطة العمر، كما تبين حينما التفتت وفي ظل ظروف عادية ما كنت
أولنيها اهتماماً لتأنيب واحدة، وعندما هممت بمعاودة المحل، تملكني إدراك قوي بأن ليثني مع
كاريولين لن تلمس هذا العمق مع الاستجابة الجنسية ولن تبلغ أطرافه.

وقد أدى بي ذلك إلى تكوير فكرة تقول بأن الانحرافات الجنسية إنما هي محاولة للهروب من ذلك الحوق العربي الذي لا يشبع والذي يكون عنصر أساس من عناصر العمل الجنسي الطبيعي. إن "النوهم" الخاص بالعمل الجنسي العادي هو ما ينتج خيبة الأمل وهناك قصة الطبيب النفسي الذي يصح رجلاً غيباً من يغمض عيبيه وأن يردد آثراً بعد نرد "بها ليست روجيتي. بها ليست روجيتي". تقوم ضل أشكال الانحراف على إضافة عنصر من عناصر "الحرم" إلى "النوهم" الطبيعي. على الفناء أن تسير حينئذ ودهاباً وهي ترتدي جوارب سوداء. وهكذا وقصة نكولوبيل دوبيلي عن قيام الخادمه بضربه تؤدي إلى نفس النتيجة وقد تكون هذه النظرة سلبية أو على شيء من التجه إلى الدافع الجنسي. ضل أي شيء يمكن أن يكف عن أن يكون محرماً طالما أنك استطعت - مرة واحدة - أن تمنع شخصاً آخر بأن يشاركك في حله البقطة. عندئذ يصبح الجنس مطاردة لا تنتهي بهدف لا يكف عن الابتعاد.

ومنذ خمسة أعوام، وفي دبليس تحديداً، وقع حادث يمكن وصفه بالمعارض والصغير. قلبت هذه النظرة رأساً على عقب كنت أسير في مكتبة صليبية تريستي حينما قابلت فتاة تخرج من مكان ما. كانت ترتدي جوارب بيضاء اللون، وشيء ما في وجهها صدمني صدمة هائلة لم أكن قد رايتها قبل ذلك أبداً، وحاولت لمدة عشرة دقائق أن أستخلص سبب تلك لصدمة من ذاكرتي. ثم تذكرت: لقد ذكرني بفتاة تدعى هازل كانت ترعاني في طفولتي وكانت فتاة جميلة، وكانت في العاشرة أو الحادية عشرة من عمرها حينما كنت ناً في الرابعة أو الخامسة. وكنت أنظر إليها كما لو كانت أما إضافية لي. ولم أشعر أبداً بمثل السعادة التي كنت أشعر بها حينما كانت تلاطمني أو تبذل لي ملابس أو تساعدني على ارتداء حذائي. وحينما بلغت العاشرة، وتزوجت، كنت أعرف التفاصيل الجسدية للفعل الجنسي، وكان هذا الفعل يبدو لي منيراً وشريفاً إلى درجة مرعبة. ودفعت يوم رأيت هازل في محل البقالة، جميلة مثلما كانت سابقاً، وكانت ترتدي إزاراً أسود اللون وجوارب بيضاء جعلتني أفكر أن زوجها يملك الحق في رفع هذه الأزرار وطلع تلك الجوارب أشعر بغيرة معدية فكرت في الأشياء التي لا بد أنهما يعملانها في الظلام، ونظرت بقوة إلى وجهها، ظاناً أن هذه الأشياء لا بد أن تكون قد تركت أثراً ما. ربما كان أثراً من بشوة حالة، أو ربما علامة شريفة ما تخيلت أن حياتهما، حينما يعود زوجها من العمل إلى البيت، لا بد أن تكون حملاً جنسياً

طويلاً مزعجاً باللدن، ورغم هذا فقد بدت طبيعية وعادية تماماً. بالصمت كما عرفتها دائماً، ربما كانت أكثر نحافة بقليل. ودون شربطها الوردية.

هذا التفكير في هازل - التي كنت قد سبقتها طوال خمسة عشر عاماً أو أكثر - أعيد إلي ذكريات فتيات أخريات كنت أعجب بهن حين كنت صغيراً جداً. فتاة كانت تسكن على بعد منزل واحد من منزلنا وكانت تبدو لي مثل قديسة وفتاة أخرى في الشارع تذا لشراً عما كان وجهها انبعاثاً يدفعني إلى الظن بأنها أحمل شيء، وقع بصري عليه في نعمة وعمرة لي دلت روح فباصلة، لم تكن تكلم هازل كثيراً، تعودت أن تأخذني إلى تسبيحاً ثم مشرب شاي قريب. كان شيئاً شبيهاً بالصدمة أن أتذكر كم كان كبيراً ذلك العدد من الفتيات. وكلهن أكثر مني سناً - اللواتي نظرت إليهن نظرتي للربيات المقدسات. لم يكن قد طرا على ذهني من قبل أنني قصبت طفولتي في مجتمع أمومي، محاطاً بنساء عذبات كالألهة. ولا أطلب من إحداهن غير ابتسامة، أو تربية حنون. لأنني في سنوات مرافقي كنت أفكر في النساء باعتبارهن مخلوقات تطاردن الرغبات، يمكن اليد العليا على أرجل بسبب الكنز الكامن بين أفخادهن، الكنز الذي يستطيع أن يمنعه أو يهبه حسب إرادته ووفق مشيئته. وكانت وظيفة الرجل عندي هي أن يحصل على الكنز، بالإقناع، أو الحيلة، أو بالعنف ومنذ ذلك الحين، كرست نفسي لهذه المهمة العادية، مهمة الكشف عن أكثر ما يمكن من تلك الكنوز. ومع هذا فقد ظل الليل إلى تجسده أو تحيلن في صورة مثالية قوي على حاله، وبدأ هذا الميل في حالة تناقض مع فلسفة الحرب الجنسية. الآن أدركت هذا التناقض. كانت الحرب الجنسية هراء لا علاقة له بالحقيقة. ما أردته من النساء هو نصر ما كنت أريده من هازل، تعاطف الأخت الكبرى ورفقتها، اللطافات والانتباه، تلك الأشياء التي تولد الإحساس الذاتي بالأمان والثقة. لقد لاحظت دائماً ذلك الإحساس بالسكينة الذي يأتي حينما يخترق العضو الذكرى حلقة العضلات عند فتحة عصى الأنثى. ثم ينزلق إلى الأعماق الداخلية اللينة التي تربت عليه بحنان، وقد رأيت الآن أن هذا كان ببساطة أكثر اللطافات الرفيعة قرباً من المطلق. كانت هازل، في لحظة من لحظات الود الخالص تمد يدها فتلمس حدي برفقة، أو تصع يدها على رأسي، وكنت حينئذ في مثل تلك اللحظة بأن أشعر بغوصان هوري من الرضا والإحساس بالإشباع. إن عملية ولوج حسد امرأة ليس سوى صورة متصخمة من هذه اللحظة. إنه نوع من اللطافة، إيماءة رقة، ولكنها تلاطف - في هذه الحالة - أكثر إحراء حسدك خفاء والتصاقاً بدجبلتك وبما تخفيه حبايك - تلاطمه بأكثر إحراء

حسداً حياءً وحميمية إن النزعة العدوانية التي أطلق عليها لورنس اسم "الحرب الجنسية" تنطور من الجوع إلى ذلك الاحتياج. تماماً مثلما تنطور برعة الإحرام من المقر وحتى فكرة "تدريثها" المتسلطة يمكن تفسيرها على هذا الأساس - وخاصة ذلك النوع من "التدريث" الذي يريد أن تظل نساؤه في حالة إحلام كامل له، بينما يسمح له بأن يعمل ما يحلو له. لها العربية في الثقة الكاملة بحب الأثنى وبخصوصه. كل مساء العالة يحبينه، وكلهن برعن في مسحه حبهن. وحتى معرفتهن ذنه الآن في الفراش مع امرأة أخرى لا تؤدي إلى أي فرق أو اختلاف.

فإذني كل هذا إلى معرفة السبب الذي جعلني أفقد كل اهتمام بالحرب الجنسية في أعوام الأحيرة القليلة لقد حصلت - في شخصيتي ديانا وموسى - على مجتمع مكون من شخصيتين سائيتين تعجبان بي. وتم إشباع الجوع إلى الأثنى حتى هذا متخماً أما ذلك النوع من الثقة بالنفس الذي نمعه النساء فقد تحقق وأصبح في وسعي أن أكرس كل انتباهي لأمور أكثر جدية، لمسائل الفلسفة والنمو الإنساني

كل هذا يفسر عدم صبري مع هوراس جيلني. ومع ما افرسته عند أبرموند دونيللي من فلسفة خلابة قائمة على "فكرة" الفجور شعرت أن هذه الفلسفة تدل إما على عدم التحقق أو عدم النصح، رغبة الصبيان الصغار في الأم. ولم تكن هذه الحكاية بالذات - عن مازي وهيون - هي التي أفلفتني، لأنني قدرت أنها حادثة عارضة وقعت من دون تدبير. لقد أراد جيلني علاقة "عاطفية" فتحولت إلى علاقة جنسية. ولكن كانت هناك خطابات أخرى نشرت إلى أنه كان قادراً على تباع أسلوب أكثر خشونة وأكثر منهجية. فقد حدث على سبيل المثال أن عاد في عيد الميلاد التالي إلى البيت عن طريق الشمال. مبحراً من أمستردام إلى جريمسي. فقرر أن يمضي عدة أيام في "أوربا بروك". لكي يتفرج على كاتدرائيتها وقلعته كان فندق الصغير مزدحماً فأعطى جيلني غرفة في الطابق العلوي تقع فوق المغسل. شاركه فيها خادمه، وهو من أهالي لندن ويدعى دوحيت وبعد منتصف الليل بوقت كثير. هبط إلى الطابق الأسفل ليذهب إلى دورة المياه. ثم وقف برهة قصيرة مستنداً يظهره إلى حدار المغسل الذي كان دافئاً وبينما كان يقف هناك، خرجت فتاة من المغسل وذهبت إلى المغسل. ولما أصبحت بالداخل خلعت ملابسها. وصبت ماء دافئاً في أحد الأحواض. وغسلت نفسها. بينما راح جيلني يتلصص عليها من نافذة ثم ارتدت الفتاة ملابسها. وذهبت لكي

تنام في غرفة أخرى في نفس البناء وكان جيلني على وشك أن يسمعها. حيناً سمع صوت رجل. بدا له أنه صادر من غرفتها وفي الصباح التالي. طلب جيلني من خادمه دوحيت أن يكتشف كل ما يستطيع عن الفتاة. وما إذا كان من الممكن الحصول عليها ذلك المساء. وجاء دوحيت بعد عدة ساعات وقال له إنها فتاة محزومة. وإنها تبة أحت صاحب الفندق. وإنها محظونة لرجل يعمل مساعداً لأحد البحارين. ولكنها له تستطع أن تنزوجه حتى الآن لأنه "معلمه" رفص ن يعطيه الإذن بذلك. ورفص صاحب الفندق رهصاً فاطماً أن يقرضه ما يكفي من النقود لكي يفتح نفسه محلاً يعمل فيه لحسابه. وفرد جيلني أنه من المحتمل أن يكون صوت هذا المساعد هو الصوت الذي سمعه يصدر عن غرفتها في الليلة السابقة. فقرر أن يتحنن عن فكرة اليوم معها

وبعد ذلك في نفس اليوم. قال دوحيت لجيلني أنه سمع إشاعة تقول أن الفتاة حامل - فقد كانت تصاب بحالات غيبان في أثناء عملها. وأحسن جيلني بإمكانية اتخاذ سبيل آخر للوصول إلى الفتاة. فقال لدوحيت أن يحاول اكتساب ثقتها. وأن يحاول معرفة مقدار المال الذي قد يحتاجه عشيق الفتاة لكي يبدأ عمله الحاضر "صكت على استعداد لأن ادفع المأ من الجنيتهات في سبيل متعة أن أترك دفقة من ماء الحياة في هذا الرحم الفاضل" ولكن اكتشف أن العشيق يمكن أن يبدأ عمله معتمداً على مبلغ أقل من هذا بكثير. لا يريد على مائة وخمسة وسبعين تاليراً. وهو ما يساوي خمسة وعشرين جنيهاً وقال دوحيت للفتاة إن لسيده فلماً عطوفاً وأنه قد يستحق أن تلجأ إليه - فإن هؤلاء السادة الإنكليز منروون ومنفقون وتبعاً لذلك. طرقت الفتاة بجعل باب جيلني في ساعة متأخرة من عصر ذلك اليوم. فقال لها أن ادخلي ألق الفتاة "حطاً عن حاجة حبيبها إلى النقود. وعن كيف يتعهد بدفع دينه كاملاً. وما إلى ذلك. فتح جيلني صكيس بنقوده وأخرج عدة قطع ذهبية. ولما اتسعت حذفتا الفتاة وهي تحمل إلى تلك القطع. أحاط خصرها بدارعه. وهمس لها هائلاً أنها تستطيع أن تبيع تلك النقود لحبيبته بسهولة كبيرة وحاولت الفتاة أن تخلص نفسها وأن ترح الحجر. فقال لها إنه يعرف بأنها حامل وأحالفها هذا القول. فزدت. وأشار جيلني إلى النقود. وقال أن أحداً لن يعرف أبداً. وإن الأمر لن يستغرق أكثر من خمس دقائق. وإنها ستعيش في سعادة بعد ذلك إلى الأبد سمحت له بأن يقلبها. وأن يداعب صدرها. اغمصت الفتاة عينيها. ومن الواضح أنها قررت أن الأمر يستحق التضحية. حينما سمعا شخصاً يناديها. انفلتت متعددة. فأخذ جيلني النقود ووضعها بقوة في يدها. ثم قبلها ثانية. فأسرت حارجه.

وفي ذلك المساء كانت هي التي تخدم على المائدة. استطاع حليبي أن يجعل عينيه
تلتقي بعينها مرتين. فأحمر وجهها في المرتين. فكانت قد أصبحت مديونة له بجسدها
وكان حليبي يعرف أنه لا خطر على بقوده معها. فقد كان دوحيت قد استطاع أن يعرف
بها وعلت حبيبها على لقاء في ذلك المساء، ولها بلا شك قد حملت إليه البقود

وفي تلك الليلة. استطاع حليبي حتى سمعها تعبر الماء وتدخل العسل وفي هذه المرة له
جميع ملابسها كلها. محتفلة بمحبصها فتح حليبي الباب واندس داخلًا. بدأ عليها العبر.
برحمة أن يحرق وفاتت له أن حبيبها كان يستطرها في حجرتها همس لها حليبي إن الأمر
لن يستغرق سوى لحظة واحدة أمضى عدة دقائق في تهيتها وإفئاعها أن تهدأ وتسكر.
وبعدها حتى استند ظهرها إلى الرجل الخامد. وأخذها في تلك اللحظة. وعلى الفور وبعد
تلك همس لها أنها إذا كانت تريد حمسة وعشرين حبيباً أخرى لكي تغيم منزلها، فليس
عندها إلا أن تأتي إلى غرفته في اليوم التالي. ثم ارتدى ملابسه وتركتها

استند به الغضب عندما لم تلب الفتاة دعوته. قالها بالصدفة في أحد دهاليز المديق.
فحضر إليها متسائلاً. فهرت رأسها وأسرعته تبعد. وله بحج دوحيت هو الآخر في إفئاعها.
كانت الفتاة قد وقت بمصيبها من الصدفة. ولكن لآح حليبي أنه من غير العقول إطلاقاً أن
تكون قد سلمت نفسها له مرة واحدة. ثم بيعت نفسها عنه بعد ذلك "كسبت على استعداد
أن لنفق كل حبيب أملكه لكي أقضي ليلة في المرنش مع هذه الشبطانة الصغيرة الفاضلة"
قال لدوحيت أن يحاول ابتزازها بأن يهددها بإخبار عشيقها. ولما فشل هذا التهديد رآح بفكر
في اختطافها وحملها معه في عربة خاصة. ولكن الفتاة كانت قد نالت مكافئتها. فاحتفت
في تلك الليلة والمفترض أنها قد لحقت بعشيقها. الذي كان الآن قد أصبح مستقلاً عن معلمه
وفي حالة مزاجية سيئة العاية. استقل حليبي عربة إلى أمستردام معرباً نفسه بمكره أن تلك
للبنات الخمس في مواجهة الرجل الخامد. كانت تستحق حمسة وعشرين حبيباً من بقود
أي رجل. هذه الحادثة تفوح منها نكهة منكرة منكرة كان قد راها عارية فزاد أن يمتلكها. كان
يوسعه أن ينتظر. وأن يجعلها تأتي إلى غرفته في اليوم التالي فقد كان من الواضح أنها
مستعدة للوفاء بمصيبها من الصدفة. ولكن كان من الأكثر إثارة ومتعة أن يمتلكها في
الظروف التي كان قد قرر في البداية أن يمتلكها فيها. وخاصة أن عشيقها كان يستطرها في
حجرتها. ومن المهم أن نلاحظ استخدامه لكلمة "فاصلة" له تكن الفتاة فاضلة. لأنها كانت

حاملًا ولكن رؤيته هذه إليها هي ما جعلته برعها رؤيتها في صورة المحزومة الفاضلة. تعشق
رجالاً آخر. فكيف يكون رائعاً أن يحلج عنها فمبصها فيصاحبها مسنداً إلى مرحل العسل.
وسلطونه متدل على كاحليه. ولكن لا أجر هذا. فقد أراد أن يحتل الأرض التي عراها. وأن
يكسر كل العملية المتعة برمتها. ثم يكن من الطبيعي أن يشر فتاة فيهددها لكي يأخذها
أن قراشه. أو أن يكرر في حملها عبوة في عربة خاصة. ولكن هذه الفتاة "الفاصلة" ولدت
عنده رغبة في الغزو. وفي أن يحط من شأنها. وحتى إذا كان قد شعر بالحبيبة في النهاية. فإنه
يعتمد على فكرة أنه قد حصل عليها مرة. وإذا ظلت هي محبسة لروحها حتى نهاية حياتها.
فلا شيء، بمكر أن يمحو تلك الحقيقة. إن أكثر أنواع الرعة السادية عند الرجال خشونة
وفظاظطة هي ما تجل الحكاية كلها ولكن حليبي بصفاها في خطابه إلى دونيللي كما لو
كان واقعاً من موافقته على سلوكه وكان إحساسي الخاص هو أنه إذا لم يكن دونيللي قد
وجد الحادثة وبطر إليها باعتبارها شيئاً رديئاً وغير "مشرف" بمنس بطري لها. إذن فإنه لن
يكون أحسن من حليبي في شيء. وإذا كانا مجرد صعلوكين يحملان عقليين قذرين ولكن لما
لم أكن أملك شيئاً من خطابات دونيللي. فإني لم أكن أملك سبيلاً إلى معرفة ردود فعله
إزاء مكاشعات هوراس حليبي

□ طوال الأيام العشرة التالية لم يحرز "بحني" عن دونيللي أي تقدم ولا بد لي من
الاعتراف ببعض التكلل المحبب. أو بالأحرى بشيء من الليل العكسي. الرافض لأن استغل
طافاتي بمهمة مدقوعة الأجر أو لأن أنكب عليها وحدها دون غيرها لقد شعرت وأنا أفرا
الخطابات المختلفة والوثائق المستعارة من الانستين دونيللي بأنني أشبه بتلميذ يقوم بأداء
واجبه المنزلي. ولقد كنت أكره مثل هذه الواجبات. وبدلاً من هذا راحت أملاً صفحة
أخرى من مذكراتي حول موضوعات متعلقة بفلسفة الطاهرانية وحول دراسة
ويتيمبشتاين. التي كانت روايته "ريتهل" قد وصلت لنوها من بلاك ويلر

ثم حدثت بعد ذلك عدة أشياء دفعة واحدة. فقد نشرت صحيفة التايمز الإبرلندية
خطابي الذي أعلن فيه عن طلي لأية مولد تتعلق بدونيللي. وبعد يومين. نشر الملحق الأدبي
التايمز اللندنية خطابي الذي كتبته في لندن وأخيراً أرسل إلي كلاوس ديكمان خطاباً

عندما من هامبستيد، وفيه أن خطابي إليه له يصله في موعد مناسب، لأنه ترك لمدة صولة على مائدة قاعة الاستقبال في عنوانه القديم، حيث لاحظه أحد الأصدقاء بالصدفة وكتب لي رجل يدعى و. س. ل. نوريتش من بلدة كورك. يقول إنه كان صديقاً للبرجومة حين أسنون التي ماتت في عام ١٩٢٩ والتي كانت تمتلك خطابات مختلفة بخط يد ديبيلي ولكنه لم يكن واثقاً مما حدث لتلك الخطابات بعد ذلك. وأخيراً، كتب إلي كتابم ديبيلي، حفيد إيزاك جيبكينسون بينس. من دليل لي يقول أن حده مريض، ولكن إذا تمسك وحنت إلى دليل فإنه سيكون سعيداً لرؤيتي وأصاف أن حده متجهد لأنني أبنت أراءه حول مرتكب جريمة قتل جريدة الإيرلندية، وأنه يود أن يافئها معي شخصياً. ثم صاف في لاحقة دليل بها الخطابات يقول: "لقد رأيت خطبك في عدد اليوم من التيمز الإيرلندية وبني قد أكون قادراً على تقديم بعض الاقتراحات". وأثارت قلقي هذه الحملة الأخيرة بأسلوبها الحذر فإنه لم يستطع حتى أن يذكر اسم ديبيلي وبدا لي هذا الأسلوب ديبيل على أنه يكاد بالمعمل يعرف شيئاً ما ربما كان شيئاً أصغر حتى من أن يثق بنفسه إذ يلمح إليه

وكان خطاب كلاكوس ديكمان طويلاً جداً. وراح يناقش مكتبي مناقشة مطولة مستفيضة. ولكن إشاراته إلى ديبيلي كانت مختصرة. قال إنه سمع الاسم من أوتو كورنر، تلميذ ويلهلم رايج، الذي تحدث عن ديبيلي باعتباره واحداً من أوائل كتاب الذبح لاحظوا أهمية بلوغ ذروة النشوة الجنسية كعلامة على الصحة النفسية. ثم قال ديكمان، إنه مع ذلك غير قادر لسوء الحظ على أن يزودني بالمزيد من التفاصيل فعلى قدر علمه، كان كورنر قد عاد في ذلك الحين إلى ألمانيا.

كان لدي شعور قوي برغبتني في أن أسرع إلى دليل لرؤية مكلف بيتس ولكن كانت هناك أشياء أخرى كثيرة كان علي إيجارها، وإلى جانب هذا، فإن العجلة التي هي من الشيطان قد تدمر كل شيء، ولذا فقد كتبت إليه خطاباً دون توقيع، أتحدث إليه فيه عن مشروعي لكتابة مقدمة تاريخية لكتابه بتصميم مدكرت ديبيلي. وأضفت أنني أرجو أن أراه عاجلاً في فرصة مقبلة. ثم تحولت إلى مسألة اقتناء آثار خطابات ديبيلي التي كانت في حوزة جين أمستون. رغم أنني فعلت هذا دون كثير من الحماس ولاشك أن خطابات ديبيلي تلك ستكون حول موضوع حورثان وتيللوستون وغيرهما من أصحاب محافل

النشوة العصائيسية. ذهبت إلى كورك وفنلت مسر الدريتش الذي كان يوسعه أن يجري أنه كان لحين أسنون أقارب يقيمون في بلدة بيلكولي بالقرب من كيبسبل. ذهبت إلى هناك بالنسبة لكي أكتشف أن هؤلاء الأقارب قد ذهبوا إلى كورك لكي يبتاعوا حاجياتهم ونهت سبعة يومين نهاراً بأكملهم وهكذا فقد عدت إلى كيبسبل وحجرت عرفة في الملبق، ثم عدت لزيارة مسر فيليب أسنون. وهو حارس شواحن متقاعد في الساعة ثمانية مساءً. وقد كانت هذه الرحلة سدى، فالرجل لم يكن يعرف شيئاً عن خطابات ديبيلي، ولكن أعطاني عنوان قريب آخر لم يدعى برنارد أسنون في نيمريك. وفحصت هذا الأخير في اليوم الثاني في طريق عودتي إلى غالواي، وكان الرجل قد سمع شيئاً عن خطابات ديبيلي، لكن لم تكن لديه فكرة عما حدث لها، وافترج أن اتصل بطبيب جين أسنون، خروج أوهرنان في كورك الذي كان يعرفها جيداً. (ولاحظت مدى ارتباط عبيته وتهنئتهما عندما ذكر اسم الطبيب الأمر الذي أوحى لي بأن تلك العلاقة مع الطبيب كانت أقوى قليلاً مما يستطيع أن يوافق عليه).

كنت أشعر بأن إحساس (كاهكاوي قد بدأ يملكني، وبث 'شعر' باني دور في حلقة ممرعة من دور أي افتراض حقيقي من الهدف المقصود، وشعرت بإجراء الاستسلام. أردت أن ألتطف نصف صفحة من حديث ديبيلي عن موضوع الخطيئة والعداء، ولكن بدأ الموضوع بلوح أكثر إزعاجاً مما يستحق. وحينما وصلت إلى البيت، ودعمت عريمتي بكأس كبيرة من الكلاريت، اتصلت باستعلامات هاتف بلدة كورك وسألت عن رقم تليفون الدكتور أوهرنان قبل لي أنه ليس هناك من يحمل هذا الاسم سوى شخص واحد، ولكنه لم يعد يعمل في المستشفى، بشعور أخذ من التبلد سألت إن كان يوسعهم أن يوصلني بالطبيب المشرف، ثم أخذت كأساً كبيراً أخرى بعد قليل جاء رجل يتكلم على الطرف الآخر، وقال إن الطبيب المشرف كان خارج المستشفى في تلك اللحظة وسألني إن كان يستطيع أن يساعدني في شيء، عرفت أنه كان من المستحيل أن أتعهم بأن يعطوني الرقم، ولكني رجوت أن يحملوا الطبيب المشرف يتصل بي لدى عودته، وكان علي أن أوضح نوع العمل الذي أقوم به. وهو أنني مكاتب وأنني أريد أن ألتصع مصير بعض الوثائق، وأنني قدرت أن الدكتور أوهرنان يمكن أن يساعدني في تتبعها. وطلب مني السيد المتحدث على الطرف الآخر أن انتظر قليلاً، وبعد عشر دقائق عاد لكي يقول لي أن الدكتور أوهرنان "موضع البحث لم

بكر مسجلاً باعتباره ضليماً. شكرته وقطعت النكالة. ولاح ذلك لي كتابه نهاية الحبط
وتضيق

وتكن. وبعد ذلك بساعتين. وبهيم كتبت على وشك الاستسلام للنعاس وأنا أمتنع إلى
مدى "فراصة بينزاسية" دق حرس التليفون فذاجت دياتاً على النداء، وقالت لي أن
خمس للشرف في مستشفى كورث بريد أن يكلمني وكان هو نفس الرجل. وكان قد
أثر نظرة على قنوته القديمة فعثر على اسم الدكتور أوهرمان. ثم استطاع بشكل ما أن
يعثر على مكانه. كان العنوان في كيلاري. شكرته مضطراً إلى ذلك. ثم أخذت اسمه
«عنوانه لكي أرسل إليه نسخة من أحد كتبي ورعه أن الساعة كانت قد حاوزت العاشرة.
فقد فمت بمهمة محاولة طلب رقم الدكتور أوهرمان. ذكرت له اسمي وقلت أنني
كاتب. فأصبح على الفور ودياً جداً وقال لي أنه قد نشر عدة كتب. وله بكر قد سمع بي
قبل ذلك أبداً. وعندما سار بنا الحديث إلى أن وصل إلى موضوع إيرمويد دونيلي تذكر أنه
"كان قد" رآني خطابي في التايمز الإبرندية وأنه فكر في الاتصال أو الكتابة لي. وقال أن نعمه،
بالتأكيد. أنه يملك عدداً كبيراً من خطابات دونيلي بالإضافة إلى أوراق أخرى. وأني
سأكون موضع الترحيب الكامل إذا شئت أن أخصها في أي وقت يكون ملائماً لي. فاتفقت
معه على موعد في اليوم التالي

ليس ثمة مهرب هنا من وصف الساعات الأربع والعشرين التي قضيتها مع جورج
أوهرمان. ورغم أنها تستحق الوصف بالتأكيد إنه رجل قصير ربعة قوي البنان ذو خدين
منوردين وشعر أبيض وشارب أبيض. كان يبدو كواحد من أولئك الناس الذين يولعون
سعداء، مغممين بالاهتمام بكل ما يجري حولهم من أحداث أو ظواهر. أهداني نسخاً من
كتبه. "كلونماكنويز وفصائد أخرى"، "مانجان. وعصيته". "مذكرات متمرد إيرلندي"
بالإضافة إلى مجموعة مترجمات عن اللغة الغالية. كان قد عرف بيتس معرفة جيدة.
وأصغى عدة أمسيات مع جويس في باري. وكان لديه شرب لجو غارتي سجلت ملاحظات
طويلة عن الفاصيص في مذكراتي اليومية. لأن صورة هذه الفاصيص التي وردت في كتابه
مذكرات متمرد إيرلندي "أكثر تهديماً إلى حد كبير وأقل نزوعاً إلى أسلوب راسليه
التهكمي اللاذع من الصورة التي سردتها لي بنفسه. كان الضرب مصيافاً كريماً. فقد دعا
ثني عشر صديقاً لتناول العشاء معي فاستهلكنا عدة كالكوبات من الجعة المصعة في المنزل

بالإضافة إلى عند كبير من رجالات ويسكي كامسور. وفي الساعات الباكرة من الصباح
حينما تخطيط آخر صباه نحو سيارته. حكى لي قصة علاقته بمسر استون في خلال
السنوات العشرين الأخيرة من حياته. وكانت قد ماتت في الثامنة والأربعين من عمره.
سبب الربو. وأجيراً أحتفي إلى حرية هائلة. تمتد من الأرض إلى السقف في حجرة نوم حيث
كان علي أن أنام. وأطلعني على "كوام من المحطوطات المملوكة والخطابات المعلقة في حرم
محكمة موضوعة في إصبارت سوداء ثقيلة. وقال "سوف تعثر على الكثير من ترات دونيلي في
وسط هذه الكتلة". ثم تركني لكي أبحث عما أشاء. كانت الساعة الرابعة صباحاً. والعرفة
باردة كالثلج رغم وجود مدفأة كهربائية ذات مشعل واحد. كتبت قد شربت كثيراً
وتنابني صداع خفيف ولكنني شرعت في جلب الأوراق من الخزانة اعتماداً على الصلصة في
رؤية خط يد إيرمويد دونيلي. وبعد أن أزعجت عدداً قليلاً من العباب وأثرت كمية لا بأس
بها من الفبار عثرت على حزمة من الخطابات موجهة إلى ويليام استون. وكنت حتى ذلك
الحين قد أخرجت معظم ما كان في الرف السفلي من الخزانة. ولكن في نهاية رف الرصين.
كان هناك مغلطان أسود اللون. جديتهما وأقيت نظرة على أحدهما. كان الخط هو خط
إيرمويد. نظرت إلى الصفحة الأولى. كانت تبدأ من منتصف فقرة بأقصة من بدايتها
فتحت المجلد الآخر. كان يتكون من أوراق من الحجم المتوسط. ربطت أطرافها بعضها إلى
البعض. وقد كتبت على الصفحة الأولى: "١١ أكتوبر عام ١٧٦٤. كنت دائماً أعقد العزم على
الاحتفاظ بكراسة مذكرات يومية أسجل فيها أعمالي يوماً بعد يوم. ولكنني فشلت حتى
الآن في الدائمة على تنفيذ هذا العزم. لقد فقت عدد كبير من الأحداث الهامة. حتى كان
علي في النهاية أن أصمم على تنفيذ هذا القرار. مهما كان الثمن من الجهد أو الشموخ..."

خلعت ثيابي وارتديت منامتي وصعدت إلى الفراش. إلا أن النوم هارفتني. في عام ١٧٦٢
كان إيرمويد لا يزال في السادسة عشرة من عمره. إذن فإن هذه المذكرات هي أقدم ما وقع
عليه بصري من كتاباته حتى تلك اللحظة. كان خط اليد أكثر وضوحاً وسهولة في
القراءة من الحط الذي رأيته من قبل في مذكرات لاحقة لهذه التي في يدي الآن. كان
إحساسي بالانتصار قوياً لدرجة أنني شعرت برغبة للذهاب إلى الدكتور أوهرمان في حجرة
نومه لكي أطلعته على ما وجدت. ولكن له يمنعني من ذلك. لا شك في أنه ينام فيها مع المرأة
الشابة الممتلئة التي تخدم مسرله. الأمر الذي جعلني أصيح جراح بمسي. وكان ما أدهشني
هو أن أوهرمان لم يذكر لي تلك المذكرات. لقد قال لي أنه يعرف أن ثمة خطابات من

ديبللي. ولكن كان هذا هو كل شيء. فالاستنتاج إذن هو أنه لم يكن يعرف شيئاً عن وجودها. وحينما سألته في الصباح التالي، أكد لي هذا الاستنتاج. فإن مذكرات رجل بريدي، بروتستانتى إنجليكاني النزعة والمذهب، من القرن الثامن عشر، لم تكن من الأمور التي يمكن أن تثير اهتمامه، لأنه كان كانونيكياً ووطنياً، وكانت مشاعره إزاء كرومويل أكثر عنفاً من مشاعر أي إنكليزي تجاه هنتر

فراحت حتى مطلع الفجر، ونمت حوالي ثلاث ساعات، حتى أبقتني مذبذبة المرل دسلي. ثم ارتدبت معطفي فوق المائدة وعلت دانية إلى الخرابة وفي خلال نصف ساعة، كتبت قد "قررت" ثلاث حزم أخرى من الخطابات، ومجلدات آخرين من المذكرات، بالإضافة إلى مخطوطة "يوميات الرحلات" الخاصة بديونيللي وحينما دخل الدكتور بفرمان لكي يقول لي أن طعام الإفطار قد وضع على المائدة، وحلني محاصراً بالأوراق مغمض بالثرب، جالساً في مواجهة الخزانة الخالي. وحينما أطلعتني على المذكرات، ابتسم وقال:

"حسناً، إنني مسرور لأنك لم تقم بهذه الرحلة لقاء لأي شيء"

حينئذ انتهزت الفرصة لكي أطرح السؤال الذي شغل ذهني طوال الليل:

"أعني إنني أستطيع أن استخدم كل هذه المادة؟"

"بالتأكيد. لم لا تستخدمها؟"

"هل تفضل أن أعمل هنا، أم أن يوسعي أن أستعيرها؟"

"نوه، أي شيء تفضل. انزل الآن معي وكل شيئاً"

ثم عرج خارجاً في خفة، بينما جلست في مكاني أجمعهم كمنجنون.

- ١٤ -

□ ولابد لي من الاعتراف بأنني حينما درست المذكرات، بدأت في الندم على قبولي التعاقد مع هيلشر. كان مبلغ الخمسة عشر ألفاً من الدولارات قد لاج لي مبلغاً عظيماً في ذلك

- ١٥٧ -

الوقت، ولكن مع وجود كل هذه المادة التي استطعت الحصول عليها شعرت بأنني سحر أكثر من هذا بكثير. ذلك أن المذكرات الجديدة أراحت حاسياً آخر من شكوكي حول حلمية ديبللي الثقافية وقيمتها الذهبية. لقد أطلعتني هذه المذكرات على السبب من جعل هوارس حبيبي يعجب به. إن هذا الأحد لقد كان رجلاً تسلطت عليه الضيعة الروحية للتجربة الإنسانية. ولكن هل يدعه يتحدث عن نفسه:

"يقول لي ابن عمي فرانسيس أنني هوي الشعور بداتي مسرف في العزور، ولكنني أدعو السماء لكي تشهد علي أن هذا غير صحيح. إنني في الأغلب أصغر من يعيش تحت الشمس من مخلوقات لمة وتحقيراً لداته، وكثيراً ما يبلغ عدم رصاي عن ذاتي أن أشعر برغبة أن أطلق على رأسي الرصاص فأسمه. إنني أكتب هذه المذكرات عسى أن أستطيع أن ادخل شيئاً من النظام والاستمرار على حياتي. لأنني أشعر بالسقام حتى لباب ثقلب مسبب استهجانتي واستنكاري لذاتي كثيراً ما تشكو النساء من انتقاد الرجال إلى النبات على العهد. ولكن ما يسمعي عليهما أن التمتع بصفة النبات على العهد في الحب بينما نحن لا نملك شيئاً من النبات في أي شكل آخر من أشكال الفكر أو الإحساس أو شرعية؟ مآلهم، القى الواعظ المشهور الدكتور جيلليس موعظة في كنيسةنا، وقد حركتني هذه الموعظة إلى حد عطشه. فأقسمت على أن أعدل حياتي في المستقبل لكي أسير تبعاً لوصايا فاعيش فقط على أساس من الاتفاق مع صميري وإحساسي بالمصيلة. كان اليوم عاصفاً شديد البرد إلى درجة أكثر مما يسمح بالمقاومة بالخروج من عتبة الباب. وفي هذا الصباح فرائت في حركات جيلبرت بالانانية لمدة ساعة قبل أن يتملكني سوء المزاج المعتاد مرة أخرى. فأصبحت غارها في إحساس وحشي من الفراغ والحواء. ومنذ ذلك الحين وأنا عاجز عن رؤية أي طريق يستطيع من خلاله صميري أو إحساسي بالمصيلة أن يؤثر على هذا الإجهاد الذي يستهلك الحياة ويدمرها ربما يستطيع صميري أن يدلني كيف أتجنب ارتكاب الخطأ، ولكنه لن يستطيع أن يدلني على كيفية الهروب من الليل والضجر. وهل يمكن أن يكون ثمة شيء أقتل للمخلوق الذي صاعه الله على صورته من نفس هذا الضجر؟ ذلك أن الله لأنه لا يستطيع أن يخلق. ولذلك فإن رجلاً يسحقه الصجر لأكثر المخلوقات بعداً عن صورة الله

لقد عقد الدكتور جيلليس مقارنة شديدة الحدة والبراعة بين الجسد والعقل، فدلنا أن الجسد يملك نظاماً أو أسلوبه الخاص للنخلص من الإفراغات السبئية أو الضارة سواء كانت

- ١٥٨ -

صعبة أو نتائج المرض. بينما لا يملك العقل مثل هذا النظام أو الأسلوب لو أصابي "دمل"
 أنصرف من تلقاء نفسه. ولو أصابي الإمساك فإن تماحة حصراء ستكفي لتخفيف
 انقباض. ولكن لو أنني ممتلئ حسداً أو صعيقة، فلن يفيعني أي مطهر مهما كان، فإما أن
 ننج نمرسة للتعبير عما يحتمس في صدري، أو أن أسحبه عن طريق فعل مضاد ونيس
 هناك فإذا طمعية للتصريف، لابد لتصريفه عن طريقة تشبه ولادة "ماكدف" قاتل
 دكس في مسرحية شيكسبير "الترع من رجة أمه قبل أن يوضح والولادة" أو ليس
 يصدق هذا - وحتى أكثر منه - على ذلك "الصحرا الحياتي" الذي يحقني إنه نوع من
 مدس الروح، دمل لا يريد أن يصرف.

أعرف أنني لا يمكن أن أكون سعيد، دون الشعور بأن نشاطي موجه نحو غاية ما،
 ولكني لا أعرف كيف الله روجي فأشجيتها بهدف معين أو غاية محددة. منذ نصف ساعة.
 تباين ديوان تومسون^(١) الذي يحمل عنوان "شتاء" وفراغ فيه.

بتمزل الوابل الأبيض عبر الهواء الساكن.

رقيقاً يترجح في البداية، حتى تأتي في النهاية الرهانات السميكة

تسقط في كل مكان، طولاً وعرضاً. وسريعاً ما يعنه النهار

بالقيضان المستمر. الحقول للدلالة الحبيبة.

ترتدي دبابها الشتانية من أنصع ألوان البياض

كلها ناصعة مشرقة، عدا حيث يدوب الجليد الجديد

على طول المجرى المراوغ...

لماذا تحمل تلك الكلمات سلاماً يشبه سقوط الجليد الهابط على حواشي ألا توجد في
 داخلي شهية إلى السمو الجليل يفسدها الآن الإجهاد، مثلما بنن جوع معدني فأشعر بالعنبا
 إنه أكلت كثيراً من الشطائر المسكرة؟

(١) جيمس تومسون ١٧٠٠-١٧٤٨ شاعر مجليري. له ديوان (شتاء) عام ١٧٣٦. وديوان (المصول) الذي أخذ فكرته
 عن استاذة في اللاهوت روبرت ريكالتون

أولا تستنار تلك الشهية فتستيقظ من حمودها إذ تندكر حقول شتاء؟ وكذلك
 حين تندكر قفصة السيوف في ملحمة أوسيان؟ وأيضاً إذ تندكر اهتزازات يهدين حبيد
 تسرع فتاة في صعود الدرجات ناداً لا يملك عصا نصرب بها صحرة الروح لكي يتمجر من
 يسوع دهاقاً؟

هنا يردد أمير موند الموصوع الفرنسي في اندفكرات إنه ما يدعود الآن بالطاقت
 وتقدرت الحمية للأوعي هذا الموضوع يتسلط عليه كالتهاجس المسيطر وهو يعود إليه مرد
 بعد أخرى "إن قوى الطبيعة تحبط بنا طول الوقت، الاندفاع الجبار لتيار القيصان. وقد ندم
 مدافع الرياح، النجوم نفسها ترفص غير "سموت لكي تقول لما أن لا شيء، في العال بهر
 سأكنا سوى روح ملعون لا يعرف سوى القلق وتائب الدت" وهو يسأل مراراً عن السيد
 الذي يحمل ذكاء الإنسان "بميه" بالضرورة من حباذ الكون ويتساءل متأملاً فيما إذا كان
 هذا هو معنى قصة آدم وحواء؟ إن المعرفة داتها، القدرة على التفكير، هي التي كانت تفصل
 الإنسان وتفرقه عن الله وحتى في سن السادسة عشرة يندى دويللي معرفة واسعة ندم
 بمقدسات ومشاكل القرن الثامن عشر. بل إنه يقتطف عبارات من جورج هيربرت^(٢) ولكن
 في الصحيفة رقم ٤٨ من المجلد الأول المؤرخة في يوم يسبق عيد الميلاد بأسبوع واحد - تنعم
 السحمة وأظنه قد أعاد قراءة حملته التي يطالب فيها "عصا نصرب بها الروح لكي يتمجر
 منها اليسوع دهاقاً". إنه يتحدث مرة أخرى عن النهود المتهرة كان المهدان اللدان يفكر بهم
 هما مهداينة عمه صوفيا، التي كانت تقبه عندهم فترة الإجارة مع والدها ووالدتها، إن
 صوفيا مويستاغو، ابنة عم إليزابيث مونتغو (وهي إحدى العضوات الأصلات في جماعة
 "الجوارب الزرقاء")، قد أصبحت واحدة من فانتات هذه الرحلة الرموفات. وحتى في ذلك
 الوقت، حينما كانت في التاسعة عشرة أو تكاد - فإنها قد حدثت الكثير جداً من الاهتمام
 حينما كانت تقبه في بيت "ماي فير" الذي أقامته الصيفة الشهيرة. وكان أمير موند يملك ما
 يكفي من القدرة على التحليل لكي يعرف أنه لم يكن واقعا في حبا، لأنه كتب يقول: "إنها
 بلهاء، ولكنها بلهاء جميلة تتمتع بالكثير من نقاط التشابه مع إحدى الربات". ويكتب عنه

(١) أوسيان - شخصية تحمل وجهين تاريخ وأدبي. فهي التاريخ كدست له شخصية أحد المحاربين الذين مروا

شمال اسكتلندا في القرن الثالث. وفي الأدب عرف كشاعر. نسب له ملحمة شعرية عن حروب العائين ل

هريسا ونيكلرا وثاميا. نشرت في عام ١٩٦٠

(٢) جورج هيربرت ١٨٩٢-١٨٣٣ شاعر إنكليزي أحصل للشعر وحده. بعد من شعراء مدرسة جون دون الليتافيريقية

بعد قليل، قالت لي صوفيا إنها سمعت مستر بورويل يتناقض مع دكتور جونسون
سلف عن تعدد الأزواج. وأن مستر مونتاغو أجابت بأنه ليس هناك امرأ على قيد الحياة
عسى حكمة صائبة إلى الحد الذي يجعلها تريد أكثر من زوج واحد في الوقت الواحد". إن
مكرد بورويل جديرها. وقد تاصلت فيما بعد. وكذلك تاصلت أفكار روسو في كتاب
شعير الحبيبة التي قرأها بالفرنسية. كما قرأ رواية ريتشارد سون "كلاريسا هارلو". ففي
رواية روسو تنشأ علاقة حب بين شطلة دولي ومعلمها سانت بريو، ويدافع عنهما روسو
بحمد بأن هذا الحب حق وطبيعي بين شخصين يحب أحدهما الآخر وتمنعهما الظروف من
الزوج أما رواية ريتشارد سون فهي أخلاقية إذا ما قورنت برواية روسو، إنها معالجة لحكاية
عج. كلاريسا الفاضلة واعتصامها على يدي الأفاق الصعلوك لفيلبس وتموت كلاريسا تحت
يداع تعذيبها لنفسها وشعورها بانعاز. ويقتل لفيلبس في مبارزة. ويكمل إيرموند صوفيا من
لبنكه ريتشارد سون باسم روسو. لماذا يمكن أن تنهار فتاة وتصمم على الموت لأن رجلاً
لم يفعل معها شيئاً طبيعياً؟ إن حضور ابنة عمه الحميلة يحفظ موضوع الاتصال الجنسي في
سبعة ما يشعل ذهنه. وفي وقت قصير بشرع في التعبير عن آراء تدفعه على تقرير المحافظة
على سرية مدكراته إنه - مثل عند كبير من العقاد - يشك في أن موقف ريتشارد سون إزاء
سبب كلاريسا لم يكن موقف الرقص المرتعب وإنما المتعة السرية الشريرة "فمن الذي
يمكن ألا يستمتع باعتصاب فتاة حميلة. خاصة إذا لم تكن متمالكة لوعيتها ولا تعرف شيئاً
عن بحري لها؟" وهو يسأل عن السبب الذي يجعل ريتشارد سون يسمح باعتصاب كلاريسا
وهي تحت تأثر الحذر. بدلاً من اتباع طريقة لوريس. نه يحيب على تساؤله قائلاً: "إذا
كانت الفتاة فاضلة إلى الدرجة التي تمنعها من تسليم جسدها بأي طريقة أخرى، فإن
منيس علي حق في اتباعه لهذا الأسلوب. إن جمال الفتاة، مثل جمال أنواع معينة من الطيور
ذستوائية، قد خلق لكي يعري الذكور ويوقعهم في حباله. فلماذا ينبغي عليها أن تشكو إذا
كانت قد حققت كل هذا القدر من النجاح؟ إنها تشكو لأن هدفها هو أن تحصل على زوج
في مقابل فصيلتها. ولكن لنفرض أن زوجها الحمل قد وجدها بلهاء ولم يرغب في أن يكرس
حياته للدفاع عنها فهل يلزمه شره بأن يتوقف عن الطردة لماذا لا يستطيع أن يحاول انتزاع
لهررة بدلاً من أن يشترى الحديقة بأكملها؟"

ومن المهم أن نلاحظ أنه لم يجب بالفعل على سؤاله عما دفع ريتشارد سون إلى
تفصيل أن تقتصب كلاريسا وهي غائبة عن الوعي. ولكن هذا السؤال يستمر في ملاعبة

تفكيره إنه يسأل "ليس ذلك لأن إحساس الرجل بالالتزام يقابل من منعه؟ ليس من الحق
أن استمتاعه برجاجة من السيد يمكن أن يضيع تماماً إذا عرفت أن علي أن أرفع خمسيناً
من الحبيبات لقاءها غداً؟" وهو يمضي إلى مناقشة فكرة بورويل عن تعدد الأزواج. ويؤكد
أن هذه الفكرة ليست سوى تعبير آخر عن رغبة. لرجل الطبيعية في أن يعربوا عن ولانته وأن
يدفعوا ما قرر عليهم. "بأن يصبوا ناساً من عصير الحلق في الحلق الصحيح المناسب".

ولم يؤد الاهتمام بصوفيا إلى شيء ولكنه على الأقل أدى إلى بداية تفكير إيرموند في
الجنس. ويؤدي هذا به إلى كتابة معالجة تقريرية ممنوعة عن تعاربه الجنسية حتى ذلك
الحين وكانت هذه شجارب قد وقعت قبل ذلك ستة شهور فحسب. وكانت الفتاة هي
خادمة شقيقته الكبرى، جوديث. وكانت قد جاءت عائدة من ليونز. وهو يدعوها باسم
مينو رعه أنه من الواضح أن "ماري" هو اسمها الحقيقي

حينما علت من دليل. وكانت جوديث قد عادت إلى البيت منذ نحو سنة أسابيع. وفي
الندابة له أنتبه إلى مينو إنما ابتداء. إذ وحلت أن وجهها على شيء من القبح كان صدعها
ضخماً جداً. وكان لها أنف مثل الررار الكبير ولكن في اليوم التالي لعودتي. وبينما كنت
رائداً على الحشائش الحديثة المشيب بالقرب من حافة مجرى الماء... سمعتها تصحك وتقول
"كللاً. كللاً ليس هذا هو المكان المناسب". نه سمعت صوت رجل ينهكم على لكنها قائلاً
"كللاً. كللاً. ليس هذا هو المكان المناسب" وكان الرجل هو شون فرايرش. الذي يسوس
الحيل ويساعد على شؤون الحقيقة. وكان عملاً صحنه الحنة بررت على صدغه الأيمن
بدمية كانت نتيجة ركلة فاسدة من مهرة عصبية له. تكن سراويله ولا سزاته تناسبه
لنألاها كانت عالماً مما يستعني عنه شقيقه الأكبر. الذي كان أقصر منه بمقدار ست
بوصات لم تكن قادراً على رؤية أي منهما. لأنهما كانا واقفين وسط الحشائش الطويلة
تحت إحدى شجرات التفاح. وبعد دقائق قليلة من الصمت. قالت مرة ثانية، كللاً. ليس
هذا "أجبها "لأن نغاني إلى الإصطبل" قالت "كللاً لا استطيع يجب أن أعود لأقدم الشاي"
أو كانت جوديث لابد أن تتناول الشاي في العصر. عذرة جاءت بها من الخارج) ولكنني
سمعتها تعدد بأن تذهب إلى الإصطبل بعد تقديم الشاي. نه وقعت. وبفصت شعرها بيديها.
وأسرعت تستعد. وقف شون راقتي. وربط ببطاله عند وسطه بقطعة حبل نه ذهب في اتجاه
الإصطبل

كنت أعرف سمعة شون بين فتيات القرية، رغم أنني لم أكن قادراً أبداً على فهمها، في سمته وعينه الشوقية أعطياه مظهراً مفرحاً إلى أقصى حد. كانت شقيقاتي يطلقن عليه اسم "سيكلوبس" ولكنني كنت في هذه اللحظة أتحرق شوقاً وفضولاً لمعرفة ما نوى على فعله معها. رغم أن ذلك لم يكن صعب التخمين. كنت قد رأيته وهو يرشد العضو المنتسب لأحد الجياد النابذة النصر لكي يولجه في مهرة جديدة، ولم يكن لدي شك في أنه جيد لتدريب على استخدام "آلة" والسيطرة عليها. ولكنني لم أكن أعرف شيئاً من التحام برح بالمرأة، غير أنني قررت الآن. وقد سنحت الفرصة من تلقاء نفسها، أن علي أن أعالج هذا شخص الخطير في تعليمي. وعلى هذا فقد دفعت نفسي إلى الجزء الذي يوضع فيه القش في لإصطبل. لأنني خمنت أن هذا هو المكان الذي كان يفصله - ثم تسلفت صاعداً إلى القسم العلوي منه. بين أكياس الفاصوليا وأجولة البنور. كانت الأرضية كلها مغطاة بالقش، وبريحة لليلة مثيرة. كان تخميني أنهما بنويان أن يتمتعا بالنعاما فوق هذا البساط الضمعي القرب بكنهم إلى الواقع. ولكن إذا كان قد "وضع في رأسه" أن ينظر إلى القسم العلوي، فيه سبتعين علي أن أختبئ وراء الأكياس والأجولة في الركن.

بعد نصف ساعة دخل شون وبدأ في قلب القش بشوكة كبيرة، لم يكن يوسعي أن أراد. ولكي عرفته من صوته وهو يغني أغنية "مولي مالون". ثم صعد بعد ذلك إلى الطابق العلوي. أحداً معه "أحضاناً" هائلة من القش. لكي يبعثرها وينشرها على الأرضية على بعد بضعة ياردات من المكان الذي رفعت فيه. من هذا التصرف خمنت أنهما بنويان أن يفعلوا مثلهما وأن يفعلوا ما يربدان هنا في القسم العلوي. وليس في المدخل السفلي كما كنت أض.

بعد دقائق قليلة، جاءت مينو. ولبهة قصيرة لم أسمع صوتاً رفعت جذعي على رصمتي وتلصصت نائراً فوق الأجولة. كانا واقعين بالقرب من الباب، وكانت قد أحاطت عنقه بدراعيها، تبادلًا حديثاً هامساً وأشار هو إلى السلة. جمعت جذعي ورفعت أغمصت عيني حتى بطناني تماماً. ان وقعت عيونيها علي صعد هو أولاً. ثم استدار وعاونها على صعود السلم. لدي كان ممتد. وراء النصة العالية. كان الصوت ضعيفاً، ولكن كان يوسعي لي رهم بشكل جيد. وقف هو وصهره إلى الحذر، فانفتحت هي بدراعيها حول عنقه ومنحته فيه طويلة. ثم انزلت إحدى يديها ومدتها إلى الحبل الذي حلت عقليته بحبلية واحدة فقط.

بنطاله إلى رصمته، كاشفاً عن ردين هائلين مشعريين كانا في مواجهتي. تحركت يديها متجولة بينهما ولم يكن يوسعي إلا أن أحمس ما كانت تفعله في هذا المكان... رفعت وجهي فوق الأجولة، ولكن لم أستطع أن أرى سوى القليل، لأنهما كانا غارقين وسط القش. وكان الضوء قليلاً بالقرب من الأرض وهجاء صرخت صرخة حادة، وخشيت أن تكون قد رأيتني فأخفيت نفسي غاطساً إلى الوراء من جديد. ثم سمعته يأمرها بالصمت، فصرخت مرة ثانية. ولكن بصوت أقل ارتفاعاً. همس القش وصبر كما لو كانت آلاف من الجرادات تمر داخله. واستمرت هي في إطلاق الصرخات والأصوات. كما لو كانت تتألم. ثم أصبح الصرير عسيماً حتى دفعني إلى فتلصص من جديد، فرائته يحرك رقبته فوقها كما لو كان يأمر أن يصنع نقباً في الأرض... بينما اندست قدماها في شئتي ظهره. ولو كان هناك المزيد قليلاً من الضوء، لكان في وسعي أن أرى المشهد الصحيح اللطيف للعملية. ثم حاولت أن تصرخ مرة ثانية فوضع يده فوق وجهها. بينما توقفت حركاتها كما لو كان قد تجمد فجأة. رفعت يدي مكنهما، ساكنين تماماً. ثم تنهد تنهداً عظيمة، وبدأ عليه أنه بوشك أن يجعل مرتد إلى الوراء من فوقها وحلت هي وذاق ساقيها من حول رقبته. وتركتهما تتمددان مستقيمتين بينما رقد هو في مكانه فوقها دون حركة.

لا بد لي من الاعتراف بأن كل هذا قد دفعني إلى حافة قريبة من الاستنارة التي بلغت لحظة انزعاجها الخاصة قبل أن تتوقف حركاتهما ببعض دقائق. ولما كنت قد انتهيت فقد أملت أن يرتدبا ثيابهما وأن يسمحا لي بالهرب من هذا الوضع القيد. ولكن الصمت تدرياً طبق واستطال القنمعي بأنهما قد غرقا في النوم. رغم أنني لم أحرز على الحركة لكي أكتشف إن كان تخميني صحيحاً أم لا وبعد أن مرت عشر دقائق. شرعاً في التحرك ثانية ولكن الصرير استمر لمدة طويلة حتى نسي رححت أنهما لم يفعلوا سوى أن عادا إلى مؤتمر العشق الذي يفقدانه رفعت عيني فوق الأجولة فاكشمت أن تخميني لم يبلغ سوى نصف الحقيقة، لأنه كان رالداً على ظهره مثل فارس مصروع، بينما حثت هي على أظرافها الأربعة. وبنت كما لو كانت تحاول أن تنفث فترا من الحياة في الحمرات الحابية بأن تنفث فيها بعض الهواء. وبعد قليل، أثمر جهدها ثمرته، وتاجح اللهب في الجمرات من جديد.

بمضي تقرير أبرمووند في إطناب واستطالة حتى لكون من غير المحدي أن ينقل منه المزيد هنا. كانت الفتاة مصابة بالقلمة مستعرة الشوق. رغم أن أبرمووند كان أقل خبرة

كثير من أن يدرك هذا، لقد دهعت فارسها إلى مزيد من النشاط ثلاث مرات، ثم تركته في النهاية غارقاً في نوم بلغ من العمق أن نيزموند كان أخيراً قادراً معه على أن يخطو على طرف أصابعه فوق جسده دون أن يشعر به.

ولكن الطور التالي كان نموذجياً ومطابقاً لما هو منتظر من نيزموند حتى أنه يجب أن يسجل هنا أن يعترف بأنه لم يكن قادراً على رؤية ما يجري ولكن الأصوات كانت دالة ولا يمكن الخطأ في تفسيرها حتى لقد كانت الرؤية غير ضرورية. والآن، وقد رأى الفتاة عارية، فإن فكرته الوحيدة كانت هي كيفية أن يتفاسمها مع هنتي الإصطبل. إنه يكرر عدة مرات أن جمال جسدها قد أدهشه، وكان قبل هذا بظن دائماً أن المثاليين الإغريق قد أسرفوا في التسليحة في جمال شكل الجسد الأنثوي. وفي طريق عودته إلى المنزل، حطر له أن الفتاة يمكن أن تنصاع للابتزاز والتهديد لكي تسلم نفسها له يكن عليه إلا أن يهدد بأن يبلغ شقيقته بأنها تغشق هنتي الإصطبل ذهب بعد هذا إلى حجرته لكي يغتسل ويهضم الزرع عن نيابه، ثم ذهب عبر حناج الخدم إلى حجرة ميسو. ولم يلبح له أن ثمة أحداً بالداخل، فتح الباب وأطل برأسه في الحجرة.

"كانت حجرتها حالية، وللحظة ناقشت نفسي ألتظرها أم أعود راجعاً إلى حجرتي ثم سمعت صوت مياه تسيل في الرخاض الملحق بالحجرة. وهو قسم صغير من الحجرة نفسها يفضيه عنه حاجز صغير. فعرفت أنها هناك بالداخل. أغلقت الباب خلفي وخطوت إلى الدحل على أطراف أصابعي ولكن أحد ألواح الأرضية صر تحتي فسألت: "من هناك؟" فقلت ما كثر من استطعت هدوءاً "نيزموند" ظلت برأسها وقالت "وه، سامحي، إنني من دور نياك" وقعت في مكاني، شعرت بأني به لا شأن له، الأمر الذي أعصمني مسكت بنوبها، إنني قد ملق على أحد المقاعد، ورفعتة لتعطني جسده عند العمق وهي تسأل: "تحمل رسالة؟" ولكنها كانت تبسّمه صم لم وكانت قد وحنيتي ممتد. وسأعدي هذا على لتجلس من ثورتري ضكت أحرق فيني بقوة. محوذاً أن تعرف إن كانت ترتدي قميصها أم لا. حتى أنه لم تنق طوبى في شئ من هنتي كانت هذه هي أول مرة عرف فيها أن تبادلها في دار، يمكن أن يحدث دون يطق ظلمه وأحد تحركت عيناها من قدمي إلى رأسي. وعادت ثانية قلت "الحو بارد هنا أو شيئاً من هذا القبيل. ثم خطوت إلى الأمام، وأحلت بلحياها ومسكت بهما فرفعتهما وأطلت تحت الدراعين كانت ترتدي القميص. ولكنه كان متدنياً

تحت عنقها، ثم أن منظر الكرتين غير الحميتين دهعتاني إلى العمل بقوة حتى لنني لم أطل الزرد. وإنما أخذت الثوب منها والقبته على الفراش. على النهذ الأسير رايت آثار صفي من الأسنان. وحيناً بدا عليها أنها على وشك الاحتجاج انصرت إلى تلك الآثار. هبطت بعينها نحو صدرها وقالت شيئاً بالفرنسية لم أستطع سماعه، ثم حنيت رأسي إلى الحلمة الصغيرة التي وفقت الآن عارية. وبينما كانت تنظر، جنببت حزام القميص. توقعت منها أن تقفز مبتعدة، ولكنها وفقت في مكانها بهدوء وتركتني لكي أخذها بين شفتي. ثم بعد لحظة وصعدت يدها على رأسي وربتت على شعري. ثم حلت رباط حزامي. لم اضبع وقتاً أكثر من هذا. وإنما دهعتني إلى الوراء نحو الفراش الصغير، ووضعت يدي على الجزء المنخفضة التي كانت مبتلة لأنها كانت تغسلها حينما دخلت الحجرة. ودون أن أدخل بنطالي أو حذائي سقطت فوقها، ولحقتها دون صعوبة...

مرة أخرى يبدو الوصف أطول جداً من أن تقتطفه كله. لقد بقيا في حجرتها ساعة أخرى، ودهعت الفتاة للبهشة إلى أن يمارس الجنس معها ثلاث مرات أخرى. وبعد ذلك تبادلوا الحنيت، واعترف نيزموند بأنه قد رافقها مع شون والفرتي. وبدلاً من أن تشعر بالهانة. ضحكت ضحكة مرتفعة، وسألته إن لم يكن قد شعر بالفرة فقال: كم أكن حينذاك. ولكني أشعر بها الآن" قالت له إن ذلك سخف لا معنى له، طالما أن للفروض في الرجال والنساء أن يتبادلا للتعبة.

من الصعب القول إن كان نيزموند سعيد الحظ أم سيئه في اختياره عشيقته الأولى حقاً إن آراءه حول الاتصال الجنسي غير الشرعي كانت قد تطورت من قبل تطوراً كبيراً، ولكن قصة حب أكثر طبيعية. ذات جانب عاطفي بالإضافة إلى جانبها الجسدي. كانت حنينة بأن تساعد على موازنة تلك الآراء. كان ما يزال غير مدرك لأن هناك شيئاً ما غير طبيعي في مطالب مينو الجسدية طالما أنه وجد نفسه قادراً على أن يمارس معها الجنس بالكثرة التي تريدها. كذلك فإنه ليس من الحقيقي تماماً أن الانحياز القوي بينهما كان محروماً من جانبه العاطفي. بل لقد كانت هناك نقطة اعتبرها هو اندماحاً معها لقد صكف عن التفكير في كلاً ريسا ولعلهم. أو حولي وسألت بسو. وراح يفكر في قصتهم باعتبارها قصة مينو ودي جريو. راعه أنه يعترف بأنه كان قد صرف النظر من قبل عن مسرحية بريغو باعتبارها شيئاً سخيفاً وغير واقعي.

من لؤسف أن إيرموند لا يقول لنا شيئاً عن تاريخ مينو السابق، ولا حتى عما إذا كان قد مات هو عنه أم لا (لقد كان من المهم أن نعرف إن كانت حبيبته الجنسية غير العادية لحرية أم مكتسبة)، إنها تبدو بشكل واضح في صورة حالة من حالات الغلظة الشبقية جذيرة من سدرم في كتاب مرجعي. كانت تحب أن تعض بالأسنان وخاصة في يديها ورديها. كانت تحب أن تعصر على مؤخرتها بشرط من الحلد.

وفي خلال الشهرين اللذين استمرتهما تلك العلاقة، لم تكن تخفي عنه أنها كانت تمسني أكثر مما تستطيع من الوقت مع شون والفيرتي، وكان إيرموند واقعاً تماماً تحت سيطرتها حتى أنه لم يشك في ذلك بل إنها حاولت أن تقنعه بأن يحنى في الإصطبل مرة نسة لكي يراها وهي تمارس الجنس مع شون ولكن ككرياء إيرموند أو ربما تطاهره دخلا في الروتسنتاني - نار ضد ذلك.. بل إنه اعترض على اقتراحها الذي قالت فيه أنها ستعبر شون عن علاقتها به هو، وأن ثلاثتهم يمكن أن يشتركوا في أعيب الإصطبل.

في أغسطس اتخذت القصة تحولاً غير متوقع، يدفع المرء إلى أن يتساءل إذا كانت مينو بسمها (لا خير لم يسجل) واحدة من أكثر ساء رميتها تعقيداً وتعهد من التقيد بأوصاف المعتادة فقد حدث أن فتاة تدعى دلمين لاسير، وهي إحدى معارف جوديت، حدثت لكي تقيم في قلعة دوسيللي ويستطيع المرء أن يستنتج من وصف إيرموند لها أنها لم تكن ذات جمال تقليدي، لأنه يقول إن وجهها كان يتمتع بسوء من الجمال الناتج عن رقتها وعيبها الواضعتين المينتين، وكان من سوء حطها أيضاً أن تكون مشوهة تشويها بسيطاً، فقد حدث أن سقطت من إحدى العربات في ضمونتها فانكسرت عظام أحد رجليها وأحد ضنفيها، ولم يستطيع الأطباء أن يعيدوا العظمين إلى حالتها الطبيعية، فكان عليها أن تحمل نفسها على ساقها بطريقة مصطنعة ورعة أن أياها كان فرنسا فقد كانت أمها يربسبة وكانت تنحلت الإكليريكية بطلاقة (ومن الأمور ذات المصير أن إيرموند يتحمل منة تسجيل التفاصيل عن فتاة من ضيقته، بسم هو يتجاهل تلك التفاصيل الخاصة بمينو، الأكثر تعقيداً وجنباً للاهتمام)

كان إيرموند صديقاً في السادسة عشرة من عمره، رومانسيكياً، وكان ينظر في تأمل إلى شكل امرأة يقابلها فإذا كانت مينو مسورة من مينو نيسكو، فإن دلمين كانت أقرب إلى شخصية جوني، أو ربما كانت أقرب إلى "كثير" لرفقته بحلول الضيق في نفس الرونية. رأى

أيرموند أنها كانت على قدر من الحجل، فنحمل منة أن يسليها، أعارها كتاب "مينوير الجديدة" بعد أن اشترع منها وعداً بأن تخفيه عن الأنظار (والسبب في هذه اللسة من السرية ليس واضحاً، لأنه يدكر في مكان آخر أنه لم يكن يوسع إليه ولا أنه أن يتحداه المرسه وربما كان يريد أن يقيم مع الفتاة نوعاً من العلاقة الخاصة). ولكنه كان يحنى أن تشعر مينو بالعبدة، فحاول ألا يكون اهتمامه بالقدامة الجديدة شديد الوضوح ولكنه كان يبحث مينو فلرها! فبعد عدة أيام، وكان قد قصى معها ساعة في فراشه، قالت له أنها تحب دلمين والفتاة في هوانو قالت له أنه غي لاه لم يلاحظ ذلك، وقرر إيرموند أن يكتشف الأمر بالأساليب العادية، وهي أن يجعل يده تحتك بيدها وهي تمر إلى جانبه، وأن يلمس يدها وسطها حينما يتفرد بها، لكي يرى إن كانت مستقبل مثل هذا النوع من الألفة. وقد فبنته فعلاً، فهي أثناء برهة وسط خرابيب النهر أمسك بها في أحد الأركان وقبيلها، فانهجرت في البكاء، استعد هو مترعاً وقد احتلط عليه الأمر، لكي يسأل مينو رأيها، قالت أنه مينو دلمين كانت أكثر جنبة إزاءه منه إزاءها، وأن دموعها كانت لأنها حدثت ذلك، وقد تحليل حدير بالاحترام وهكذا فحينما لمرد بها في المرة الثانية سألها إيرموند: "ألا تحبين أن أقبلك؟" وأكد لها أنه لن يفعل ذلك ثانية إذ هي عترت احمر وجهها، وقالت عدة حمل لا رابط بينها، وحينما صعط عليها، اعترفت بأنها لا تعترض على ذلك دعاها إيرموند نحوه أخرى بين اطلال النهر، وأمضى عصر ذلك اليوم وهو يقبلها وفي عودته، كان لابد أن يسلط إلى حجرة مينو لكي يمتلكها، كانت سيطرته على نفسه طول النهار أكثر مما يحتمل، قالت له مينو إنه عاشق لبلد، وأن ما يحتاج إليه هو الرفقة والملاطعات، إن عليه أن يربت على وجهها وذراعها، وأي جزء من جسدها يتصادف أن يكون مكشواً أي أن يعودها أن تستجيب باستمتاع للمسة، ثم يتقدم بحذر نحو المناطق المحرمة. ويستغرق وصف إيرموند لتلك الحملة تسع صفحات من الكتابة الضيقة الحروف والمساحات كانت دقائق عملية الإغواء تسحر له، وبعد أسبوع سمحت له بأن يكشف يديها لكي يلاطفهما، وأن يقبلها فوق الركبتين - رغم أنها كانت تمسك بقوة بطرف الثوب بكلاً يديها لكي تمنع أي مزيد من التقدم. تناقشا في شخصيتي جولي وسانت بربو، ووافقت نظرياً على أن شخصين في وضعهما لابد أن يكونا عاشقين ولكنها - في التطبيق - وضعت خط فاصلاً حاداً بين اللطافات وممارسة الحب.

غير أن ميمو لم يرد في نوعها قدمت الخزانة أدار رأسه وكانت مقتبحة بأن دلمين ضلت فاصلة (افصلة نظرية بسبب عدم الحرة) - حسب تعبيرها - ولكنها كانت تملك أسلوباً مكافئاً قالت لأير موند أن يأتي بدلفين إلى الإصطبل في عصر اليوم التالي. وأن يؤكّد عليه لا تيسر بأي صوت حينما يدخل شون وهيرتي لكي ينشر القش استعداداً لنورتهما لعددة من ممارسة الجنس "فإذا رفضت أن تطرح. فإنها فاصلة حقاً. ويكون من الأفضل لك أن تهرب قبل أن تتزوجك وإذا نظرت. فإنها ملكك بالفعل"

وبينما كانت الساعة الفاصلة تقرب. أصبح أير موند عصبياً. وقرر عدة مرات أن يحلّ عن كل هذا المشروع للاستعجال بالنافى للطبيعة والعقل وانتباهه شك في أن الفتاة التي تستطيع أن تصنع خطأ فاصلاً بمثل تلك الحدة. حذيرة بأن تهدم اللعبة كلها بأن تكشف عن مكان احتيانهما وأعلنت شفيعته عن رغبتها في القيام بزيارة لبعض الجيران عصر ذلك اليوم. ففتت دلفين أنها تود أن تذهب معها. وأطلق أير موند تنهيدة لارتياح عظيمة ولكن دلمين في اللحظة الأخيرة - عادت فقالت أنها تشعر بصداق. وقالت أمه أنها ستذهب بدلاً منها. وبدأ أير موند يلعب لعبة أشبه بالرونيث الروسي حسد القدر نقد زاد للمشروع أن يفشل. ولكنه كان راغباً في أن يمضي في تنفيذ كل خطواته - باحثاً بلهفة عن أول عذر يبرر له التحلي عنه. ذهب إلى حجرة دلمين في الساعة الثالثة والنصف وسألهما إن كانت تشعران بالرغبة في المشي معه فلبلاً. خرجت معه فالتحا طريقتهما المحب صوب بلدة أدار. ثم عادا سائرين إلى جانب المجرى الثاني وهما يلقيان الحصى في المستنقعات الصحلة. وتحدث أير موند عن طفولته. وعن الساعات التي أمضاها في قراءة الكتب المموجة في الإصطبل. ولا يبدو أن في حد شيئاً سوى ما جاء في كتاب "الراهبة" لسر أفراسيهين. أو في كتاب "فردينال" أو "الكويت فانوم" لسمو للينيس) وبينما كان يعبران الماء المزرعة. فخرحت دلفين أن يلقيها نظرة على الإصطبل وكانت الساعة الآن النصف بعد الرابعة. وكانت هناك فرصة لاحتمال أن يكون شون بالتدخل بالفعل ولكنه لم يكن هناك فإدها أير موند فوق السلم إلى القسم العلوي تشبه بالنصصة. ثم ذهب إلى المكان الذي كان قد أعدّه بالفعل في الركن - واضعاً أحولة لحظية على الأرضية - ثم ألقى بنفسه عليها فعلت دلمين نفس الشيء دون تردد - ولا شك أن هذا كان هو ما كانت قررت بهما وبين نفسها.

"صعماً قبللاً من الوقت في الحلبت. ولكننا عرفنا على الفور في الغملات والملاطعات الساعمة التي عمرت بسرعة إلى البقعة المهددة من اللفة له تكن ترتدي أية مشدات. ولذلك كان سهلاً أكثر من المعتاد أن تكشف نهدبها وأن ندا لهجوم بشمفي وحسب قد لاحظت من قبل أنني أستطيع أن أريد متعتها بأن أعصر الحلمتين برفقة شديدة. ونحطتها كانت تشك كحالبها ونصعط بشدة في حركة تلقائية. الأمر الذي استنتجت منه أن بقعة التي تنصعط بينهما كانت مستعدة لتفعل مريد من الاهتمام. ولكن حينما تحركت الشمتان فوق ركبتيها. أسرعت تفرس أصابعها في شعري وتمسكني بقوة. كنا في هذا الوضع حينما سمعنا صوت الخطوات القادمة صاعدة على السلم. فأسرعت من فورها تسوي ذبل ثوبها. وكانت على وشك أن تجلس حينما وضعت إصبعي على شمفي وهزرت رأسي محذراً جلساً في مكانها. لا تكاد تتنفس. ثم سمعت حفيف القش بينهما كان شون بنثره وبرنيه فوق الألواح يشو كته الطويلة. ثم هبط إلى أسفل. وعاد حاملاً "حزناً" آخر من القش. وهمست لها أن تظل صامتة وأن كل شيء سيكون على ما يرام. لأنه لم يكن سوى قش في الإصطبل. وهو صديق خاص لي ولكن حينما حاولت أن أهبطها ناسبة هزت رأسها ودهمتني بعيداً.

سمعنا شون يهبط ثم يخرج من الباب. فقالت: "أسرع هذا هو وقت الخروج. ولكن حينما وقفنا سمعنا صوت مينو في الطابق الأسفل. فجلست بسرعة مرة أخرى دون أن أحتيا على الجلوس. كنت قد رتبت الأكياس الملبنة أماماً بحيث تستطيع أن تنظر من ثغرة بين اثنين منهما دون حاجة إلى الوقوف. فزعجت دلمين وهمست تقول: "ماذا إذا كانا سيجبان إلى هنا؟" ولكنني طمأننتها. مشيراً إلى القش. أظن أنها في تلك اللحظة بدأت تشك في الفرض الذي كان يربط القش من أحله بهدد لطريقة الذي رأيت وجهها يصطبغ بالحمرة

صعد شون أولاً ووقف هناك. وما أن لحقت به مينو حتى ألقت ذراعها حول عنقه ومنحنه قبله بالغة الطول. عرفت طبيعتها لأنني كنت قد خبرتها بالفعل. فقد كانت ماهرة بصورة رائعة في إشعال النار في الدماء بحرركات حريسة من لسانها ثم حلت العبل حول وسطه حتى سقط سرواله حول كحالبه... لاحظت حينئذ بانتهاج أن دلفين كانت تمنع كل حركة بأكثر ما يكون من فصول وتذكرت ما قالت مينو من أنها أصبحت بالفعل ملكاً لي حينئذ مددت يدي وجذبت ككتفي ثوبها إلى أسفل. ومددت ككلاً من يدي تحت بطه لكي أصع ككلاً منهما فوق أحد نهدبها. لم تبذل أية محاولة لتفني. كان بوسعي

أن أحس بقلبي يضرب ضرباته الثقيلة السريعة تحت أصابعي. كانت ميمو الآن دون ثيابها رخصة أمام شون. وكنت أكثر اهتماماً بالبحث عن الكيفية التي قد يمسك بها أن أستعيد من موافقي الحالي مما كنت مهتماً بمتابعة تطورات مباحثها الحارة. وعنت إلى ملاطفتي فرفعت ذبل ثوبها فوق مستوى ركبتيها، وسمحت ليدي بأن تصعق على فخنها. وفي هذه المرة لم تأتي بنية حركة لكي توقفني. ولكن حينما حاولت أن ادس إصبعي هزت رأسها وصعقت فخنها بإحكام أكثر. كان تنفسها الآن ثقيلاً حتى أن صرير القش وحده هو ندي منع الآخرين من سماعه ... غيرت وصفي. وبدأت أعض نهدبيها. نه قبضت أصابعها على شعري... وطلقت من صدرها تنهيدة طويلة. ثم هوى جسمها إلى الأمام، وكانت على وشك السقوط بكل ثقلها لو لم أكن على استعداد لدعمها بيدي. كانت الأصوات القادمة من ناحية القش قد بلغت الآن مرحلة الصراع ولكنها كانت غير مبالية كما لو كانت تلك أصوات عاصفة تهب في الخارج، تركت نفسها تسقط على الأجرة. وأعضت عينيها. وهي نمد وتغرد وتسوي ثوبها لكي تستعيد رونقها. هدأت من نهفتي بشيء من الصعوبة. وأنا لاحظت عودة تنفسها إلى انتظامه، ولكنني بعد خمس دقائق أو نحوها، وخشية أن تفرق في النوم تخففت ما أحزنته من تقدم. فرفلت إلى جوارها وقبلتها. رفلت في مكانها كما لو كان نائمة، فوصعت يدي على ركبتيها، ثم زحفت بها. وكانت الأصوات القادمة من ناحية الأخرى للعاجز قد توقفت، وكان كل شيء قد صمت الآن حتى كان بوسعنا أن نسمع حركة هار صغير. ولذلك لم يبدل أي محاولة أخرى لتحسين وضعي، وإنما رفلت في مكاني، ويدي فوقهما الداخلي الليل. رفلتنا في مكاننا هناك لمدة تقرب من ربع الساعة، ثم سمعت همس مينو، فعرفت أنها قد جلدت طاقتها، وأنها الآن قد عزمت إلى إثارة خبزيرها لتنام الذي كانت إجابته مجرد زمجرد... ونطقت دراعها بقوة حولي، فغطيت فمها بقيلة

تمنحنا لهجة هذه الحادثة كلها انطباعاً بأن أيزموند كان قد أصبح بالفعل كارتوفا لا يترك شيئاً للظروف أو للمصادفات. ولكن الأحداث تكشف عن عدم صحة ذلك الانطباع إن كانا نوحا كان جديراً بأن ينتابه التعب من الفتاة قبل أن يستعد عنها. أما أيزموند فقد قرر أن يحبها، وأنه سوف يتزوجها. ومن المحتمل أن يكون قد شعر بالخجل من اللحظة التي اتبعها والتي تغلبت على مقاومتها. وكان بالتأكيد يدرك الضرر الذي قد ينزله بها إذا أبدى أي تناقص في رفته إزاء اهتمامه بها. كانت بالفعل تشعر بالحجل منه لسماحها

له بأن يطلع على استنارته الجنسية، ولكن خجلها كان أكثر لأنها سمحت له بأن يستفيد من هذه الاستنارة ولو أنه قد هجرها كلية بعد استسلامها. كان هذا قد بدا لها في صورة الجزاء الذي تستحقه فعلاً. ولكن أيزموند صمم على أن يثبت أن هذا لم يكن حقاً لقد يعرف بها. بعد أن غادر شون وميمو الإصطبل. وهذا صرير القش مرة ثانية. فقال لها أنهم قد أصبحا محطوبين. وفي تلك الليلة، حينما أدارت ميمو مقبض باب حجرته، وجدت أن مراح الباب معلق من الداخل. وفي الصباح التالي، بحث هو عنها وأخبرها أنه محطوب وأنهما يجب ألا يكونا عاشقين من تلك اللحظة. ويبدو أنها تقبلت هذا الموقف بطريقة فلسفية. بل لم كانت متعاطفة معه إلى الحد الذي جعلها تحذر من أن يحتفظ بسر هذه الحطوبة بعيداً عن والده. فعمل بنصيحته. ولكن دلفين لم تكن بهذا القدر من اللباقة. لأنها أطلقت جوديث شقيقة أيزموند، على السر، الأمر الذي ثبت أنه أسوأ أنواع التقدير. كان من الواضح أن جوديث معرمة بللمين. وربما كانت تستطيع أن ترحب بها كزوجة لأخيها في ظل ظروف مختلفة. ولكن دلفين كانت كاثوليكية رومانية، وكان آل دونيهلي من أيرلستان. وكانت هذه هي أكثر العقبات جدية، لأن الكاثوليك في أيرلندا كان منبوذاً كان سادة الريف من أيرلستان، أما الكاثوليك فكانوا مطرودين من الخدمة الاجتماعية وكانت دلفين ابنة لأرستقراطي فرنسي ولكن هذا لم يؤد إلى أي اختلاف، طالما أنهم كانوا في أيرلندا. وأشارت جوديث إلى هذه الحقيقة، وكانت دموع ومناقشات طويلة. وبدأ أيزموند يشعر بأنه ارتكب غلطة جسيمة. كان أمراً لا أهمية له عنده على الإطلاق سواء تحولت دلفين إلى أيرلستان، أو أصبح هو كاثوليكياً، أو أصبحا كلاهما بونيين. لقد أراد أن يتزوجها لأنه مدمن لها بالحب والحماية، ولأن إغواءه لها قد منحها إحساساً قوياً بالرصاص عن نفسه. وقد أصبح الآن "مخطوبين" وكانت هي ترفض حتى أن تذهب إلى الإصطبل وهو يقول بسخرية في مذكراته أنهما كانا حديقين بأن يكونا أكثر سعادة لو أنه لم يذكر كلمة الزواج لهذا.

واستمتعت جوديث بدورها باعتبارها خاضعة وموفقة بين الرؤوس في الحلال. وبصحت أيزموند بالأقول لوالدتهما شيئاً حتى تتمكن من إعلان أنها ستتحول إلى أيرلستان، وبعد ثلاثة أيام، رحلت هي ودلفين إلى دبلين لكي يعرضا القضية على والديها وكانت هذه هي آخر مرة يراها أيزموند فيها. فقد عذبت جوديث إلى فرنسا على الفور مع عائلتها. وأطلق أيزموند تنهيدة ارتباك، وتسلل عائداً إلى فراش ميمو. ولكنه فقد ميمو هي

لا جرى بعد شهرين. حينما ضبطها السيد دوسيللي الكبير في الإصطبل مع صبي الإصطبل
 لعبد وكان السيد يتمتع بما يكفي من سعة الأفق. ولكنه كان مهتماً لفصائل ولده
 وورثته أرسلت مينو في عرب البريد إلى ليونر. في الدرجة الثالثة، حاملة مرتب شهر وعدداً من
 نيب جوديث القديمة. وأهداها إيرموند عشرين جيبها كان قد أدهرها للنزهة
 واستمتع. وقال لنفسه أنه أصبح سعيداً بقدرته على أن يقول أن روحه وأعضاءه الأخرى
 بالتاكيد قد عادت إليه. ملكاً خالصاً له من جديد ولكن بعد رحيلها بشهر واحد. بدأ
 إيرموند يومياته بقوله: "إنني غالباً أكثر من يعيشون تحت الشمس لعبة وتعبيراً للذات."
 كان قد تنوق من اللهاج ما هو أكثر جداً من أن يسمح لنفسه بعدها بالخنوع لهذا
 لوجود الداجن الساكن لأحد السادة للزارعين. لقد اقتسمت تجربته مع مينو ودلفين منهاج
 تعليمه تكامل في مجال فن الحب. كان قد خسر بهجة الفرو النكري. وإحساس السيطرة
 على عواطف امرأة. بالإضافة إلى التخلص من كل مكبوتاته الجنسية. كان يتوق إلى
 الحب مثلما يتوق مدمن الخمر إلى دنائه. ولكن لم يكن هناك من تقدمه إليه. ومضى
 يتختم من إحساسه بالإحباط في يومياته. محاولاً أن يعيش ساعاته مع مينو مرة أخرى. وأن
 يستعيد لحظات إغوائه لمينو. وحاول أن يقرأ. ولكنه وجد أن روسو صار مضجراً. وفولنير
 صحلاً. وشترن مزعجاً دون مناسبة. ولم تستطع سوى مكتب جونسون، "راسبلاز" و"أمير
 لحشة" أن ترضي نوافه إلى الجدية. وراح يقرأ الكتابين ويعيد قراءتهما حتى حفظهما عن
 ظهر قلب. إن جونسون يثير مسألة غربة الإنسان في شيء "أكثر من" السعادة. وأكثر من
 مجرد القناعة والرضا. قبل ذلك بستة شهور. كان إيرموند جليراً بأن ينظر إلى هذه
 الرغبة باعتبارها رغبة في الإشباع الجسدي. وفي التجربة. وفي النعمة. ولكنه كان يعرف الآن
 معرفة أفضل من ذلك.

بعد ذلك، نأتي إلى ما كان بالنسبة لي أكثر الفاسم اليومييات أهمية. حينما كان
 نيسمر الماطر يخلي مكانه لبناير. غرق إيرموند في أزمة من الانقباض العصبي الحاد، ضاعفها
 برعا حة على والده الذي حدث في أواخر نيسمر أن هاجمته وضربته بقسوة عصابة من
 الشرنيين يبدو بشكل غامض أن دوافعهم كانت سياسية. وقعت هذه الحادثة في الظلام.
 حينما كان الأب عائداً من منزل خاص محلي عمر محبوب. ضرب جواده بجحر. ثم أصابه
 على الفور حجر كبير آخر فوق عينه اليسرى. فسقط عن جواده هالداً الواعي. وحينما لم
 بعد إلى البيت عند منتصف الليل. خرج إيرموند وجماعته من الأتباع وسط عاصفة لكي

يبحثوا عنه. فوحده يجر نفسه على طول الطرق نصف عار. وما زال ينزف دماء بشدة
 كان منظر الجراح مخيفاً أكثر من حقيقتها. فبعد عشرة أيام في الفراش. عاد إيرموند
 دوسيللي معافى قوياً كما كان ولكن أحداً لم يستطع أن يعثر على أثر للمعتلين الذين من
 المحتمل أن يكونوا هرباً من البحارة كانت سفينتهم تحت الإصلاح في ميناء كاربيرت على
 مصب هر شانون

صدم الإقليم كله بسبب هذا العنف. رغم أن إدوارد دوسيللي لم يكن بالرجل
 المحبوب. فقد كان هناك الكثير جداً من العاقبة والبهوس في إيرلندا. من نصيب الملاحين
 وحنهم. للرجة تمنعهم من الشعور بأي تعاطف مع مراوغ بروتستانتية على شيء من الثراء.
 كانت السرفة شائعة. وكانت هناك أعداد من عصابات قطاع الطرق تساوي ما يوجد منها
 في كورسيكا. ولكن الريف حتى عام ١٧٦٠ كان هادئاً نسبياً ويسوده السلام. ثم بدأت
 المشاكل مع بداية حكم جورج الثالث. كان هناك اضطراب في الأمور الزراعية. وبدأ سادة
 الريف الكاثوليك في استعادة شجاعتهم بعد إخضاع البعاقبة. ولم يكن إدوارد دوسيللي مؤيد
 لجورج الثالث. ولكن باعتباره بروتستانتياً كان ينظر إليه كمعيل للمفتصبين الإنكليز
 ولكن إيرموند كان قد شب في جو من الأمان. ولم يكن يوسع الفلاحين أن يكونوا أكثر
 خنوعاً وذلة. فكان دافعاً "سبباً لطيفاً وسيماً يستحق تقدير الشرف" وما إلى ذلك... ولكنه
 الآن. وفي حالته العصابية من الانقباض. بدأ له أنهم محاصرون من قبل جيران معادين.
 ينتظرون جميعاً الفرصة للناسبة للضرب في الظلام.

بعد ذلك بوقت قصير. تلقت جوديث أخباراً عن دلفين. كانت محطوبة وعلى وشك
 الزواج من محام محلي. ولم يذكر اسم إيرموند في الخطاب الذي من المحتمل أن يكون قد
 كتب تحت إشراف أم دلفين. ولكن كانت هناك جملة تقول: "لا أستطيع أن أصف البهجة
 التي أشعر بها حينما أتذكر ساعات حوارنا السعيدة في الإصطبل القديم" ولم تفهم جوديث
 معنى هذه الجملة. فإنها لم تذهب أبداً إلى الإصطبل القديم مع دلفين. ولكن إيرموند أدرك
 المعنى غير أن الضحك هو أنه كان قد نسي دلفين تقريباً. ومن المؤكد أنه لم تكن لديه أية
 رغبة في أن يكون زوجها. ورغم هذا فقد ملأه الخطاب شعوراً بالبهوس والغيرة. وعرف ما
 يتصف به هذا الإحساس من سخف. وأنه لم يحبها. وأنه كان سعيد الحظ إذ تجب الوفوق
 في شرالك ارتباطات أكثر عوراً ولكن معرفته لكل هذا لم تؤد إلى أي فرق. فكان كلما فكر

في ملاحظتهما وسط حرائب الدبر أو في محرن القش، احتاجه إحساس بالحساسة الفادحة،
استدعى هذا الإحساس إلى درجة لا تطاق لأنه كان يعرف أنه نتيجة لعدم وجود ما يفكر
فيه عبر هذا

في فم بر كان مريضاً لمدة ثلاثة أسابيع بتأثير جرنومة معوية. وتركت أفكاره على
سواء حول الموت وحول عموية الفكر. قرأ صلوات جونسون، وتأمل في كتابات روسو، ثم
جئت فجأة لحظة من "الحقيقة" التي كانت تروى منه على الدوام لقد قال روسو إن ما
نحس ضيقاً فهو خير، وإن الشئ يسبغ من تعقيد الإنسان الذهني، ومن تدخله في شؤون
حسية ولكن ليس العقل نفسه تدخل في شؤون الطبيعة وقطعاً لمسارها، نتاجاً مصطنعاً
هذا إن الحيوان لا يحتاج إلى أي قدر من العقل يريد من القدر الضروري للتغلب على
مشكلته اليومية. وقد طور الإنسان ذهنه لكي يخدم كسله، لكي يخلق حضارة مريحة
دقيقة ثم لما خلقها (ومن المهم أن نتبين هنا أن أيزموند قد ظن أن القرن الذي عاش فيه هو
تكملة النهائية في التعقيد الذهني الحضاري) لم يعد لديه ما يفعله سوى التفكير. وكل فكرة
تعد خطوة أخرى عن الطبيعة.

ولكن الشيء الذي بث الذعر في قلب أيزموند أن هو شكه في أن تلك المكرة قد فسرت
إجاده العصبي وضجره. إن تولده الذهني قد حكم عليه بأن يمتلك إحساس بالحقيقة.
ووقع الدكتور جونسون أمامه باعتباره مثلاً حياً لما يمكن أن يحدث حين يكون الإنسان
متوقفاً ذهنياً أكثر من اللازم. سيعيش حياة يكاملها من اليأس وتعليب الذات، مع ومضات
قصيرة من الإحساس بالارتياح. وبدأ أيزموند يفكر حديثاً فيما إذا لم يكن من الأفضل له أن
يموت "كل شيء انظر إليه بدكرني ببؤسي. فمثلما تعبد أي ذكرى لعشيق مفقودة
إحساساً مقتضياً باليأس، كذلك فإن أي شيء طبيعي تقريباً بدكرني براءتي المفقودة
تدكرني اطلال الدبر بالموت، ومجرى الماء الموحل يجعلني أفكر في الفرق، والأشجار العارية
تدكرني بالشانق، ونباح كلب يشعري بأنني أسير في حنازة ميت. أما الأشياء التي لا تنير أي
تداعيات خاصة في ذاتي - حذاء ركوب، كتاب - فإنهما يمكن أن نخلقاً بأساً حاداً يشبه
الحرن."

ودت ليلة مظيرة في أواخر فبراير. جلس أيزموند في فراشه وواجه هذا الإحساس
بالحبشة ونقطاع الأمل إلا أن جسده لم يشعر بأي امتنان حقيقي لوجوده في حجرة دافئة. في

توفيت الذي كانت الرياح في تحارت على أشد ما يمكن، فهل يمكن أن يكون هذا الإحساس قد
ثار كاستجابة للمطر نفسه؟ نهض وارتدى ملابسه، وأخذ معطفاً ثقيلًا، ثم خرج من نزل
وبد له أن أسوأ مخاوفه قد تحققت. ملأته الريح إحساساً بالمرودة، ولكنه استمر في إحسائه
باللامبالاة إزاء التعبد سار إلى الدبر، وحلّس مستنداً ومحتمياً بأحد الجدران. ورعه أن قد
كانتا مبللتين. لم تنجح فكرة نار دافئة في أن تمنحه ومضة من المتعة. كانت بعض
البفرفات تحتني بالدار، حسدها لأنها يمكن أن تغتر فبمة ما تقدمه لها حظيرة دافئة حارة
من مأوى وتساءل عن مقدار ما يحب أن يواجه من برد وتعبد لكي يستطيع أن يخرج من
حالة سباته اللامبالي.

سار عائداً إلى المنزل، وعبر أمام الإصطبل. وفجأة تذكر مينو ودلفين، فعمبرته
ومضة من المتعة. دخل الإصطبل لكي يستعيد راحته. سهل جواد عجوز واحد نفساً عصبية
وثقيلًا تسلق صاعداً إلى المنصة العلوية، فوجد هناك كومة من القش ما تزال حركتها
ما وراء الأحولة، ثم خلع ثيابه لليلة، وعطى نفسه بالقش الخشن الحاف المتكسر. كان هذا
هو الموضع الذي رقد فيه بين الدلفين ودلفين. حينما رقد في مكانه، يعيش التجربة من
حلبد مرة ثانية، غلبه النعاس، ففرق في النوم. وكان آخر ما سمعه من الأصوات هو ضجير
الجواد العجوز وتنفسه الثقيل أسفل الإصطبل.

كانت ليلته في الإصطبل نقطة تحول حقيقية في حياته وهو ما يظهر في محضات
حياته اللاحقة. في أوائل مارس، أصبح الجو أكثر دفئاً على حين عرة وهذا ما أعزى
أيزموند بأن يتمشى في الحقول الموحلة، ليجد نشاطه تحت أشعة الشمس التي بدأت تمد
شئ شيء دفء بالحياة. وقف على صفة بهر (مبع) الموحلة، وتساءل عن السبب الذي جعله
سحيراً عن ملاحظة مقدار ما كانت الأمواج الصغيرة عليه من جمال. كان صحيح الحسد
وكان في السابعة عشرة تقريباً، وبعد شهور قليلة سيكون على وشك الشروع في الخروج إلى
"الحولة الكبيرة" ولابد أن تكون هناك تكثيرات من مينو ودلفين. وفي يومه في يوم ٢٣ مارس
عام ١٧٦٥، يكتب قائلاً.

"إن ما أجد نفسي عاجراً عاجراً مطلقاً عن فهمه هو السبب الذي يدفع الكائنات
الإنسانية إلى الغفل في رؤية التصميم الجميل المبارك الذي يتحسد في الطبيعة في كل مكان؟
أية كرامة عربية اعتمدت عبوتنا عن رؤية أعظم الحقائق وضوحاً وحدارة بالملاحظة؟ أي رب

بعد فوق مناهة محسبها البشري. برافدا لكي. بقمصر على عنق ذلك الذي قد يكتشف
بمسودة ضربه إلى بساطة الطبعة السامية؟

فيل أسبوعين من رحيله إلى دليس. ومن ثم إلى باريس (في إبريل عام ١٧٦٥) كان قد
تعمس في قصة حب قصيرة أخرى فهي رياردة قام بها مع والده لأحد المستأجرين من
ملاحين. رأى ابنه أح الرجل ذات الثلاثة عشر عاماً التي سكنت تعيش معه. وكانت الفتاة
ورقة الجمال وأمصى أيزموند ليلة كاملة يحمل بها. متسانلاً عن الطريق إلى رؤيتها مرة
جداً ولكن الانتصار كان أسهل مما توقع. لقد جاءت الفتاة في اليوم التالي حاملة بعض
لبس وسار أيزموند إلى البيت معها. واتفق معها على موعد في المساء. وكانت الفتاة مسحورة
به وله تسلل إلا الحد الأدنى من المقاومة. ورعه أنها كانت عذراء. فإنها كانت ذات تجربة
حسبة سابقة. في هذا المساء الأول. سمحت أيزموند بأن يكتشف نهديها وفحلبها. وفي عصر
يوم التالي فأنبلها في الإصطبل. واستولى على عذريتها في نفس المكان الذي فقدتها فيه دلمين
وفي حلال الأسبوعين التاليين التقيا كلما كان ذلك ممكناً. وأمصيا للزهد من الساعات في
الاصطبل على الأحولة. وأقسما على الإخلاص الأبدي ولكن أيزموند في هذه الحالة كان
يعرف به ليس واقعاً في الحب. لقد دفعته سهولة الانتصار إلى ما يكاد يكون حبة أمل هورية
كانت نقدة جميلة جداً لا يضارع. ولكنه حينما أعاد قراءة بداية يومياته حول رؤيته لها
للمرة الأولى. بدت له كما لو كانت فكاهة ساخرة أخرى من فكاهات القدر برهاناً آخر
عن وقوع الكائنات الإنسانية في شرك للمناهة التي يبدو إليها في صورة أعطاه الدهاء الخناليين

في صباح يوم ١٧ إبريل. استقل عربة ليمريك - دليس. وغمره إحساس عميق من
إرصاد بيما كانت نلال مونستر وحقولها تترجع إلى ثوراء. في هذه المرة. على الأقل. كان
به انتباه قد هزم. فإن قصة الحب قد انتهت قبل أن تسبح الفرصة لمرارة ما بعد التوفيق بأن
تتسلل إلى اللسان وقد حدثت حينذاك. في أثناء رحلة الست والثلاثين ساعة من ليمريك إلى
دليس (١٧٠ ميلاً) أن صاغ أيزموند واحدة من أفكاره الخورية. أن الحباء معركة ضد إنه
المنه. وألاح أنه يفكر في هذه الحرب كما لو كان صليباً مرسوماً بين عسكوت هائل ورجل
مميز دي اثنين مشرعتين. وأن اللبدان الذي يحب أن يختارده للمواجهة هو ميدان الحس

إن فرائتي لما كتبه أيزموند عن رحلته إلى دليس قد ذكرتني فعاد بكليف بيتس.
حميد ليرك جينكيسويد بيتس واقعاً على الرغم من أنني قد حصلت على أقصى ما أمله

من مادة لاستكمال المقدمة لطبعة فلينر لكتاب (مذكرات أفانق إيرلندي). وكتبت قد
ربحت مبلغ الخمسة عشر ألف دولار. (لا أن هذا كله له بعد له أدنى أهمية لشكر عسدي
كان هناك الكثير جداً مما أردت معرفته عن أيزموند - وحينما بنه طبع الكتاب لا بد
سيكون هناك الكثير جداً من الناس الذين سيملكهم مثل ما تملكني من فضول. ولابد
سيمتلئ الميدان بالباحثين. ولقد أردت أن أعتر على كل ما يمكن العثور عليه قبل أن يبد
الانقراض والزحام كان أيزموند قد بدأ يسيطر على مكانها حسن التسلسل. وقد انتهى العقد
الثاني من المذكرات حينما كان قد غادر لندن متجهاً إلى بولوي في ٢٨ مايو عام ١٧٦٥. ونكر
من الوكد أنه مستحيل أن يكون قد كتب عن كتابته يومياته بانتظام بعد ذلك كانت
هناك أسئلة كثيرة أردت الإجابة عليها. ماذا عن حزيمة قتل هوراس جليبي. وعن الشائعات
حول أيزموند واللاذي ماري؟ وماذا عن "قصة" مع الشقيقات الثلاثة؟ ولماذا يكره دكتور
جوسون دونيللي؟ وماذا عن "جماعة المنقاء" تلك. التي له أحصل بشأنها إلا على بشارت
منيرة للشبهة؟

بعد عودتي من منزل الدكتور أوهفران بيومين. تسلفت بطاقة بريدية من ميسر
تيما. كانت تقول: "بيلين مصابة بمرلة برد قوية. ولكنها طالبت مني أن أخرك بأن المشرقي
على تنعبد وصبة أيزموند الأدبية كانا هما القس ولبهام استون واللورد هوراس جليبي
للخلصه تيما دونيللي". للحظة تملكني الارتباك استور؟ أجل سكنت قد حمنت هذا من
قبل. ولكن كيف يمكن أن يكون هوراس جليبي مفعلاً لوصية دونيللي الأدبية بينما هو قد
سبقه إلى الموت؟ شعرت بإغراء قوي يدفعني إلى القفر في السيارة والذهاب إلى قلعة دونيللي.
لأن فرائتي لليوميات جعلتني شغوفاً بأن أراها مرة ثانية. ولكنني كنت قد كتبت بالفعل
إلى كليف بيتس لأخبره بأنني أنوي الذهاب إلى لندن في اليوم التالي. وشعرت بالانقباض لرا
فكرة هذا السفر. رفعت سماعة التليفون وأدبرت رفاه قلعة دونيللي أجابني ميسر تيما. ونه
توضح مشكلة هوراس جليبي في لحظة واحدة. إنها كانت تشير إلى هوراس جليبي الابن. ابن
صديق أيزموند قالت ميسر تيما.

"اعتقد أن هذا مما يمكن أن يدركه لرا. بالمبداهة. أعني أننا نعلم جيداً بأن أيزموند
قد وقع في حب ماري جليبي"

"ولكن هل أنت واثقة من ذلك؟"

"لست وافقة تماماً بالطبع. لقد قال والدي لإبلين ذات مرة شيئاً عن هذا، ولكنها لا تستطيع أن تتحدث الآن"

"لا تعرفين . اتفاقاً . أين أطلق الرصاص على لورد جلبني؟"

"عتقد أن هذا حدث في بيته. في اسكتلندا"

نكرتها ووضعت السماعرة. إن القدر حقاً يقف إلى جانبي، وقد توصلتني هذه المكالة إلى فيه وبدرتك نهاية القصة التي تقول بأن إيرموند قتل هوراس جلبني. فلو كان هناك حتى شك في مثل هذه الواقعة، فهل كان يستطيع أن يطلب من ابن جلبني أن يقوم على تنفيذ وصيته الأخيرة وأن يكون مشرفاً على تركته من المؤلفات والمذكرات؟

-١٥-

□ كنت أشعر بابتهاج وتفاؤل شديد حينما شرعت في قيادة السيارة متجهاً إلى بلين في صباح اليوم التالي. ولم يكن هذا مرتبطاً بكل الارتباط بدونبلي. كنت قد عزمت مسبقاً أن أسافر بالقطار، حتى تستطيع ديانا أن تستخدم السيارة، ولكنها في اليوم السابق رأت إعلاناً عن سيارة "لاندروفر" مستعملة. وشعرت بأننا نستطيع الآن أن ندفع ثمن هذه السيارة. وهكذا فقد اشتريناها على الفور. كنت أعرف أن هذا تصرف سخيف. ولكن هذا السخف نفسه سحرني. وبلدت غرائزي الخلافة في الانسياق. ابهجني أيضاً انطلاقي نحو الشرق، وذكروني بأول مرة جئنا فيها للإقامة في إيرلندا فقصينا أيامنا الأولى في اكتشاف تيلاد والريف. حطرت لي في تلك اللحظة أن كل ما بهم في الوجود الإنساني هو اتساع معين في الوعي، وفي المعنى، ولذا يجب أن نكتشف الحيلة. حينما اشتريت هذه السيارة، كانت ذات نافل سرعة أو ثوماتيكي، وكان هذا الشيء اللعين ينقل السرعة تقريباً في نفس اللحظة التي نسرّع فيها في تشغيل المحرك. أو يقطع التشغيل حتى كانت الآلة تتوقف عند أول تل في ضربي إلى البلدة. ولذلك فقد ركبت محل الإصلاح القريب فيها ناقلة يدوية بدلاً منها. وعلي الآن ألا أنقل الناقلة الأصلي حتى تشحن الآلة بالدرجة الكافية لكي تصعد التلال في راحة كاملة. ولكن إذا حدث أن استيقظت في الصباح بعقل بارد مكتئب، فإنني لا أملك "نافاة"

يدوية" أستطيع أن أشعلها حتى يسخن العقل إلى الدرجة الكافية. إنني كثيراً ما أمضي الساعات. وأحياناً الأيام. محاولاً أن أدفع عقلي رغماً عنه إلى حالة من الاتساع. محاولاً تشعير الضغط الداخلي لكي يصبح مناسباً للكتابة. وإلى حد ما أستطيع القول بأنني اكتشفت الحيلة، عشر دقائق من التركيز الكلي الكثيف الذي يضم الكائن كله - عضلاتي بالإضافة إلى عقلي - وحينما أقوم بهذا. وإذا لم يقاطعني أحد، فإنني أستطيع تقريباً أن الأحط صمغ وعي وهو يرتفع، حتى تكف الأشياء عن التماثل في صورتها الكنيمة المحايدة. إنها حيل تشبه بالصيغ شريك أول ككاس لك في المساء - تلك الموضحة الدفينة التي لا تستقر في المعدة - ولبس في الوعي"

إن البحث الحثيث عن وعي. أدخلني في الواقع في حلت فيه الشيء الكثير من الغربة. لعزيمته لن أتمكن من إيصاله إلى القارئ، إلا أنني سأحاول أن أستطيع أن أصفه. لقد شعرت هكذا بأن هذا هو الشعور الذي انتاب إيرموند عندما بدأ خروجه في "جولته الكبيرة" في عام ١٨٦٥ وحينئذ امتزجت في ذهني صورتان. الأولى كانت لأيرموند جالساً في العربة الراحلة إلى "لايمريك". وكانت صورة كشيء، حلمت به في أثناء الليل - والثانية كانت صورة الأشجار في "لوسج ايلاند" تبدو هجاء كما لو كانت فلتت من البرونز المطلي بالفوسفور. بينما بهمري تنحني فوقها كانت هذه الصورة الأخيرة قوية جداً. كان بوسعي أن أشم رائحة بهمري شاعراً بلف، نهدها العاري على صدغي ومع هاتين الصورتين انفجرت في داخلي نواير البهجة إن ما تريد الكائنات الإنسانية أن تحققه لهما تلك اللحظات من العزاحة والاتساع ولا يفقدوها في كل مرة يضع فيها إلتاجهم بين الأشياء دون تركيز على شيء محدد لهم يريدون "استمرارية الوعي" ولنفترض أن رجلاً قال لنفسه: "من الواضح أنه لا شيء هام مثل هذا، منذ هذه اللحظة سأكرس جهاتي للبحث عن هذا الاتساع والاستمرارية". وقد عرفت دون أن تخالجي ذرة من الشك أن شيئاً مثل هذا قد عبر بعقل إيرموند في تلك اللحظة ذات صباح وهو في طريقه مسافراً من لايمريك كيف؟ لاسي عشت مع إيرموند طوال أسابيع. حتى عرفت كيف كان يعمل عقله.

لحظتها. ومن دون أي تغيير مفاجئ، من دون أي إحساس برؤيا أو بالهام، فتأبني إحساس كالهلوسة بأنني "أنا إيرموند". كان إحساساً قوياً إلى درجة بالغة السخافة. كنت أعرف أنني أسير بالسيارة عبر مزرعة صغيرة تدعى "فار درام". على بعد أميال قليلة وراء

لتدور. و سبي كنت انوي ان اتوقف امام الحانة عند بلدة موات، لكي اناول شطيرة باللحم
و يقرب من عصير العنب البري في نفس الوقت كنت جالساً الى حوار سائق عربية فوق
مسبوق عربية المتقاهر. اثناء عرق الجياد القلوي والهواء النظيف لصباح يوم من أيام ابريل
بإسعاد رائحة دخان الأذرة والتبغ الصادرة عن ثياب السائق

كان هناك شيء بالغ الغربة متعلق بمقدار ما كان في هذه الصورة من حيوية. إنها
تكر "حياتية" بالعنى العادي. إنني لم أكن "أعتمد" بشكل ما وإنما كانت مكاناً أن
سيت ما قد تحركت فاقرب مني مثل قطار يعبر إلى جوار القطار الذي تصادف أن كنت
رابط داخله فيعطيني لحة غريبة مفاجئة إلى داخل عربية عابرة. وله يدهشني كل ذلك.
بعد هذا كجزء طبيعي من تصاعد نافورة البهجة. كان ضعفي العقلي مرتفعاً. وكانت
السماء أقرب إلى أن تكون مساحة زرقاء باردة. وشعرت بها كما لو كانت صفحة شاسعة من
سبد السرد. بدا لي بنفث بقبية كلبية مفاجئة. أن الرمز وهم إنه ليس حالة مطلقة. إنك
ما كنت حشرة جالسة على ورقة شجر يجرفها تيار نهر. فإني قد تظن أنه من المحتم أن
نص الأشجار تعبر بك وتتوارى من خلفك. وأن الأشجار. بطبيعتها. لا تعيش إلا لحظات قليلة.
وإن لحقيقة الوحيدة الثابتة دون تغيير هي انتشار الماء وسقسقته. ولكن الضمة حقيقية. وإذا
مكنك أن تعادر ورقة الشجرة التي تجلس عليها لتهبط على الصفة. فإني جدير بأن تكتشف
لها صلبة تماماً ودينامية باقية.

وحالاً تهبت لي هذه الصورة للزمن باعتباره شيئاً وهمياً. ولحقيقة العالم الذي يعبر
خلالها. رأيت طفولتي كما لو كانت شيئاً أستطيع أن أمد يدي فألمسه. تماماً مثلما أستطيع
أن أفتح كتاباً على صفحة قراتها منذ ساعة مضت. أو مثلما أحمل شريط تسجيل يعود إلى
نوراء نحو الجزء الذي كنت قد سمعته منذ قليل وطرأ لي أن حياة ايزموند لم تكن أكثر
بعداً من هذا مجرد قرنين مضى. أي ما يساوي مقدار حياتين بشريتين. إن مشكلتنا هي
ضعف الوعي الذي يتردد مثل النهار الكهربائي الصادر عن بطارية مستهلكة فإذا كان
بوسعنا أن نستبدلها ببطارية جديدة لاستنطاق العقل أن يسير بخطوات واسعة عبر القرون

توقفت عند حانة "مابك كيلي" لأشرب كوكب العصير. إنها حانة هادئة على الطراز
القديم ذات دعائم خشبية واطنة. ومدفأة أعشاب أسفل الجدار طليت شطيرة باللحم.
فألت لي أمانة صاحبة الحانة. إنني سأحصل عليها ساخنة بفوح منها دخان الفرن. وفي

الحقيقة. كان الحمار يتصاعد من القطع الصخمة من اللحم الطري. وبعد أن قدمت لي
طلباتي. خرجت وتركتني بمفردي. نظرت حولي. وباعتنتني فكرة في سرعة الصب.
الكهربائي. إن هذا المكان ربما كان يبدو بنفس الشكل الذي كان عليه في أيام ايزموند
دونيلي. وحينئذ. وبشكل أوضح من ذي قبل. استأبني الشعور بأنني "صبح" ايزموند
المرّة. وقد قويت حواسي برائحة اللحم ومذاق العصير المخمر. بذلت مجهوداً إرادياً لكي استفي
ذلك الإحساس وأمسك به للحظة راوغني. ثم حينما استرخيت ولم أحاول أن أرغمه على
البقاء. عاد ثانية. مزيج من الروائح والأحاسيس والأفكار. ثم فجأة تماماً. بدا أنه "بمركز"
أصبح كل شيء أكثر وضوحاً. بشكل ما تطابق وعي ايزموند مع وعيه. حتى أصبح
بوسعي أن التفت لنا فأنظر إلى ماضيه. إلى دلفين ومينو. وإلى الفتاة الفلاحة العميلة التي
كانت تدعى إيللي (وهو تصغير إيلين). والأكثر من هذا أن هذا الاسم الأخير كان حبيب
بالنسبة لي. فإن ايزموند يشير إليها في يومياته بحرف "أ". ربما خفية أن يفضح فتاة
تعيش قريباً منه إلى هذا الحد. وإشارتي هذا. لم أكن بالساذجة التي تجعلني أهمل ببساطة
بأنني بشكل ما قد "صبحت" ايزموند. إنني أعرف الكثير جداً من الأعيب العقل الشبيهة
بالأحلام لاصطناع مثل تلك الفروض أو الاحتمالات ومن الذي لم يؤلف موسيقى أو شعراً في
أحلامه. أو خلق مواقف من الغربة بحيث تبدو من اختراع شخص آخر؟ لو أنني استطعت أن
أتأكد من أن اسم الفتاة كان إيللي. ولم يكن هذا من المستحيل. من خلال العثور على البريد
من مذكرات ايزموند. إذن لكان في وسعي أن أتيقن من أن هذه التجربة الغريبة كانت
نوعاً من الحاسة السادسة. وليست حلماً من أحلام اليقظة

فأومت الإعراء شرب المزيد من العصير المخمر عارفاً أنه يمكن أن يدهمني إلى النعاس
وفهمت لتشغيل السيارة حالاً انتهيت من تناول طبق اللحم. لم أكن أريد أن استرخي. إن ما
أردته كان هو أن أعمق هذا الشعور بالتبصر العميق. بالوصول إلى المعنى. وبعد عشرين ميلاً
من السير خارج دبلين بدلت نمطاً. ونسبت كل شيء. عن تركيزي. مستمتعاً فجأة
بحركة زحف مساحتي الزجاج الأماميتين. وبطرفات القطرات الصخمة الدافئة. وحينئذ.
ومرة أخرى. ودون أي مجهود. أصبحت "ايزموند" فجأة أدهشني منازل بلدة "ماي نود"
ودكاكينها. كما لو لم أكن قد رأيتها من قبل أبداً. ولكن حينما اهتزت من كارتون
وعبرت بها. ورأيت للنزل الضخم من القرن الثامن عشر الذي آل دات مرة إلى دوفات لاهنستر.

لجئت من أني كنت أعرف المكان. وإنني كنت داخله ذات مرة بالطبع لم يحدث لي "أنا"
لأنه لقد كان أبرز موند هو الذي دخله ضيقاً على صديق دراسته روبرت
ببركارد. ماركوبر كيلدار

صوال الوقت، وبينما كنت أعود السيارة إلى داخل ديلين. وعلى مسار شارع
جوسنهام، كنت أشعر بتأثير هذا "الوعي للزودج". ولو أن أحداً كان معي في السيارة، لكنت
قد قلت له: "كان هذا هو شاعر شابيليرود في عام ١٧٦٥. وهاهو قد أصبح شارع باراك"
وكن قبل أن أدخل شارع باراك القديم. كنت أسير بالسيارة على طول شارع وولف تون
صوي. فاستبنتي دهشة بسيطة إذ أجد نفسي بالفعل إلى جانب نهر الليفي. في عام ١٧٦٥
صير علي أن أتقدم من شارع شابيليرود المزدحم إلى شارع باراك، بينما أرى النهر عبر حليقة
تويج ميبوز إلى اليمين، ثم على طول شارع كرافل دوك، الذي يكون علي عند ناحيتي أن
ستدير إلى اليمين نحو شارع أزان كواي - الذي كان في ذلك الوقت أقصى أطراف صواحي
لبيغ الغربية. عبرت الشارع الواقع إلى يميني - الذي كان دونبلي قد سبه - والذي يؤدي في
النهاية إلى جسر بلود. وعند جسر كرافل شعرت بأعراء يدفعني إلى الاستدارة يميناً ناسياً
له كان يوسفي أن استمر في نفس الشارع حتى أكون في أيام دونبلي، كان جسر
كرافل (الذي كان يدعى جسر اسكس في ذلك العهد) هو آخر نقطة يمكن للمرء أن
يعبر نهر الليفي. كنت متقيماً باتجاه نهر شيلبورن في وادي "سانت ستيفانز جرين" إن
دونبلي حينما ذهب إلى ديلين في عام ١٧٦٥ قد انطلق إلى حانة "الكلب والبطة" في شارع بوندج
رو الذي يسمى الآن وودكواي) وكان المحل تحت إدارة الأسطي فرانسيس ماجين. وهناك
أكل عشاء من أسماك السالون الواردة من بوبن، ولحم حمل مشوي، وغسل ذلك بكمية
كبيرة من البيرة الحلوة ذات النسبة القليلة من الكحول. ثم عرق في النوم في حجرة مريحة
بالتنسيق الأول مصعباً إلى مسبحات "نشرقي جلد أرنب الغابة وأرانب البيوت". سمك البوري
من خليج ديلين". كان كل ذلك حباً أمامي حتى إنني وجدت نفسي أتجه اتجاهها حاصطاً
عند كولينج غرين، فيكون علي أن أدور دورة واسعة لكي أصل إلى شيلبورن

في حجرتي، فتحت زجاج من نبيد فولتي كنت قد حنت بها معي - رغم أن الساعة
كانت في الرابعة والنصف - ووجدت نفسي أقل انزعاجاً بسبب تلك اللوثرات العربية ذات
نوحيتين للزودجيتين، وحتى في تلك الحالة، لم يكن علي إلا أن أغمض عيني لكي أرى صوراً

واضحة لديلين التي كانت من مراح عديدة شبيهة بتلك التي كان يوسفي أن يراها
سافلي (رغم أنه في تلك الأيام، كان وادي ستيفنز غرين محاطاً بسور محوري وحيد
وليس بسياج من قصبان الحديد) - ولكن تلك هي "ديلين" المعبدة كانت أيضاً مرزوح
وصاخبة ولكن شوارعها كانت مسلطة بقطع حجرية صغيرة في الغالب، ومنازلها كانت
نظافة ووفارة. وكانت أيضاً تفوح برائحة النفاق والسمك وخاصة في منتصف الصيف
والقوارب ذات الأشرعة المتنفخة التي ملئت نهر الليفي وولدت تأثيراً له يكن بعيداً
بقنوات الهندية الكبيرة بعد مكاسي الثالثة من السبد. كان "الكشف للزودج" قد حذر
ناحيتي، وطرا لي أنه من المحتمل أن يكون شيريدان لوفانو قد كتب قصة قوية وكتب
محزنة عن عقل إنسان ذي طيقتين، يشغله رجلان من فرنين محتملين بل لقد كان
يوسفي أن أرى - إذ تطر من خلال مزاج به مزاج لوفانو - أنها كانت يمكن أن تكون تجربة
محيفة ولكن في ذلك الحين، كانت نظرة لوفانو الأساسية نظرة مهرومة وسلبية وهذا هو
السؤال الجوهر في فوحي

□ اتصلت بلديا لكي أخبرها أنني وصلت بسلام. وفي نفس اللحظة التي كنت أعيد
فيها لسماعة إلى مكانها، جاءني مكالة من مكليف بيتس وكانت قد كتبت إليه لأخبره
بأنني سأنزل في فندق شيلبورن سأنته إن كان يحب أن ينضم إلي في تناول الطعام، فقبل
والفرح أن انذهب إليه لكي يشرب كأساً أولاً كان بقيه في رانيلاغ رود. في مواجهة النهر
هسرت إلى هناك في حوالي الساعة الخامسة كان شاباً ممثلاً تجسد له صوت معتد مثل
صوت الدارسين في نو كسمورد وكانت شفته مريحة. وقد امتلات حريمة الشروبات بالكثير
من الأصناف كانت هناك أعداد كثيرة من الكتب، بعضها حول المسرح ودياليه كان من
لواصيح أن مكليف بيتس يملك دحلاً خاصاً أو وظيفة حسنة، أو كليهما. كان كل شيء
في حجرته يتم عن أنه رجل معزم بأسباب راحته. وكان يتمتع بحداية عظيمة وأسلوب
سهل في التعامل وسلوك. ولكن شيئاً ما لاج على همه أو حتى لي بأنه قد يكون بالغ الحشوبة
أو عصبي المزاج إذا فشل في الوصول إلى ما يريد أو في شق طريقه إليه

حينما تكلمنا مشرب كؤوس المودكا والمارتيني. كان الحوار عاماً، ثم انتقل الموضوع إلى صفتي. وإلى أعمال كتاب عديدين قابلته كل منا. كان قد عمل في وزارة الخارجية لمدة من الزمن. بعد التخرج من إيتون وباليول. وقابل عدداً كبيراً من الشخصيات العربية والأجنبية في لندن. أما عني، فإني دائماً ما كنت تجنب الكتاب الآخرين. وكانت محاورات المحترفين تصجري، وله أكن أعجب إلا بأعمال عند قليل منهم. وهكذا فسرعان ما بدت أصغر من هذا الحديث. وبعد نصف ساعة أو نحوها حاولت ببساطة أن أوجهه إلى موضوعات أخرى. سألته عن صحة جده.

"وه. أجل. الوالد المجهور يربد أن يراك. كنت قد آخرته عن عملك."

نظر إلى ساعته وقال.

"عادة ما يكون بمفرده في هذا الوقت تقريباً. هل تود أن تذهب إليه قبل أن ياتك؟"

قلت "نعم". محاولاً ألا أبدو مثلهم بالقدر الذي كنت أشعر به.

ذهبنا إلى شارع باجون، رغم أننا تأخرنا قليلاً في الوصول بسبب إغلاق الشارع. كان كليف بيتس يملك سيارة من طراز "بورش" وأظنه لدرجة أن أناسي إحساس بأن أردافي يجلس على ارتفاع بوصة واحدة من أرض الشارع وفي الطريق قال بيتس:

"إنك بالطبع، تقوم بكل ذلك في مقابل بعض المال."

للحظة واحدة لم أستطع أن أفهمه. وبدأ علي عدم الإدراك. قال:

"هذا الشخص دونيللي، أعني أنه من الدرجة الثانية تماماً، ليس كذلك. كنت أنظر إلى كتابه عن "الافتراع العدائي" منذ أيام إني شي، فجاء إلى حد كبير."

هممت بأن أقول أنني أظن أن هذا الكتاب مريف ومنحول للرجل، ثم لسبب ما، التزمت بسكون. وبدلاً من هذا شرحت له حكاية فليشر والهمة والتي أوكلمها إلي.

أوقفنا السيارة في شارع باجون. قال كليف بيتس بشكل عارض:

"بهذه المناسبة، هل سمعت عن جماعة العنقاء؟"

مضرت إليه. ثم حدث شيء غريب. فجأة سكنت أيرمويد مرة أخرى. كان أيرمويد يضل عليه من عيني.

قلت:

"نعم، نعم. أله تكن هذه نوعاً من العادات السحرية؟"

"بشكل أو بآخر كان دونيللي غصو فيها."

"كيف عرفت ذلك؟"

"هذا مسجل في أوراق حدي. لقد كان مهتماً دائماً بهذه الجماعة المسماة "جماعة العنقاء". وإن قد سمع عنها من ساحر يدعى ماك غريغور ماثر. ربما كنت قد قابلته؟"

"بالطبع. لقد حصلت على ترجمته لكتاب الظهور."

له يكن هناك وقت لمزيد من الحديث. تكلمنا بديق حرس ثياب. وبعد لحظات فنته فتحت الباب معرضة شابة دعاها بيتس باسم "عبرتي بيتي" وفرضها من مؤخرتها. بعد محرقة لوجودي صعدنا إلى حجرة يوم في الطابق الأول. كانت حجرة معتمة. رغم الضوء، كان منتشرًا بالحارج. كانت الستائر نصف مسدلة. ونواصة صغيرة تشتعل فوق الفراش.

كان إيريك جيبكيسون بيتس هزبلاً بحبها كما كنت أتوقع من خلال وصف حميدده عجوراً صنبل الحجة أصلع الرأس جلدده مثل رق قلبه محمد. حيناً رفع يديه من فوق المسند لكي يصافحي أختنا وأرتعشنا رعب عنه. فأعادهما سريعا مسنوبين فوق الفراش مرة أخرى. سألتا إن كنا يود أن نشرب شيئاً، فرفضنا كلاهما، ولكنه أصر وقال "عرف أنكما تشربان تحبون أن تشربوا كأساً في مثل هذا الوقت". وقال للمعرضة أن تصب لكل منا كأساً من الشيري. تحدث الرجل المجهور لدقائق قليلة عن تزيج الشيري، وعن نظريته حول السيب الذي كان الشيري لأجله يدعى "ساك". أي حقيقة. لأن ثمرات العنب كانت تعصر من خلال أخونة كالحقائب. ثم، وفي نصف حصة نه بكملها. حول حديثه إلى موضوع حريمة قتل في حريزة آلاي الإبرنسية. كنت قد قرأت كل ما استطعت العثور

تخيه قبل أن أبرح البيت، ولكن ثبت أن هذا لم يكن ضرورياً. فقد راح الرجل يتحلى في
سباب بمعدل ثابت لمدة عشر دقائق أو نحوها.

وحينما توقف للحظة قصيرة، قال كليف بيتس:

لقد سمع مستر سورم عن جماعة العنقاء.

"وه، أجل، حسناً، بالطبع. لقد كان دونبالي عضواً في تلك الجماعة. لقد كانت
شيئاً مغرباً من نوع لا يثير البهجة أبداً. أجل، بالطبع. ينبغي أن تعرف أنها نبعت من اعتقاد
عول بأنه إذا تضاجع رجل وامرأة فإنهما يصبحان غير قابلين للعوى بأي مرض وبذلك
صحت هذه العقيدة في زمن الموت الأسود مرراً لكل أنواع الفجور ومع حلول عصر دونبالي
صحت مجرد عصبة شبه سحرية تضم جماعة من اليهوديين الصعاليك. هل تعرف كتاب
دي صاد "مائة وعشرون يوماً من أيام سدوم" أنني واثق ثقة كاملة من أن دي صاد كان
يسخر من جماعة العنقاء في ذلك الكتاب - أتعرف الصعاليك المعوجزين القنبرين الأربعة الذين
قاموا يوماً من المعرض الجنسي في أحد المنازل الريفية؟ لقد ظن نوم ويزر المعجوز دائماً أن هنا
هو لسبب الذي جعل دي صاد يفضي أكثر حياته في السجن، لقد كان يعرف الكثير جداً
عنه".

تدخل كليف قائلاً: "توماس ج. ويزر المزيف الأدبي، إنك تعرفه".

"حسناً، ربما كان كذلك وربما لم يكن. إنهم يقولون ذلك ولكنني لست واثقاً إلى
هذا الحد. غير أنه كان دائماً صديقاً جيداً لي إلى حد بعيد. مثلما أقول، فإنه كان على
فئاع كامل بأن جماعة العنقاء هذه، كانوا يسمعون وراء دي صاد."

عمر لي كليف بعينه

"ولكن لماذا ينبغي أن يضاردود إذا كان مثلهم في السوء؟"

"إنه لم يكن كذلك. لقد كان يسخر منهم أنفسهم؟"

يجب علي أن أوضح أن تفسيرات الرجل المعجوز له تكن يمثل الوصوح الذي جعلتها به
قد كان حينئذ من النوع الذي يصعب تنبؤه، تقطعه وترفعه عمعمات وأصوات انفية

غريبة. لم أحاول أن أنقض أو أناقش حينئذ الغريب عن دي صاد، ولكن أمني في الحصول على
أية معلومات مفيدة راح يخبرني ويتلأشى. سألته عن كعقبة بداية اهتمامه بجماعة العنقاء.

لقد رأيت نسخة من تلك النشرة النادرة. وكانت هذه هي بداية معرفتي بوير.

الحقيقة

أية نشرة، يا سيدي؟

توه، النشرة الشهيرة. التي كتبها هنري مارتل وجورج سمبسون. كليف، أحمري

الدرج العلوي هناك، أسمع؟

لم تكن النشرة في الدرج العلوي، ولكن بعد عشر دقائق راح بيتس في أنثائها يصر
الانتهاكات القائمة على رأس العالم كله بشكل عام، وعلى رأس مرضته خاصة. ثم تغير
عليها في حزمة أخرى. احتطمتها بلهفة. كانت موضوعه في غلاف خارجي مر كثر
أحمر، وكانت في حالة الحرب إلى الفساد.

فضح المؤامرة الشريرة، المعروفة باسم جماعة العنقاء

بقلم هنري مارتل. م ا جورج سمبسون د د

طبعها للمؤلفين ج. روبنسون. ضمة البهر القديمة، ١٩٧٣

كان كليف يسأل بأكثر ما يملكه من بعمومة وفطنة على الإلهاع،

لأفهم لماذا تطعن حقيقبة مع أنها جاءتك من رجل مثل ويزر؟

بمعص الرجل المعجوز للنقاش وأسمع لأدباً حاداً

"سوف أشكرك إذا أنت لم تتحلى مهدد الطريقة عن ويزر أنه لم يكن مريضاً

من فقد كان يحاول أن يدفع عن دكتورى صبيغة هنري باكتستون فوراً من"

قلت

"على أي حال، من المؤكد أن البصر الأصلي لأي عمل مريض كان على النوا

حقيقبة؟ لم يكن الأمر سوى نوع من التاريخ المحزى على المنشرة؟"

"تماماً"، قال الرجل المعجوز، ثم انفقت إلى كليف وقال: أترى؟ إنه يعرف عن المسألة

أكثر مما تعرف أنت؟"

تركتهما يتناقشان، ورحلت أقرأ بسرعة عاصفة. اتخذت النشرة شكلها نعمة أخلاقية مرتفعة، واتهمت جماعة العنقاء بأنها السبب في سقوط لويس الرابع عشر ملك فرنسا وطالما أن هذه النشرة سوف تطبع كاملة في ملحق خاص مع مذكرات دونبالي، فإني لن أفتبس الكثير منها هنا. إذا كانت هذه النشرة هي المصدر الوحيد لمعلومات بيتس بحور عن الجماعة، فقد كان بوسعي أن أرى لماذا كان ينظر إليها بعين الفرض. وحدث نفسي أتذكر عدداً معيناً من النشرات والقصائد التي صدرت عن راسبوتس بعد مقتله في عام ١٧٩٧، وكانت مليئة باتهامات غامضة، صعبة التصديق عن مؤامرات وحشية، وعن جرائم اغتصاب والعهر، والاحتفالات المفزعة. وطبقاً لما قاله كاتبها النشرة، كانت الجماعة أساساً سطوياً من سحرة لممارسة أعمال السحر وكانت الفقرة التي أدارت أكثر المناقشات - بعد نشر مقالتي عنها في مجلة "تلاتيك مننلي" - كانت هي تلك التي تصف الطريقة التي يتبعها "سيد الأعظم" أو أي واحد من أتباعه المصطفيين لكي يتمكن من استعباد الفتيات عن طريق جمع ثلاث من "سروريلهن الداخليه الملونه بالدم" بعد دورتهن الشهرية، ثم يقطع رقياً في وسط بقعة من الدم متخذة شكل العصو التناسلي الأنثوي، ثم يرتدي هذا السروال فوق ذكوره عازلي لمدة سبعة أيام وسبع ليال. وبعد هذه الفترة تصبح الفتيات مجررة على تلبية لطلبات سيد الأعظم لكي تسلم له عذريتها، ثم تستسلم له بعد ذلك في أي وقت، حتى ولو كان على بعد ألف ميل وتتلو ذلك، القصة الغريبة عن "ديلي كريسبين" التي امتلكها سيد الأعظم في ليلة زفافها "في نفس الوقت" الذي كان زوجه يمتلكها فيه، والتي كان طفلهما يحمل ملامح سيد الأعظم - شعر أسود، ونشرة سمراء، وما إلى ذلك (كان السيد الأعظم في ذلك الوقت هو الفارسي عبدالله يحيى، الذي تفاخر بأنه قد ترك بذرته في راحة كل امرأة حميلة من المجتمع الروماني العراقي. وينير المؤلفان إلى هذا التفاخر باعتباره مثلاً على تفقر الأخلاقي أو حشني بدلا من أن يكون صورة للكذب الحيائي الخلتق) وقد قتل عبدالله يحيى ومرفق حسده في عام ١٧٩١ على يد همدريك فان جريس. الهولندي الشبيه بالوحش والفقرص أن فان جريس كان يزن أكثر من ثلاثمائة رطل إنكليزي (١٥٠ كيلو غرام)، وأنه غالباً ما كان يفقد ضحاياه الوعي، بل يقتلهم، بمجرد أن يترك وزنه الحسنة بسقط فوقهم. وأصبح فان جريس سيداً أعظم لمدة لا تزيد على عامين. أصيب خلانها

بمرض الزهري الذي نقلته إليه سيدة البلاط الرومانية ماريا غريشكا التي قيل أنها كانت ذات طبيعة قاتلة، حتى أن فان جريس حينما جاء عام ١٧٩٤ كان قد أصبح جبالاً ملامح له من اللحم للزهر. وفي "محنة التحليل النفسي" الصادرة في شهر يوليو عام ١٩٦٩، صر البروفيسور أرام روث القصة كلها على أساس التصور المرويدي - بادئاً من النشاطات الفيتشية (التي تقوم على الولوج الجنسي بالأشياء ذات العلاقة أو للبلول الجنسي) للرنطة بالسرويل الملونه بالدم - ورفض القصة - أو رفض تصديقها - على أساس أنها نتاج تخيل القوطي للليء بالأسرار الوحشية. وفي عدد سبتمبر من نفس المجلة، أشارت ميس ماركتيد بونديسون إلى أنه لم تكن ثمة حاجة إلى الاختراع، طالما أنه من الممكن العثور على أكثر الطقوس للوصوفة في كتب السحر الأسود العربية والفارسية في القرن الثامن عشر، وتشير أيضاً إلى أن ستيف دي لايريتون قد وصف شخصاً ما يبدو شبيهاً بفان جريس (تحت اسم كوكبير - بالميزو) في كتابه "ليالي باريس في عام ١٧٨٨" واصفاً لياه بأنه "المعروف الأسطوري". وكنت أنا من لفت انتباههما إلى الفقرة المتعلقة بريستيف.

قال الرجل المعجوز: "لقد كانوا مجرمين، هؤلاء الناس، مجرمين منحطين. أرايت من الذي جاء بالجماعة إلى فرنسا؟"

كنت قد رأيت ذلك حقاً. قال مؤلف النشرة أن جبل دي ريز قد أصبح عصوا في الجماعة في السابعة عشرة من عمره (١٤٢١) بعد أن رشحه لها كاهن مخلوع. كان مارتل وسمبشسون على اتفاق مع سانت نيلوس سورسكي من أن الجماعة لم تكن أكثر من تطور لتعاليم "أخوة الروح الحرة". وبعد أن رفضوا كل قانون أخلاقي هدفه تحقيق أكمل تغير عن "أعضاء المنعة" ويقول المؤلفان، وكان أعضاء الجماعة يرتدون ثياب الرهبان، وينحصبون في الاغتصاب أو في مضاجعة الجنت. كانوا يتقدمون للتطوع لحراسة جنت المتبائت الصغار - والصبيان وينتطرون حتى ينام الجميع ثم يفتصبون الجنة جنسياً الشيء الوحيد الذي يمكن أن يقال في صالحهم في الحقيقة - هو أنهم حاولوا دائماً أن يتجنبوا المزال أي سرور حسدي حقيقي بصحباهم. وقد حدث أن فترة من الداعات التي اغتصبها ثمن منهم ثم تركها مقبدة مكمنة تحت حكومة من أوزاق لأشجار، حتى عثر عليها بعد ذلك بيومين وهددت أخرى بأنها ستحد نفسها حاملاً بحديث كالوحش، داهشت بكلمة واحدة وبذلك كتمت السر حتى طمانتها دورتها شهرية الثانية - "وما كانت القاعدة التي يتبعونها

في ما يقنلوا أصحابهم أبدا حتى يتجنبوا عملية التعرف عليها فيما بعد، "وكان كثيرون منهم يحملون صناديق مليئة بمختلف الأدوات (باروكات الشعر والأهداب والعقدسات الخ) من نور محتلمة حتى يكون توسعهم أن يغيروا "نوا كل شيء، حتى عاداتهم نفسها". وكان حيل دي رير هو أول شري يعتنق آراءهم، وكان قد استقبله وتلقاه كعضو في لخدمة شخص يدعى حيل دي سبي وكان الحديث عن تسميات في محتلمته صريحا من لير في ضيق مطله مسدود، طبقا لما جاء في الشفرة وكان القتل الجماعي للأطفال بسبب تعبيراً عن "الشهوانية الشيطانية" التي أفعمت بها قلوب جماعة العتقاء.

فقد ثبت أن رير كان عضواً في جماعة العتقاء، إن لأفام مارتل وسيمبسون فصينتهما من ساس لهما كان منظمة شريرة ومروعة ولكنهم في الحقيقة لا يقدمان أي دليل على اعتنقهما في أنه كان عضواً في الجماعة شعرت بالليل إلى أن أشير إلى ذلك نلر حل العجوز. ولكن كان من الصعب أن تعرض الطوفان الخراف من التكريات وأجراً استطعت أن أسأله أن يحد لديه المزيد عن جماعة العتقاء.

٣٠ حل إن لدي أهه خطاب يمكن أن تتصوره كان قد وصلني من نوم وابر. كتبت ترسل معه بشأن هذه الجماعة لا بد أن هذا كان في عام ١٩٠٥. كليل يطر في هذا اللرج لغوي مرة ثانية

تعرض كليل بوجهه، ولكنه راح يبحث طائفاً بين أكوام من الأوراق القديمة بحث لمرصة حاملة لواء يحتوي على سائل ساحن يتصاعد منه بخار له رائحة عفافة يسعنه في إطار معدني معلق بالسربير وحيداً كعضو بيتس العجوز رأسه يكبس من لاسنيتك وراح يستنشق البخار واعتقد أن هذا كان نوعاً من العلاج للربو عرفت أن أسعد كليل بيتس في بحث عن الأوراق فقال "تتوقع أن تعثر على شيء هام" وانتقط الشفرة التي كتبت أقرأها ألقيت بطرة على كومة من الخطابات القديمة، ولكن لما لم تكن لدي فكرة عما كان من المروض أنني بحث عنه، فقد شعرت بعدم جدوى هذا العمل كله وعفمه جليت اصمامة سوداء من قاع البرجة وبطرت إلى ما بداخلها وحلني ما رأيته نظرت بسرعة إلى الرجل العجوز، ثم إلى حميدة، ولكن لم يكن أحدهما مستنياً إلي وكانت لاسممة تحتوي على اثني عشرة صفحة أو نحوها من مخطوطة كتبت باليد، تعرفت على الخط، كان خط بورويل كان أول سطر من الصفحة الأولى يقول "السبت، أول فبراير"

وإن شخص ما قد أضاف عام ١٧٦٦ بالقلم ليرصاصي مرة أخرى بطرت إلى كليل صدر معتمساً كليلية في قراءة الشفرة وكان الرجل العجوز يستنشق بصوت حشن ويشكو حشا للممرصة التي كانت تعبد ترتيب الفرش جليت مقعداً قريباً إلى الدرج، وجئت لكي أقرأ المخطوطة في لحظة ما، نهض كليل وبصر من فوق كتفي، تساءلت صامتاً إن كان يمكن أن يسألني عما كتبت فعله بحق الشيطان ولكنه ذهب وحلس في مكانه دسنة واستأنف القراءة

كان التقرير يصف معادرة بورويل لماريس في صحة تيرير لوفاسور، عشيقة روسي وهي التي كان بورويل قد وصفها في يوميات أخرى. اكتشفتها فيما بعد يقول: "هي فرنسية خالصة مليئة بالحياة" وكان الإنسان في طرفيها إلى إنكلترا، وقد سافرا معا بحث عن المؤنسة. وفي الليلة الثانية فررا أن بشر كا في فراش واحد في أحد الفنادق الصغيرة ونسب مهانة بورويل، فشل في أداء واجباته الرجولية، فانتفجر باكياً، وقال، ويستصعب من بقر هذا الكلام أن يحد نثار بكاني على الصفحة السابقة" ولكن تيرير أعادت إليه ثقته بسمه في الليلة التالية بأن أنت إليه الخدمة التي كانت ميمو تؤديها لعاشقها معاً، وهي الرضوع على ركتيها أمامه وملاصقته بفمها. "جعلني مسطرها وهي متكومة أمامي في هذا الوضع المهين أشعر بالشفقة الأمر الذي أعاد حبوبيتي إلي يقدر عطية حتى أنني أرفقتها على ظهرها فوق البساط وأتيتها في التو والساعة مثل عجل بري وأظن أنها رصبت تماماً عن "حجمي" لديها شهقت بدهشة، ثم تركت نفسها المحتبس في صدرها ينطلق في تنهيدة طويلة" إنني نقل الآن من الجمل القليلة التي استطعت أن أنقلها بسرعة بالقلم ليرصاصي في مذكرة صغيرة كانت في جيبتي عرفت أنني كتبت أنظر إلى مخطوطة بورويل التي استطاع بهزلك جيبكليسون بيتس أن يختملسها بشكل ما من مالاهايد ومن الواضح تماماً أنه لم يكن له أي حق في امتلاكها ولذلك فقد عرفت انعدام أي فرصة لسماحه لي بأن أستعيرها أو حتى بأن أنسخها في منزله.

قال كليل بيتس، "هل عثرت على تلك الورقة عن دوبيللي؟" جفلت وقلت، "لا" ثم نظرت إلى الرجل العجوز. كان رأسه مختمباً تماماً، وكتبت وفقاً من أنه لم يسمع. قال كليل.

"أرجو أن تقرأها لأنها مضحكة بشكل مرعب"

عممت بشيء ما، أملاً ألا بطراً على ذهن بيتس العجوز أن يسألني عما كنت أقرأ، أو ما كنت قد عثرت على خطاب وايز. ففزت صفحتين من الكلام الذي يحاول فيه بوزويل - بوزويل نفسه، محاطاً دأبه بكلمة "أنت" متآملاً في مميزاته من الجاذبية والجدية الأخلاقية. في يومية الأحد ٩ فبراير، عثرت على الاسم الذي كنت أبحث عنه. وصل بوزويل وتيريز إلى صديقه وسط عاصفة ممطرة ونزلا في فندق يقول عنه ببساطة إنه فندق مدام دوتشيز. حيث سأل هو وتيريز في غرفة واحدة كبيرة في الطابق الأرضي. بدل بوزويل ملابسه وهبط يسمى في التسمية "وبالقرب من رصيف اثينا، ريت شخص ما على كعبي. والتفت لكي أرى بريموند دونيللي الذي كان قد وصل إلى هنا بعربة الريد القادمة من دانكيرك" ودهما تشير إلى فندق بوزويل، حيث كان بوسع دونيللي أن يحصل على حجرة لنفسه. ومن صبح أن بوزويل ودونيللي كانا قد التقيا في دريسدن. أمرا نفسيهما بطعام وقبينة كثيرة من النبيذ الجيد، وتحدثا عن ويكليز وهوراس واليونان اللذين كانا قد قابلاهما في رينس ودخلت تيريز - ولم يكن بوزويل يعرف أنها كانت قد قابلت دونيللي وهي مع روسو في بوشاتل - ويقول بوزويل، "علي أن أعترف بأنني شعرت بغصة لحرارة تحيتها، وللطريقة التي ظلت ترد بها أن هذه كانت مفاجأة ممتعة". فرروا أن يتناولوا العشاء معاً، وأحدهما بريموند إلى منزل حاص لتناول الطعام. "وعلى مائدة العشاء، تحدث كثيراً حديثاً فاحشاً، وإن لم يبد على الأنسة أنها تضررت من ذلك فقد اشتركت في الحديث، وشعرت باختفاء كسني وبحراف مزاجي". ثم عادوا إلى فندقهم، وقال بوزويل مازحاً أنه يأمل من أيزموند - ببطر إلى لقائهم نظرة بريئة إذا حلت والتقى بروسو في لندن. وحينئذ، وبالصرحة غير عاقلة التي عرف بها بوزويل دنماً، مضى فأخبر أيزموند عن فشله مع تيريز، وعن كيف شعر بالانزعاج في مناسبة تالية حتى أنه شرب زجاجة كاملة من النبيذ قبل أن يذهب معها إلى الفراش. وأصبح الحديث أكثر وناً وكله جو من الصداقة الحميمة. وتحدثت تيريز عن غلظة الإنكليز وغبائهم فيما يتعلق بفن ممارسة الجنس وحينئذ صدم بوزويل حينما عرض أيزموند أن يعرض أسنانيته في هذا الموضوع في الشو واللحظة. ثم حطر له أن إذا استحوذ أيزموند على تيريز فإنه سيحصل على سبب معقول بشعره بالبراءة إذا التقى بروسو فيما بعد، وهكذا فقد عبر عن موافقته على هذه الفكرة. وجاء دور تيريز في إظهار الدهشة وما أصابها من صدمة، وراح أيزموند يلومها ويسخر منها منها إياها بالتصنع وعدم الصدق. وبعد ذلك، قررت أنه لن تكون هناك جدوى من إخفاء ميلها الحقيقي، ووافقت على أن تكون

عملياً رتبها وتقبلها لقوة أيزموند في فن العشق. قال أيزموند لبوزويل، "ها با سيدتي. هذا لكي نثبت أنها أن الكلث هم دم الحياة لأوروبا" فتهتت تيريز. وكان بوزويل مصمماً على - يسبق في صورة لا تقل عقلانية وثقافة عن صديقه الشاب (وكان أيزموند بصفره بنمائي سنوات) فاصطحبهما إلى حجرة النوم

وما حدث بعد ذلك يتخلص في أن بوزويل وأيزموند ساعدا تيريز في خلق نهبت وحبيما أصبحت في نياها الداخلية شرع الرحلان في ملاطفتها. ونبت كل منهما فمه عن أحد نهبتها (...)

إن وصفه لنظر أيزموند وتيريز وهما يمارسان الجنس سوف يكون - دون شك نموذجاً كلاسيكياً في مجاله... وهذا الوصف يستمر لصفحتين أخريين. ولكن كان هذا كل ما استطعت نقله في ذلك الوقت القصير. كانت المرصة تساعد بيتس العجوز نحو حضبة البلاستيك. ولذلك فقد أسرعت في القراءة حتى أصل إلى النهاية، حيث يصف بوزويل بعد فشله الأول، كيف استطاع أن يشفي نفسه بمضاجعتها بقوة "باسلوب شعرت بالأسف لأنني لم أكن قادراً على مشاهدته بنفسي" وشعر بالرضا الكامل عن نفسه حينما عممت تيريز قائلة، "٥٣، به لصبر محزن أن أكون عشيقة رجل عجوز" وأمصى بوزويل وتيريز وأيزموند الليلة في نفس الفراش - الذي كان كبيراً بما يكفي ثلاثتهم - ونظر الثلاثة إلى الموقف بطريقة طبيعية حتى أنهم كانوا يفرقون في إغماء قصيرة يستيقظون بعدها لاستئناف ممارستهم للجنس وأخيراً عرق بوزويل في النوم بينما كان أيزموند يحاول إغواء تيريز بأن يأتياها من الحلف. ولكنه في النهاية قنع بأن يلقبها على ظهرها ثم يصعد فوقها مرة أخرى. وفي هذه المرة، شعيت حتى رغبة تيريز التي طال كبنتها في جواد قوي شاب، فركبت مستسلمة في سلبية، وهي تشوق بضعف، بينما كان بوزويل يمارس الجنس للمرة السادسة "كنت آخر من امتلكها تلك الليلة" كذلك يقول مفاخراً، ولكنه يضيف، "ولكن علي أن أقول - للأمانة - أن دونيللي سحل سبع مرات مقابل الست التي سجلتها" وفي الليلة التالية، مرض بوزويل بسبب التهاب في معيته، فامضى الليلة في فراش أيزموند. ويعترف بأن قلبه كان قد انصرف تماماً عن الاستمرار في تلك للناسبة الرياضية، "رغم أننا كنا قد رأينا فتاة صغيرة في نحو أربعة عشرة من عمرها في دكان الفران. كانت جذيرة بأن تلهمني الحياة طوال ما تبقى من أيام الأسبوع" وفي اليوم التالي قال لهما أيزموند أن لديه عملاً لابد

سفيه في كتابه عدة أيام أخرى وبينما تحركت بهما انفارت عن رصيف البناء إلى السمية
في كانت ستقلهما إلى إنكلترا، نظر بوزويل خلفه فرأى أبرمويد واقفاً على رأس الرصيف
مع ثمانية دت الربعة عشر ربيعاً والحسن الحظ كان تيريز لم تلحظهما "بعد العودة إلى
بيري في يوم التالي (٢ فبراير) تمضي يوميات بوزويل المنشورة فائلة. "ذهبت صباح أمس إلى
عروض في ساعة مبكرة جداً، وقمت بواجبي مرة واحدة، لكي تبلغ أهدافي ثلاثة عشر في
مجموعها وكنت حقاً منفعلاً بها في ود صادق" ولكنه لا يسجل كيف أصبحت أهدافه
محبطة نماذج عند أهداف دونيللي

التقت عينا بيتس بعيني فيهر رأسه محذراً. كانت الممرضة قد خلعت الحقيبة
بسيوغة من البلاستيك. أغلقت الحظوظة التي كانت قد أنهيت قراءتها لتوي، ودست
نشرة مدكراتي الصغيرة في حبيبي التقطت كتيباً صغيراً من تاليف روسكين، وحينما
سألي الرجل المعجوز عما كنت أقرأ قلت أنني وجدت هذا الكتيب وأنه سحرني. قال حميد
ل عليا أن يرحل لأن، وبدا أن الممرضة وافقت على ذلك

"هل سألي صديقك كل الأسئلة التي كان يفكر فيها؟"

قلت بتردد، "هناك سؤال واحد أخيراً، يا سيدتي عن أبرمويد دونيللي."

"دونيللي؟ من ذلك؟"

وصح كليف من القصد. قال الرجل المعجوز.

"أجل، أتذكر الآن، لقد كان عضواً في جماعة العمياء..."

"كيف عرفت؟"

"دعني أتذكر... كيف عرفت؟ أ، أجل. أحرمني ويمز بذلك. قال ذلك في الخطاب
لدي أردت أن تراه. هذه النشرة التي كنت تقرأها إنها ليست بقلم أي كانت أسماؤهم.
بها بقلم شخص آخر. صديق لدونيللي لا يستطيع أن أتذكر اسمه إن له لقباً"

"لا يمكن أن يكون هوراس حنفي أيمن ذلك؟"

"أ، أجل. هذا هو الرجل لورد حنفي"

"ولكن كيف عرف ويمز بذلك؟"

لسوء الحظ، تدخل كلي بيتس لأنه فسر هذا الكلام على أنه هجوم آخر ضد ويمز.
وشرع يشن دفاعاً طويلاً عن صديقه القديم. قررت أن أترك للسائلة عند هذا الحد، إلى جانب
أنني كنت جافاً، شكرته ووعنته بأن أروره مرة أخرى وغادرت المكان. وفي الخارج قال
كليف بيتس معتذراً،

"أترى. إن الوالد المعجوز درثار كبير."

"هل قرأت الصفحات التي كتبها بوزويل والتي كنت أقرأها؟"

"أ، هل عرفت أنه بوزويل؟ أجل، بالطبع، لقد قرأتها. أضفها قطعة رتبة من انب
الدعارة. لقد ظلمت أحاول طويلاً أن ألقنه بإرسال نسخة منها إلى ذلك الرجل الذي يشرف
على نشر مدكرات بوزويل. ولكنه لم يوافق."

"بالطبع. إنها ليست ملكه."

"كنت واثق؟"

لخصت له قصة أوراق بوزويل. قال.

"إنه يزعم دائماً أنه اشتراها مقابل خمسة جنيهات، ويقول أن لادي كالبوت راتها
بالصفحة ذات يوم وطلبت من زوجها أن يحررها. فقال أنه سيفعل ذلك، ولكنه وافق على
بيعها إلى جدي مقابل ورقة بخمسة جنيهات."

"ربما كان هذا صحيحاً. هل لديك المزيد من أوراق بوزويل؟"

"كلا على قدر ما أعلم. هذه هي الأوراق الوحيدة التي راتها."

كان المطر قد بدأ بهطل حينما توقفنا بالسيارة في مقابل فندق شيلبورن. قلت -
بطريقة تقليدية،

"أشكرك لاصطحابي إليه. إنه رجل عجوز لطيف"

"أوه، إنه على ما يرام. إنك لا تعرفه."

عجبت لهذه الإجابة. ولكنني لم أصرخ عليه. فله تكن هناك حاجة حقيقية
في ذلك. وحسبما جلسنا في البار وحنا نحسني بعض النبيذ الأحمر. قال:

"يحق لي أن أتخيل أن جدي واحد من الشخصيات التي تمثل أسوأ تركيبة من
خصائص المتصاربة التي يمكن أن تجدها في دبلين في هذه الأيام. إنه - أولاً - كذاب لقد
تظاهر بأنه لم يعرف اسم دونيللي. هراء. إنه يعرفه مثلما تعرفه أنت.

"لكن لماذا..."

فاطمني هاتلاً، "وهو ثانياً، ربما كان أصغر رجل في أيرلندا..." وطوال الدقائق الخمس
سلبية راح يصرب لي أمثلة على حقارة جده ووصاعته وكانت بالتأكيد مقنعة تماماً
وربما كان الرجل نموذجاً من النماذج الأيرلندية. لأن مانسيورين. يصف شخصاً يماثله في
نسبة روايته "ميلموت الجوال". ويرجو هذا الشخص متوسلاً وهو بلفظ أنفاسه الأخيرة. أن
ينفخ في مقبرة من مقابر الصدقة للخصصة للفقراء. ثم تلت ذلك قصص عن عدم أمانة
جده. "ثم هنالك تلك الفتاة للسكنية التي ترعاه. إنها ما تزال طالبة في معهد التمرين.
ولذلك فإنه لا يكاد يفلح لها شيئاً. ولكنه يقنعها بأن تنام معه مقابل وعده لها بأن يترك لها
مالاً في وصيته. هو بالطبع ما كان يحلم بهذا".

دهشت وسألته، "أنت واثق من هذا؟" فإن الرجل لم يكن يبدو علي صحة ككافية لكي
يخبر من آثار حلم جنس".

"بالطبع. إن الفتاة تنام معي في ليلة عطلتها".

كنت قد بدلت شعر بالانقباض. كان مكلف بهتس يصف خطايا جده وأخطاءه
في تشف حقد شعرت بأنهما على شيء من الوحشية.

"لماذا لم تخبرها بأن الرجل لا ينوي أن يترك لها نقوداً في وصيته؟"

غمز بعينه وقال، "إنها قد تزكته. وهذا لن يفيد ولن يفيدني".

افترحت أن نأخذ بيدينا معاً إلى حجرة الطعام. قال:

"هل تمنع في تناول الطعام في البار الطويل بالطابق الأسفل؟"

"كلاً إذا كنت تفصله".

وحسبما مالد على جوار النافذة للظلة على الشارع. سألته،

"من هو وارث جيك؟"

"اعتقد لي فورث".

"لكن لماذا تحتقره إلى هذا الحد؟"

كيس لهذا علاقة بذلك. إنه خنزير عجوز. وأنا على أية حال لست بحاجة إلى نقود
إنه ميسور الحال تماماً. وربما كان هذا هو السبب الذي سيذهبه إلى أن يحملني وارثه
جيم. ابن أخيه. جيم همد. يحتاج إليها أكثر مني.

قطع كلامه فجأة وأطل من النافذة. كان للطر لا يزال بهطل. وكان أمامنا حشد
النافذة طفلة صغيرة. كانت تنظر إلينا. وهو ما دفعنا كلاً منا للنظر إلى بعض نظرة تساؤل
ثم ابتسم مكلف لها. سألته،

"تعرفها؟"

"كلاً. ولكنه مع ذلك كان يشير إليها بأصبعه. هزت رأسها والفضة قام وخرج إليها
توقعت أن أراها تختلفي قبل أن يصل إليها. ولكنها وفقت في مكانها. بدت وكأنها خائفة
وباردة ومبتلة. وكانت ملابسها رثة إلى حد كبير. قال لها شيئاً ما. هزت رأسها علامة
الرفض. ثم أخذها من كتفها. وأجبرها على السير أمامه. بعد لحظة كانا قد عانا إلى
ماندنا. قال،

"إنك لن تنزعج إذا انضممت إلينا. اليس كذلك؟"

قلت إنني لن أنزعج. ولكنني كنت أكثر اهتماماً بما ستشعر به بإدارة المحل. كانت
أكبر سناً مما بدت عليه من وراء الزجاج أربعة عشر. أو خمسة عشر عاماً. تقريباً كان
شعرها مرهوعاً على شكل ذيل فار. وكان أنفها يرشح من الدم. وترندي سزة قصيرة ذات
كتفين مستقيين وليس فيها سوى "ززار" وحيد. كان لطر قد رسم خطوطاً على ما
تأصل فوق وجهها من أوساخ. وكانت تبدو كمن لم يعتدل منذ أسبوعين. ولكي أكون

مس. فقد لاح لي ان الطير كان سبباً فيما فاح منها من روائح أكنت تلك الحقيقة. سالها صيف

"ما اسمك؟"

"فلورنس".

"هل يدعونك فلو؟"

"جل".

كانت لهجتها لندنية فحة Cochsney جلست في مكانها. تحك يديها الباردتين
أو حدة بالأخرى. فتبدو كصورة مجسمة لليوس كان النادل يظفر إليها في اشمزاز
قص. وظننت أن مدير المحل كان على وشك أن يأتي إليها ليطلب منا معادرة المكان فقد
كان يحملني فيما بقوة. قال كليف.

"تودين أن تأكلي بعض السمك والبطاطس القلبية؟"

أومات برأسها. ولكنها ظلت تبدو محذرة من البرد فاللدة الحياض نادى كليف على
النادل. وأمره بأن يأتي بما أراسته الفتاة بطريقة ظهر عليها الافتعال وتصنع الكبرياء. كانت
مناصري مختلطة غير واضحة إذا كان قد دعاها إلى الدخول بدافع الشفقة أو العطف إذن
كنت أوافق. رغم أنني كنت سأفصل اصطحابها إلى مكان أكثر هدوءاً وعممة. ولكنه كان
نحسبة من نوع غريب ومعقد حتى إنه كان من الصعب التأكد من دافعه. ظننت أن
لعمارة بليت غير مستريحة غريبة عن المكان الذي دخلته. وأجراً اقترحت أنه من الأفضل أن
يصعد إلى حجرتي. على أن نطلب إرسال طعامها إلى هناك.

"كلا. كلا. ولماذا يجب علينا ذلك؟ إتينا على ما يرام هنا".

كنت جالسا إلى جانب الفتاة ملاصقا لها. وكنت أفضل لو أنني كنت أقل قرباً.
أخنت سرتتها منها لكي أعلقها على الشجيب. ففاحت منها رائحة حملتي أظنها قد وجبتني في
كومة من القمامة بعد أن كانت قد استخدمت في تحفيف بعض السمك إن لي أنفاً حساساً

إلى درجة غير عادية. ولكن حتى رغم ذلك. فإن السيرة لم تكن شيئاً عادلاً بالنسبة لجيرب
على اللوند القريبة.

كانت الوجبة واحدة من أكثر ما عرفته بعداً عن الراحة أو المتعة. فطلبت رجاجة
أخرى من الشراب في محاولة لنسيان ما شعرت به من حرج. لم أستطع أن أفهم السبب تدري
جعلها توافق على الدخول. كانت تجيب على الأسئلة بكلمات مفردة في خشية واضحة من
أن ترفع صوتها. وقد جلست في وضع منحمد مقيد. كما لو كانت تتداخل في نفسها
لحساسها للستمر بالرد. وبدأ كليف كما لو كان مستريحاً لهذا الجو راح يتحدث بصوت
مرتفع وبإنتهاج واضح. وهو يقص علي حكايات عن مهرحان كان السبنماني. وعن آخر
أفلام مركمان. وهي حكايات لم تستطع أن تنير لدي أدنى قدر من الاهتمام. حاولت أن
أتحدث إلى الفتاة. ولكن كان واضحاً أنها تفصل لو تركت لشأنها. شعرت براحة أكثر
حينما غادر جيراننا على اللاندة المتجاورة لنا حينما وصل سمكها وبطاطسها القلبية. أعرفتهم
بالخل والطماطم المحفوظة. فأصبحت راتحتنا أهل طهوراً. رفضت الفتاة أن تتناول شيئاً من
الحلوى. الأمر الذي شعرت له بالراحة والعبطة. كنت قد بويت أن أصيب الوجبة كلها. إلى
حسابي في الفندق. وبدلاً من هذا دفعت الحساب نقداً وتركت للنادل هبة كبيرة. لم أشعر
بالرغبة في الظهور بمظهر بزيل الفندق

قال كليف بأقصى ما يملكه صوته من ارتفاع وأرستقراطية:

"حسناً. إذا لم تكن ستتناول المزيد. فيمكننا أن نذهب إلى مسكني لتتناول شيئاً من
الشطائر بالجبن".

كنت بالغ السرور بانتهاء تناول الطعام. فلم أعترض إلى جانب أنني توقعنت أن
تتركنا الفتاة بعد هذا. كان منظر وجهها التعيس يجعلني كئيباً. ولم تكن سعادة النادل
بالهبة الكبيرة سوى نصر ضئيل.

وفي الخارج قال كليف: "حسناً. إنني لا أعرف كيف سننحشر جميعاً في سيارتي ذات
اللعلمين".

ظننت أن هذه الجملة كانت إيحاء مؤدياً للفتاة بالانصراف. ولكنها ظلت واقفة في
مكانها. قال.

"ووه، حسناً، سنرتب هذا الأمر، تعالياً". وجلب دراعها بقوة. قلت

"ألا يتوقع والدك عودتك إلى البيت؟"

هرت كتفها بلا مبالاة وقالت: لا.

في السيارة لبورس جلست على ركبتي في هذه الزمزانة المقلدة. وقد طلب مني صديق بيتس ألا أفتح النافذة. كانت الرائحة السمكية أكثر قوّة. كان عليها أن تضغط بظهرها علي لكي تدخل ركبتها في مساحة الفراغ الضيق. ربت كليف على ركبتها وهو يقول "سيكون في البيت حالاً - أو هو - هناك ثقب.. ها -" وكان يشير إلى جواربها. ثم غمز لي بعينه وقال: "احسدنا". نظرت إليه بدهشة قليلة. من المؤكد أنه لم يكن يستطيع أن يرى في هذه الطفلة المبللة ذات الأنف السائب موصفاً للرغبة الجنسية؟ ربما لم تكن لديه حاسة للشم؟

بلدت لي سلبتها نوعاً من الشذوذ. حينما توقفتنا أمام شقته توقعت منها أن تبدي شيئاً من المعارضة. فكيف لها أن تعرف على أي حال أننا - نحن الاثنين - لا ننوي اغتصابها؟ ونكها وفقت في مكانها دون أن تبالي بشيء، حتى أخذ كليف بدرعها وفادها نحو الباب.

بلدت أكثر غربة وشذوذاً في هذه الغرفة الجديدة التاذبت. ألفت بسترها فوق الأريكة. ثم ذهبت ففقت متداخلة بجانب المدفأة، وبلدت غير مهتمة على الإطلاق بكل ما يحيط بها. فل كليف.

"فلنسمع بعض الموسيقى. ما رأيكم؟ هل تعرف كانتاتا جيمس أوزوالد السماء عربية الزرب؟ عليك أن تعرفها. إنها ممتعة". تساءلت بيني وبين نفسي إن لم يكن في هذا الاختبار تعريض ساخر بالمائة ولكنه أخرج اسطوانة موسيقية تحمل هذا الاسم بالفعل، ووضعها على الحاصي. عرض عليها أن تشرب ككاساً ولكنها رفضت. أخرج الجبس والشطانر والريبتون المحشو إلا أنها رفضتها أيضاً. غير أنها حينما هدم إليها علبة مكبيرة من الشطانر الجاهزة الخشوة أحبتنا دون أن تسب بكلمة واحدة. وجلست تلتهمها. وقد باعدت ما بين ساقيها أمام النار. وراحت تسقط نثار الشطانر فوق مقعده الحديث ذي اللسنتين وعلى البساط الأبيض الماخز. اتخذت مقعداً على الجانب الآخر من المدفأة، وكان كليف قد جلس بالقرب منها. بلدت اتساءل إن كانت قد سكرت. ولكن وجهها الصغير الحاد ظل على لامبالاته

الكاملة. ولم يكن حتى ينم عن الكآبة. وحينما كان يتحلى بها كانت تجبيه إما بكنيت مفردة، وإما أن تهر رأسها أو تومي به. وبعد أن التهمت عدداً هائلاً من الشطانر الصغيرة طلت شيئاً تشربه. ذهب إلى المطبخ وجاءها بزحاجة من الكوكاكولا وأنبوبة لامتنصص الشرب. حينما انتهت كانتاتا "عربة الزرب" قالت دون أن يبدو في صوتها الاهتمام الشديد "لماذا تضع شيئاً من الموسيقى اللطيفة" أخرج اسطوانة من موسيقى مانتوفاني وهرفته. وبدلاً من هذا الاختيار قد أَرْضاها، ثم إنها لم تقل شيئاً.

فكرت في أنه كان ربما يأمل أن ألهوم أنا فأصرف لكي أتركه معها بمفرده، ولكن حينما قلت أن الوقت قد تأخر، عارضني على الفور، وأصاء جهاز التليفزيون لكي يشاف نشرة الأخبار. جلست في مكاني. ارتشف ككاساً من الشرب. عارفاً بأنني سرعان ما سأنسى بالسكر. ومع ذلك فقد كنت أشعر كما لو كنت لم أشرب سوى الماء طول النهار.

بعد نشرة الأخبار كان هناك برنامج عن الاضطرابات السياسية في شمال إيرلند ربت كليف على ذراعي وأشار إلى الفتاة. كانت نائمة. قال برفقة،

"إنها لطيفة. ألا تظن ذلك؟" وجئت أنه من العصب أن أعتر على إجابة مناسبة وأجبر قلت: "إنها بحاجة إلى حمام حديد؟" بدا عليه الحزن بشكل غير متوقع. وغض بصره وقال "أجل. المسكينة...".

"ألا تظن أنه يجب عليك أن تأخذها إلى البيت؟ ألا يمكن أن يثير والدها بعض المشاكل؟"

"ووه. لا أظن ذلك. يمكنها أن تنام هنا إما أرايت ذلك"

سلمت دون مزيد من المعارضة. كان يعرف ما يفعله خيراً مني.

كانت قد غرقت في النوم واصعة إحدى ساقيها فوق أحد مسندي المقعد. ومدت الساق الأخرى أمام النار. غيرت وضعها قليلاً فانزلق ذيل ثوبها فوق ركبتها. ابتسم كليف في وجهي. وضحني إلى الأمام وصوب نظرة قريبة فوق ذيل الثوب. توقعت أن تستبقي ولكنها لم تتحرك. التفت إلي وقال: "انظر" ولكني هزّزت رأسي قائلاً: "كلا. أشكر". تظاهر بأنه يريد أن يطلعي على شيء هام. فغيرت وضعي ونظرت إلى ما فوق ذيل الثوب. كان الجوربان

حسبك مليونين بالنقوب والشقوق. كانت ترتدي سروالاً طويلاً مصنوعاً من القطن،
يكسها كان ممزق "الحجر" بشكل سين حتى إنه لم يكن يخفي شيئاً أبدت عيني سرياً -
يس يدفع الرفع أو اللامبالاة. وإنما لأنني كنت سأشعر بحجل جديد لو أنها فتحت عيني في
نت اللحظة. قلت،

"ماذا في ذلك؟"

بد عليه الحزن والتفكير مرة ثانية.

"من الواضح أنها تنتمي إلى أسرة فقيرة، فلا عجب أنها ليست نظيفة جداً."

ليس كنتفها وقال، "ترديد النوم هنا" جففت ولكنها لم تمتع عينيها. وهجأة أصبحت
محراً عن معرفة ما إذا كانت تتظاهر بالنوم. تحسس قماش ثوبها وقال ستصاب بنزلة
بردية. ظلت بهذه الملابس. نهض واقفاً ووضع يداً تحت ذراعها ويده الأخرى تحت ركبتيها.
ورفعها. حركت رأسها وقالت شيئاً. خطر لي الآن أنها إما أن تكون تتظاهر بالنوم أو أنه قد
وسع شيئاً في الشراب الذي تناولته. فإذا كان ذلك قد حدث، فلا بد أنه استخدم مادة
دهبريت الكلور. فهي وحدها القادرة على إنتاج هذا الحذر الكامل

تبعته إلى حجرة النوم - وكان من الغباء الكامل أن أسأله عما كان يفعله. كانت
الحجرة مريحة ودافئة. وضعها على حافة الفراش الكبير، ثم حلج حذاءها. ثم بحث حول
الحصر حتى عثر على الزمام. سألته، "هذا تصرف حكيم؟" قال، "بني لا أنوي أن أصعبها في
فروشي بهذه الملابس. لقد قلت بنفسك إنها متعفة". عثر على الحرام فجذبه وفتح بعنف.
ثم جلب الثوب النصفى فحلقه من قدميها. لم تكن ترتدي قميصاً داخلياً. لا شيء سوى
تجويرين المسوكين بزوج من دوائر المطاط. والسروال الداخلي الذي كان يباطه المطاطي
بعيداً تقريباً عن خصرها. قال، "جسد صغير جميل" وكان في هذا شيء من اللباقة. كانت
لحبة. والبطن الصغير كان مسطحاً لدرجة أن عظمي الردين سرزتا بوضوح. أمسك
بطرف الصدر الصوفي الخفيف، وكان ذا لون أحضر شابه لون الطين والتراب - ورفعه. ثم
حركها فقلبها على جنبها حتى يستطيع أن يجذبه من فوق رأسها. كانت ترتدي حمالة
صدر كانت بيضاء ذات يوم، وكانت اشترطة الحمالة على ظهرها موصولة بقطعة من

المطاط الأسود إلى بقايا القماش بطريقة خشنة. وقطع شريط المطاط بأصابعه. كان البهر
الصغيران مسطحين ولم يكتمل نموهما. نظر إلي وقال،

"هل سننألهما؟"

قلت على الفور: "كلا دعها وشأنها"

مد يده فجاءه ووضعها على مقدمة بنطالي فقمرت إلى الخلف كما لو كان قد
صربني. اتسم وقال،

"لا يمكنك أن تتظاهر بأنك غير مستثار."

كعبت رغبتي في ضربه وقلت، "لماذا لا تضعها على الفراش ثم تتركها لكي تنام؟"

"كلا. سيخيب أملها."

كانت مشاعري مختلطة وغامضة. كنت واثقاً من أنها منبقة. ولكن إذا لم تكن
فإنني كنت سأعتبر شريكاً في اغتصابها. كنت سأعتبر شريكاً على أي حال، طالما أنها لم تبد
أي نوع من الاستجابة. انحنيت إلى الأمام وفرصت كنتفها. لم تتحرك. كان كليف بيتس
في تلك اللحظة يقف بطريقة غير عاقلة. قبض على نهدا بأصابعه وقال، "قولي له أنك
مستبقة يا حلوة". انحنى إلى الأمام كما لو كان يريد أن يقبلها. ولكنه أخذ شفتيها
السفلى بين أسنانه وعضها (...)

الغرب مني وأمسك ذراعي. وما زال اغتصابه طاهراً. ووجدت أنه من الصعب أن أبعاد
عيني عنه. قال متملقاً،

"لقد أدبت لك خدمة اليوم. اسمع، حينما يموت الرجل العجوز، سوف أرت كل ما
لديه من مخطوطات. وسوف أسمح لك بأن تأخذ ما تشاء.."

"ذكركني للوقف فجأة بالكولونيل دونيللي. وكان هذا أكثر بكثير مما يمكن أن
أحتمل. قلت،

"اسمع، إذا كنت تريد أن تنألهما، فانهب وافعل ما تشاء. لنني لن أمنعك، ولكنني لا
أريد مشاركتك في هذا. ولما لا أريد أيضاً أن أحميها"

قلت ذلك بسرعة لأنني استعطت أن أدرك أنه كان يرمي إلى إقامة حفل جنسي ثلاثي الأطراف.

«لن تنصرف؟»

«كلا. سوف انتظر»

«سأترك الباب مفتوحاً». ثم اندفع إلى حجرة النوم. هرايته يقذف بنفسه فوقها مرة أخرى () ذهبت فعمرت على زجاجة من النبيذ في حزانة مشروباته فملئت لنفسي كأساً كبيرة. ولم تترك لي الأصوات القادمة من حجرة النوم مجالاً للشك في أنه كان يستمتع بها وكانت تتخللها أنات وتعليقات مثل: «أود. أود. أيتها العاهرة الصغيرة». وأخيراً توقفت الأصوات. مضيت في تناول الجبن والزيتون، مع قراءة نسخة من كتاب وبيت: «أخوة الصليب نوردي» وجنيتها على أحد رهوف الكتب. بدأت أشعر بالنعاس. سوف يكون من الكتب أن أقول لي لم أكن مستتاراً جنسياً إلى حد ما. وكانت سلبية الفتاة المطلقة قد أثارت فضولي، وإن ما تشع به من الفضول لزاء فتاة لقريب جداً من الرغبة في أن تخلع لها ملابسها. وإذا جلست على المقعد ذي السندلين الذي كانت تجلس عليه، تذكرت سرورها الداخلي الممزق وأعصاها التناشلية للكشوفة وتجدد الشبق. كنت جديراً بأن أمارس معها الجنس في ظل ظروف مختلفة. ولكن ما أضعف من عزيمتي كانت شخصية كليف بيتس، ومحاولته لدفعني إلى مشاركته في عملية بدت لي كالاعتصاب.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل وفكرت في العودة إلى فندقتي، ولكنني سمعت صوت حركات صادرة من حجرة النوم، ولم أرفع عيني لأنظر ما يجري. ثم رأيت كليف بيتس واقفاً على بساط صغير عند باب الحجرة، عارياً، حاملاً الفتاة بين ذراعيه مرة أخرى.

«لقد جننتك بها مرة أخرى».

«هذا عطف منك، ولكن علي أن أرحل».

«أود. لا. لا ترحل» ركع على ركبتيه، ووضعها على البساط المصنوع من جلد حيوان أبيض عند قدمي. كانت هي الأخرى عارية كما ولدتها أمها الآن. ثم خرج من الحجرة.

انحنيت فوقها ولمست ذراعها قلت: «كنت مستهترة؟» لم تصدر عنها حركة. كان صوت المياه الحارية يأتي من الحمام. وبعد دقائق خرج كليف بيتس من هناك، حاملاً بياء من البلاستيك الأحمر يتصاعد منه البخار.

«ماذا تفعل؟»

كان الماء معطراً. أخذ منه إسفنجة استحمام. وعصرها. ثم دعكها بصابونة كبيرة معطرة بعطر الليمون. وبدأ يقسلها بعناية، متجاهلاً ما جرى على البساط من ماء. ثم أخذ منشفة وجففها () ثم رفع عينيه نحوي وقال «هناك هي. لا يمكن أن تكون أنظف من هذا».

«إن كل ما تحتاجه الآن هو بعض الثياب النظيفة».

«أود، أظن أننا نستطيع أن نرتب ذلك».

نهض واقفاً وقال.

«هناك هي. إنها ملكك».

استدار ونهب خارجاً من الحجرة، وأغلق وراءه باب حجرة النوم. كان هذا نوعاً من الإغراء، كانت مراقبتي له وهو بلاطفها بالإسفنجة قد جعلتني أتصعب. انحنيت فوقها ولمست نهديها. كانا باردين. خطوت فوقها واتجهت إلى حزانة الكتب. ثم خطوت على أطراف أصابعي نحو باب حجرة النوم وجنيتني فانتعج. سمعت صوتاً خافتاً ووجدت كليف بيتس جالساً على البساط. وقد بدا عليه الانزعاج. قلت: «معذرة. إنما أردت أن أحد شيئاً أعطيها به» واتجهت إلى الفراش. وأخذت غطاءً ثم علت نائمة إلى فتحة الرابطة على البساط أمام اللقاة. وبينما كنت أعطيها ظننت أنني رأيت ابتسامة على شففتها.

سمعت صرير لفازات السرير في الحجرة الأخرى جلست وفتحت كتاب وبيت على فصل «الصليب الوردي». ثم علبني النعاس ولابد أنني نعست فعلاً استيقظت حينما انزلق الكتاب من فوق ركبتني. نظرت إلى الساعة. كانت في الثانية والنصف. فجأة، جلست فلورنس. وبظرت إلى الغطاء الذي غطيته به.

"كان هذا شيئاً لطيفاً منك".

"عفواً" وكنا مكاناً نتحدث بصوت منخفض.

قالت: "حسناً، أضرب أن من الأفضل لي أن أرحل".

"بهذا الشكل؟"

"كلا".

عبرت الحجرة وتجهت إلى صندوق الثري مليء بالأدراج في أحد الأركان. وحنبت أحد الأدراج ففتحتة. بدلت في إلقاء الملابس الداخلية على الأرض. فتحت الدرج الأخير، وأخرجت زوجاً من الأحذية

قلت: "لقد جئت إلى هنا من قبل؟"

"أخذ حماماً مرة واحدة في الأسبوع. في المتوسط"

ودون أن يسبق عليها الحرج ارتدت مشدداً دا حرام. وقد بدا هذه المرة جليداً ومن طرار حديث. ثم ارتدت جوربيين. ارتدت بعد ذلك سروالاً داخلياً. ثم حمالة صدر. طلبت مني أن أربط خياطتها. زحفت نحو باب حجرة اليوم ونظرت داخلياً. ولكن لم يكن هناك شك في هذه المرة في أن كليف بيتس كان عارفاً في يوم عميق. كانت فلورنس قد ارتدت قميصاً داخلياً دون صدر صنع من النايلون من نفس لون حمالة الصدر والسروال الداخلي. وقد بدا عالي الثمن لعبيني غير الخبيرتين. ذهبت إلى خزانة قريبة من الباب وأخذت حقيبة طويلة من البلاستيك كانت معلقة على مشعب في الخزانة. تصح أنها كانت تحتوي على حلة حصراء اللون كالليمون مكونة من قطعتين. تحفت إلى ثرثرة المعلقة فوق المدفأة ومنشطت شعرها بفرشاة أخذتها من الدرج. كان شعرها في ذلك الوقت حافاً. وبعد أن منشطته بدا اللون الأحمر النهمي نفسه الذي رأيته في مكان آخر. زيننت وجهها بضربات قليلة من أحمر الشفاه وبعض المودرة التي نشرتها بقطيفة صغيرة على صدغيها. حينما التفتت إلي لم أكد أعرف عليها. كانت ما تزال تبدو صغيرة السن. ولكن كان يمكنني الآن أن أقدر عمرها بعشرين عاماً. كانت قد ارتدت الملابس الجيدة التفصيل كما لو كانت معتاد عليها.

"مستعد؟"

"نعم... أجل"

من خزانة البهو أخرجت معطفاً كان متناسلاً تماماً مع الحلة. ومظلة من نفس اللون.

وأخيراً وصغت قبعة حمراء صغيرة على رأسها. أطفأت للدفأة الكهربائية. ثم أطفأت النور. وخرجنا. وأغلقنا الباب وراءنا بهدوء.

سألتها: "أين تقبمين؟"

"أوه. لن أعود الآن إلى البيت. أنت تقبم في شيلبورن؟"

"أجل".

"سأعود معك إلى هناك لأرى إن كانت لديهم حجرة لي لا يمكن أن تحمل مشقة الخروج إلى مالاهايد".

كانت لهجتها ما تزال لنندنية بوضوح. ولكنها لم تعد لهجة الكوكيني (سوفة لندين) كان المطر قد توقف. فسرنا في الشوارع الخالية. سألتها إن كانت تعرف جد كليف بيتس. "أوه. أجل. إنه كان يعيش في مالاهايد. وهناك قابلت كليف. والوالد المعجوز لا يقل عنه سوءاً".

"ناب شكل؟"

"إنه يحبهن صغيرات. كان من عادته أن يداوئني حينما كنت في العاشرة"

بدت راغبة تماماً في الحديث. وتكلمت بطريق تلقائية. وأحياناً بطريقة تشبه أسلوب رجال الأعمال. ولبست كمن نوح بدخيلتها أو تكشف عما بنفسها. كان كليف قد اغواها عندما كانت في الثانية عشرة - حيث كان قد عرض عليها أن يعطيها ما يكفي من النقود لكي تشتري دراجة عادية إن هي جاءت إلى حجرته بعد نصف ساعة من انصرافها من المدرسة لمدة أيام. كانت ابنة غير شرعية لامرأة تعمل سائقة سيارة عامة. وكانت ترتدي ثياباً

لاح لي أن كاتب الفندق كان يعرفها. أحدث منه الفتحاح. وصعدنا إلى الطابق العلوي
معا وفي الطابق الثاني، حيث كان يجب أن نفرق، قالت: "هل أتى إليك وأتحدث معك؟"
عرفت ما كانت تعنيه قلت:

"أظن أن عليك أن تنالي قسطاً من النوم. لقد قضيت ليلة متعبة".

استمتت في وجهي وقال:

"إنك لطيف. لن يهمني التعب."

وقفزت على أطراف أصابعها وأحاطت عيني بذراعيها. قبلتها وشعرت ببضعة شيق
مفاجئة.

قالت: "ليلة سعيدة" ثم سارت مبتعدة في الدهليز كسحت رغبتي في متابعتها. ونهبت
إلى حجرتي. وقبل أن أدخل الفراش. تناولت ستة أقراص من فيتامين "ب" وشربت كأساً
من الماء. ولكن هذا لم يؤد إلى النتيجة المرجوة استيقظت في الصباح معه حاف وراس يلق
وبلف كالحر ك أو مولد الكهربا،

لقد حان من القهوة وبعض قطع الحبز الجاف بالزبد جعلتني أشعر بمزيد من
الإنسانية. جلست في الفراش. اقرأ صحيفة الصباح. وتساءلت إن كانت الرحلة إلى قلعة
مالاهابيد يمكن أن تساوي ما سوف يصعب فيها من وقت وطاقة. ولكن الإجراء كان أقوى بأن
أصع الورقة التي كتب عليها "لا ترعجني" على باب حجرتي من الخارج ثم أنام ما تبقى من
ساعات الصباح. دق جرس التليمون. فكان مثل محرات دائري بعوض في تربة تر كبري
النهضة. تساءلت بيبي وبين نفسي وإما أرفع السماعة إن كان المتكلم هو كليف بينس.
وشعرت بإجراء بلغمي إلى وضع السماعة في مكانها دون أن أحبب. دق الحرس ثانية. فرفع
السماعة سمعت صوت رجل يقول.

"مستر سورم؟"

"أله يتكلمه"

"أنا الستير جليبي هل كتبت إلي رسالة؟"

سنة ولا تتناول ما يكفي من الطعام. كان من الواضح تماماً. رغم أنها لم تصرح بذلك
بوضوح. إن ما جذب كليف إليها هو أنفها السائب وثيابها المزقة. كان قددها لعديبتها
صدمة مؤلمة. وإن كليف يعاملها معاملة طيبة جداً. فلاطفها وهناها. وجعلها تشعر بالنفحة
والأمان. وبت يوم. بعد أن خلع ثيابها بعناية ودلكها بريت كريتون. يقص عليها بكل قوته
وأرائ نكارتها بصرية واحدة عنيفة. صرحت وبكت لمدة نصف ساعة. حتى خرج من المنزل
وشترى لها الدراجة التي كانت تريد من وقت طويل. واستمرت مواعيد لقائها معه في
حجرته. وسرعان ما اشترك معهما الرجل المعجوز. كانوا يدفعنا لها بقوداً كثيراً. وتحدث
نرجل المعجوز مع أمها عن تنبيه لها. كانت الأم تعرف ما يجري بالطبع. ولكن النقود
كانت أكثر من أن ترفض.

كان اعتراض كليف الوحيد هو أنها تنمق على الملابس أكثر مما ينبغي. كان
حرراً من خياله الجذاب أنها يجب أن تظل مشردة مهلهلة الثياب. وكان قد اعتاد أن ينسج
أمام محلات الثياب المستعملة لكي يشترى لها ثياباً مهلهلة فذرة. وكانت هذه الثياب تصلها
بالتبريد. مع بطافة صغيرة يخبرها فيها أين ستقابلته. وفي أي وقت. كان عليه أن يمثل دور
من يلتقط فتاة من الشارع. وكان عليها أن تتصرف كما لو كانت لم تره من قبل أبداً
وكلما كان في مقدوره. كان يأتي معه بشخص آخر. ثم يقوم بتمثيل مشهد الاعتصاب
العجيب الذي شاهدته بنفسه. سألته إن كان أصداؤه قد قبلوا أن يمتلكوها بناء على
دعونه بينما تكون هي غائبة عن الوعي بشكل واضح. قالت:

"أوه. أجل إنك الثاني. الذي يرفض ذلك".

"فماذا يحدث حينذاك؟"

"لا شك أنك ستدهش تماماً عندما أقول لك بأنهم أحباًناً كانت تبلغ بهم الاستنارة
حداً كبيراً حتى أنهم يستمرون في تبادل المرحلة طوال الليل. فإذا كنت سعيدة الحظ.
منفل الرجلان أحدهما بالآخر وتر كاني وشاني"

"أذن فإن كليف شاذ جنسياً؟"

"أوه. إنه كل شيء".

قلت: "يا رحمة السماء كيف حالك؟ جميل منك ان تصلني".

"أخبرتني روحك بأنك تنزل في فندق شيلبورن اسمع، ما المرض للتاحة لقدمك إلى لندن؟"

"هذا ممكن. ما الذي تفكر فيه؟"

"هذا شيء أطول من ان شرحه في التليفون. ولكنني مسحور اللب تماماً بكل هذه الحكاية عن دونيللي. وأن لدي فكرة عن احتمال قدرتي على مساعدتك هل تعرف ان قصر جلوسي قد بيع؟"

"كلا. لم اعرف بذلك".

"أخشى ان يكون هذا هو ما حدث، منذ عامين. لقد تنبأوا بخطابك. كان أخي الأكبر قد قتل في سويسرا - غرق في حادث قارب. واكتشفنا أن أوضاعنا أكثر تعقيداً مما كنا نظن - ضرائب التركات وما إلى ذلك - مع أننا قررنا ان نبيع قصر جلوسي اشتراه رجل من كندا يدعى ميللر. اعرف ان هناك ادراجاً ضخمة مليئة بالأوراق. وهي ما تزال ملكي بالطبع".

"هل حاولت الاقتراب منها؟"

"أوه. أجل. هذا الرجل ميللر، شخص لطيف تماماً. لو استطعت المجيء إلى لندن لأمكننا ان نذهب معاً إلى هناك".

فكرت بسرعة ثم قلت:

"متى ستكون خالياً من العمل؟"

"أي وقت. إنني لا أعمل الآن".

"لو انني اخذت طائرة إلى لندن اليوم، هل ستكون حاليًا؟"

"أوه. أجل، بالتأكيد. سأسعد لرؤيتك".

أخذت رقم تليفونه. وقلت له انني سأتصل به ناسبة. ونهبت الكالة. اتصلت أولاً بالنظار فعرفت ان طائرة من شركة "بهر لينجوس" ستطير إلى لندن في الثانية عشرة وخمس وثلاثين دقيقة. وأن علي ان أكون في المطار قبل ذلك بثلاث ساعات لكي أحصل على تذكرتي. فاصكنت لهم انني حجزت التذكرة لنفسي. ثم اتصلت بمكتب الفندق ليعيدوا قائمة حسابي. اتصلت بديانا بعد ذلك ولكنني لم أجد غير موبسي التي كانت في رعاية الراه التي تأتي لتنظيف المنزل بينما خرجت ديانا لتصفيف شعرها. قلت لها ان تقول لأمها انني سأسافر إلى لندن وإنني سأتصل بها فيما بعد. ثم اتصلت بالستير جيلبي مرة أخرى. وقلت له انني سأكون في مطار هيثرو في الواحدة وخمس وأربعين دقيقة. كنت في عجلة من أمري. وراح راسي يثقل محملاً. ولكنني اتخذت موقفي النهائي. وصعدت إلى الطائرة قبل خمس دقائق من الإقلاعها. اخلتني سكرة النعاس قليلاً خلال الرحلة. فنامت وعندما صاحوت وجدت الضباب يعلن هبوطنا.

في مبنى المطار أعلن صوت في مكبر الصوت عن اسمي وعن طلبهم لي ان اذهب إلى مكتب شركة "بهر لينجوس" للطيران. ذهبت إلى هناك، فوجدت في انتظارني شاباً طويلاً أشقر الشعر.

"مستر سورم؟ أنا الستير جيلبي".

كان أصغر سناً مما توقعت - لا يكاد يكون قد أنهى عقده الثاني. كان شعره طويلاً. وكان بنطاله "بلوجينز" وسرته للصنوعة من جلد الحمار أبيض ما كنت أتوقع ان أجد عليها. وإن كان في نطاق هذا العمل. كان وسيم الطلعة إلى أقصى حد. وإن كان شعره القصير قليلاً لاستطاع ان يجمع ثروة إذا ما كان قد عمل "موبيلاً" للرجال.

قلت انه لطيف منه ان يقابلني. فقال:

"عفوا. لو أنك لم تات إلى لندن. لجئت أنا إلى بيرلند".

سرنا نحو ميل حتى بلغنا المكان الذي ترك فيه سيارته من طراز "مبني ماينور" في الطريق إلى حيث بأخذني مضهبي. سرد علي بالتفصيل ما كان قد أخبرني به في التليفون. كان أخوه غوردون قد مات في الثامنة والعشرين من عمره. بعد عام واحد من زواجه. وكانا آخر من تبقى من عائلة جيلبي. وأصبح قصر جلوسي ملكية مشتركة بين الستير

وبين زوجة شقيقه، وكان الستير ما يزال يدرس في كلية سانت اندروز. وكانت الضرائب للبروض على الركة ثقيلة، وحينما تمت عملية تصفية حسابات الستير لم يكن قد بقي له إلا القليل بالإضافة إلى قصر جلوسي (رغم أن الستير كان له دخل مستقل ورده عن جنته لأمه). كان قصر جلوسي نادراً مثل هيل ليهي، ولكنه أيضاً كان متهاكاً فقد أكد لهم الوكيل أنه لم يكن يساوي متاعب بهمه، وأن الثمن المحتمل لن يكفي لتغطية الرسوم القانونية للبيع. ومع ذلك فقد قرر هو وزوجة أخيه أن يبيعا. وفي خلال أسابيع قليلة تسلما عرضاً كبيراً إلى درجة لا تصدق من رجل أعمال كندي كان يريد "قلعة اسكتلندية" لكي يستخدمها كمقر له في إجازاته. أبرما الصفقة بسرعة، وقرر الستير أن هذا هو الوقت المناسب لتحقيق أمله في تكوين فرقة للفناء "البوب" فانتقل إلى لندن. ولكن مشروع الفرقة لم يتحقق، فأصبح يعيش بهدوء في هولنديارك ويدرس فن التصوير على أمل أن يصبح مصوراً صحفياً.

سألته كيف أصبح مهتماً بدونيلي.

أظن أنه من الأفضل أن أترك تجيلاً لكي تشرح ذلك. إنها زوجة شقيقي غوردون. وهي تنتظرنا في الشقة.

يجب علي أن أعرف بلاني شعرت بنوع من خيبة الأمل. كان الستير جليبي شاباً لطيفاً يبحث على البهجة بشكل واضح، غير أنه كان من الصعب أن يبدو في صورة تلاءم وبهني عن دونيلي. ولكنني ظننت أنه من الممكن أن تكون لسة ساخرة في مقدمتي لكتاب "مذكرات افاق إيرلندي" إذا أنا ذكرت أن لورد جليبي الحالي مفتي "بوب" هاشل وأنه يطمح في الدخول إلى عالم الصحافة. ولاخ أنه - على الأقل - مهتم بتاريخ أسرته، فقد لخص لي ما حدث لهم في القرن التاسع عشر، وكيف حدث أن تزوج اللورد اسكندر جليبي - جده - واردة امريكية في عام ١٩٠١. فاستعاد بذلك ثروة الأسرة. ولكن والده عاد بهم إلى الفقر بإقامته في لندن واتخاذ نصف "ستة" من العشيقات.

وصلنا إلى شقته في حوالي الثالثة والنصف. كان عصرأ ناعماً ذهبياً، واجتاحني هجاء إحساس بالرخاء وسعادة الحظ وأنا ألق على رصيف الشارع في "هولاندميز" أراقبه وهو يغلق السيارة. وكانت هناك ثقف في النافذة وتنتظر إلينا، وتلوح لنا، فقال لي، "هذه هي تجيلاً".

كانت تجيلاً جليبي "مسكتلندية" جداً بشكل ما، نحيفة، جميلة، حيوية، ذات شعر منموذج في تجعدات صغيرة ووجه محدوب قليلاً. كانت ترتدي ثوباً صوفياً كان ان يبلغ ركبتيهما، وبنطالاً من التيل.

أتود شرب الشاي؟ أم مشروباً آخر؟

قلت إنني أفضل الشاي في هذه الساعة، فذهبا معاً إلى المطبخ ورحت أنظر إلى الكتب على الرفوف وإلى الصور المعلقة على الجدران. كان من الواضح أن الستير قد جاء بكل تلك الكتب من غوردون. فقد كانت هناك مجموعة جيدة من كتب سكوت وجون جالت في طبعاتها الأصلية، ولعدد كبير آخر من الكتاب الإسكتلنديين الذين لم اسمع بهم من قبل. كانت ظهور الأغلفة الخلفية للكتب تحمل اسم هوراس جليبي، ولكن التواريخ للصاحبه للاسم دلتني على أن هذا لابد أن يكون هوراس الابن، منفذ وصية دونيلي.

في ركن رف الكتب رأيت كتاباً يعمل اسم "خطابات من أحد الجبال" تأليف ريموند سميتسون لم يكن على الصفحة الأولى اسم الناشر ولا تاريخ نشره. ولكن أحدهم كتب تاريخ "١٧٨٠" على ورقة ملصقة بالغلاف. كان هناك رسم على الصفحة الأولى - يمثل جبلاً تعلوه شجرة جرداء وظلياً طويل القريين. شعرت هجاء بأن فيه شيئاً مألوفاً لي بصورة غريبة أحسست هجاء بالدوار. وجلست، وأغمضت عيني. بدا لي أن صداعي ما زال مستمرا حينما أغمضت عيني أصبح الدوار عنيفاً كما لو أنني سقطت في دوامة، ففتحت عيني ثانية ونظرت إلى الكتاب. وحينئذ وفي وصوح كامل عرفت ما كان يحدث. كنت "قد أصبحت" أبرز موند مرة أخرى. ولكنني في هذه المرة لم أكن أرى العالم بعيني. وإنما كان الأمر كما لو كنا نقتسم رأسي. فنرى الأشياء بصورة مزدوجة وبمعنيين مختلفين. ولكنني عرفت الآن ناداً كان الكتاب مألوفاً لدي. كنت قد رأيت من قبل، فأدار لدي إحساساً بالنفور. كان شيء منفر غير سار مرتبطاً به.

نظرت في الكتاب، وإلى ما وراءه شاعراً بصدمة مفاجئة. فتح الباب، ودخل منه هوراس جليبي حاملاً صينية: نظر إلي وقال،

أنت بخير؟

اختفت الرؤية للزوج، وتعرفت إلى التكلم وكان الستير جليبي. قلت،

"أجل انني أعاني من صداع خفيف. هذا كل شيء".

نظر إلى الكتاب على حجري.

"أوه، أتعرف ذلك الكتاب؟"

"كلا".

دخلت انجيلا، فقال:

"ليس هذا مدهشاً يا انجي؟ لقد عثر على كتاب "خطابات من أحد الجبال" ألا بنيت

هذا شيئاً ما؟

كانا قد أعدنا بعض الشطائر، فتبينت انني كنت جائعاً. وبينما كنت أتناول الشطائر واحدة بعد الأخرى، اختفت آخر آثار الدمار. كنت قد أصبحت "نفسى" تماماً هذه المرة. واكتمل العلاج بثلاثة أفداح من الشاي الساخن. وفي أثناء الأكل سالتني عن السبب الحقيقي وراء اهتمامهم بأيزموند دونيللي. فبعد موت زوجها، قررت انجيلا أن تكمل دراستها الجامعية التي كانت قد هجرتها لتتزوج. فادرجت اسمها في جامعة أدنبرة، وكان أستاذها هو البروفيسور ديفيد سميللي. كانت ترحمة جيس هوج. وحينما اكتشف سميللي أن انجيلا هي لادي جيليني سر وشارت حميته العلمية. كان يكتب تاريخاً عن مجلة "أدنبرة وبميو" وكان جيليني واحداً من كتابها الأصليين. ولكنه كان قد أبعدها عنها على يد الدكتور جيلبرت ستيوارت، وهو رجل كانت سمته للميزة الأساسية هي الحقد والتصفية. كانت حدة اللهجة سبباً في أن حققت مجلة "الريفيو" نجاحاً قوياً منذ صدور عندها الأول في شهر يونيو عام ١٧٧٢، وكان جيليني قد كتب في العدد مقالاً يقتضياً ممتازاً عن لورد مومبودو. كما كتب عرضاً فيه شيء من الخشونة لكتاب في التاريخ من تأليف الدكتور هنري، وهو واحد من أكثر الكتاب الإسكتلنديين نجاحاً في ذلك الوقت. وأخيراً، وبشكل واضح، بدأ جيليني يشعر. مثل عدد كبير آخر من الناس، بأن كل هذه المرافدة والسحرة لم تكن لتبلغ أي هدف. فكتب إلى ستيوارت خطاباً طويلاً. في أكتوبر ١٧٧٢. موضحاً إحساسه بأن على مجلة "ريفيو" أن تهدف إلى أن تكون أكثر قوة وساءاً. وأنه لا شك في أن كلا من هنري، وروبرتسون وبلاير يتمتعون بقيمة حقيقية، مثلهم في ذلك مثل عدد كبير آخر من الكتاب الذين حفر من شأهم على صفحاتها. وكتب ستيوارت رداً ودياً ومعقولاً، ولكن يبدو

أنه شك في ذلك الوقت من أن جيليني قد وقع تحت تأثير هنري أو بلاير، فكتب خطاباً ذاتياً وصف فيه جيليني بأنه "كاتب حراسة كهنوتي". (وكان هنري (صاهاذا) مسيحياً)

ويمكن أن يعثر القارئ على ملخص لهذه القصة من كتاب إيمراث ديزرائيلي "خصومات اللوميين ومعاركهم". وفي شهر نوفمبر، نشرت مجلة "سكوتس مكاريز" وهي مجلة منافسة، دفاعاً قوياً وذكياً عن هنري وروبرتسون. احتتم بهجوم ماهر مميت صد ستيوارت، وبقتطف ديزرائيلي هذا الدفاع كله. وعلى صفحات مجلة "ريفيو" أكد ستيوارت أن كتاب الهجوم - الذي وقع بحروف "م د" - كان هورس جيليني. وأجاب جيليني بحطاب على الفور، يقول فيه لستيوارت أنه بينما يوفق على كل ما جاء في الهجوم، فإن كتابه الحقيقي كان صديق أيزموند دونيللي. وكانت نتيجة هذا الخطاب نقداً عنيفاً لكتاب دونيللي "ملاحظات عامر في فرنسا وسويسرا" في عدد فبراير من مجلة ستيوارت ويقول ديزرائيلي أن جيليني أراد أن يتحدى ستيوارت بما يمتلكه من أدوات، ولكن دونيللي منعه من ذلك ونشط من عزيمته.

استمرت المعركة، حتى بعد أن نهارت مجلة ستيوارت. ذهب ستيوارت إلى لندن وسأهم بانتظام في الكتابة لمجلة "جنتلمان مكاريز". وفي هذه المجلة، وفي يونيو عام ١٧٨١ تحديداً، حدث أن ظهر عرض قصير وإن كان فيه شيء من سوء النية المقصود لكتاب "خطابات من أحد الجبال" وصف فيه الكتاب بأنه: "أخثرة عقل مختل بسبب الشهوات الرهيضة والحماس الهونتي. وفي العدد التالي من المجلة، أعلن أن مؤلف كتاب "خطابات من أجل الجبال" كان في الحقيقة هورس جيليني.

مات ستيوارت بعد ذلك بخمس سنوات. في سن الرابعة والأربعين، ملئاً بالمرارة، يمور صدره بالكرهية، مقتنعاً بأن أعداءه قد تأمروا لكي يحطموه.

كانت هذه في القصة التي سردها علي انجيلا جيليني. وكان من الممكن أن تثيرني أكثر مما فعلت بالفعل لو انني كنت أقل تعاضاً في كل مرة ذكرت فيها اسم هورس جيليني. فكنت أنظر إلى السطر جيليني. ولتعجب إن كان حقاً يشبه جده كل هذا الشبه الذي حبلى إلي. فإذا تحققت من ذلك، لحصلت على برهان بنيت أنني كنت على اتصال نفسي (أو روحي) بأيزموند. وحينما انتهت من كتابتها، سألت إن كان هناك صورة لهورس جيليني في جلوسي.

"أوه، أجل".

"كيف يبدو؟"

نظر أحدهما إلى الآخر وضحكا قالت أنجيلا

"إنه يشبه أستير إلى حد مذهل. وهذا هو السبب الذي يجعله مهماً به إلى هذه

الدرجة؟"

وبذلك لم يكن هناك أي احتمال للشك. وبدلاً من أن أحس بالاستنارة لهذا الكشف، شعرت بالانقباض.

التقطت كتاب "خطابات من أحد الجبال" وقلت:

"ما موضوع هذا الكتاب؟"

"أوه، إنه عمل معقد متشابك يظن دكتور سمبلي أنه متأثر بكتاب "الواطن العالي" الذي كتبه غولد سميت إنه في الحقيقة قريب الشبه بالروايات الفوطية - أقرب نسخاً برواية "قلعة أوترانتو" التي كتبها والبول إنه كتاب مذهل حقاً بالنسبة لعصره - حينما تصعب في اعتباره أن مسز رادكليف وماتهورين لم يكونا قد شرعا في الكتابة بعد".

"أيمكنك أن تسردني علي ملخصاً لقصة الكتاب؟"

"القصة تدور حول صليقين اسم الأول كونيارد والآخر رودلفو. إنهما يشبهان داود وجوناثان في الكتاب المقدس. حينما يقعان في حب نفس الفتاة، يحاول كل منهما إقناعها بأن تقبل الآخر. يذهبان إلى الجامعة معاً ويقسمان علي الصداقة الأبدية وأحوة الدم. أنت تعرف مثل هذه الشاعرة. - ذات يوم، بينما كان رودلفو واقفاً في إحدى المكتبات، يقترّب منه مراكشي غامض يدعى عبدالله صباح. يعرض عليه أن يقرأ له طالعاه. يقول له أن من القدر له أن يكون واحداً من حكام العالم، ثم يدعو للمجيء إلى بيته ويذهب رودلفو - رغم تحذيرات كونيارد - فيقع في حب فتاة تدعى نوري - من المفترض أنها ابنة عبدالله صباح..."

عند هذا، فاطمها أستير قائلاً: "من المؤكد أنه لا يريد أن يسمع كل كلمة جاءت في هذا الكتاب".

أصكت له أنني أريد هذا استمرت أنجيلا في سردها بشرتك المراكشي رودلفو في احتمالات طقوس سحرية تنصهر سكرة من الملور. يقعان في أثنائها فوق قمة برج مرتفع تحت ضوء القمر للكمال وبمطر رودلفو إلى الكرة البلورية يرى فيها تعباناً ضخماً يمتطر إليه بعينيه الصفراوين. ثم يبدو أنه يسقط عليه وتسقط نوري رودلفو من السقوط من فوق البرج. ومن ثم تصبح عشيقته وتعدّه بأنها ستزوجه إذ وافقت أسرته على ذلك. وتعترف له بأن عبدالله ليس والدها. وأن العملية كلها مؤامرة الهدف منها ضم رودلفو إلى جمعية سرية فرعية تخطط لتدمير أوروبا

وفي اليوم التالي يكتشف أن نوري و"سأها" قد رحلا بملئهما اليد ويبحث عنهما في كل مكان. وذات يوم، وفي كنيسة قديمة يرى تمثالاً للنعمان صحن مصبوب من البرونز فينشره بعدد قليل من الكرويات ثم يكتب كتاباً في ألب الرحلات، يصف فيه الأماكن التي زارها في أثناء بحثه عن نوري، ويطلع على الغلاف صورة النعمان وبعد بضعة أسابيع يتلقى رودلفو مطروفاً مغلفاً يحتوي على رسم للنعمان، وأمر بأن يحرق كل نسخ كتابه ويسفد رودلفو الأمر بأن يشعل النار في مخزن باشره في لندن. ويموت عدد من الناس في الحريق، الذي انتشر حتى اشتعل في المنازل المجاورة. وحينما يتم ذلك، يتصل به المراكشي مرة أخرى، فيصبح في مقبوره أن يرى حبيبته وسيدة أحلامه وبذلك يصبح عضواً ضخماً في الجمعية الشريرة المعروفة باسم "أمر النعمان". ويشعر أعضاء الجمعية بأن لنوري تأثيراً سيئاً أو بالأحرى طيباً - عليه، هيأمرونها بالابتعاد عنه ولكنها ترفض فيقتلونها ولا مكان رودلفو قد أصبح حاصصاً تماماً لأوامر النعمان فإنه يقبل بدلاً منها عشيقه الجديدة تدعى فاتيما، وهي الأخرى ساحرة...

قد يكون من الممل أن نلخص بقية القصة المضطربة والمبلودرامية. ولا يمكن أن يكون ثمة شك في أنها تدلّ بالكنيز لرواية "قلعة أوترانتو" وأنها بدورها قد أثرت في كتابات مسز رادكليف وماتهورين. إن رودلفو يقع فريسة الإغراء بالقيام بأعمال أكثر شراً باستمرار، على الرغم من محاولات كونيارد لإنقاذ حياته. وأخيراً يؤمر بأن يقتل كونيارد، ولكن هذا كان أكثر مما يحتمل. إن الرابطة التي تربطهما والتي تشبه علاقة داود وجوناثان قوية إلى درجة كبيرة رغم تعاقب السنين. وفي اللحظة الأخيرة يرمي رودلفو بالخنجر ويتعاقق هو وكونيارد. ويمتلك الياس رودلفو بسبب أعماله الشريرة، فيقرر أن الذهاب إلى جبل اشوس

عني بطلبها المغفرة. وفي المرحلة الأخيرة من رحلتهما. يستبفظ رودلفو في الليل على صوت
بورى لبنة. هيمشي في أثر الصوت الذي سمعه. ولكنه يسقط من فوق قمة الصخرة. وحينما
يعثر على جنته. يكون الوجه قد تشوه تشوهات قذيمة حتى أن رهبان جبل أتوس رفضوا
نفسه في أرضهم المقدسة. معلنين أنه من الواضح أن هذه جنة شيطان. ويقوم ككونراد بنفسه
نفيه في وسط منطقة جرداء. ثم يذهب إلى جبل أتوس. حيث يكتب قصته على شكل
خطابات إلى القسيس الكاهن الذي يتلقى اعترافاته

بينما كانت أنجيلا جليبي تلخص حبكة الرواية. احتفى ما كنت أشعر به من
تعب. عرفت في تلك اللحظة أن بعني عن دويللي قد دخل مرحلة حجرة. إن أكثر أجزاء
من الخطوط المتشابهة أهمية قد كشف عن مكانه الصحيح. كنت أعرف أن إيرموند كان
قد تلقى - في الحقيقة - رسم العنقاء بعد طبع كتابه "ملاحظات" عام ١٧٧١ بوقت قصير.
وكنيت أعرف أن الطبعة كلها كانت قد دمرت في حريق أتى على مخزن الناشر في لندن.
والآن كان من المستحيل أن أشك في أن إيرموند قد تلقى رسالة اتصال من جانب جماعة
العنقاء في عام ١٧٧١. إلا أنه في ذات الوقت. لا يمكن النظر إلى بقية القصة بجدية. فإن إيرموند
لم يشترك في أية خطط شريفة بعد ذلك التاريخ. وظل هو وجليبي على صلة ودية وثيقة بعد
ذلك طوال سنوات. والمقالة المنشورة في مجلة "سكوتس مكارين" في عام ١٧٧٤. قد كشفت عن
أنه كان ما يزال قارئاً مخلصاً لكتب الصلوات. ولم يحدث أن كتب جليبي رونية "خطابات
من أحد الجبال" إلا بعد ذلك بعشر سنوات.

إنني مدمن بهذا المفتاح الرئيسي لكل من الستير وأنجيلا جليبي. ولذلك. فقد كان من
الواضح أنني أدبني لهما بحكاية القصة الكاملة لبحوثي الخاصة. وهكذا. فعندما سألتني أنجيلا:
"والآن. ما الذي اكتشفته عن إيرموند دونيللي؟" أفرحت أن تشرب كأساً من الويسكي. ثم
سررت عليهما القصة الكاملة. بالصورة التي كتبتها بها هنا. استغرقت عملية السرد ثلاث
ساعات. وانتهت منها في مطعم في نوتنغهام هيل ونحن نتناول طعام العشاء. كنت أحمل
معني مذكرات إيرموند. بالإضافة إلى خطابات جليبي. كنت سعيداً بهما لأنه كانت هناك
أوقات لاح لي الأمر كله سحياً لدرجة أنه كان من بواعث الراحة أن أضع نفسي بأنه له
بكر حلماً متشابك الأطراف انتاني وأنا غارق في النوم. أصغت أنجيلا دون أن تنبس ببنت
شفاة. ولم تصرف عينيها عن وجهي طول الوقت. وظل الستير يردد. "يا إلهي" وهو يتمشى في

الغرفة حينة ودهاباً. وبينما كنا نسير متجهين إلى المطعم. قال: "هل تعرف أن هذا هو أكثر
اكتشاف أدبي منذ اكتشاف أوراق البحر الميت؟". وكان فكاهياً فقد شرعت أنا وأنجيلا
على الفور في الضحك.

ولكنهما لم يشارا حقاً إلا حينما أخبرتنيما بأن إيرموند كان قد أعيد إليه هوراس
جليبي منفذاً لوصيته الأدبية ومتصرفاً في تراثه الأدبي. كانا بأملان في العثور على بعض ما
تركه جليبي من مواد في جلوسي. فأصبح من الممكن الآن أن يعثر أيضاً على بعض من أوراق
ايرموند هناك. وأشارت أنجيلا إلى أنه من الممكن أن يعتبر الستير منفذاً لوصية إيرموند
الأدبية ومتصرفاً في تراثه الأدبي طالما أنه حفيد مباشر لهوراس جليبي الابن. ولم يكن هناك
من بقي على قيد الحياة من أسرة استون. وهذا يعني أنه إذا نشر المزيد من أوراق ايرموند فإن
الستير وأنجيلا يمكن أن يشتركا في الأرباح. وكنت قد حصلت بالفعل على أكثر مما يكفي
لطبعتي الخاصة من كتاب "مذكرات افاق إيرلندي".

جلسنا حتى الثانية من صباح اليوم التالي نتبادل الحديث عن إيرموند وهوراس
جليبي. وكان ندمهما الرئيسي بالطبع صادراً من أن أحداً منهما لم يهتم بحياة جليبي قبل
بيع قصر جلوسي. وتذكرت أنجيلا أن زوجها كان قد أطلعها على حجرة في قصر جلوسي
حيث وقعت في الماضي جريمة قتل - إذ عثر على رجل ميتاً في ظروف غامضة. وظن الستير
أنه يتذكر شيئاً من هذا النوع هو الآخر. ولكننا حين وصفت الحجرة. لم تكن هي التي
تذكرها الستير باعتبارها "حجرة القتل".

نمت ليلتي على أريكة في حجرة الجلوس. وكانت أنجيلا تحتل السرير الموجود في
حجرة الضيوف. وكان الستير يريد أن يرحل إلى اسكتلندا في صباح اليوم التالي. ولكن أنجيلا
قالت أنه ما يزال عليها أن تقوم ببعض البحوث في مكتبة المتحف. وقررت أنا أنه من المناسب
لي أن أذهب معها. قضيت الصباح هناك. وعثرت على نسخة من نشرة "مارتل وسميشسون"
التي كتبها عن جماعة العنقاء. شعر تيم موريسون بالحرج حينما اشترت له إليها. وقال أنه
لم يلتفت إليها في بحثه لأن عنوانها كان "جمعية العنقاء" ولكن أثارني بينها وبين النسخة
التي رأيتها معه من قبل. طلبت منه أن يصورها لي لكي أحمل الصورة معي.

تناولت أنا وأنجيلا طعام الغداء في مطعم يوناني بالقرب من سيرك كامبريدج. فلت
لها فجأة أنه كان عطفاً من جانبهم أن ينقوا بي كل هذه الثقة فنحن على أي حال.

منافسون من الناحية التكنيكية. فقد كان من المحتمل أن يقوموا - عاجلاً أو آجلاً -
والأكثر احتمالاً أن يكون ذلك عاجلاً - بالبحث عن أوراق جلبني في قصر جلوسي. وأن
الاكتشاف في تلك الحالة - إذا افترضنا أنهما حققا أي نوع من الاكتشافات - كان سيمر
ببهما بشكل كامل. قالت:

"كلا. إني سعيدة بانضمامك إلينا. إنما نثق بك".

قلت لها شكراً لك. قالت:

"في الحقيقة، إني مبتهجة لجيتك. أتعرف أن أستير كان بعيد أخاه غوردون. وكان
أستير هو الذي ألتقيته بالزواج من غوردون في الحقيقة. كان مصراً على التحدث عن
قصائله والإسراف في إبرازها لكي يقنعني بأن ألتقي به.

وينبغي أن تعرف أنني كنت صليقة أستير في البداية".

"كم يجرحه زواجك من غوردون؟"

"أوه. كلا. لقد ابتهج بذلك. اتفهم ذلك؟ هذا الزواج قريب من غوردون أكثر - كان
معنى هذا أنه قد منح لغوردون شيئاً ذا أهمية حقيقية. على أي حال، إنما أردت أن أقول لك
في البداية أنني أظن أنه مال إلى أن ينظر إليك بنفس الطريقة التي كان ينظر بها إلى
غوردون".

"ولكنه لم يمررني إلا منذ أربع وعشرين ساعة".

"لا يؤدي هذا إلى أي فرق. والشيء الغريب هو أنك على شيء من التشابه مع غوردون.
من الناحية الجسدية".

توقفت عن الكلام، وظننت أن وجهها علاه شيء من الاحمرار. شربت جرعة كبيرة
من الجعة اللينة لكي تغطي احمرار وجهها. أدركت ما كانت تفكر فيه. وهو أنه إذا كان
أستير قد أهداها إلى غوردون، فإنني يجب أن أعتبر صاحب المكان التالي من بعده. عيرنا
الوصوع وتحدثنا عن دونهيلي. وحينذاك تذكرت شيئاً كنت قد نسيت ذكره من قبل.

الخطاب الذي جاءني من كلاوس ديكمان. كتبت أحمل عنوانه ورهف تليفونه في كراسة
العناوين التي أحملها. قالت:

"لماذا لا تتصل به؟ قد يكون على شيء من الأهمية؟"

"أعتقد أنه يجب على ذلك".

ذهبت إلى تليفون الصنم. أجبني امرأة ذات لكمة أجسية، ولاح على صوتها شيء من
العداء حتى ذكرت لها اسمي. فأصبحت ودية للعانية، وقدمت نفسها باسم إيليزا ديكمان.
وشرعت تتحدث بإسهاب عن صفتي وأحيا جاء زوجها لكي يكلمني بالتليفون؟ سألني إن
كان موسي أن أزورهما وأتأول معهما طعام العدا. قلت أنني سأتى إليهما في الموعد المحدد
ولكنني سألت إن كان موسي أن أذهب في وقت متأخر من عصر اليوم. فاتفقنا على موعد في
الساعة الرابعة.

لم أكن سعيداً سعادة كاملة بهذا التطور. وبدأ لي أنه لن يؤدي إلا إلى طريق مسدود
ولكن أجبلاً قالت: "جيد جداً، إنه يبدو على شيء من الأهمية. ابرحك أن أتى معك؟"

أمضينا ساعة أخرى في المتحف. ولما كان عصر اليوم ذهبنا ومشينا فقد قررنا أن
نتمشى حتى هامبستيد. سرنا عبر حدائق بلو مزيري على طول كامدين تاون. ثم أخذنا
مباردة عامة إلى بلزي بارك. كان عنوان أسرة ديكمان في كيتس حروف.

فتح الباب فظهر وراءه رجل طويل نحيل يرتدي نظارة سمكة خذا جعلت عينيه
تبدو كأنه يهينين وغريبتين. مثل أخطبوط ينظر من وراء حوض زجاجي كبير. بدت عليه
دهشة ضئيلة حين رأى أنجبلاً. دعانا للدخول بطريقة مهذبة. تبعناه عبر ممر طويل حتى
قاعة عمل (أستديو) تسطع بنور الشمس. كانت الأرضية مغطاة بتراب الأحجار المنحوتة.
وكانت هناك تماثيل هائلة الحجم لمساء أماروبيات ذوات ائداء وأرداف هائلة. تقدمت إلينا
لتحينا امرأة ضخمة الحجم رمادية الشعر بعد أن وصفت على أئاندة مطرقتها وأرميلها
صافحتني بحماسة بقبضة مثل قبضة مصارع. ونومأت في لا مبالاة ميكانيكية إلى أنجبلاً
كانت أكل طولة من زوجها. إلا أنها كانت تملك سبة مصارع حقيقي. وبدأ أن دراعها
انكسوفتين تحت الكمين للشمريين إلى ما فوق المرفقين. فادرتنا على الإصاحة بأي واحد منا

بضربة واحدة. كانت لكنتها الألمانية أوضح من لكنته روحها، ولكنني لن أحاول إبرازها هنا. ولن أحاول إبراز تكوينات حملها لغريبة وضعت بدأً على مكنتي وقالت:

"حسناً، لقد كنت أنتظر ناهضة الصبح تماماً. فبعد أن قرأت كتابك "اليوميات حسية" أردت أن أقابلك هل لك أن تأتي معي قليلاً إلى حجرتي الصغيرة الخاصة". ثم التفتت إلى انجيلاً وبنسبت وقالت: "تسمحين؟ أريد أن نتحدث إليه على أفراد. كلاوس سهرحك على الحقيقة".

كانت دهشة انجيلاً أقوى من أن تسمح لها بالاعتراض. أما السيدة بنكلمان فقد حدثت دراعي بمقبضة من حديد، ونفعتني لصعود بضع درجات. التفت عيناى بعيني انجيلاً للحظة. فرفعت حاحبيها وعصت على شفتها السفلى.

قادتني أنا - اسمها الأول أصرت علي أن تدعوها به على ثمور - إلى عرفة صغيرة مريحة كانت تصوح منها رائحة التبغ في الحرارة الحامضية المفتوحة. كانت هناك ثلاث رجايات سعة كل منها "غالون" تحتوي بالنمالي على مشروبات الجن والوبسكي والبرندي عرصت علي أن أخذ كاساً. ولكنني قلت أن الوقت مبكر جداً على الشرب. صبت لنمساها كاساً ضخمة من الجي، ثم ملأته حتى الحافة عصير الليمون الحامض. نه انسلت سباحة وصعنتها في "ميسم" للتدخين لا يقبل ضوئه عن قدم، وانقت نفسها على مقعد مريح ذو مسدين وقد صالبت ساقبها. وفي نفس الوقت، شعرت بالقلق وعدم الراحة لقدرتي على رؤيتها تفعل الكثير من الأشياء، ورؤية جزء كبير من حسنها في مثل هذه اللحظة الحاطمة والبطرة القصيرة، ذلك أن الأزارار القصير للصنوع من صوف النويد لم يكن يبلغ الطرف العلوي لجوربها الطويل إلا بصعوبة وهي واقفة أشارت إلي للجلوس على المقعد المقابل لها الذي له يترك لي فرصة سوى النظر إليها وتاملها.

٣٠. حل. إنك تتمتع بقدرة على النقاد أكثر جداً مما يسمح به لشاب صغير. كم عمرك؟ حقاً؟ إنك تبدو أصغر بكثير. حينما قرأت كتابك قلت لكلاوس! ٣٥. لشد ما اسف لأنه لا يعيش في لندن. هناك الكثير الذي نستطيع أن نعلمه إياه. وهالت الآن هنا لمدة يوم واحد! يا له من أمر شنيع! ماذا يمكنك أن تفعله في يوم واحد؟

قالت لي أن كل مكنتي تشهد بانني أملك قدرأ كبيراً من الذكاء. والحدس العظيم. ولكن التجربة هي ما ينقصني. "يجب ألا تشعر بالعبء إذا قلت لك أنك غير واضح في جوانب كثيرة". قلت ليني لست غاصياً حينئذ، ودون أن تكلف نفسها مشقة تفسير تحول مجرى الحديث، بدلت تتحدث عن مؤهلاتها الخاصة التي تسمح لها بتعليق الشباب. كان المفروض أن أصبح مدرسة مثل أمي. ولكنني لا أملك صراً مع الأعداد الكبيرة من الطلبة. إن ما أرغب فيه هو لثنان أو ثلاثة من التلاميذ النحما. ليني حلاقة مبدعة. اتفهمة لاند ليدي من تشكيل الحجر والطين، ولابد لعقلي من تشكيل الأرواح".

نظرت في عيني بطريقة نفاذة وقالت: "والآن أريد أن أسألك سؤالاً صريحاً. حينما تمارس الجنس مع امرأة ما، هل تستطيع أن تسيطر على ذروة نشوتك فلا تبلغها إلا بعد أن تعطيها كل ما تحتاج إليه من متعة؟"

فكرت في ديانا، ثم قلت ليني اضن انني افعل هذا

٣١. "كلا. كلا. ليس هذا ما أردت سماعه. بما أردت إجابة مخلصه صريحة. يجب أن تفكر في اعتباري طبيببة - كما لو كنت طبيبتك النفسية..."

أخذت حرة طويلة من الجن، وملت يديها لتأخذ سباحة جديدة. وفكت تصالب ساقبها. كان من الصعب أن احتفظ بعيني مركزتين على وجهها صرقت نظرها عني لحظة، ثم رمقتني بنظرة سريعة، وكان من الواضح أنها تأمل أن "تضبطني" وأنا اتفحص حسنها، ثم أقلت برأسها إلى الوراء فاستندته على وسادة للقعد، وأصبح وجهها مصوباً إلى السقف. وأغمضت عينيها. تساءلت إن كان في هذا الوضع نوع من الاختبار. كانت ترتدي سروالاً داخلياً ربما كان مصنوعاً من السيلوفان القرمير، وكانت تواجهني بقدميها اللتين رهنهما على وسادة جلدية عن الأرض، وقد انفرج ما بين ركبتيها... وكانت مؤخرتها وساقها جميلة. لكن الذراعين القويتين والكتفين العريضتين والشعر الرمادي. جعلتها تبدو كما لو كانت وحشاً أسطورياً، نصفه الأعلى من جنس يختلف عن نصفه السفلي. نظرت عامداً إلى ناحية للنهاة الخالية، وركزت نظري هناك. كانت تقول:

٣٢. أحس أنك شخص بالغ الخجل يحاول أن يخفي تلك الحقيقة. في هذا أنت تشبه كلاوس إلى حد ما. إن كلاوس هو ابني بالطبع.

"ملك؟" صدمتني الدهشة سماعي ذلك

- "كيس حرقياً أعني أن علاقتنا هي علاقة أم بابنها إني الطرف الحلاق في العلاقة الأرض الأم مثل "أردا" عند فاكسر. علاقتنا قوية جداً إني مدرسته لو أنك سألته لقال لك إنه قد أصبح شخصاً مختلفاً منذ أن عرفني أكثر عمقا وأكثر حساسية إني أملك تلك القدرة على نقل مواهبني إلى أولئك الذين أحبه. وحينما أقول "الحب" أعني بالطبع حب لدرسة للتلميذ، لأنه ليس هناك ما هو أعمق من هذا الحب "

كنت لقي عليها مطردة سريعة من حين إلى آخر، لكيكتشف أنها قد عرفت في مقعدها أكثر، حتى أنها كانت تجلس في وضع الجماع على الظهر ولكنها ظلت تتحدث دون علامة تدل على الحرج كما لو كانت تقف في مواجهة صف من التلاميذ تناقش رسماً توصيها على الملوحة. لاح لي أن ما كانت تسأل عنه - بطريقة معقدة وملتبسة - هو ما إذا كنت أود أن أنصه إلى ككلوس كوك. حد من تلامذتها، لكي أمتص بركان معرفتها وموهبتها الحلاقة. كانت تشرح لي الفرق بين دهر الآنني وذهي الذكر ودكانهما، حينما سمعنا طريقة رفيقة على الباب تحايلتها واستمرت في الكلام توفعت منها أن تصم سافيتها، أو أن تعتنق قليلاً في جلسنها على الأفل، ولكنها ظلت في وضعها دون حركة على الإطلاق. أطل ككلوس من الباب ليططر إلى الداخل

"هل ستأتين إلى الطابق الأسفل يا شار؟"

"بعد لحظة"

كان مسطر سافيتها المنفرحتين من المكان الذي يطر هو منه أقل قرباً إلى عيني. فقد كان بوسعي أن انحنى إلى الأمام فادس إصبعاً. ولكنه كان يستطيع أن يستوعب هذا المنظر كاملاً. لم تلج عليه الدهشة. قال:

"ربما أرايت السيدة الشابة أن تتناول ككاساً هي الأخرى. وهذه الحجرة صغيرة جداً. حينئذ سمعت خطوات "السيدة الشابة" وهي تصعد الدرجات. كان علي أن أعجب بتوقيتها المناسب. للحظة، ظننت أنها كان تعني أن تظل ساكنة في وضعها لكي تسمح لأنجيلا بالانصمام إلى المتفرجين. ولكن قبل وصول خطواتها إلى الباب بنواً قليلة، تناهت، وضمت سافيتها واعتذلت جالسة وقالت:

"إذن، فلندهب"

وتجهت إلى الباب، وناولت ككلوس ضربة مداعبة ولكنها فاسية على مؤخرته. وأشارت إلي وهبطنا إلى الطابق الأسفل في "طابور" واحد حينما وقعت عيناها على نجيلة فطبت تقطيع خفيفة كما لو كانت تجد صعوبة في تذكر من تكون. ثم لاح شيء تغير من استطاع أخيراً أن يتذكر وهو يقول لنفسه المنع!

دھينا إلى حجرة أكثر وأوسع أثاثها أكثر طبيعية فلبت ككاساً صغيرة من الشراب وكذلك فعلت أنجيلا. ولدهشني أصبحت السيدة بكلمات الآن وبعدها حداً مع أنجيلا ورده كان ذلك لأن أنجيلا قالت لها ثم تقنني إلا بالأمس فقط. سألتها كم من كنتي قرأت وحينما كنت تحتضمت أن الإجابة كانت إلا أصاد أكون قرأت له شيئاً على الإطلاق. شراب إنيها بساباتها الهمى وقالت، "عليك أن تبدئي قرأتها على الفور" وبذلك كانت أنجيلا قد لقيت القبول في القطيع بوصفها تلميذة، وسمعت محاضرة عن القدرة على الإبداع والخلق جلس ككلوس في أحد الأركان. وهو يرشف ماء الصودا ("ليس من المسموح له أن يشرب فالشراب يجعله مسرف العاطفية") ودون أن يبذل أية محاولة للتدخل في الحديث وحينما توفعت أيا عن الكلام لكي تأخذ ككاساً آخر طلبت منه أن يقص علي شيئاً عن كورير فال سرعة

"إني لا أنصحك بأن تهتم به أو تنزعج بشأنه. إنه "شارلتان" مهرج حتى "المنع"

قالت زوجته: "ليس هذا القول عادلاً تماماً. إني أوافق على أنه قد أصبح مهرجاً ولكنه لم يكن كذلك دائماً". ثم وجهت كلامها إلي: "هل تعرف شيئاً عن رايخ؟"

"ليس الكثير"

"كان علاماً سيكولوجياً عظيماً - في مثل عظمة فرويد. وقد امن بأن الطريق الوحيد الفردي إلى خلق مجتمع صحي هو الحصول على أناس لا يمانون من أي مكتب جسي"

"هذا يماثل ما جاء به فرويد"

• بالتاكيد، إن افكاري الأساسية تشبه تلك التي جاء بها فرويد إلى حد كبير، خاصة مساهمته العلمية العظيمة في مجال معالجة الأمراض العصبية، لقد أمر بأن أنواع كنت تشكل نوعاً من الصلابة أو المرونة الصلبة فوق الشخصية، مثل السلحفاة. أتعرّفها؟
لوت وجهه النواءة شبيحة ورسمت ببيديها حركة تشير إلى الشرع التي تحملها
السلحفاة. أشارت إلى زوجها وقالت:

• حينما التقيت به أول مرة كان وجهه يشبه القناع . وكانت كل عضلاته متوترة
مبلودة . كان من الضروري أن أعلمه كيف يسترخي استرخاء كاملاً وأن يحب أعضائه
الإنسانية

حملت انجلاً لسماعها التعبير الغريب، سألتها بحذر

• "بأي شكل؟"

• "بأي شكل؟"

• "أن يكون صريحاً وواضحاً في كل ما يتعلق بوظائفه الجنسية . كان من عاداتنا في
ستوكهولم أن نعقد اجتماعات للعلاج النفسي الجماعي . كان علينا أن نحلس دور أي
سلطات أو شباب، وندير مناقشة فيما بيننا، نشرب القهوة، ويشجع الرجال على أن يلعبوا
بعضائهم التناسلية . تماماً مثل الأطفال . كان هذا رائعاً"

قال كلاوس بوفار:

• "تعودت أن تأتي فتجلس إلى جوارى، نه تحلد لي عميرة بينما نحن ساقطين
مشاكلنا . كان في هذا تخفيف عظيم لكل التوترات . أن أعلم أن أحجل من اللعب بالأعضاء
الإنسانية حينما كنت صغيراً، كان من عادة مربيتي أن تصريني إذا لمست عضوي . وقد
علمي رايخ أن العضو التناسلي ليس سوى أداة للتواصل الاجتماعي . تماماً مثل اللسان أو
اليدين"

نعد صرخنا لكل هذه المقاطعة، فصررت ذراع المفعدة بقبضتها وقالت:

• "تو فهم الناس بطريقت رايخ فهمنا صحيحا، لكنت الحرب الأخيرة مستحيلة لقد
استخدم هتلر لكنت الجنسي كسلاح سياسي . إن الإنسان هم أكثر الأمم كسفا في العالم
وهذا هو السبب في عدوانيتهم الشديدة"

سألتها، "وماذا من أمر كورنر؟ إلى أين وصل؟"

• "إنه هو الذي نظم جماعات العلاج النفسي في ستوكهولم . إنه هو منكر فكرة لكنت
الجنسي الجماعي وليس رايخ . كان رايخ ما يزال تلميذ نجيباً صغيراً أنت تعرف هذا النوع
وفي ذلك الوقت كان ما يزال مصرراً على تلك الأفكار الجسدية حول الطاقة الجنسية
العضوية، فائلاً أنها زرقاء اللون . وقال إن الطاقة العضوية الأصلية هي التي تجعل الأسد
زرقاء"

قال كلاوس بكابة،

• "في هذا الوقت، أمنا بأن كورنر وحده هو الذي يحفظ التعاليم الحقة في بقائه
الأصلي ولذلك فإنه حينما جاء إلى لندن، جئنا معه"

• "و هل مصبتهم في عقد اجتماعاتكم للتعبير الجنسي الدني؟"

• "أجل، أكثر من ذي قبل . وكانت هذه هي المشكلة . كان رايخ قد حذرنا من
أننا إذا لم ننتبه بما فيه الكفاية، فإن هذه الاجتماعات لن تظل ذات قيمة علاجية، فنتحول
إلى احتفالات جنسية صاخبة ولكن كورنر لم يلق أننا صاغية لهذا التحذير . كانت
تسيطر عليه فكرة معينة مؤداها أن يظهر الدافع الجنسي كان هذا هو تعبيره عن فكرته
قال أن الجنس يجب أن يتخلص من كل حجل . وعلى أي حال، فإن أكثر الحساسين من
الناس مصابون بالحجل الاجتماعي . فإذا كان عليهم أن ينفقوا على منصة مرتفعة وأن
يخطبوا في جمهور محتشد، يصابون بما يسمى "الخوف من المنصة" . إلا أنهم بسهولة
يستطيعون التغلب على هذا الخوف، وحينما يتعلون عليه يعمرون عن أنفسهم بحرية، دون
خوف . لقد أراد كورنر أن يتغلب الناس على خوفهم الجنسي من المنصة"

كان فائلا هذا الكلام هو كلاوس . كانت أكبريته أكثر صلافة بكثير من
بكلبرية روحته . كانت انجيلا تقطب حاحبيها قالت

"ونكس ألا يكون من نتيجة الحرية الجنسية الرائدة كثيراً عن الحاجة تدمير كل ما فيه من متعة؟"

"كلا!" كذلك صاحبا في لحظة واحدة. استكت أنا روجها ببطر صارمة، ثم استمرت تقول في تصميم.

"بالعكس، إن الخجل الشديد الذي يملك الناس هو الذي يمنعهم من أن يتعلموا كيفية الاستمتاع بالجنس، برأيك ماذا شكل هذه حوادث الاعتصاب وجرائم القتل الجنسية؟ لأن هناك جذراً سميكة بين الجنس. يركب رجل سيارة عامة، وتكون هناك فتاة جميلة، فيصبح مثل النعلب مع الدجاجة. إنه لا يعتصمها لأنه ليست هناك فرصة لذلك، وربما كان خائفاً من القانون. هذه ليست علاقة طبيعية بين الجنس. المجتمع مثله حائض جنسياً في مجتمع صحي، يستطيع أن يحل إلى جوارها، وأن يقنعها بأن تحل له عميرة. دون أن يولي أي إسان للأمر أية اهتمام لم لا أنت - "انطلق بصيغها فجأة نحو أنجيلا، التي كانت تجلس منعنية إلى الأمام وقد وضعت معصمها على ركبتها "لماذا تجلسين في هذا الوضع؟ لأنك تظلمين أنه وضع طبيعي ولكنه ليس كذلك. إنك ترتدي "ثورة" قصيرة لأنك تظلمين أنها جذابة. لماذا لا تمتحج ركبتك في جسارة؟"

استسكت أنجيلا وقد تراجعت قليلاً إلى الخلف، وحاولت أن تحول الأمر إلى نكتة وفانت:

"إذا فعلت هذا فإنني قد اغتصب"

"كلا ليس هذا منطقياً! لماذا ترتدي النساء "ثورات" قصيرة؟ لكي يثرر اهتمام الرجال. إنك تلعبين مباراة مع نفسك لكي تنطري إلى أي حد يمكنك أن ترفعي "ثورتك" إلى أعلى ألا تريين ما يعنيه هذا؟ إنك تريدن استعراض أعصائك التناسلية. ولكنك خائفة. إنك تريدن أن تجعل الرجال يحدقون فيك، وتكونك حائفة من الاعتصاب ليس هذا دليلاً على أن ثمة خطأ في مكان ما؟"

بشكل تلقائي أمسكت أنجيلا ببطرف "ثورتها" وحذمته إلى أسفل. أكملت الأخرى تقول.

"أترين؟ ماذا ترتدينها إذا كنت تريدن أن تترليها إلى أسفل؟ لماذا لا تجلسين هكذا؟"

نحست في مقعدها إلى الوراء، وفتحت ركبتها، حتى استطاعت أنجيلا أن ترى نفس النظر الذي كانت قد رأيته في الحجرة الصغيرة الخاصة بالطابق العلوي. غضت أنجيلا من بصرها، دون أن تصه. أنا سافيتها ذائبة، مضت تقول

"كلا! إن علينا أن ننمي وجود مجتمع متحرر تماماً من مخاوفه الجنسية ودون رغبات محبطة مكبوتة. إذا أراد الشاب الذي يركب السيارة العامة معك أن يعرف إن كنت ترتدين سروالاً أو مشداً، فإنه يجب أن يسمح له بالقاء بظرة ليتأكد!"

تدخلت لكي ألفت الأنظار عن أنجيلا،

"لماذا تقولين أن كورنر أصبح مخرجاً؟"

"لأنه بنظرية مثل تلك، يمكنك أن تحلب كل الناس غير المناسبين الذي تدفعهم كل الأسباب غير المناسبة. هنا هو ما فعله. إنه يقول بأن غرضه هو أن يعلم الناس الوصول إلى النشوة الصوفية عن طريق الجنس. ولكن كل ما يفعله هو تنظيم حفلات للفسق"

كان من الصعب إيقاف هذا الفيضان من الكلام الذي استمر على هذه الصورة لمدة نصف ساعة أخرى وبدا لي ما قالته في صورة فهم جيد إلى حد ما لبعض المشاكل النفسية. من الحق أن أكثر الناس يسيطر عليهم هاجس جنسي من نوع ما بطريقة سلبية. ولكنني حينما فكرت في ديانا وفي موبسي، وفي مكتبتني التي تحيط بها الكتب على الجدران من كل جانب، طرأ لي أن هناك أشياء كثيرة أكثر أهمية من الجنس ليست الطريقة المثلى لمعالجة رجل يسيطر عليه هاجس الجنس هو أن أقول له أن يجلد عميرة في السيارات العامة. ولكن أن أنفذه إلى أن يتعلم كيفية الاستمتاع بالموسيقى والأفكار والشعر. حينما افترحت ذلك لأسرة دنكان، وجهت بانفجار من الاحتقار العاصف.

"ليس هذا سوى ما دعاه فرويد بالإعلاء، إنه رفض لمواجهة المشكلة الحقيقية. إنك تكبت مصدر المشكلة، ثم تتظاهر بالاهتمام بشيء آخر

بلدت أشعر بفقدان الصبر. كانت الساعة - على أية حال - قد فاربت الساعة - وكان لابد أن يبدأ الستير في التساؤل عن مكاننا. قلت أن علينا أن نرحل. حاول أن يقنعنا بالبقاء

لتناول العشاء، ولكننا انتحلنا بعض الأعداد. قالت أنا أنها سوف تكتب إلي خطاباً طويلاً، وأنني ربما أجد الفرصة لمساعدتها في إنجاز تأليف كتابها حول الحرية الجنسية للجميع.

وحينما وقفنا استعداداً للانصراف، سألت أنجيلا.

- "بالمناسبة، هل تعرفان شيئاً عن جماعة العقاء؟"

هزت أنا كتفياً وقالت

- "وما تلك؟ جماعة مهووسة جديدة من الشبان؟"

كان من الواضح أن الاسم لا يعني شيئاً بالنسبة لهما، لم تلح أنجيلا على طرفي الموضوع وعند الباب، قال دانكلمان:

- "إنك معاذر لندن اليوم، صحيح؟"

"عذراً"

- "أمل أن نلتقي حينما تأتي إلى هنا في المرة القادمة."

انحنى انحناءً يابسة، قلت

- "يجب أن أكتب إلى البروفيسور كورنر"

قالت أنا، لن تكون هناك أية فائدة من ذلك. لقد أمرته الشرطة بمغادرة إنكلترا فعاد إلى ألمانيا

- "أوه، إنني أسف لذلك، ولكن، لماذا؟"

قال ككلوس، لم يكن أكثر من صاحب بيت دعارة محترف.

في سيارة الأجرة، وفي طريق العودة إلى هولنديبارك، قالت أنجيلا،

- "من المؤكد أنك تبدو كما لو كنت قد قابلت إنساناً يبعثون على الدهشة، من لؤسيف حقاً أننا لا نستطيع أن نقابل الدكتور كورنر"

- "ولكن من المحتمل جداً أن تكون هذه طريقة مسبوقة. علي أن اعترف بأن دانكلمان قال لي أن كورنر كان أول من ذكر أيزموند دويللي، ولكنني افترض بمسألة أنه كان قد قرأ كتابه "عن الفزع العذري"

نحننا عن أسرة دانكلمان فانت أنجيلا

- "لا أظن أنك على صواب في النظر إلى ككلوس باعتباره روحاً صغيراً تسيطر عليه زوجته. لقد احتاجني إحساس غريب جداً حينما نظرت إلي أول مرة"

"بأي شكل كان هذا الإحساس؟"

- "أحسست إحساساً فكهياً بأنه كان يريدني أن أفتح ساقي. لقد رابت موضوع الذي كنت أجلس به - حتى زوجته لاحظت ذلك"

- "بني أظن - على أي حال - أنها نصف شاذة جنسياً"

- "ما كنت لأدهش من هذا، لم يسبق لي أن شعرت بمثل هذا الشعور السيئ الذي احتاجني وأنا اتحدث معهما. هل لاحظت ذلك؟"

"أي نوع من المشاعر السيئة؟"

- "حسناً - إليهما "قبيحان" جداً، وهما حقاً منفردان جداً حينما يتحدثان. كل هذا الحديث عن الجنس. ومع هذا فقد كان لحيثتهما من جانب آخر - سحر من نوع خاص"

كنت أعرف ما تعنيه. فحتى ذهبتنا إلى أسرة دانكلمان، كنت قد نظرت إلى أنجيلا ككونها شخصية تبعث على السرور إلى حد كبير، ولكن دون مزيد من الاهتمام الجنسي الذي يزيد عن شعوري إزاءها لو كانت شقيقتي. أما الآن وأنا أجلس إلى جوارها، فقد وجدت نفسي أنظر إلى استدارة نهدتها تحت الصدر الصوفي الأسود، وأشعر بأن علي أن أكتب رعبتي في مداعبتها. كانت أنا دانكلمان قد دفعتني إلى هذا الشعور بشكل ما، بتوجيه الانتباه إلى أنجيلا باعتبارها موضوعاً جنسياً.

قالت فجأة: "أنا سعيدة لأنك كنت هناك"، وارتحفت وهي تتحرك لتصبح أقرب إلي كان من الطبيعي أن أضع ذراعي حول كتفها. بعد لحظة، ارتفع وجهها نحو وجهي،

وكنيت قبلها بانفعال عاطفي حقلت أنا لقونه . كان الأمر مثل التهام مل . فـه من الطعام .
نه تكتشف بعد هذا أنك جائع حوفاً وحشياً ، تعانقت بقوة متعلقين احداً بالآخر . ولساني
دخل فمها . وبدي تسحق الشهد الذي كنيت أنظر إليه منذ لحظة واحدة . له تكن هناك
مجرد رغبة بسيطة في ملاطفة جسدها . ولكن كانت الرغبة هي جرحها . عصرها . التهامها
وامتصاصها . كانت متعلقة بي في استسلام كامل . وحبسما تركت يدي إلى أسفل . صاعطة
بقوة على صلوعها . ثم على معدتها . انفرج ساقها () كنيت في حالة حادة من التعب في
جلستي . بعد أن وصلت إلى هذه النقطة . كان الأمر الطبيعي أن أخلع ما تبقى من ثيابها . ولما
كان ذلك مستحبلاً . فقد تحول حسدي إلى فصب حديدي من الشهوة

نحرفت السيارة مرتين متتاليتين لكي نتمادي سيارة أخرى كانت تدفع باحبتنا
باصوتها الباهرة انفصل احداً عن الآخر متفلاً بالإحساس بالإثم .

فانت . "سفة"

"لماذا؟"

"كانت هذه غلطتي لقد كنيت أريدك أن تعمل هذا منذ عادنا منزل دانكلمان ."

كما ما يزال متعاقبين . وكان قلبي ما يزال يصرب بعنف حتى كان من الصعب أن
أتكلم . قالت .

"لم أفعل هذا أبداً من قبل . ليس بهذا الشكل لا أعرف إن كنيت ستصدقني ولكنني
ظاهرة مترتبة تماماً من الداخل"

قلت . بطريقة نصف نهكمية "لقد يومنا معاً طيباً"

بطرت إلي بجذبية وقالت أضل أن هذا يمكن أن يكون صحيحاً نسي وثقة من أن لهما
قوة عربية من نوع ما سوف أقول لك شيئاً بصدمك من الدهشة . لو أنني هبالت بمعمردي .
لانتبهت إلى أن أمتح نفسي لهذا النمر كلاوس"

قلت صاحكاً "ولو أنني طللت وحيداً في تلك الحجرة الصغيرة لمدة عشر دقائق أخرى .
لانتبهت إلى ممارسة الجنس مع أنا"

"ولكنها مفعرة إلى حد مروع؟"

أحمرتها بما كان من جلوسها وقد فتحت ساقها . وكان صحيحاً ما قلته من أنني لو
بقيت حالساً أمامها بمعمردي لمدة خمس دقائق أخرى . لانتبهت إلى الأمام لكي أراها () ومن
الأكيد أنه كان من السهولة أن أرفض ذلك .

توقفت سيارة الأجرة خارج المنزل . قالت .

"من الأفضل أن أرتب ثيابي"

أدركنت ما كانت تعبها . فقد كنيت أتوهم أنا أيضاً أنني مهوش الشعر والنياب كما
لو كنيت قد نهضت من الفراش لتوي . دهعت الحساب لسانق السيارة بينما مرت بسرعة على
شفاهاها بأصبع الأحمر وجرت الشط في شعرها على عجل

فتحت انحبلاً الباب لفناحها . ودخلنا إلى الشقة . كان كل شيء ما يزال على حاله
كما تركناه في الصباح . نادت فائلة . "الستير" . ولكن لم تسمع إحاسه . هزت رأسها وفانت .
"لا" وعرفت أنها لم تكن تعلق على غياب الستير . وصعت يدي على صدرها . قالت . ليس هناك
وقت . ولكنني أدركنت أنها لم تكن جادة . كنيت ما أزال ساخناً مفعماً بوهج الشهوة القريبة
العنف . التي كانت تكون كالحمى . جنببت طرف الصدر الصوفي فنزعت من تحت وسط
الأرزار ودسست يدي تحت الصدر . كانت ترتدي حمالة صدر . وبحركة جنب بسيطة
عريت النهلين . أخذت الحلمة بين سبائي وإبهامي ودعكتها . اندفعت إلى حضني وفتحت
فمها مرة أخرى (..) وفلقتها إلى غرفة النوم .

ساعداً ما وجدت الجنس مدوخاً كالدوران بهذا الشكل . وأضل أنه لو ظهر في تلك
للحظة حشد كامل من المصورين عند الباب بالأت تصويرهم ذات الأصواء الحافظة . لطلما
على ممارستنا للجنس . عاشرين عجزاً مطلقاً عن الفصل بين جسدينا كان الإحساس
الشبيه بالحمى ما يزال قائماً مصفياً على العرق جواً غير واقعي بدونا كما لو كنا قد
غرقنا في مياه العرق والإفرازات الرطبة . فكرت بأن الستير قد يدخل الآن في أية لحظة . ولكن
كان هناك نوع من المتعة من التفكير بأن برأينا شخص ما ثم أصبحت المدة أكثر حدة
من أن تكبح أو تمنع من الوصول إلى دروتها

بعد عدة دقائق، رفلنا جسباً إلى حسب، وبدأ العرق يبرد، فتحت عيني وبطرت إليها، وتبينت مصدوماً أن أنجيلا هي التي كانت بجانب الفتاة الإسكتلندية الرزمية المحتشمة التي بدت لي في صورة الفتاة "اللطيفة" ولكنها ليست من النوع الذي أحبه، فتحت عينيها، ولاحظ أنها حملت عندما رأتني وفجأة، تذكرنا معاً أن نصف ملايسيا ملقاة على الأرض في الحجرة الأخرى، وأن الباب كان مفتوحاً، نهضت وذهبت إلى الحجرة الخارجية لكي أحي، بالأناس وحينما عدت وكانت واقفة تشد سروالها الداخلى إلى وسطها ذهبت إليها وقبّلته، أعطني فمها بطريقة آتية، كما لو كان تمنحني قبلة ما قبل النوم بشكل عادي كل يوم، ثم، كما لو كانت تناسف على ذلك، وضعت ذراعها حول عنقي قالت

"ما الذي حدث لنا؟"

أدركت ما كانت تعنيه، لم يكن ذلك جسباً "عائياً"، الجنس الذي يمارسه شخصان فرراً إن أحدهما يروق للآخر وإراد كل منهما أن يكتشف جسد صاحبه ويرتاده لنفسه، إنما كان نوعاً من التوبة العصبية، كما لو كنا زوجاً من الحيوانات ولكني كنت الآن "مسز سورم" مرة أخرى، وكانت هي قد عانت فاصبحت لادي أنجيلا جلبي، وكنا شخصين راقين كل منهما للآخر، ولكن لسنا عاشقين، بالطبع، فيما عدا أنه كان من المستحيل بالنسبة لنا ألا نكون مدرسين أن كلا منا قد ألقى نفسه في جسد الآخر منذ قبل.

قالت فجأة، "يا إلهي، لقد سببت، هددت أسوأ فترة من الشهر".

وضعت يدي برفقة على معدتها، قلت: "إذن فمن المحتمل أن يكون هناك سورم صغير هنا بالداخل".

"هذا محتمل".

"هل يزعجك هذا؟"

ضجعت فجأة.

"كلا، لا أظن ذلك".

دق جرس التليفون، كان السنير هو المتكلم، ليقول إنه يحتسي كاساً مع بعض أصدقاء دراسته، وأنه لن يعود إلا بعد ساعة أخرى.

دخلت أنا وأنجيلا الحمام ونحمنما معاً، أحسست بأني متمتع رطب الجسد بشكل عريب، مسترخ تماماً، وفي كل مرة نظرت إلى أنجيلا، عانيت صدمة واضحة كما لو كان ما حدث مجرد خيال جنسي حدث داخل رأسي فحسب.

بعد نصف ساعة، وبينما كنا نجلس متقابلين أمام حائطي المائدة يحتسي كؤوس البودينكا، قالت

"أظن أنهما وضعا لنا شيئاً في كؤوس الشرب".

"تعني عقاراً منيراً للشهوة الجنسية؟ لا أظن هذا، إن العناية الإنسانية تأثيراً مريعاً ومبهاً للعصاة المعوية - وقد دقت شيئاً منها في الحزائر".

"ولكنك بالتأكيد لا تعتقد أن الله هنا كان ممسباً، أعتقد ذلك؟"

قلت: "سأقول لك ما اعتقدته، اعتقد أن كلاوس أراد أن يمارس معك الجنس، وأنها أرادتني أن أمارس الجنس معها، ولو أننا تناولنا العشاء معهما، لانهى كل منا إلى الفراش مع صاحبه، ولكن ما حدث، وأيا كان ما فعلاه بنا، هو أنهما جعلانا يربح كل منا في الآخر".

وحينما عدت بذكريتي لكي أفكر في عنف وسخونة ممارستنا للجنس، عرفت أنه كان على شيء من الفرية.

قالت: "إن هذه الفرية تجعلك تتساءل عما إذا كان هنالك حقاً شيء ما في تلك القصص التي نحكي عن تمانم الحب، مثلما قبل في أسطورة تريبستان وأهرولده، وما إلى ذلك؟"

"لقد عرفت رجلاً بوسعه أن يقول لك - رجلاً يدعى كاريوك كنتينجهام".

"أجل، يعني اسمع عنه، لقد قرأت كتابك ولا أظنني أحب أن أقابله".

حينما جاء السنير بعد نصف ساعة، كانت تظهو وحية طعام، وكانت الشقة مفعمة برائحة الحل والنوم، قال،

"أرجو ألا تكونا قد سنمتما من الصبح بدوي".

فانت أنجيليا، كلا، لقد وجدنا الكثير مما نفعل

تفعلان؟

عني مما نقول ونحدث عنه.

كان يتكلم بالطبع؟ كان يعرف أنه لا أنجيليا ولا أنا من النوع الذي يمكن أن يقع في

حد الآخر في خلال ساعات من اللقاء الأول.

- ١٧ -

□ في الليل، انتابني أحلام مزعجة لا أستطيع تذكرها ولكنني حينما استيقظت كنت أهرموند مرة أخرى. كان هذا هو أغرب ما أحسست به حتى ذلك الحين. كنت قد شربت قدرًا كبيرًا من عصير التفاح المخمر بعد العشاء، ورغم أنني لم أسكر، أو أفقد وعي الحقيقي، إلا أنه انتابني ذلك الإحساس بالانفصال البسيط عن الواقع، وباللامعنى ومن الجانب الآخر، كان أهرموند مستيقظاً بقطة كاملة بالنسبة له. بنت هذه الحجرة ذات السقف المرتفع مألوفة بشكل كاف. وكان العنصر الذي يسبب له قدرًا بسيطاً من عدم الاهتمام هو صوت سيارة ركوب أو شحن عابرة تجري على طريق هولاند بارك. كان إحساسي بالعودة إلى القرن الثامن عشر أكثر قوة مما كان في ديلين، ربما لأنه له تكن هناك عناصر تشبعت في وسط الظلام. عرفت في النوم مرة ثانية، وغصت في أحلام مشوشة عن هوارس والبول، ولتشيبنرج وبوزويل وجونسون. وعندما استيقظت في الصباح، كنت أذكر جونسون بوصف تام وهو يقول مؤكداً بقوة - وهو ينثر الرذائل بشفته السفلى الكبيرة للتدلية، "إن ثرجل متشرد محتال وعد شرير يا سيدي، وسوف تحسن صنعاً لو أنك نحتيته تماماً".

أخذنا طائفة في الحادية عشرة والنصف، فوصلنا أديرة بعد ساعة ونصف تناولنا طعام العشاء في غرفة حلفية بإحدى الخانات مع الدكتور داهيد، سيمبلي، أستاذ أنجيليا، وهو رجل ضئيل الحجم له وجه كعوجه كلب صيد صغير. كان قد كتب ذات مرة

عرضاً شريز بشكل خاص لأحد كتي، وذلك فقد ابتسم محبوب وهو يقدم إلي، ولكنه حينما أشار إلى الموضوع إشارة متعمدة، تظاهرت بأنني لم أقرأ المقال وأن علاقتنا طيبة بشكل كاف. لم تكن بي حاجة إلى أن تحدث كثيراً. فقد رأيت كل من ستر وأنجيليا أن بحره بكل ما يتعلق بأهرموند دوسيلي وباكتشافاتي نصت نائب لرهة، ثم قال

"خشى أن أقول أنني لا أرى السبب الذي يجعلك تنظر إليه بكل هذا الاهتمام، إنه يبدو لي كما لو كان اتفاقاً بمودحياً من أفاقي القرن الثامن عشر. هل حدث أبداً أن فكر في أي شيء آخر باستثناء الجنس؟"

بطلت أنجيليا إلي، وأظن أنها كانت تميل إلى الموافقة قلت،

"معنى ما، كلا وبمعنى آخر، فإن الجنس له يكن بهمهم على الإطلاق"

قال بخبت: "ليس هذا هو ما يدعى بالتحايل الشرعي على القوانين؟"

لم يكن متعاطفاً أو لطيفاً، ولكنني قررت أن أحاول الشرح، قلت

"كلا، إنما أرى أهرموند كرجل تملكته وسيطرت عليه مشكلة المعنى".

"معنى ماذا؟ الوجود الإنساني؟" تذكرت أنه كان قد كتب عدداً من التعليقات الحادة المترفعة النبذة في مقاله عن كتابي حول ما دعاه بأنه "هاجس العجز الديني المتسلط علي" ولكنني أرت أن أوضح الموقف للآنئين الآخرين، قلت.

"إنها مسألة إما أن تفهم أو تعجز عن الفهم بالنسبة لي، إنها مشكلة واضحة في حد ذاتها. أحياناً تبدو الحياة مثيرة للاهتمام بشكل واسع وعميق معقدة بالمعنى، فيبدو هذا المعنى حقيقة موضوعية، مثل ضوء الشمس. وفي أحيان أخرى تبدو عقيمة خالية من المعنى مثل الريح. إنما يقبل هذا الخواء من المعنى. هذا الانهيار في وجوده، مثلما نقبل تقلبات الطقس. إنني إذا استيقظت مصاباً بالصداع أو ببرلة برد سيئة، فإنني أبعد كما لو كنت غير قابل لإدراك أي معنى. والآن، إذا استيقظت وأنا مصاب بصمم حقيقي أو وأنا نصف أعمى حقاً، فإنني ساحس بأن ثمة خطأ ما في جسدي وسوف أذهب لاستشارة طبيب ولكنني إذا كنت غير قابل لإدراك أي معنى، فإنني أقبل هذا الوضع كما لو كان شيئاً طبيعياً. ولكن أهرموند لم يقبله كشيء طبيعي وقد لاحظ هو الآخر أننا في كل مرة نستشار فيها

حسباً، يعود إليها المعنى يمكننا حينذاك أن نسمع من جديد هكذا فقد ألح في طلب الجنس باعتباره سبيلاً لاستعادة المعنى

سألت أنجيلا "ومادا من أمر هوراس جليبي؟"

"كلا إنه لم يكن مهتماً ببحث أير موند عن المعنى لقد أعجب بأير موند، ولكنه لم يهتمه".

ظل سيمبيلي على عدم اقتناعه وقال "بني وقد قرأت كتابه "عن افتراء العذارى" فبني لم أجد شيئاً يمكن فهمه". قلت:

"بني لا اعتقد أن أير موند كتب هذا الكتاب"

"لم يكتبه؟ إذن من كتبه؟"

"لا أعرف ولكن أسلوبه ليس أسلوب أير موند"

هز كتفيه كما لو كان يقول أنني أستطيع أن أغرق في أي نوع من الخيالات بروق لي، ولكن هذا ليس من شأنه. قلت:

"هل حدث أن رأيت التاريخ المكتوب على الطبعة التي قرأتها؟"

"بالطبع. كان ١٧٩٠".

أثارتني هذا. كانت الطبعة التي رأيته في غالوي قد طبعت في لايبزيغ عام ١٨٣٠

"من الذي طبعها، وأين؟"

"لم يذكر اسم المطابع، ولكن قائمة الجامعة تقول أن الكتاب طبع في مطبعة خاصة في لندرة".

"أنت واثق من هذا؟"

"ليس من عادتي أن أخلط بين ما أقوله من حقائق" تذكرت أن هذه كانت واحدة أخرى من لرائته القارصة لي، وهكذا فقد تجاهلت الموضوع ولكن الأدب والمجاملة اللذين

الذينهما وأنا أضافحه منذ نصف ساعة مصت له بكون قد وهنا تماماً هكذا انصح حراً حر من اللغز وطرح سؤاله الجديد وبدأ أحد الشكوك التي كانت قد روتني من قبل يظهر في صورة أقل عشية لأنه إذا افترضنا أن كتاب "عن افتراء العذارى" كان مربفاً ومنحولاً، فمن الممكن أن يكون قد كتبه؟ من الواضح أنه شخص كان بهته بأن يظهر أير موند في صورة الأفاق كاتب أدب الدعارة، من السهل أن يفترض أن الكاتب هو جيلبرت ستيوارت، الذي كان على علاقة ودية مع هوراس جليبي، والذي كانت له مصلحة في أن يبلط سمعة أير موند بالوحد. ولكنه كان قد مات في عام ١٧٨٦. وهذا يدفعني إلى التفكير جدياً في مرشح واحد فقط لتأليف الكتاب، وهو جليبي نفسه وإذا كان كتاب "الافتراء" قد طبع في أندرة، فإن التفكير يصبح قوياً إلى أقصى حد.

كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة بعد الظهر عندما غادرت أندرة أحياناً في سيارة استأجرهاها وشرعنا في مسيرتنا الطويلة نحو الشمال وهي مسافة تكاد تبلغ المسافة بين لندن وأندرة نفسها قطعنا السير في مدينة بيتلو شيري، وغادرتها في ساعة مبكرة من الصباح. وفي الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم كما تقطع الرحلة الأخيرة من رحلتنا، وهي المسافة من بلدة دورنوش إلى جلوسي كانت المروج الريفية الواسعة ومناظر البحر المواجهة شديدة الوقع. ولكن الشيء الذي شغل أفكاري حقاً هو المجهود الخالص الرامي إلى استعادة نفس هذه الرحلة في عام ١٧٧٠، في عربة متار حجة، فوق طرق كانت أحسن قليلاً من "الطقات" الزبانية القذرة. من المحتمل أن اخترقنا طرقي جلوسي لم يسافروا إلى أبعد من دورنوش أو أيفرنيس. فلا عجب إن كان هوراس جليبي موضع كل هذا الإعجاب بعد عودته من رحلاته الأوروبية. توفا في القرية للاتصال بمراكليين ميلر - المالك الجديد للمنزل توسبي. ثم اتجهنا إلى الشمال الشرقي. يقع قصر جلوسي فوق منحدرات جبل بين هورن، معظلاً على بحيرة لوش برورا، وبينما كنا نقطع هذه الرحلة القصيرة الأخيرة من الرحلة، حاولت جاهداً أن استرحي، وأن أراها بعيني أير موند، ولكن لم تكن ثمة جدوى. كان الأمر كله بالغ القرابة. سطعت ومضة من التعرف كالدكرى وأنا أنظر إلى الميدان والمنزل الرمادي ولكن كان من الممكن أنني أجدع نفسي.

كان هناك عدد كبير من الدعامات الخشبية مرتفعة أمام واجهة المبنى. ومن الواضح أن المالك الجديد كان يصلح المنزل. كان الطريق الحاص المؤدي من الشارع العام إلى

لشي قد اعبد رصفه. وبنيت أخوص الحديقة في حالة جيدة كان من الممكن أن يكون قديماً فحماً عالياً.

كان فرنكلين ميللر رجلاً صريحاً "لحم ودم" بدا كما لو كان قد ولد لكي يكون مانكاً من ملاك الأرياف. وبدأ متهماً حقاً "حصوله" على صيوف في منزله الجديد. فأتى إلى المكتبة الضخمة، حيث كانت مدفاة ضخمة - تعمل بكتل الخشب - مشتعلة بنار كبيرة قبلنا كؤوس الشرب، وفأبانا مسر ميللر التي رجينا أن تبقى عندها أطول مدة ممكنة. بعد أن تمشيما حول الحديقة وهبطنا إلى جانب المحذر الملحق بالقصر، سألت إن كان يوسعنا أن يمضي ساعة قبل العشاء ليلقي نظرة على الطابق العلوي المغلق (السقيفة) حيث كان السنير قد رأى رزماً من الأوراق القديمة. قال لنا مصيما أن يعامل المنزل كما لو كان ماله ثم يتغير تبدأ، وخرج لكي يرى ما كان عماله يفعلون.

قال السنير: "بني أعرف أين يجب أن يبدأ. يجب أن ننظر إلى كتاب العائلة المقدس إنه يصح قائمة بتواريخ ميلاد وموت كل من عاش من أسرة حليبي في حلوسي".

كان الكتاب المقدس في المكتبة. موضوعاً فوق رف مرتفع - كان مجلداً فحماً، ذا غلاف من الجلد اللامع، كان وزنه ما لا يقل عن خمسين رطلاً. وكانت نسخة من "الكتاب المقدس العظيم" - طبعة غرانمر التي صدرت في ١٥٣٩ - وحظر لي أنها يمكن أن تساوي مثلما دفع في منزل حلوسي نفسه. ولكنني لم أحب أن أقول ذلك. كانت الصفحات الست في نهاية المجلد مغطاة بكتابات صفحة بعد أخرى في خط كان خربشة لا يقرأ. كتب بجر دوى لونه وبهت. بدأت باسم إسكندر حليبي، الذي مات في عام ١٥٧٩ (قبل أن يعاد شكسبير بلدة ستراتفورد أون أفون) ولدي كان من الواضح أنه مال مرتبة فارس من الملك هنري الثامن. كانت أسرة حليبي قد رفعت إلى مرتبة النبالة على يد جيمس الأول وفي بعض الأحيان كانت تتلو الأسماء أسماء الموت: "حمى"، "تسمه كحوني"، و"حصر مكسور" (أي كان معنى ذلك) كانت هناك سطور تعليقات عليها بخط تعرفت فيه على خط هوراس حليبي. كان اسمه متبوعاً بتاريخين ١٧٢٧، ١٧٩٦. ولكن لم يكن هناك ذكر لسبب الموت. مات والده في عام ١٧٧٨، فأصبح أخوه موراي هولورد حليبي وقتل موراي بسبب "السقوط من فوق ساري"، (هل كان يقصد "ساري" المؤخرة في سميكة؟) في عام ١٧٨١، مما أدى إلى أن ورت أخوه الأصغر لقب الأسرة.

كان في هذا بعض العون على الأقل. فقد عرفت ساعتها تواريخ ميلاد وموت هورس حليبي على وجه الدقة. ولكنني لم أعرف سبب موته. سألت السنير إن كان يستطيع - بتذكر العرفة التي قيل له أنها "غرفة القتل"

"أوه، أجل. الطبع" فإدني إلى خارج المكتبة، وصعدنا السلم الرئيسي، وعلى طول ممر بين بعض الحجرات. طرق الباب، ثم فتحه. كان من الواضح أن الحجرة الآن هيئت لتكون عرفة يوم الصيوف. كانت تطل على المحذر، وكان أحد العمال يصفر على "السقالة" حرج المائدة.

قالت أنجيلا: "بالتأكيد لم تكن هذه هي العرفة التي أطلعني عليها غوردون كانت الأخرى في الجناح الآخر"

وبعد بعض التردد عثرنا على العرفة الأخرى. كانت تطل على القسم الخلفي من المنزل، وكانت المائدة تؤدي إلى مسقط عميق يؤدي إلى فناء صغير. كانت حجرة عازية باردة. ولم يكن أحد جدرانها يحمل أي شيء من الرحلة أو التحميل. كان حجر الخربشة قد سحج حتى أصبح مسطحاً باعماً. أشارت أنجيلا إلى أثر طولي بني اللون جرى فوق ذلك السطح حتى بلغ الأرض. وقالت: "قال لي غوردون أن هذا الأثر كان لبعض الدماء - ول القتل كان يرفد على السرير حينما أطلق عليه أحدهم النار من المائدة"

كان هذا ممكناً. وقد بدأ الأثر كما لو كان أثراً للدماء فعلاً ومن جانب آخر، يد لي أنه من الأمور البعيدة الاحتمال أن ينال سيد المنزل في حجرة بهذا الشكل. وكان الأكثر احتمالاً أن أثار الدم هي التي أدت إلى خلق قصة عن جريمة قتل.

ثلاثة منعطفات أخرى من الدرجات فإدنا إلى السقيفة العلوية التي وجدناها مظلمة ومتربة حتى اضطرر أنستير أن يهبط ثانية لكي يستعير مصباحاً. حلست أنا وأنجيلا فوق صندوق ادراج قديم، بعد أن رفضت الثراب بمنزلي. كنا متعبين، فقد كانت الرحلة طويلة وكنا بحاجة إلى راحة طيبة تلك الليلة. وضعت ذراعي حول كتفيها، فمالت برأسها وأسندته على كتفي. ترسكت خدي بسترية على شعرها وأغمضت عيني. كان المكان بالغ الهدوء، ولم يكن ثمة صوت سوى هسيس الرياح إذ تصطدم بجويف الحدران العليا بالخارج. مصحوبة بسقسقة طائر بعيد. كان إحساسي بدهنها ملاصقاً لي إحساساً ممتناً وفحاراً

ويؤن مقدمات، تذكرت. أو بالأحرى، تذكر أهرمود. كانت رائحة الزب مانوثة، كذلك كانت رائحة شعر انجيلا. تحققت من تحطأ الذي له أتيتنه من قبل فإنا حينما يرى ماضى جديدة بالنسبة لنا، يجدها العقل عريضة، فيبدل "مجهوداً" لكي يحبط بها من أجل أن يتواءم معها ويقبل بوجوده داخلها. وهذا "المجهود" هو ما يدمر الألفة الغريبة للذاكرة. كنت شديد التلهف إلى دخول حرائة هذا المنزل، لكي أتذكره، حتى إنني كنت أحتلق لطب عاتي عنه احتلاقاً والأى، للحظة، سكفت عن النظر إليه باعتباري عربياً، استرخيت وشرعت كما لو أن صورة قديمة قد طبعت نفسها بقوة فوق أعضائاته الجديدة عن المنزل، ثم امتزجت معها. كنت أعرف هذا المكان، كنت أعرف النحدر والتلال ومنظر البحر البعيد تحت الوادي. وكنت أعرف أيضاً أن انجيلا كانت على صواب. لم تكن الحجرة التي رأيناها منذ لحظات هي الحجرة التي قتل فيها هوراس جليبي. ولكن انجيلا كانت مخطئة في نقطة واحدة، إنه لم يطلق عليه الرصاص. لقد طعن بمصل حاد. شعرت بيقين عجيب من هذا

عاد ألتير بجحر وراءه حبلاً طويلاً من لسلك الكهربائي وواحداً من تلك الأقفاص المعدنية المزودة بمصباح في داخلها والتي يستخدمها مصلحو آلات السيارات. وصلنا طرف لسلك بنقطة توصيل كهربائية في الطابق الأسفل، وعلقنا المصباح داخل ففصه فوق دعامة خشبية منخفضة في سقف السقيفة. ثم أخذنا في مسح المكان لم يكن ثمة شيء واضح أكثر من أن هذا المكان لم يطأه إنسان منذ سنوات. ولم يستطع ألتير أن يتذكر أنه قد بحث فيه عن شيء حتى في طفولته. كان كل شيء غارقاً تحت عدة بوصات من التراب مع نوع من الزغب المندوف، وكان نصف السقيفة مغلقاً بواسطة سلسلة متتالية من نسيج العنكبوت التي جللها التراب حتى صنعت ستارة كثيفة عازلة (وكنتم دائماً نتعجب من كيفية محافظة العنكبوت على حياته في الأمكنة المغلقة). ولكن كان هناك الكثير - بوصوح - الذي لا بد من استقصاء حقيقته، بما في ذلك حكومة من العلابين الكبيرة المحطمة. مع كل خطوة نحر كناها كان التراب يفرز أنوفنا. حطمت نسيج العنكبوت بمحركات مدفنة معدني قديم، ونظرت إلى القسم الثاني من السقيفة. كانت هناك كل أنواع الصناديق والعلب الورقية والأكوام من دفاتر الحسابات وحزم الأوراق. حاولت أن أهلك إحدى تلك الحزم، فبالت الأوراق تنهشم تماماً كما لو كان الورق الذي صنعت منه قد جفف بالنار. وكانت حزم أخرى غارقة في نوع من الطلاء الزيتي جعلها مستحيلة القراءة.

بعد نصف ساعة من هذا البحث أصبحنا جميعاً في غابة العطش ورحنا نعطش مرة بكل دقة صعد إليي هريكليس ميللر لكي يستقضي أمرنا، ونظر حوله لمدة دقيقة أو اثنين ثم انصرف وهو يقول: "الأفضل أن تبحنوا أنته، لا أنا" وأحيراً قال السنير، "أضربني ساهبط إلى الطابق الأرضي لأشرب زحاجة من البيرة. هل يأتي أحدكم؟" قالت انجيلا "نأته معك"، ولكنني قررت أن أبقي هناك لفترة أخرى، ولكن خمس دقائق كانت كافية بدأت أفكر باشتياق في قدح من الجعة كبيرة وبارد في الحانة المحلية. كانت عيناي تدمعان، وكان صيري يتفقد بسرعة، حتى إنني كنت كلما تحركت أثرت معي قدراً من الغبار والتراب لا ضرورة لمزيد منه. شعرت كما لو كنت بحاجة إلى حمام جيد. وكما لو كان شعري قد امتلأ بعناكب صغيرة خرجت لتوها من بطن أمها. وبعد أن جديت درجاً هائل الحجم من قلب خزائن، وكافحت من أجل أن أصل شريطاً جليداً ربطت به إحدى الحرم وتجمد حتى صار في صلابة الفولاذ، تحركت إلى الباب الواطئ لكي أستنشق بعضاً من الهواء النقي. جلست عند الباب، أثاءب، وأفكر في أنه إذا كان أهرمود ينوي أن يساعطني فإن الآن هي اللحظة المناسبة لتلك المساعدة. سار عنكبوت فجأة على عنقي، فوقف على قدمي محفلاً حتى أنني صريرت رأسي في إحدى الدعائم الوطنية، فجلست على الأرض وراحت الأصواء تراقص ملتمة وحانية أمام عيني. جلست في مكاني محفلاً بانزعاج في العنكبوت الذي تعلق فارب بحبيبة ضوئيل مثل من فجوة صغيرة نبت فيها شيء، مثل توصيلة كهربائية قديمة علفت في السقف بمسمار كبير. تسلفت السلم هابطاً، وجسدي يحتك بالحاجز هايطاً نحو الأرض وأنا أنظر بجدس إلى رجل يصيد السمك من فارب في البحيرة القريبة.

ملتت يدي إلى أعلى لكي أقطع التوصيلة الكهربائية التي كانت تضيء السقيفة، حينما خطرت الفكرة فجأة على ذهني. إذا لم تكن هناك إضاءة في السقيفة، لماذا كانت هناك تلك التوصيلة الكهربائية التي تعلق بها حيط العنكبوت؟ صنعت السلم ثانية وتناولت منقصة، ونفضت نسيج العنكبوت الذي كان يعطي مساحة الورق المفرد. ونظرت نظرة أكثر تدقيقاً، فعرهت السبب الذي جعلني أخطئ فخطئ الشيء الذي رأيتنه توصيلة كهربائية. كانت مساحة الورق صندوقاً كبيراً رسمت على ظهره رسوم دقيقة، ويحتوي على عدد كبير من الصناديق الصغيرة التي ربط بعضها إلى البعض بخيط واحد. كان على كل صندوق حروف كتبت فوق ظهره، وعلى أحد جوانب كل صندوق كانت هناك

قائمة أخرى من الحروف الأبجدية التسلسل. وهناك كتابة امام كل منها. ثم امكن اعراف مذهب تلك الصناديق وثنا أحملها إلى أسفل. وكان حدسي يعمل مرة أخرى كان التراب كتبها عليها حتى عجزت عن قراءتها في هذا الضوء، لعت، هبطت إلى الطابق الأسفل. وبقيت عنها التراب بعناية مستخدم مديلاً. وأخذتها إلى قرب المائدة وقد كانت "رسماً" توصحياً للسقيفة نفسها. وثو لي فكرت فيها بعناية منذ رآيتها. أو ثو لي فكرت في السقيفة نفسها منذ بقيت عليها بطرقي الأولى. لكنني قد لاحظت أن الحرائق المختلفة والحرم توجد في السقيفة كانت موضوعاً بطريقة مرتبة ومنظمة توحى بأن شخصاً ما قد وضع هذا النظام، وأياً كان الشخص الذي رتبها فإنه قد صنع نصاً هذا الرسم كدليل لمن يريد البحث عن أي شيء فيه.

سمعت الستير ينادي: "آل تهبط الآن يا جيرارد؟ سيعد العشاء بعد نصف ساعة".

قلت: "من كان الشخص الذي اسمه ج رايبون؟"

"جورج رايبون؟ كان شيئاً كان يساعد العام هنا في زمن جدي وقد عاش حتى بلغ لواحده والتسعين وهو يسكن منزل البوابة. ماذا؟"

أرسلته الجانب الآخر من الرسم. كان التوقيع الواضح يقول "ج. رايبون". جربت بإصبعي حتى توقفت عند حرف "ك": "أوراق. ل. حتى ٩ لورد جليبي" كان هذا هوراس جليبي. قلبت الورقة إلى الزاوية المقابلة. كان "ك" موجوداً في الركن القوسي من السقيفة

تبين أن "ك" كان خزانة ضخمة من الصحف أو الصاج، وكان انقبض قد علاه لصدا حتى أصبح قنعه عسماً فتحناه عنوة بالاستعانة بمحرك اللهاة كان مزدحماً متوشاً بكراسات الحسابات، والخطابات والأوراق السائنة، فاما أن أحداً قد عبث به منذ عهد "ج. رايبون" وإما أن محتوياته قد وضعت دون محاولة لترتيبها بالدخل. فتحت خطاباً وكان يبدأ: "عزبرتي ماري" وبدأ من المضمون أن الخطاب كان حول مشكلة عائلية عن بيع أحد المنازل في كليفورد. دفعت يدي في الحزنة. وتحت عدداً آخر من الخطابات عشوائياً. كان أحدها موجهاً إلى ميس هيونا غوتري. وكان يبدأ: "عزبرتي ميس غوتري" وينتهي بعبارة: "الحلم الذي يحزمك" كان هذا مؤرخاً في أغسطس عام ١٧٦٦. وموجهاً من

عوثميين وهذا معناه أنه أرسل قبل شهر قليلة من الأحداث التي وصفها في خطابه إلى أبرمويد

حاولت أنا والستير أن نحمل الخزانة لنهبط بها السلم ولكنها كانت ثقيلة جداً. فقررتنا تركها في مكانها. وسرنا شاعرين بالانتصار فهبطنا إلى حجرة الطعام للإعلان عن الاكتشاف. فأنرنا من الأفعال ما كان مكافأة معقولة ومؤقتة لي تركتهم بعد قليل وصعدت ثانية لكي أحمس الخزانة. بينما كنت احتسي كاساً من الجعة الثلجة. ثم ذهبت لكي أستحم. وحينما عدت إليهم، كانوا قد صكوموا حزماً من الأوراق والملفات على بساط اللهاة، وكانوا ينظرون إلى ما فيها. نظرت إلى ما تم العثور عليه، ولكنني لم أجد شيئاً ذا أهمية.

تأخر العشاء نصف ساعة. فأكلنا كميات كبيرة من شواء الحجل وطيور الغابة وشرنا بيبز بوجوليه، الأمر الذي جعلنا جميعاً نشعر بالنعاس، فذهبنا إلى الصالون لكي نشرب القهوة ونشاهد التلفزيون. في التاسعة والنصف سألت إن كان بوسعي أن استخدم التليفون. وأني لم اكن قد اتصلت بديانا منذ تركنا لندن.

كان الخط التلغوني جيداً، فكان بوسعي أن أسمعها كما لو كانت على بعد ميل واحد آخرتها بما جرى - عن أنني قد عنرت على شيء من أوراق جليبي ولكن لا شيء يمكن أن يعد بشيء كثير. سألتها إن كان لديها أي أخبار

"ليس الكثير. هناك خطاب من فتاة تريدك أن تذهب لكي تعيش معها في ميامي. وخطاب آخر من رجل يريدك أن تؤلف كتاباً تحمل فيه على العقول الإلكترونية. وهناك خطاب قصير من رجل يدعى مكورير يقول أنه يجب أن يراك حينما تذهب إلى لندن في المرة القادمة"

"كيف تهجين هذا الاسم؟"

"ك. و. ر. ن. ر."

صحت، ماذا؟ ما اسمه الأول؟

"لا أتذكر، هل أبحث عن الخطاب؟"

٣١. أرجوك

عاشت بعد دهاق قليلة، وفراحت لي الخطاب كان المرسل هو أوتو كورنر، الرجل الذي قالت لي أسيرة دانكمان أنه أبعد عن ثيلاد. كان يعيش في ويست هامبستيد قال أنه قرا خطابي عن إيرمون دونيللي في الملحق الأسبي للتايمز، وأنه بود أن يتحدث معي بشأنه، وكتب رقم تليفون في النهاية

حينما أنهت دهاق المكالمات، انتقلت إلى حجرة الجلوس، صانحاً وأنا أرقص ملوحاً بالورقة التي تحمل عنوان كورنر. شعرت بأن هذه الخطوة ستكون انطلاقاً كبرى إلى الأمام - ليس لأنني توقعنت من كورنر أن يعرف شيئاً عن دونيللي لم أعرف أنا به بعد، وإنما لأنني شعرت بأن هناك من يقف إلى جانبي كاد سرور ميللر بهذه الأثناء يعادل سرورنا، كان قد شرع يقع في شبكة "البحت عن إيرمون دونيللي". قال: "لماذا لا نتصل به الآن على الفور؟" ولم أكن بحاجة إلى مزيد من الحث أو التشجيع فبعد خمس دقائق، كنت أسمع صوتاً مثل صوت ممثل كوميدى يقلد استاذاً ألمانيا عجوزاً، يقول:

"جميل جداً أنك تكلمت، يا زورم. حينما (علينا) الكثير الذي يجب أن نناقشه).

قلت: "لقد رأيت دانكمان وزوجته في لندن منذ يومين. وقد قال لي أنك عدت إلى

ألمانيا"

"ماذا! إنهما يعرفان أن هذا غير صحيح! يجب ألا تتق بهما.."

استمر يتحدث طوال عشر دقائق عن دانكمان وروحته، مستخدماً كلمات من الألمانية من حين إلى آخر. وانتهى إلى أن نصحتني بقوة ألا أعود إلى رؤيتهما مرة ثانية حاولت أن أكتشف السبب الذي يجعله يعاديهما إلى هذا الحد، ولهذا قلت له إنهما يبدوان كزوجين لا ضرر منهما. صاح يقول:

"ماذا! لا ضرر منهما؟ كيف إن هذا الرجل قاتل"

"أنت واثق؟"

"واثق نعماً إنه قاتل لقد تروح فتاة ثرية في سويسرا ثم سلق جسدها في وعاء، صنع الفراء. كان في هذا الوقت بملك مصنع للفراء - واحتفت بعد رواحتها منه بأشياء قليلة. وقد قام طبيب بتحليل عينة من الفراء الذي استخه في تلك الفترة وقال أنه كان مصبوعاً من عظام آدمية ولكنهم لم يستطيعوا إثبات أي شيء، وأنه جدير بأن يسجن ثلاث سنوات بتهمة تعدد الزوجات"

سكنت في القصة منيرة إلى درجة تجعلها غير قابلة للتصديق أوفي الحقيقة، اكتشفت فيما بعد أن كورنر لم يسرد علي أكثر التفاصيل رعباً - وهو أن ككلأوس مزق جسد زوجته السويسرية قطعاً صغيرة بشفرة حلاقة، وأطعمها السمكة البيرانها المتوحشة التي كان يربئها في منزله) تحدثت مع كورنر لعدة دقائق أخرى، ووعنته بأن اتصل به في طريق عودتي إلى برليندا قال "حسناً أرجو أن تمضي في لندن عدة أيام. إن لدي الكثير الذي أود أن أقوله لك".

لاح لي الأمر وكانه محملاً بأنواعود الطبيعة عدت لكي أحرر انجيلاً بالتفاصيل الجديدة عن ككلأوس دانكمان، وانتهينا إلى سرد حكاية زيارتنا بالتفصيل لمضيفنا ومصيفتنا، ولكننا حدثنا ما حدث بعد ذلك.

- ١٨ -

□ كنت بالغ التعب حتى أنني ذهبت مبكراً إلى الفراش ولكنني استيقظت في الساعة من صباح اليوم التالي، هارتليت معطفاً فوق سرتني، وجلست على مقعد صغير واصلت في السقبة، ورحلت أحمل بعناية ككل حرمة أو ملف من الخزانة، وأصعاً الأوراق السائبة في خزانة مستقلة مرتمة. كان قد مضى علي نصف ساعة من البحث قبل أن تنهي بأول اكتشاف منعش للأمل. حرمة من الحطائيات ربطت بشريط حميل، وقد كتبت العنوان على ككل منها بخط يدي مستدير "السيد هوارس حليبي، فريدياند ستراسه رقم ٩ (مرل فور هير يوليش) غوبتغن" وكانت كاتبة تلك الحطائيات هي فيونا غوتري، وأرسلتها إلى هوارس حليبي، وبدأت في فبراير عام ١٨٦٧. بعد شهر من حادثة الفرائس من إخوانها كانت الحطائيات

من فتاة واقعة في الحب، والأكثر من هذا، كانت خطابات من فتاة شعرت بابها مرتبطة ومحسوبة. كانت الخطابات مبنية بما يدور في بطنها من انداعات وهمسات، وعن شقيقته ماري، وعن صليب كان قد أعطاه لها وحلت فراءة تلك الخطابات مثيرة للشفقة، لأنها أعطت لكائناتها مساحة من الحقيقة الواقعية. تلمبدة تقع في الحب لأول مرة. فتاة منحت حببها شيئاً من الحرية في التصرف معها لأنها لا تستطيع أن ترفض له أي طلب وتطلب أنه يفكر فيها باستمرار بنفس الطريقة التي تفكر بها هي فيه. كانت هناك ملاحظة من ماري في أحد الخطابات تقول: "أرجو أن تكون المتبقيات عندك في مثل فيج الحمير" ويبدو أن هوارس قد أحب عليها إجابة مطولة، وراح يذكر إيرمويد بحماس كبير. لأن هيونا تقول: "أنا ولقعة من أن صديقك إيرمويد دونيللي طالب متقدم وادكي) ولكسي (أنا) لا أستطيع حقا أن أعجب به دون أن أقابله... ليسني أفضل أن أسمع تفاصيل عن "عمالك أنت" فمن الواضح أن هوارس قد استهلك الكثير من الوقت في الشاء على إيرمويد

في عيد الميلاد التالي (١٧٦٧) يبدو أنهما تشاجرا بسبب إحدى الحاديات "بني أتمنى لو أستطيع أن أفهم لماذا تحب أن تلمس مثل هذه الحلقة الملوثة بالدهن" الأمر الذي يفسر دون شك السبب الذي جعل هيونا تحافظ على عذريتها عاما آخر ولأنه كان عهد ميلاد ملبثا بعمامل الإحباط بالنسبة لحليبي بعد فشلته في محاولة الإغواء، الحظطة التي قام بها في أوروبا بروك.

وصعت خطابات هيونا جانباً لكي أتمكن من دراستها فيما بعد دراسة أكثر دقة، ومضيت في عملية إفراغ الخزائنة. بالقرب من القاع، بيئت لي المحتويات أقل قوصى وأكثر ترتيباً. وقد صكومت دفاتر الحسابات في ركس واحد أخرجت كل هذه الدفاتر، وحينما أخرجت آخرها، رايت صندوقاً مغلياً أسود اللون مدفوناً تحت حزم كثيرة من الأوراق أخرجهت بجهد، ووجدت أنه يبلغ حوالي ثمانين عشرة بوصة طوفاً. وأن عمقه يبلغ حوالي تسع بوصات. لم يكن مغلقاً فتحتة، فوجدت بمسي انظر إلى الصفحة الأولى من مخطوطة كتاب كتبت بخط اليد، وتقول: "خطابات من فوق أحد الجبال" تأليف "جورج سيمشسون. د.د." عثرت على الكراسة الصغيرة التي استخدمها لجمع مادتي عن دونيللي. وكان الأمر كما قدرت هو أن الطبعة المنشورة من كتاب "خطابات من فوق أحد الجبال" كانت من تأليف ريفنالد سيمشسون. ولكن النشرة المكتوبة حول "جمعية العنقاء الشريفة" كانت من

تأليف شمري مازتل وجورج سيمشسون. د.د. وكانت هذه النشرة قد صدرت بعد عشر سنوات من صدور الرواية. ومع هذا فإن حليبي قد غير الاسم الأول للمؤلف. وتفسير ذلك عمدي أن حليبي كان قد كتبت النشرة قبل كتابة الرواية، وقد غير الاسم الموجود على الرواية لكي يتجنب تكرار ذلك الاسم الذي وضعه على النشرة

تداولت حفنة من الأوراق بطريقة عشوائية وأقيت عليها نظرة فاحصة. وعلى الفور تقريباً وقعت عيني على عبارة "جماعة العنقاء" فرائت النص لم يكن هناك احتمال للشك ففي المخطوطة الأصلية - وقد وصحت التصحيحات والتعديلات أن هذه المخطوطة كانت هي المخطوطة الأصلية حقاً للرواية - كان حليبي قد أشار إلى "جماعة العنقاء" وليس إلى "امر النعمان". من الواضح أن كان قد قرر أن يعبر اسم الجماعة أخرجت المخطوطة كلها من الصندوق. لم تكن الأوراق التي كتبت عليها موحدة الحجم. ولكن تلك التي كانت في قاع الصندوق من حجم أصغر. لم رايت أنها لم تكن جزءاً من المخطوطة. وأنها كانت مكتوبة بخط إيرمويد دونيللي. وقد بدأت الصفحة الأولى كما يلي:

حليبي العزيز

أرجو أن تصدقني حينما أقول لك. مقسماً على كلمة الشرف الأكثر صدقاً من أي كلمة. أنك مخطئ في خوفك على سلامتي. وأستطيع أيضاً أن أقول لك أنك مخطئ تماماً في تصورك عن طبيعة جمعيتنا. إنها ليست "سرية" بالمعنى العادي لهذه الكلمة. هل يمكنك أن تقول أن الجمعية الملكية سرية؟ ومع ذلك فإنه إذا حدث أن تسلس شحاذ إلى اجتماع للجمعية الملكية فإنه سوف يعتقد أنهم يتعجبون بلغة عربية لكي يخفوا عن الغرباء أغراضهم الحقيقية.

- ١٩ -

□ تملكنتي نشوة للبهدة، وأنا أحصل على الاكتشاف الكبير الذي استطعت الوصول إليه اليوم، وهو الاكتشاف الذي كنت أحلم به في لحظات يقظتي طوال الأسبوع الماضي، وهو حصولي على دليل حاسم ومؤكد على انضمام إيرمويد إلى جماعة العنقاء. وهكذا

رجعت إلى غرفة يومي وأنا أحضن صندوق الصمغ الاسود الذي وجدت فيه المخطوطات والأوراق والخطابات. استخدمت التليفون الموضوع بجانب الفراش - والذي أدخله مضيقنا بناء على فكرة صائبة - لكي أسأل المطبع إن كان من الممكن أن يرسلوا إلي إقتضاراً جميعاً في حجرتي لم يزعجني أحد أو يقطع علي وحدتي. رغم أنني سمعت الستير بمر امام باب حجرتي في طريقه إلى السقيفة. وفي خلال الساعة الثانية عرفت عن أيزموند أكثر مما عرفتني في خلال أسابيع البحث السابقة.

نرى أن تلك الخطابات كاملة. لأسباب صيق المساحة فإنها قد تحتل خمس صفحات كانت القصة التي جمعت أجزاءها من الخطابات كالتالي كان أيزموند قد عرف بوجود جماعة العنقاء من مصدرين: روسو ورستيف دي لا بريتون وكان الأخير عضواً فيها، مثلما اكتشف أيزموند فيما بعد. وكان أيزموند قد وصل نفسه إلى أفكار هرية من أفكارهم مثلما رأينا - ومن ثم وضحت تلك الخطابات توصيهاً كاملاً عرف بوجود الجماعة، ولكن لم تكن لديه فكرة عن كيفية الاتصال بها. وهكذا فقد أصدر كتاب "ملاحظات على هريسا وسويسرا" ورسم على العلاف صورة العنقاء. وأضاف إلى الكتاب قصة مختصرة تحكي تاريخ الجماعة وعزاها إلى الراهب اللوثري (توهمي والذي لم يكن له وجود)

ونحن نعرف ما حدث بعد ذلك. فقد وصلته بآثيريد صورة العنقاء الجميلة المرسومة. ومن كان أول شخص يصله بالجماعة بصورة فعلية؟ من المضحك والسخيف معاً أن تكون هي أول فتاة أدخلته عالم مباح الحب، خادمة شقيقته ماري، أو مينو. كانت مينو قد استأنفت حياتها للفعم بالفلمة الجنسية في باريس. وأصبحت عشيقاً أحد أعضاء الجماعة الذي رأى في عبادتها الخالصة من أي هوى لأعضاء الذكر التناسلية جوهر المؤمن الحق بأفكار الجماعة.

كان جليبي وأيزموند صديقين حميمين ولكن جليبي يفتقر إلى البرة الأساسية اللازمة لعضو الجماعة، السعي الذي لا يكل وراء الجنس باعتباره تجربة تسمو على أي تجربة شخصية. ورشح أيزموند لكي يكون عضواً، وأمضى جليبي يومين في باريس بصحبة أيزموند وعبدالله مؤمن (الذي يظهر في رواية "حطبات من فوق أحد الجبال" باسم عبدالله نصيب). وقد اختار جليبي هذا الاسم بعد أن استعاره من الأستاذ الأعظم لجماعة

العنقاءين^{١١} ولكن ما حدث في خلال شهرين يومين ليس واضحاً، فيما عدا أن أيزموند تعارك مع جليبي فراحل جليبي غاصاً. وبعد شهرين التقى بأيزموند مرة أخرى في لندن. فتصالحا وسوبا حلاهما. وكان ذلك بمبادرة من جليبي فيما هو واضح وحلال هدد البرارة. حدث أن لانيلا ماري وشارلوت انحسرت، أمي ليرل فلا تستفيد، اللان كانا نقيبين مع اسمة عم أيزموند، البرابيث مونتاجو. وعقدنا اتفاقاً الكاهياً (بتروجان بمقتضاه من اهتمامي على أن يقتسماهما فيما بينهما) وفي أحد الأيام طلب جليبي من أيزموند أن يحدد بما يعرفه عن جماعة العنقاء، وفي لندن لانيلا رستيف أيضاً مرة أخرى - وكانت النتيجة مشاجرة أخرى، أو بالأحرى، لمجازاً عاصياً حر من جانب هورس جليبي (وقد أكد كل ذلك تخميني السابق من أنه كانت في هدد العلاقة، من جانب هورس جليبي، مبول شاذة جسدياً). واستأجر جليبي منزلاً صغيراً في شارع جرف يقوم فيه بحوته، وكتب نشرة "حول جمعية العنقاء الشريفة" ووصلت أخبار هدد لنشرة إلى أيزموند، فالتفت جليبي لا يشرها ووافق جليبي فكريس حريف عام ١٧٧٢ لإعواء ماري انحسرت، بينما تقى أيزموند حصاراً ناحياً حول شارلوت. ولكن وقعت في نوفمبر مشاجرة أخرى، وعاد جليبي إلى اسكتلندا وكتب هناك رواية "خطابات من فوق أحد الجبال" في الفترة بين ديسمبر وفبراير التالي. كتب إلى أيزموند لكي يقول إنه يسما يقوده وعده بالآ بشر النشرة التي كتبها، فإنه شعر بأن هذا العمل الروائي الحياتي كان شيئاً مختلفاً لكل الاختلاف. (وقد كان هذا التصرف محاولة لجذب انتباه أيزموند بأي ثمن؟) وكانت النتيجة ذلك الخطاب الطويل الذي وصل من أيزموند وهو الخطاب الذي وجدته في نهاية المخطوطة.

لقد كنا صديقين - أنا وأنت - سنين عديدة - ولا أقول شقيقين، كثيرة هي نزاجات التي أفرغناها معاً، وكثيرات هي الخدمات اللواتي حررناهن من - فصلتهن بملاطفاتنا وأرجعاتنا المتبادلة فلماذا، إذن، تختار هذا الوقت بالذات لكي تنهمني بأنني أتعامل على الوجهين؟ ما الذي حدث لتلك الأخوة التي أقسمنا عليها في الفندق في هاندرغ، حينما مررت ذراع شخص سافل، وضربت أنت ساقياً آخر على عيبه حتى أغميته؟

١١) انشأوا جماعة لسيدي الحسن من العنقاء في القرن الحادي عشر في شون العرق وغيره. وكان من أهدافهم إسماعيليين. سحبت حوته وجماعته العديد من الأساطير. وذلك بسبب سرية تسميهم واحتمانهم بقلعة (الوث) والتي اعتبرها النصارى المسيح حبه الله العظمي. فكانت قس نصيباً وجماعة العنقاءين له منظره خاصة متواجده نسخة منه في يد ماري حركته رغم سرية الحركة في مراجعتها لاوى

تبدو هذه التكريرات عن الصداقة القديمة. عن وحيات الضمان التي تناولها معا
 ونساء اللواتي اشتركا في اغوائهن. تبدو شيئاً لا قيمة له وتصرفاً لا حدود منه من جانب
 إيرمويد كان هوراس حليبي محبوباً من عنصر أكثر خشونة كان هو يعرف ذلك
 وكان ما يقوم به في تلك اللحظة شيئاً اقرب إلى استرار إيرمويد. - وكانا - كلاهما -
 يعرفان ذلك كانت علاقتهما علاقة أستاذ بتابعه نقد التقيا حينما كان التموق -
 إيرمويد قد اكتشف مباحج الحسد الأنثوي. فراح يعط حواريه الحليد عن موضوع إعواء
 النساء بحرارة ثوري وحماسه. ولقد رأينا كيف استحباب حليبي لهذه المواضيع - في قصته عن
 فيوب ومازي - ومن قائمة الأسماء التي ذكرها إيرمويد. يمكننا أن نستخلص أنهما اشتركا
 معا في عدد كبير من العشيقات في غوتبعين ولكن إيرمويد له يكن مهتماً بصورة أساسية
 بالحس في حد ذاته. بالنسبة إليه كان الجنس ممزاجاً لحل لغز معين. وكان هذا الغز هو
 ما يثير اهتمامه ولكن هوراس حليبي من ناحية تكوينه المزاجي - كان يشابه في كثير
 من الجوانب مع كازانوفا. الذي كان قد قابلته ذات مرة في أوترخت كان يحب طيبات
 الحياض. وقد أحب من بينها النساء. ولم يستطع أن يفهم لماذا لا يستضئ إيرمويد - أستاذة في
 فن الإعواء - أن يعيش في لندن عاصمة إنكلترا ليشارك في نادي بران الحبيب الذي كان السير
 فرنسيس ديشوود قد ترك رئاسته بالنسبة لحليبي كانت لندن هدد - مدينة شريديس
 وويلكيز وداشوود - هي أكثر مكان في العالم سحراً وحاذية. صراع الديوك وسباق الخيل
 ومسابقات اللاكمة بالقبضات العاربة (رياضة كانت جديدة تماماً) ولبالي دروري لين.
 وصحة النساء الجميلات. فما الذي يريده إيرمويد أكثر من هذا؟ لماذا أصبح مفسداً لجمال
 اللعبة إلى هذا الحد؟ وقد كشف إغواؤهما المشترك للشقيقتين انجست عن أن زمايتهما كانت
 قوية كمعهدهما ابداً. فمن كان هذا العربي الذي لا يقاوم والذي يتحلى الفرنسية بطلاقة
 كاملة والذي لا يبدو أن من الممكن إبعاده عن إيرمويد؟ وحينما اعترف إيرمويد أخيراً بأن
 لرجل ينتمي إلى جماعة العنقاء. بهت حليبي كان إيرمويد ما يقنا يحسنه عن هذه الرابطة
 الأخوية التي تربط أعضاء الجماعة. فقد سحرته منذ حدث عنها روسو ولكن حليبي له
 بصنق تبدأ بوحودها. وهاهو إيرمويد الآن يصبح عصواً فيها! لقد فسر "ذلك" كل شيء أن
 إيرمويد لم يعد مطاردة حراً للنساء لأنه وقع بين أيدي جمعية - سرية يديرها بعض
 الأناجب. كان هذا العربي العملاق ذو الندبة الواضحة نموذجاً لأعضائها. كان رد فعل
 حليبي مزيجاً من الخوف والاشتياق والغيرة - مع علية هدد شعافطة الخيرة فراح يتحدث

بصرحة في كل مكان رآه في لندن عن جماعة العنقاء. - ولابد أن حونسون التقط في حد
 هذه الأماكن ما كان يقال عن إيرمويد همساً وفي الشائعات - فكتب نشرته. ولو أن إيرمويد
 كان أقل إخلاصاً لصديقه لكان قد عاد إلى بيرلند وقطع علاقته به ولكنه بدلاً من هذا
 حاول أن يهدئ ذائرتة. وربما كان الأصدق أن يقول أنه حاول أن يفهم حليبي ما طرا عليه
 من تغيرت منذ أيام ووحودهما معا في غوتبعين

"كنت أؤمن دائماً بالرأي القائل بأن هذا العالم في فراغه عالٍ سحري. وأنا إذا لم تكن
 سحرة فإن الخطأ يقع على عاتقنا نحن. إن ديدرو يجعل دالامبير يقول لماذا نكون على ما ن
 عليه؟ لأن هذا يبدو لي في صورة أكثر الأشياء تحكيمية وإطلاقاً في العالم" إنني قد أكون لي
 شيء أو في أي مكان قد لا يكون شكلي أكثر ثباتاً من قبضة دخان تتصاعد من بار مشتعلة
 في صباح ساكن الهواء. قد تبدو قبضة الدخان ساكنة ثابتة مثل عمود من المرمر. ولكن
 يعرف أن أقل هبة هواء يمكن أن تغير شكلها وأن تبددها في الفضاء دون نهاية. لقد جلست
 ذات صباح على أحد الجسور ورحت أنظر خلال المياه الذي يسقط بالقرب من مونت بلانك.
 وتملكتني فجأة فكرة أن الناس تحاصرهم قوى يعحرون عن فهمها. ومع ذلك فإنهم
 يتوهمون أنهم يألون بقاء الصخور في العصور التي عاش فيها الناس كصيادين ومحاربين له
 بكر لديهم من الوقت ما يكفي للتوقف والركود. لقد أدر كوا طبيعتهم الخاصة. ولم يظنوا
 قبضة الدخان عموداً من المرمر وفي هذا الجانب يمكن أن نقول أنهم فهموا العالم بشكل
 أفضل من فهم مستر ديدرو أو مستر فولتير له. ولكن الأبله وحده هو من يجب أن يعود إلى
 الحياة التي عاشها التوحشون الرعاة. وبالنسبة لنفسه. فإنني لست بالصيد ولا بالحارب
 ونكتني طالما لاحظت أنني حينما يعرق مهري للنطلق في بيته الذي كان ينتظره. سواء كان
 ذلك البيت بين فخذي سيدة ذات لقب رفيع أو خادمة في إصطبل. فإنني كنت أرى لحظتها
 أن العالم ثري دون حاجة إلى برهان. وأسه دافني ولا نهاني تسقط العمامة التي تعمي عن
 عيني. وينزاح النفل الذي يكبل حواسي. فأرى في لحظة واحدة وعلى التو أن الإنسان قد ترك
 ما كلفه له ميلاده من حقوق يها للسارقين والناهبين ولكن إذا كانت هدد الروية
 السحرية هي حقي بحكم المولد. فلماذا يسعي علي أن أقتلها في شكل شدرات متعربة غير
 موصولة. مثل كلب يختطف مرقاً من اللحم بلقيها. تبه على الأرض سيده؟ إنها ملكي. إن
 مسكها وأقبح عليها بالنهمين؟

هذا ما أمنت به دائماً، وأنا أعرف الآن ما يكمن من اللاهوت لكي أعرف أن حق الولد قد هو ما فقدته البشر بسبب خطيئة آدم ولكن صديق لنا أن نأمل في العثور على ما فقدناه لا تبحث المنهجية المنظمة لقد أمنت دائماً بأنه لابد أن يكون ثمة سبيل لاستعادة تلك القوة الضائعة ولقد اكتشفت الآن أن هناك رجالاً كرسوا حياتهم للبحث عن هذا السبيل، وأنه يمكنهم أن يعلموني شيئاً من أساليبهم فهل يمكنك حقاً أن تصدق أن مثل هؤلاء الرجال يمكن أن يكونوا أشراراً، وأن هدفهم هو أن يستولوا على روحي الخالدة؟ وما الذي يمكن أن يعنيه هذا حتى ولو كان صحيحاً ما تقوله عنهم؟ لأنني، ولا أنت، أصدق أن الروح يمكن أن تسلم رهينة أو سبية، إلا إذا أسرتها الملائكة ونقطة وكثرة الاهتمام بما لا أهمية له

كلا، إنني أسعى وراء شيء أكثر أهمية بكثير من تيارات الفتيات اللواتي لم يمتسن بشر قلبتي.

ولكن ما الذي كانت جماعة العنقاء تفعله بالتحديد؟ بعد إيرمويد عن هدفها الأساسي في جملة واحدة: ليس هدفنا هو توليد الأحاسيس الدينية، أو الإحساس بها عن طريق التلذذ الحسي، وإنما هو الصعود بالتلذذ الحسي إلى مستوى الأحاسيس الدينية ولكن كيف كان من المفروض أن يتحقق ذلك؟ يعتمد إيرمويد أن يكون عامصاً في هذا الصدد كان لديه السبب الذي يدفعه إلى عدم الوثوق في جلبني. ولكن كان من الواضح أنه حينما جاء إلى غلوسين - في إبريل عام ١٧٧٢ - أخبر جلبني بالتفصيل أكثر بكثير مما كان على استعداد لأن يسجله كتابته، وكتبت جلبني بدوره بعضاً مما أحده به إيرمويد، سية أن يستخدمه كمادة في كتابته الروائي الذي أزمع كتابته ووطن أنه من المستحيل أن مثل في أن جلبني كان يموي دائماً أن يمشي الكتاب. وأنا شخصياً مزرد في أمر إيدنته إن الكتاب عمل جدير بالإعجاب، رغم كل ما يحتويه من سخافات عابثة. وقد يكون من حق المرء أن يقول أنه يكون ما أو كله هوراس جلبني من مهام إلى الأجيال القادمة. فهل يمكن أن يوجه اللوم إلى كاتب لأنه لم يدمر أحسن أعماله بيده؟

من خلال مذكريات جلبني - التي سوف أخصها أكثر مما تقتطها كاملة هنا - يبدو واضحاً أن جماعة العنقاء تشترك في الكثير مع جماعة "الصلب الوردي" أو لاسونيين الأحرار. كان هناك أستاذ أعظم، لديهم أشبه بالبابا، تنتخبه لجنة تعرف بـ "لجنة الشرفين"، ويسمهم بالإنكليزية The dominoes حامت ربما من كوكبهم كانوا يرتدون عباءات ذات

القبعة تعطي رؤوسهم، من النوع الذي يرتديه الرجال في الحفلات التكريية وهناك لكل بلد مشرف واحد. في فرنسا كان المشرف هو الكاتب شوبيرول دي لاسكلو، مؤلف رواية "العلاقات الغرامية الخطيرة" وقد أصبح إيرمويد فيما بعد هو المشرف في إيرلندا

والشيء الواضح تماماً، من مذكريات جلبني ومن كتابته "خطابات من فوق أحد الجبال" هو أنه كان هناك نوعاً نوع من الخلاف الأساسي في الرأي داخل الجماعة حول بقضة جوهرية من نقاط القوانين الأساسي كانت الجماعة تؤمن بأن الإنسان ينظر إلى معنى العالم باعتباره "لفراً سحرياً" بصورة أكثر دواماً من خلال الفعل الحسي مما يحدث من خلال الدين أو الفن (والكلمة اتهامها هنا هي كلمة "الدوام" إن أحداً لم يمكن أن ينفصل عن حقيقة التعليلات الصوفية من أنواع النشوة يمكن أن تبلغ أعماقاً أعظم من أي أعماق يمكن أن يبلغها الإنسان عن طريق الجنس ولكن الإنسان من ناحية أخرى، يستطيع أن يقترب من أسرار الجنس بكل يوم).

وقد لاحظ لي أن كل أعضاء الجماعة وافقوا على أن مجرد الاتصالات الجنسية غير الشرعية، دون سيطرة، ستؤدي إلى الصحر واللل ولكن كان هناك اختلاف كبير في الرأي حول العلاج المفترض لذلك كان التقليد الذي اتبعته الجماعة - منذ أربعة قرون - هو أنه لابد أن ينظر إلى النساء باعتبارهن أوعية تحتوي السر الأعظم القامض وقد دفع إياه ورهبان جنوبي روسيا بهذه الفكرة إلى أكمل تطور لها في القسمة الأخير من القرن السادس عشر. ومن جانب آخر، فإن الهولنديين، وهم جماعة نشأت بين قبائل الألمان (استمد اسمهم من اسم ربة الزواج التبتونية)، كانوا أقرب إلى أولئك "الرهبان" الأوائل الذين ارتكبو جرائم الاعتصاب كلما أمكنهم ذلك، فقد آمنوا بأن الجنس يصبح أكثر إشباعاً ووصولاً إلى السر القامض كلما كان عنيفاً ومماجناً وفي القرن الثامن عشر، كان الانضمام إلى جماعة الهولنديين، يعني أن العضو يحاول ولوج أكثر عند ممكن من الأعضاء الأنثوية، والأفضل أن تكون لعنراوات. وكان هوراس جلبني هولندياً دون أن يعرف ذلك، وكذلك كان إيرمويد في أيامه الأولى. وكان لاسكلو هولندياً، وكذلك كان الأستاذ الأعظم، عبدالله يحيى، وخلفه هندريك فان جريس، أما الرجل الذي كان مسؤولاً عن انضمام إيرمويد، عبدالله مؤمن، فقد كان ينتمي إلى تقاليد بناء الكنيسة الروسية ورهبانها الهيكوميين Hegumenos.

وكان الهيكومسيون الأوائل الذين أخذوا اسمهم من قائد لهم الأول (الأب الراهب ضرود من الليبر. والذي كان عضواً راهباً بين جماعة من رهبان الأبراج) قد احتاروا فتأذ صغيرة حميلة مكنوع من الكاهنة الأولى. واحتاروا اثنتي عشرة فتأذ أخرى بوصفهم وصيغاتهم. وكانت هؤلاء الأحرار كاهنات أيضاً، وغلبت النسوة بوصفهم كاهنات مقدسة بكر الأعضاء الذكور في الجماعة كانوا يتمتعون بقدر معين من الحرية مع هذه الكاهنات مقدسة، وهي الحرية التي كان من الممكن حتى أن تصل إلى مرحلة الجماع الجنسي الكامل ومن حل توصول إلى هذه المرحلة، كان على ذكر أن يصوم ثلاثة أيام من كل أسبوع طوال عدة شهور قبل أن يتم الاتصال، ثم يمر بسلسلة من المراحل المحددة بدقة يقرب فيها من تسر بالتدريج فإذا استطاع أن يرفد عارياً على درحات "العبد" الحجرية في ليلة شتائية من العسق حتى الشروق فإنه سيسمح له بأن يقوم بدور الحادم ثلاث من الكاهنات لمدة ساعة كل يوم، فيحمل البهن الطعام ويطلق حرارتهم وكان يسمح له بأن يأكل بقايا الطعام وبعد مريد من الاختيارات، تنصهر عرس شطابا من انحنس تحت أطافره، ولسم نفسه بالنار عند الأجزاء اللينة من بداعه، فإنه سيسمح له بأن يصيح، "حادماً خاصاً" ثلاث كاهنات أحرار، فيعسل ثيابهن، ويخيطها ويعسل نهن شعورهن كانت إفرات احسادهن تعتبر أشياء مقدسة، وكانت وظيفة هذا الحادم الخاص أن يأخذ تلك الإفرات إلى مكان قصي من الغابة فيدهنها هناك حتى لا يستطيع أي ذكر آخر من القبيلة أن يعثر عليها، ولكنه - وحده - كان يسمح له بأن يلوث نفسه ببرازهن، ثم يحمم حسده بمولهن وهذه ميزة كان يحسد عليها كل ذكور القبيلة الأحرار وكان مزج السائل المتوي للعباد بإفرات "المقدسات" ينظر إليه باعتباره المرحلة الأولى من مراحل الاتحاد بالكانس القدس فإذا استطاع أن يعمر بالزبد من المهام المتزايدة الصعوبة والألم، فإنه كان ينال الإذن بممارسة المزيد من الامتيازات، حتى قد يصبح واحداً من الرجال الثمانية الذين يقومون بدور "الخدم الخصوصيين" للكاهنة الأولى المقدسة نفسها وفي هذه الحالة فإنه قد يكون الشخص الوحيد الذي يختار بالقرعة من بين الثمانية لكي يشترك معها في طقوس الاحتفالات التي تقام ليلة اكتمال القمر بعد الحصاد، ثم يحامعها مرتدياً جلد عجل. كان عضو الكاهنة الأولى وعضو عابدها الذي شاركها في إقامة الشعائر بحفاوان بقطعة مقدسة من سبيج التيل بعد الاحتفال، ثم تمزق قطعة السبيج وتقسّم إلى ثمانية أقسام ويعطى كل

واحد من الخدم الثمانية قطعة منها، يعلقها كل منهم على رأس عضوه طوال ما بقي له من زمن يقصونه في وظيفتهم السامية

وأطر أنه من الممكن أن يرى أن الفكرة الأساسية لدى الهيكومبيين، كانت هي محاولة بناء حالة من الشق والتوتر الجنسي مرتبطة بنولته الديني، وأن كل مرحلة صعبة أو مؤلمة كانت مرسومة بحيث تمنع الطامح في الوصول من أن يصبح بأي شكل مسترحب أو غير مبال بمهمته فإنه إذا فقد حالة تعاظه في أي وقت في حصرة الكاهنات، فإنه يجلد ويعد إلى القبيلة محقراً مهاناً، وكان معنى هذا أنه أصبح يعتمد على حباله إلى حد كبير ويجب أيضاً أن يلاحظ أن وضعه الحقيقي كان أشبه بوضع حادمة إحدى السيدات، فكان يعامل باعتباره امرأة، حتى يشعر بالهانة، وحتى تصبح ميوله الجنسية قوية ومنمرة، وتقدّم الفكرة كلها على أنه لا ينبغي أبداً أن يعامل الحارس كشخص، "فوق المستوى" أو كشخص عادي، أو أن ينظر إليه كشخص، من التسلمات، كل شيء مرتبط بشعائر الطقوس أصبح مقدساً محبباً، ومنيراً جسيماً وأصبح عضو الكاهنة هدفاً مقدساً مهاناً وينظر كل ذكور القبيلة بحسد إلى الخدم الثمانية لأنهم يحملون على رؤوس أعصانهم قطعة السبيج المبللة بإفرازها الجنسي

وقد فصل إيرموند تعاليم الهيكومبيين على تعاليم اليهودانيين. وقسم كبير من الخطاب الطويل الذي كتبه إلى حليبي مكرس للمناقشة ضد النوع من الإغواء الذي كان إيرموند يدعو له من قبل، ويصل يردد أن هذا النوع ليس له تأثير دائم، أنه يؤدي إلى الإشباع.

والقصة التالية تعد واحدة من أكثر قصص العلاقة بين إيرموند وحليبي أهمية ومن أسوأها تسجيلاً. وقد أمكنني أن أجمع أجزاءها من عدة مصادر، بما في ذلك بعض خطابات إيرموند - تلك التي وجدت في الصندوق في السقيفة - وخطابات وبومات كتبها هوراس حليبي وخطابات أخرى كتبها ماري وموريس أنجسز. أما القصة التي يمكن استخلاصها منها فهي كالتالي:

حينما تم الصلح بين إيرموند وهوراس حليبي في لندن في شهر أكتوبر عام ١٧٧٢، كان إيرموند يقيم في منزل ابنة عمه صوفيا في سانت جيمس. كانت صوفيا تسمى صوفيا بلاك وود بعد أن تزوجت السير آدموند بلاك وود، وهو مالك ثري لأحد مصانع

غرب. كان والده أحد من ساندوا الموسيقار هاندي وكانت لادي ماري وشارلوت أنجست نعيمان مع إيرانيث مونتاعو. صاحبة الجوارب الأزرق، التي كانت تلقيهما علم الملك بلنجم. وافقت إيرمويد بشارلوت اللبيدة الثريثة، التي كانت عند ذلك في التاسعة عشرة ونصف من عمرها. أما جليبي فقد أسرته لادي ماري. الدكية الجميلة والأكثر تماكاً نفسها من أختها. رغم أنها كانت تصعها بعام كامل (وهذا الاختلاف بعمر بلفة مودحية عن الاختلاف بين شخصيتي: لرجلين. إن إيرمويد الماهر المسيطر. قد فضل الحلاوة والراء. وجليبي غير الوافق بنفسه تماماً. دوخته الأكثر ذكاء وثقافة بين الاثنين).

وببدو أنه من المحتمل أن جليبي ما كان يمكن أن يرمي إلى مثل هذا الهدف البعيد ولا تشجيع إيرمويد. فقد كان يشعر براحة أكبر وهو يغوي من هو دونه في الوضع الاجتماعي. أما ما كان مصدر التأثير على إيرمويد. فهو أن أكثر الرجال نباهة كانوا يحلون من ابنتي أنسجت لما اشتهر عنهما من ذكاء وروية كبيرة. كانت جماعة لرياضيين تعقد مراهنات سخيفة عليهما. وكانوا يشعرون بصعوبة منال الفتاتين لراحتي العقل والمركز الاجتماعي. أما المحرمون من الشباب - الذين من المحتمل أنهم كانوا يبدون في صورة فريية من شخصية "دارسي" التي رسمتها حين أوستين أو مستر بنجلي. فإنهم كانوا يغمرون الفتاتين بكلمات البناء والمجاملة وكانوا يحاولون فتح المناقشات لنقابية معهما. أما استجابة إيرمويد فكانت أكثر بساطة. لقد فكر فيهما معاً باعتبارهما فتاتين لنبنتين، وقال لجليبي أن الرجل خبير بأن يقضي ليلة مشهودة بينهما معاً.

وكان جليبي يعرف أنه حينما يقول إيرمويد شيئاً من هذا القبيل. فإنه لا يكون يعمر عن مجرد أمنياته التي لا سبيل لتحقيقها. ولو كان هناك أي رجل في لندن قادر على إغواء غني أنجست. فإن هذا الرجل هو إيرمويد. كان يتمتع بالمؤهلات للنائية لإغواء الفتات اللققات المدربات على التعامل الاجتماعي. العقل الجيد. فقد كان هووليتشسج لبرز والفضل طنية الرياضيات بين جيلهما في غوتيفين. وكانت ابنتا أنجست تعرفان ليتشسج بالفعل. فقد حدث أن قدم إليهما عن طريق شخص لا يقل مرتبة عن الملك نفسه. في هامبتون ضور. وفصحفت الفتاتان منظار الملك العظيمة هناك تحت إشراف ليتشسج. ومن الواضح أن إيرمويد لم يكن يجد صعوبة في أن يلتقي كثيراً بأبنتي أنجست. طالما أنهما كانتا نعيمان عبد البرانيث ابنة عمه صوفيا. وكان مسطر إيرمويد الحاص. الذي قام بصنعه مصع

شوارمر في لندن - هوياً قوة غير عادية. فأقامه في حجرة السفينة في منزل صوفيا بلاك وود ونست رسومه النوضيحية وحرافضه بالدمايس في الحائط. ثم دعا البرانيث مونتاعو وصبيتهما الساحرتين لدراسة النجوم معه ومع ليتشسج. وكان البرانيث متلهمة إلى حد العمل. وكان من حسن تصرف إيرمويد أن أعد وحية صغيرة في "مراقبه". من دحج الحجل وطبور العاية (نقار الخشب) والسمان. والخنبرير الإبرلندي وبعض الطيبات الرفيقة الأخرى. طرحت السيدات أسئلة عديدة. وحققن في النظار لمدة تزيد على الساعة. ثم انتقدت المحادثة إلى الفلسفة. وراح إيرمويد وليتشسج يتناقشان في لينز وفولنير وهيوم. وفي المقام الافتتاحية للألماني الكبير ليمانويل كانت التي يقول فيها: الحقيقة غير قابلة للمعرفة. والحواس هي التي تملي شكل معرفتنا لكل الطواهر. (كان كتاب "النقد" الذي تطورت فيه هذه الآراء لم يكن قد صدر بعد. إذ لم يصدره كانت إلا بعد ذلك بتسع سنوات) تأثرت البرانيث مونتاعو تأثراً عميقاً. وقالت أنها لم تستمتع أبداً إلى مثل تلك المناقشة لعبقة الشاملة للقلقة. كلا. ولا حتى من بيرك وجاريك. ولا حتى من جونسون نفسه. لقد كانت شيئاً تقبلأ على الراس. تلك الفلسفة النقدية الألمانية. ولكن التأثير المطلوب كان قد تحقق وقالت البرانيث مونتاعو فيهما بعد أن إيرمويد كان واحداً من أكثر "العازبين" نشر نباهة في لندن. وافقت إيرمويد بالفعل بأنه قد ترك انطباعاً طيباً عند شارلوت. أحد يده للحظة متظاهراً بأنه يساعد على الهبوط في ركض مظلم من السلم. فسمحت له بأن يستلقي يدها في يده لمدة دوان أكثر من اللازم

ولم يكن هوراس جليبي حاضراً في تلك المناسبة. ونحن نعرف السبب بالتحديد. لأن إيرمويد بفسره في واحد من الخطابات الموجودة في مخطوطة "خطابات من فوق أحد الجبال". كان إيرمويد يعرف أن جليبي لن يستطيع أن يترك تأثيراً قوياً على السيدتين. لأنه على شيء من الخجل (ولكن ما كان إيرمويد يعنيه بوضوح هو أن جليبي ما كان يمكن أن يلاحظه أحد وسط جماعة تضم ليتشسج والبرانيث مونتاعو وهو نفسه) كان عليه أن يحسن إعداده "مدحله". واكتشف إيرمويد ما كانت ماري أنجست تقرأ. وأمضى جليبي أربعاً وعشرين ساعة في تفضص الكتاب ووضع ملاحظات دكية. حرج إيرمويد للركوب في الحديقة مع الشقيقتين بعد يومين من ليلة المنظار. وحكى لهما عن شخصية صديقه جليبي الرفيق الخجول المبيل. قال لماري أن جليبي قد شئ بأسلوب ديني متزمت. وأن معرفته بالفلسفة الألمانية تدمر عقيدته. ثم احتزع حكاية مؤثرة بشكل خاص عن جليبي في

تفاندرية تشاوت. وهو يسأل وتدموع في عيبيه. "هل كل هذا الحال مجرد نصيب
تسكاري لفكرة الإنسان على أن يجد نفسه؟" وهكذا فإنه حينما أخذ حليبي لزيارة
نيربيت مونتاغو بعد ذلك سبوعين، لم تكن هناك حاجة لتشجيع ماري لكي تنهيه به فقد
سهرت نول فرصة لكي تأخذه إلى ركض هادئ، حيث تستطيع أن نسائه بإخلاص عن
شكوكه وكانت المقابلة أكثر نجاحاً مما كان يتوقعه أي منهما فقد وافقت على أن
نخرج نركوب مع حليبي في الحديقة في اليوم التالي، وفصت الليلة في حمض الحنج التي
وريف نلر وتبلوتستون للرغبة على وجود أثر صاعقة الله في الطبيعة. وفي مقابل هذا، قام
حليبي ببعض العمل التأثيري لصالح أيزموند، بإشارات غامضة عن أحزان سرية وحب
مفقود ولا شك في أنهما كانا يكومان فريقاً قوي التأثير

وتم اختيار أيزموند لكي يشكل مكاناً مثالياً بتكليفه بتمصبة قدر كبير من الوقت
مع شارلوت. كانت النيربيت هي ابنة عمه، وكانت المتأثر قد أصبحت صديقتين لصوفيا
بلاك وود. ولم يكن بمقدور أحد أن يظن أنه من غير الطبيعي إذا سارت شارلوت من ماري فير
حتى سالت جيمس لكي تزور صوفيا وتناقشها في الثوب الذي ينبغي أن ترتديه في حفلة
تجريف التي تقيمها لادي ساندويتش. فإذا لم تكن صوفيا في البيت، فلماذا لا نمضي ساعة أو
سجوها في مناقشة الفلك وليتأثيرها مع ابن عم صوفيا؟

وعندما وصل شهر أكتوبر إلى منتصفه، كانت شارلوت تعرف لماري بأنها ستكون
مبالاة إلى القبول لو أن أيزموند تقدم لخطبتها. ولحت ماري بذلك إلى حليبي الذي أخبر
نيرموند، ودهش حينما لم ير أن صديقته بغمرة سرور من نوع خاص لسماعه هذه الأنباء.
ونكى أيزموند كان يرى الأمور بوضوح صافٍ إلى درجة ككاهية لكي يرى أن الموقف كان
يتطور بسرعة أكثر من اللازم، وأنه بدأ يبدو موقفاً خطيراً. فإذا كانت صوفيا والنيربيت
وماري قد عقدن عزمهم على القيام بحطية، فإنه قد يجد نفسه مرتبطاً بخطوبة قبل نهاية
لوسم كان الوقت قد حان للقيام بمراجع مؤقت.

عند هذه النقطة قرر هورس حليبي أن يريد من وصوح قصته عن "الحب المفقود"
وأن يصيب فيها تفصيلات ضرورية فاسر إلى ماري أن أيزموند مرتبط بابتنة ككاهن
سويسري، وأن والد أيزموند قد اعترض على فكرة ارتباط ولدته ناسية فسيس كالمبي وأنه
هدد بجرمانه من الميراث. وأن أيزموند، مثلما قال جيبون "تنهج كما يتنهج العاشق، وأطاع

كما يحذر بالآس أن يطبع". وأن العاشقين قد انفصلا منذ ما يقرب من العام، وأن الفتاة قد
كثرت إلى أيزموند تقول له أنها قد خطبت إلى تاجر سبيد من جنيف. ولكن أيزموند قد
بلغه أخيراً أن هذا غير صحيح، وأنها ما تزال دون زواج ونها لم تحطب. وأنها ربما كانت
تنتظر أيزموند.

استبد الغضب بأيزموند حينما أخبره حليبي بما فعله. لم تكن لديه رغبة في أن يتر
غيره شارلوت ولا أن يشعرها بالنعاسة. وإنما أراد فقط أن يختمها لمدة طويلة حتى تنس منه
الحاصيات. أما الآن فقد اعتقد الجميع أنه أراد أن يعود إلى سويسرا لكي يلقي نظرة أخرى
حديدة على حبه الضائع. ولم يكن من صالحه أن ينكر وجود مثل هذا الحب، فإن أحد
كان ليهذه.

وفي إحدى الأيام عندما كان راكباً مع شارلوت في مارلبون هيلدز سالتة أن يظل في
لندن حتى يستطيع أن يصحبها إلى حفلة لادي ساندويتش. وعرف أيزموند أن هذا التصرف
يمكن أن يكون قاتلاً، فشرح لها استحالة ذلك. وعادت شارلوت إلى البيت باسكية. وفي اليوم
التالي ذهبت ماري أنجست لزيارة صوفيا، واشتركت الاثنتان في الإلحاح عليه للبقاء. وقالت
صوفيا أنه من السخف وقلة العقل أن يرحل لندن في قمة الموسم، وأن عمله في أيرلندا يمكن أن
ينتظر. وحاول أيزموند أن يقلل من الضغط الموجه إليه بالقول بأنه سوف يعود إلى لندن
حالما ينتهي من أعماله، لكن لم تكن في هذه أية فائدة. فقد كانت شارلوت مقتنعة بأنه لا
عادر لندن الآن، فإنه لن يعود إليها ثانية أبداً.

جاءت إلى المنزل في عصر اليوم التالي وكانت صوفيا بالخارج - وحاولت إقناعه
بالبقاء. واعتذر لها أيزموند بلهافة قائلاً أنه لا بد أن يرحل للقيام ببعض الأعمال العائلية
الضخمة المتعلقة بالزراعة. سالتة بصراحة عن طبيعة هذا العمل، ولماذا لا يستطيع أن ينتظر.
ثم لجأت إلى البكاء، ووجد أيزموند نفسه بلاطفها ويهدنها وبربت عليها. كان في الرابعة
والعشرين وكان كثير الشكوك. وكانت هي فائقة الجمال وقد كتب يقول في خطاب إلى
لاكلو بعد ذلك بعدة سنوات،

لقد كنت لؤمناً بالراي القائل بأن أكثر الفتيات فصيلة وبراءة، هي أولئك
الواتي دربتن طبيعتن أفضل تدريب على فن الإعواء، فإذا وقع في الحب، فإن مقاومتهن
تكاد مستحيلة. والمرأة الوحيدة التي وقعت أنا فيها فريسة للإعواء، حدثت على يد عنراء من

هذا النوع. وقد حدث أن صديقاً غيباً جعلها تصدق أنني أنوي أن أسرع إلى الزواج من امرأة أخرى. كنت قد برهنت لها على حداثتي بحبيها وحانت ذات يوم - كنت فيه وحيداً في المنزل. لكي تقبلي وحتى تلك اللحظة لم أكن قد فعلت معها أكثر من تقبيلها وحاولت في البداية جاهداً وبأمانة أن أقنعها، فقلت لها أن صديقك كان أبله، وليني لم أكن أنوي أن أذهب إلى سويسرا فسألني عن السبب الذي يجعلني - في هذه الحالة - مصراً على الترحيل والذي يمنعني من البقاء عدة أسابيع أخرى. ثم راحت تسكي فأخنتها بين ذراعي حبيما فاستهزئت عن البكاء، ثم بدأت تقبلي بشغف وحرارة وحتى أنني بدأت أفسأل عما إذا كانت فاصلة حقاً بالشكل الذي كانت أظنها عليها. دليبي توقف على أن الوقت قد حان لنوقف عن تبادل القبلات، ولكن حبيما حاولت أن أهبطها، أغلقت فمي بالقبلات وصمتني بشكل أقوى. ثم قالت أنها تشعر بأنها على وشك الإغماء، ثم جلست على أريكة، فقلت أنني سأذهب للبحث عن بعض الماء، ولكنها رجعتني أن أبقى وأن أحلِسَ إلى جانبها. والآن، هل يمكن أن تعتقد أنه من غير العقول في ظل تلك الظروف ألا أفترض أنها لم تكن بريئة أو أنها لم تكن تنعم بالتأثير الذي أحدثته بالفعل على العصور الذي أعيدتها به؟ دليبي منطقتي على أنني إذا جازيتها بما اكتشفته عن بوابها، فربما صدمت وتخلت عن نواصعها ولجأت إلى التظاهر الكذب. ولذلك، فإني بعد أن ركعت إلى حوارها ووضعت رأسي على صدرها، دسست يدي تحت صدر ثوبها المفتوح وحررت أحد نهديها من حمائلته المشدودة. وحينما لم تحتج، تركت أنها سمحت لي بذلك لأنها أحست أنها بهذا الشكل تكسبي وتأخذني من الفتاة لوهمية التي تنتظرني في حنيف. وثار قصوني لاكتشاف الذي الذي يمكن أن يصل إليه بها هذا التفكير. تحولت بشفتي إلى قدميها لم تكن ترتدي جورباً وكانت ساقها ناعمتين ليبتين. وحينما بلع رأسي ركبتها، دسست أصابعها في رأسي، فظننت أن هذا كان بهدف منعي من القيام بأي تقدم آخر، ولذلك فقد تقدمت فعلاً ولكن بتصميم أشد. ولكنها لم تبذل أية محاولة لإيقافي، حتى حينما رفعت ذبول ثيابها الداخلية إلى أعلى، حتى وسطها وكشمت عن تل صغير باهت (...) قالت الآن "لا، لا" وحركت رديها إلى جانب من الأريكة، ولكنها - فيما عدا هذا - لم تبذل أية محاولة جادة لمعي (...) ورفعت بعد ذلك في مكانها، وقد احتضنتني بقوة، عارفة أنها ليس لها الآن أن تخشى أي هجران، وربما كان من العقل أن تستطرنني أتقدم لحظتها، شعرت بأنها مكسبت انتصارها بسهولة بالغة. ولذلك فإني بعد أن استعلت فواي الحبيوة، ذهبت إلى الباب فأغلقتة بالفتاح وتقيت مريداً من كتل الخشب في

النار. ثم علت إليها - كانت واقفة تنظر في مظار فلنكي كان منصوباً على حامل محتمل - وشرعت أحلِ أشرطة ثوبها. احتجت ونكسني تجاهلتيها، لأنني شعرت بأنها إذا كانت قد عزمتم على أن تصبح زوجتي، فإن عليها أن تبدأ في أداء واجباتها على الفور. وله نكر الاحتجاجات مقصودة بشكل جدي، لأنها سمحت لي بأن أحلج عنها كل ثيابها قطعة قطعة بعد ذلك جعلتها ترفد أمام نار المدفأة، ورحلت أبدل جهودي مع نهديها بإرادة قوية..

وبعد أن سمحت لها بارتداء ملابسها، هبطنا إلى الطابق السفلي ودققنا الجرس عند للنشائي، وأمصبنا نصف ساعة نتحدث عن الزواج وبعد ذلك، ولما كنا ما نزال وحيلبين، فلت لها أن تأتي معي إلى حجرتي لكي تبدل محاولة أخرى واحدة، فحانت معي على غير رغبة منها

هكذا نعرف كيف تحقق ما كان يبدو من الظاهر مستحلباً، وسلمت لادي ضروباً تحسرت عذريتها لرجل كان مصمماً على أن يرفضها وبدراً ما تدخل حطبات إيرمويد ر لاكولو إلى مثل تلك التفاصيل الجسدية. فقد كان كل من الرجلين مهتماً أكثر بمباشرة الحصانص المسية للنساء فهي من الرابعة والعشرين، ثم يكن إيرمويد يملك الحيرة الكافية لكي يدرك أن شارونوت انسحرت وكانت تتمير ببعض حصانص الشخصبة المأسوسية الواضحة، لقد أرادت أن يمتلكها الرجل القادر على أن يامرأها أن ترفد على الأرض وأن تعج ساقها أصبحت عشيقته إيرمويد، وراحت تتابعه في كل مكان بممس الطريقة التي تابع بها لادي ككارولين لامب فيما بعد اللورد بايرون. ومما يشير أيضاً - بنمس القدر من الأهمية - إلى مزاجها الاستسلامي أنها بعد أن أصبحت عشيقته كملت عن حديث الزواج، فمرة أخرى، أثارت نزعتها المأسوسية في داخلها وضعها الشاد غير السوي

ولابد أن نلخص ما حدث بعد ذلك باختصار. ربما كانت بعض الإشاعات قد وصلت إلى أنسي إيرل أوف فلاكستيد عن أبنته مع إيرمويد. فقد أخبرها ذات يوم بأنه قد اختار لها زوجاً. وهو بارون اسكتلندي محترم يمضي جل أيامه في الصيد في أحرشه الشمالية. فقالت أنها تريد أن تتزوج إيرمويد، ولكن أباهما أحابها بأن عليها أن تنسى كل شيء من هذا القبيل إن إيرمويد لم يكن شيئاً مذكوراً. إذ هو ابن أحد ملاكي الأراضي الإيرلنديين لا يملك ما يكفي من المال لإعالة بيت محترم في لندن. وكانت هناك مواقف مشهودة كثيرة، وتعددت نوبات الغضب والبكاء، فأخلت الفتاة وأعيدت إلى بيت الأسرة في ويستون على نهر ترينت.

حيث سقطت مريضة لعدة أسابيع. وكنت ماري أنجست إلى صوفيا. تطلب منها أن تصحب
يرموند بالعودة إلى إيرلندا. لأن أباه كان مصمماً على إبعاد شارلوت عن لندن طالما كان
يرموند موجوداً فيها. ورحل إيرموند. ومن العريب تماماً أن ماري أصبحت معادية لشقيقتها
بعد تلك الأزمة. ربما كانت حايقة للسهولة التي أسرت بها هذه الفتاة الرقيقة الحلوة الطباع
نحسباً مثل إيرموند، الذي كان ملائماً أكثر لماري نفسها.

فماذا كانت الفضيحة التي عرفت عن لادي ماري والتي أحرنتني بامرأه الأستار
دوبللي؟ كانت الفضيحة هي أن ماري قد فصلت إيرموند على هوارس جليبي الذي
تزوجته في أغسطس عام ١٧٧٢. وكانت هذه غلطة جليبي إلى حد كبير. فبعد أن أسكن
زوجته في الجناح العربي من قصر ككلوسي. ودعا شارلوت لكي تأتي للإقامة عندهما. لم
يأخر عن دعوة إيرموند. ولبي إيرموند الدعوة على الفور. واستأنف علاقاته بشارلوت فور
وصوله. أمصت الفتاة كل لياليها في حجرته. لتعود إلى حجرتها عند الفجر

وقد وصلنا وصف الحادثة في خطاب كتبه إيرموند إلى لاكلو. حيث ينتقد إيرموند
قصة وريت في كتاب هريفو "ذكريات ومغامرات رجل دي حبيبة" يصف فيها كيف
دفعت سيدة فاضلة خادماتها للنوم مع حبيبها حتى تستطيع أن تحافظ على طهرها ويقول
إيرموند أن هذا كلام سخيف ومستحيل إلا إذا كانت الحبيب سكران.

لقد حدث منذ بضعة سنوات أن كنت مع أحد الأصدقاء. وكنا نشرب البورت أمام
بار اللهاة. بعد وقت طويل من انصراف زوجته وشقيقتها - كل إلى غرفته - للنوم. وبقينا
نحدث إلى مناقشة اختلاف بين مزاج كل من المرأتين. فقال إنه كان من الممكن أن يكون
أكثر سعادة لو أنه تزوج شقيقة زوجته. وناقشنا كيف ينمكس مزاج كل منهما في
طريقة ممارستها للجس. وسرعان ما اكتشفنا أن الشقيقتين تتشابهان في شيء واحد. وهو
لهما إذا كانت نامتتين. فإنهما تسمحان لرجليهما بمواقعتهم دون أن تستيقظ إحداهما
بقطة كاملة. وأدى بنا هذا إلى فكرة أننا قد نجرب أن نكتشف ما قد يحدث لو أنه اتبع لي
أن أنهب للنوم مع زوجته. وأن ينهب هو للنوم مع شقيقتها التي هي عشيقتي بليت لنا
الفكرة مسلية. فحربناها... ونجحت..

ولكن ما لم يدكره إيرموند في ذلك الخطاب. هو أنه نتيجة لتلك الليلة التي فضاها مع
ماري. شرعت هي تعامله بصراحة كما لو كان روحاً ثانياً لها. - والأمر الذي كان فيه

مهانة بشارلوت. وبعد أن قضينا هذه الليلة معاً. لم تعد ماري تشعر بحاجة إلى إحماء مشاعري
أراء إيرموند. كانت مفتونة به منذ البداية. منذ ذلك اللقاء الأول الذي شرح فيه لي
ليتشبرج فلسفة كانت النقدية. أما علاقتها بروحها فكانت مختلفة اختلافاً عظيماً
كانت معرفة به ولكنها لم تستطع أن تعجب به. وكانت تدرك أن عقله - على صورته في
عرفتها - كان بأكمليه تقريباً من صنع إيرموند - إلى درجة أقل - من صنع ليتشبرج
وحيثما عاد إيرموند إلى لندن - وكان في ذلك الوقت قد اشترى المنزل الضوئل الضيق في
قلبت سزيت قريباً من منزل الدكتور جوسون - تبعته ماري. وأقامت عند صوفيا بلاك
وود. وسرعان ما انتشرت إشاعة تقول أن إيرموند نام مع شارلوت وماري في فراش واحد
ونيس هناك دليل يثبت هذا. رغم أنه من الأكثر احتمالاً أن إيرموند ظل عشيقاً للربير
معاً. ونحن نعرف أن إيرموند كتب إلى إيرل أوف فلاكستيد في ٢٢ نوفمبر عام ١٧٧٢. طالب
بدايته بشكل رسمي. وأنه في ٢٨ من نفس الشهر. تسلم رداً بارداً مختصراً يقول فيه الإيرل
أن شارلوت كانت مخطوبة بالفعل "لسيد نبيل من نبلاء كنت". ونحن لا نعرف أي نوع
من الصفوط استخدمه الإيرل ضد ابنته التي كانت ما تزال أقل من سن الرشد. وقد فلتت
شارلوت فيما بعد لماري أنه هدها بأن يحلق شعر رأسها ثم يرسلها إلى دير بلجيكي وبعد
يومين من عيد الميلاد التالي. تزوجت شارلوت بهدوء من السير راسل فريزر. لورد أوف سيمير
أوكس. وهو نبيل يشير إليه بالبول بقوله أنه "معتوه". ويقال أن الإيرل قد قال نوب
توماس حريفي. كاتب اليوميات المشهور: "إنها الآن قد خرجت من يدي. فلا يعنيها
تعلعه بنفسها". أما القصة التي يحكيها حريفي عن مبارزة حدثت بين إيرموند وبين
شارلوت فتبدو واحدة من تلك الاختراعات الخيالية التي لا يمكن إقناعاً أثرها لاكتشاف
سندرها وإذا كان فريزر "المعتوه" قد عرف مقدماً بقصة ائتمان زوجته بإيرموند وتغف
سه. فإنه يكون جديراً بالإيقار من بعد. ذلك أن إيرموند وجليبي كانا زائرين كثيري تزد
على "بليدر هاوس" في سيمير أوكس خلال الأعوام التي تلت عام ١٧٨٠. لقد ذهبت شارلوت
إلى فريزر منقاداً تماماً. ويقال أن فريزر كانت له عشيقة فرنسية في دوفر. وعلى ذلك فإن
الأمر يبدو كما لو كان صورة نموذجية من تلك الاتفاقات المتحضرة التي تميز بها فقر
الثامن عشر. وقد وصفت صوفيا بلاك وود صديقته شارلوت بعد عام من زواجها قائلة
"تزدهر وفي غاية السعادة"

□ وربما كانت قصة موريس أنجستر. أصغر الشقيقات الثلاثة. هي أكثر القصص الثلاث أهمية وإمتاعاً، ولكن سوء الحظ، أنها أسوأها تسجيلاً وحفظاً. ويقتطف بوزويل من هورس والبول قوله أنها لابد أن تكون تجربة مبهجة أن يبال المرء حب مثل تلك الشقيقات المحميات الثلاث، وأنها تجربة لابد أن يحاول كل رجل أن يمر بمثلها خلال حياته. وكانت موريس - عندما تزوجت ماري من هوراس جليبي - في الثالثة عشرة من عمرها فحسب. ورفض والدها أن يسمح لها بالذهاب إلى لندن لكي تقيم عند اليراسبت موتاغو. بعد أن عرف - دون شك - بما حدث لابنتيه الأخريين هناك. ولكن طالما أن ماري قد تزوجت، فقد كان من المستحيل أن تمنع موريس من الذهاب إلى كلوسي والبقاء هناك ومن الغريب تماماً، أن الإبرل كان يقدّر هوراس جليبي تقديراً عظيماً. وفي عام ١٧٨١، بعد أن ورت جليبي اللقب من أخيه، وصفه الإبرل بأنه "أكثر الرجال عظماً وبهجة في إنكلترا". وهذا جانب من جانب جويب جليبي لابد أن نتذكره. ولما كان صديقاً ملازماً لأيزموند، فإنه عندما كان يقف بالقرب منه، كان يظهر في صورة غير مناسبة. ولكن إذا لم تأسره العبرة، أو إذا لم يحاول أن يقلد أيزموند أو أن يعتمد النموذج عليه، فإنه يبدو كما لو كان رجلاً جذاباً منير بالإعجاب. أصبح بالتدريج نموذجاً من نماذج الأرستقراطيين الرياضيين (وهناك جانب آخر من طبيعته، يتمثل في اهتمامه بالحكايات الشعبية الاسكتلندية. وكان اقتناعه بأن ملحمة "وسيان" كانت عملاً مزيفاً هو الذي دفعه إلى اكتشاف قصص المرتفعات الشمالية الشعبية الأصلية، التي قام بتجميعها، في شكل القرب إلى شكل مجموعة لونيوت كالكيفالا، حولها إلى بناء قصص واحد تحت عنوان "ذخائر الشمال" في عام ١٧٩٣)

وفي الخطابات التي وجبتها في نهاية مخطوطة جليبي، لم نعر إلا على إشارة واحدة لما حدث بين أيزموند وموريس أنجستر. ففي الخطاب الثاني، يكتب أيزموند قائلاً: "تؤمن قبيلة جرمانية معينة تعيش في المناطق الشرقية العليا من الدايوب بأن بعض العذارى لهن قدسية خاصة. وأنه يجب النظر إليهن باعتبارهن الحافظات المقدسات لأسرار الطبيعة. ويمكن معرفة مثل تلك النسوة من خلال ما يبدو في عيونهن من قدرة دائمة على الحل. وابتعات الأحلام في الآخرين، مع رقة في التعبير المصحوبة بالرشاقة الطبيعية الحليرة نيرة من الربات. وحبهما يلتقي الرجال يمثل تلك النساء. فإنهم يصبحون غير مطالبين إلا بأداء واجب واحد.

أن يعددوهن وبعدهن. أعني تأكيد حلال نيرة في قدسيتها الأنسية" وعلى هامش هذا الخطاب إلى جوار تلك السطور، هناك سطر بخط هوراس جليبي يقول فيه "تهدي. في بدعاء، موريس أنج".

وكانت هذه، حتى تلك اللحظة، هي شكل معلوماتي عن موريس أنجستر وفي وقت متأخر من ذلك اليوم، فمت أنا وأنجيلا والستير بمحضر كل ما وجدناه في الخربة نبي أنجناها من السقيمة. ولكننا لم نعتبر على المريد الذي يمكن أن ينفعنا في تحقيق هدف وسوف أكتب في مكان آخر عن الرواية التي كتبها أيزموند في مرحلة باكورة - في سن التاسعة عشرة - تحت عنوان "الأرديس ولبونيتا". حينما كان في عوثيرين. وعن قصيدته الطويلة "في ذكرى شارلس تشيرشيل" التي كتب في نفس الوقت تقريباً. وقد عثرت على الرواية والقصيدة معاً في المكتبة الكبيرة في قصر كلوسي. ولا شك أنهما وصلا إلى يدي هوراس جليبي تنهيداً لوصية أيزموند. والقصيدة لا يمكن أن تكون خالية من أي قيمة كان شارلس تشيرشيل واحداً من أفضل الشعراء المعروفين في عصره. كان فسيماً، ساخر في أسلوبه، مصارعاً (لقد كان ذا جسد هائل القوة) وكان عصواً في نادي نيران الجحيم، مت في سن الثالثة والثلاثين نتيجة إصابته بعدوى الحمى عندما كان برور ويكليز في فريس. وقابله أيزموند، وأعجب به بوضوح، وفي مخطوطة رواية "خطابات من فوق أحد الجبال" يذكر تشيرشيل (كذا) باعتباره "واحداً من أسوأ أعضاء جماعة العنقاء شهرة. فإذا كان هذا صحيحاً - وهو محتمل تماماً كما نعرف من خلال كل المعلومات المنقولة عنه - فإن هذا ينير الاهتمام باحتمال أن تشيرشيل كان أول من أخبر أيزموند بأمر الجماعة.

بلغت استنارتي بسبب اكتشافي لذلك المزيد من المواد جداً حملني أكتب خطاباً طويلاً إلى فليشر من قصر كلوسي - الخص له فيه اكتشافاتي حتى تلك اللحظة - بما في ذلك بعض المعلومات عن جماعة العنقاء - مقترحاً أنه من الأفضل أن أكتب هذا الكتاب (الذي تقره الآن) كمقدمة مستقلة للذكرات أيزموند. كانت ما تزال هناك بعض الأسئلة دون جواب. كيف مات هوراس جليبي؟ ما الذي حدث لموريس أنجستر؟ وقبل كل شيء، ما الذي حدث لأيزموند في سنواته الأخيرة؟ ولكن كان من الممكن أن تترك هذه الأسئلة جانباً لتكون موضوعاً لأبحاث أخرى.

و قبل معارضة قصر كنلوسي - بعد يومين من كتابة هذا الخطاب - اكتشفت حوية حزنبة لائيس من تلك الأسئلة كما قد قررت أن مر حل في الساعة العاشرة صباحاً تقريباً، لكي نحاول الوصول إلى أسيرة في وقت متأخر من الليل تناولنا طعام الإفطار مبكرين. وبينا كانت أنجيلا تحزم آخر ما سوف يأخذه معنا في الدقائق الأخيرة، درت أنا نوبة حول المكتبة. كان الكثير من الكتب قد أفسدت الرطوبة أجباناً، وكان أحدهم قد صنع حكومة من تلك الكتب النالفة في أحد أركان الحجرة، ربما نية أن يرسلها لكي يعاد نعليها في مكان ما. كنت أعرف أن هذه العرفة لابد وأنها تبدو بنفس الصورة التي كانت عليها حينما اشترك إيرموند وهوراس جليبي في الشرب في أواخر شكل ليلة هيا - ثم قررا أن يتبادلا الفراش.

حاولت عدة مرات أن أضع عقلي في وضع أو حالة سلبية، لكي أحاول أن "تلقى" إيرموند (كما يتلقى جهاز الاستقبال رسائل لاسلكية) ولكن المرل كان يعج بالحركة وأصبحت عاجزاً عن التركيز. وفجأة تماماً، وصلت الرسالة أصبحت المكتبة مألوفة لي بطريقة غير مألوفة وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن أن أصف بها إحساسي أن أحسبنا تجاه الأماكن تصعبها غالباً ذكرياتنا وما يمكن أن نبعنه لدينا تلك الذكريات من تفاعلات داخلية. ولكن ذكريات إيرموند عن تلك المكتبة كانت مختلفة كل الاختلاف عن ذكرياتي وهكذا، أصبحت المكتبة - بمعنى من المعاني - مكاناً مختلفاً ووجدت نفسي أنظر إلى رف مرتفع في أحد الأركان قريباً من المائدة. عرت الحجرة إلى هذا الرف. كان "إيرموند" قد كاد يتلاشى الآن بالفعل كان الرف خالياً، والخشب المشغول من خلفه كان مكشوطاً وقد بللته الرطوبة ولزوجة الصلاء الحديد. وحضر لي أنه لو كانت هناك كتب فوق هذا الرف قبل طلانه، لكانت الآن موحودة بين الأكوام المترامية في ركن الحجرة ذهبت إلى تلك الأكوام ورتبتها على شكل صف طويل على الأرض. وقد قلبت كعوبها إلى أعلى. ولم يبد لي أي عنوان من عناوينها داهية خاصة، كتب صلوات، وكتب رحلات، قصائد كاوبر، بعض كتب سكوت بل كانت هناك نسخة من طبعة توشينتز لأحد كتب هنري جيمس رحت أفتحها، واحداً بعد الآخر، عشوائياً، ملقياً بطرات سريعة إلى صفحات العناوين الداخلية الأولى التقطت نسخة من كتاب "تقرير عن حرر ساندويتش" وكانت قد أفسدت بشدة الرطوبة، والصفحات تعجبت من البلل. وحينما نظرت إلى صفحة العنوان الداخلية الأولى، عرفت أنني وجدت ما كنت أبحث عنه. كان

الكتاب بقلم موريس انجسز وهو من نشر موراي، ناشر اللورد بايرون. في لندن عام ١٨١٢. في العام الذي بلغت فيه مورين عامها الثاني والأربعين. كان الكتاب مهدى إلى "ذكرى هوراس لورد جليبي" وتحت هذا الإهداء، كتب أحدهم: "طعن في عينه اليمس سيد أحد القاتل الجاهلين في ٢٨ يوليو عام ١٧٩٦" كانت الكلمات قد تبللت إلى درجة سبينة وامترح بحر بألوان الورق متشعباً منتشراً حتى أصبحت قراءتها عملاً على شيء من الصعوبة

وهكذا، فقبل أن يغادر قصر جلوسي في ذلك الصباح، كنت قد عرفت شيئاً جديراً عن عائلة جليبي أن هوراس قد طعن ولم يطلق عليه الرصاص. وأن مورين انجسز قد سافرت إلى الشرق في أيامها الأخيرة، وزارت اليابان واستراليا وجرر ساندويتش وقد تاضعت فيما بعد من أن الكلمات التي كتبت تحت الإهداء كان كاتبها هو ابن جليبي

كنت مسروراً من نفسي إلى درجة كبيرة. لم تكن الزيارة قد أثمرت بالدرجة التي كنت أرجوها، ولكن كانت كل ثمارها ثمينة وذات قيمة كبيرة. كان الستير وأنجيلا سعيدين أيضاً لم يكونا قد عثرا على بقية مذكرات دونبلي. ولكنهما كانا قد عثرا على نسخة من الكتاب للقدس تساوي عشرين ألفاً من الجنيهات

زودتني معرفتي بأن جليبي كان قد طعن بمادة للتأمل، وخاصة بالنظر إلى ما أصابه إيرموند على خطابه الأول بعد التوقيع عليه: "لني أرجوك أن تدمر، أو على الأقل أن تحرق هذا الكتاب عن الأنظار، ليس فقط باسم صداقتنا، ولكن من أجل سلامتك أنت وسلامتي" فهل كان إيرموند يواجه أي خطر تهدد به الجماعة؟ هل يمكن أن يكون موت جليبي نتيجة لتجاهله تحذير إيرموند؟ كانت هناك سمة واحدة غريبة - على الأقل - في جريمة القتل، إنما حدثت في حجرة صغيرة بالطابق الثاني. فإذا كان جليبي قد طعن وهو في المرش وقتل هيا، فلماذا لم يكن نائماً في إحدى حجرات النوم الكبيرة المطلة على البحيرة والبحر؟ وجدت نفسي أتمنى لو كان بوسعي أن اتصل بإيرموند لكي أسأله. ولكن لم أحظ بأي قدر من التركيز يعطيني المفتاح الذي كنت بحاجة إليه.

عندما إلى شقة الستير في لندن في الساعة الثانية من عصر يوم الجمعة. كان يوماً مشمساً. وفي الحقيقة كان أكثر حرارة من أن يسمح بالراحة ووجدت نفسي أتمنى لو كنت قد أتيت معي بملاسن الصيف. كنت أفكر في إيرموند الذي كان حسده يدوب

وينلأني في قلب مضرة العائلة منذ أكثر من مائة عام. فأتمنى لو استطعت بشكل ما أن أتركه رفته

كان الستم مشغولاً بعمل ما في المينة فتناولت أنا ونجيلا عشاء متأخرًا من ستمبل أن تقوم بين شخصين علاقة حميمة على حين فجأة وبشكل عسيف. دور أن ستمر في التمكن أحدهما في الآخر - بمعنى من المعاني - بوصفهما عاشقين ولكن الدفء الذي نزع بنمو بينا لم يكن من ذلك النوع الذي يسمو بين الرجل وبين زوجته. وجدت نفسي آخرها بتلك التجارب الغربية التي "أصبحت" في أثنائها أير موند، وكيف أدت بي آخر تلك التجارب إلى العثور على كتاب مورين أنجستر. توقعت منها أن تجد في الأمر ما يبعث على الاهتمام، أو أن تنظر إليها باعتباره شيئاً مسلياً، ولكنني لم أتوقع منها أن تجده أمراً قابلاً للتصديق بشكل كامل. فقد كنت على كحل حال. أغرق نفسي بشيء من العمق في إير موند، وربما إلى درجة أكثر من اللازم. ولكن رد فعلها أدهشني. ارتبكت وبدأ عليها لأبرعاج. قلت:

"لا شيء، يستحق القلق إنما نظرت إلى الأمر كشئ، ينير الاهتمام"

وجدتني أحتج بوجهة النظر العقلانية التي توقعت منها أن تأخذ بها. ولكنها قالت أن الستم قد تحدثت معها عن شعوره بالغربة في قصر جلوسبي، وأنه تساءل عما إذا كانت حبرته مسكونة"

بعد العشاء بنصف ساعة. وبينما كنت أفحص مخطوطة رواية جليبي. قالت:

"هل نضل أنه يحاول أن يقول لك شيئاً؟"

"من؟"

"أير موند"

حاولت أن أوضح لها أنني لا أشعر - أو أنه ليس لدي إحساس - بحضور أير موند، وإنما أنا أرى الأشياء - ببساطة - بعينه هو كما لو كنت أنا أير موند

والمرء لا يحاول أن يخبر نفسه بشئ، ما".

قالت "أظن أنا يجب أن اتصل بالدكتور كورنر"

كنت قد قررت ذلك فعلاً قبل أن تقول له سجيلا. ولكني كنت أريد أن أؤجل ذلك الاتصال لمدة أربع وعشرين ساعة أخرى. كنت أريد أن أمضي أمسية هادئة في قصر دورق المختلفة التي جئنا بها معنا من كلوسبي. قالت أنجيلا

"سمح لي بأن اتصل به"

"حسناً. إذا كنت تريد ذلك"

وبعد عشر دقائق، قالت:

"لقد دعوته لشرب كأس معنا في الساعة السادسة"

وفي حوالي الخامسة والنصف، دق جرس التليمون، فرفعت أنجيلا السماعة. وضعت يدها على السماعة وقالت:

"إنها أنا داتكلمان..."

هرزت رأسي بقوة لكي أؤكد لها أنني لا أريد محادثتها، فقالت لها أنجيلا أنني بالبحر وأنني لست أعود إلى وقت متأخر. ذهبت إلى الحمام بينما كانتا تتحدثان، واغتسلت. وحين عدت بعد عشر دقائق كانت أنجيلا ما تزال تتحدث. ولكنها أنهت المكالمة بينما كنت لبس ملابس في حجرة النوم.

"تلك المرأة مرعبة تماماً. أتمنى لو أنني لم أعطها هذا الرقم."

"ماذا كانت تريد؟"

"لأبد أنها تملك حاسة سادسة. لقد قالت أنها قد سمعت الآن توأ أن كورنر موجود في لندن وأنها أرادت أن تنصحك ألا تراه. ثم راحت تسرد علي قصصاً طويلة متشابهة عن مقدار ما يملكه من شر وقدره على الإيذاء"

"ماذا قالت من أفعاله؟"

"ود مشاجرات عما كان يعنيه رابح وما إلى ذلك ولكنها قالت أنه يدب عنهما ساعات صناديد، وأنها تنوي أن تقاضيه بتهمة القذف أما كل ما كانت تقصده فهو أنها تريد أن تتجنب كورنر فإذا حدث أن فاسفته، فلا تصدق كلمة واحدة مما يقول"

سكنت حاليًا على المراهق، أعقد رباط رقبتي، فترت مني بجبلا وعرست أصابعها في شعري لتستل انتابتي دهشة بسيطة، ولكنني فترت أن هذه المكالة قد صدمتها بشكل ما وأنها تريد شيئاً من التدليل، أحضت حصرها بدراعي وصعقت عليها قليلاً. أحلت يدي بكتف يديها وضغطت بهما على يديها. بهتت واقفاً، وانحبت عليها ومحتها قبله لكي تضمنها، فوجبت نفسي أضما بقوة حتى انتصفت بي، وأصبح جسداً كتلة واحدة مندمجة. وبعد أن تبادلنا القبالات للحظة، قالت بصوت متوتر:

"إنه شيء مرعب. ولكني أريدك أن تمارس الجنس معي"

"لا يكاد يكون هناك وقت"

ولكن كان باستطاعتها أن تشعر بي وأنا تصلب في النصافي بها. كانت أكثر من مستعدة لممارسة الحب. وحينئذ، فجأة، انقلبت من بين دراعي وابتعلت عني. قلت:

"ماذا حدث؟"

انفجرت باكية وقالت

"إنني أكره نفسي"

"لماذا؟"

"إنها هذه المرأة الكريهة العنيفة. أعنف أنها تستخدم التسوية المعنوية فحينما كانت تتحدث معي..."

لم تستطع الاستمرار في الكلام. احتضنتها مرة أخرى، ولكن دون رغبة في هذه المرة. قلت لها مؤكداً أنه من الصعب القول أنه من المخجل أن يكون المرء قابلاً للتأثر بالإجباء وبعد قليل من الأسئلة اكتشفت أن السيدة ديكلمان قد تحدثت عن الاحتفالات الجنسية الجماعية. قالت أنجبلاً:

"أعرف هذا، ولكنها مسألة تبدو ككريمة جداً لقد أردت أن اغتصبك"

"لا تسمح لي بأن أطفئ شعلتك الملتهبة"

ولكننا نعرف معاً أن نوبة الحمى قد انتهت. ولكي تؤكد ذلك، أرفدتها على الفراش وقبلتها برفقة، ثم ربت على يديها وفخذيها بيدي استرخت مثل طفلة صغيرة صغار. توسعنا أن نمارس الجنس في تلك اللحظة، ولكنه كان سيصبح حساً رقيقاً هادئاً مثل دماره يمارسه زوجان طيبان، كما لو كان امتداداً لقبالاتنا، ولن يكون حمى مسعورة متاحة وبعد عشر دقائق، حينما كان جرس الباب يدق، سكنت أشرب كأساً من المارتيني لتنتج حاجتي إليه، وكانت أنجبلاً تتحجم في الحمام

□ كان كورنر رجلاً غريب الهيئة، طويلاً، محذوب الكتفين، رأسه يكاد يكون أصلع وقد ذكرني على الفور بقائد الفرقة الموسيقية فورتنو أنكر. لاح لي صدغه صغيراً وله يسم الوجه. بشكل ما. عن عزيمة قوية. ومع ذلك فقد كان الأثر العام الذي يجعله هذا الشكل الغريب هو الإحساس بدكاء داخلي وفاد غير ماثوف. كان صوته مرتفع البرق إلى حد ما، ولكنه كان رقيقاً، يكاد يكون ذا تأثير مغناطيسي موم بعد أن يتكلم عدة دقائق كانت الكلمة الألمانية قوية، وبدت بدلتته الرمادية غالبة للنم، ولكنها ظلت تلبس منذ وقت طويل حتى علتها لعة خفيفة.

رفض أن يشرب كأساً، "إنني لا أشرب سوى قليل من عصير الفاكهة" ثم جلس على حافة مقعد كبير عميق ذو مسدين وقد وضع بينه المارزتي العظام بين ركبتيه، عاملاً على أن يبدأ في وقت واحد بمظهر فيه كثير من الاسترخاء وعدم الراحة معاً، حينما دخلت أنجبلاً، فمر واقفاً على قدميه، وانحنى مقبلاً يدها بدمانة وتهنيت طيبين، وفي رشفة بلغت تعبيراً عن شخصيته الداخلية. فترحت أنجبلاً أن يجلس على الأريكة. وفي هذه المرة، قلبت بنفسه إلى الخلف في أحد ركني الأريكة متلقائية مبالغ فيها ثم وضع ساها على ساق كانها عن حوربه المصنوع من الحرير ذي الحظ: الأبيض الماصع الطولي ثم بدا يتكلم.

"حسناً، يا عزيزي مستر سورم، هذا حقاً شرف عظيم لي إني أعرف صحتك معرفة جيدة بالطبع (وقد أتضح لي فيما بعد أن هذا صحيح، فقد كان يقتبس منها الفلاسفة طويلاً في حديثه بطريقته الألمانية التعليمية) وسمح لي أن أقول منذ اللحظة الأولى أنني أعتني أن تحدث في بعض أرائي ما ينير اهتمامك، مثلما أجد أنا في أرائك "

كان بوسعي أن أرى أن أنحيلاً تكاد تموت من لهما إلى أن تسأله عن أسرار ديكمان. ولكن كان من الصعب أن نوقف مجرى الحديث الدائر عن الأفكار والآراء بالإضافة إلى أن المرء كان حذيراً بأن يشعر بتماهة مثل هذا الموضوع بالمقارنة بين مناقشة أفكار هوندرلين وباسرز"

لن أحاول هنا أن أنقل تقريراً كاملاً عن محادثته فقد مضى في حديثه باستمرار ولدت تقريباً، حتى غادرنا عند منتصف الليل وبدأ حديثه من الزراعة الرومانسية الألمانية ولتأثيرها الفلسفية عند فلاسفة الألمان، حتى وصل إلى أفكار رايخ وتطويعه هو تلك الأفكار ولا يمكن هنا سوى أن أقدم صورة سريعة لأفكاره المحورية الرئيسية

كان ديكمان وزوجته قد لخصا لنا وضع ويلهلم رايخ. ولكن كورير وصفه بشكل أكثر اكتمالاً، فقد قسم مراحل الفكرية إلى ثلاث مراحل، بدءاً من عمله بوصفه أحد تلاميذ المدرسة الفرويديّة، ثم انفصاله واستعادته عن فرويد إلى "تحليل الشخصية" - التي قد يعتبرها أكثر علماء النفس مساهمته العظمى في هذا العلم - وأخيراً، مرحلته "الترقية" أو "النهضة"، حينما اعتبر نفسه "عالمًا طبيعيًا"، وحينما اعتقد أنه قد اكتشف نوعاً غامضاً من الطاقة يدعى "الأوركون" يمكن أن يركز بطرق مختلفة ولكن ما أدهشني كان ما أثبتته كورير من أن رايخ كانت له نظريات مادية الترقية - بقدر ما من المادية - حول الأمراض العصبية (وقد كان رايخ عضواً في الحزب الشيوعي حتى فصل منه بسبب آرائه المعارضة لآراء الحزب حول أسباب الفاشية).

وقد بدأت أهم كورير بصورة أفضل حينما تحدث عن فكرة رايخ حول "درع الشخصية"، وكيف يحمي الناس أنواعاً مختلفة من القشور الصلبة حول شخصياتهم لكي يعطوا أنواعاً قصورهم ونقاط ضعفهم والشعرات التي يحشون منها على أمهم الداخلي، وكيف يمكن لتلك القشور في الوقت المناسب أن تتحول إلى درع قوية - مثل الحلة الفولاذية التي كان فرسان القرون الوسطى يرتدونها في الحرب - تحمي الشخص في داخلها ومن

تواصل أن كورير قد آمن بهذه الفكرة إيماناً مطلقاً واستقرت في أعماقه ولاذ لي أن هذا قد أصبح الآن تكون لشخصيته أي دروع على الإطلاق. وبدأني كلما لو كان في حانة سيوه كاملاً دون حماة - أو تحصين - من أي نوع، وسرد علينا بصراحة كيف عالجته ربي من صانعه تتصلب العضلات كانت تسبب له الآم تقنصات الياف العضلات المضنية وكثيراً ما تتصلب راحتي بشكل أساسي إلى الحرج الذي يمكن أن يشعر به رجل شديد الحساسية - منه تمتد كقذائف تلمد تتصلب وتنشج يده حينما يظل المدرس أو كرامته من فوق كتفه أثناء الكتابة

وبعد كل ذلك كان من الصعب أن أفهم كيف حقق كورير تحولاً إلى نظريته عن الوعي الباطن - رغم أنه هو نفسه قد اعترف بأنه لا يرى أي ترابط بين فكرتين وفكرته - أساساً - تنحصر في أن الحضارة والعقل السطحي، قد دفعا الإنسان إلى حانة اصطناعية زائفة. وقد نظر إلى قدرة الإنسان على التفكير باعتبارها نوعاً من السقوط من حانة النعيم المبارك، شكلاً من أشكال الخطيئة الأصلية وقد أطلق على الوعي اسم "صوت الشهاب الصناعي"، وفاربه بالضوء الكهربائي الذي ساعد الإنسان على أن يرى في الظلمة. ولكن الصوت الذي كان من نتيجته أن عزل الإنسان بحدوثه عن الليل الممتد خارج نافذته قال أن الحيوانات بشكل ما تتطابق مع الطبيعة، أما الإنسان فقد وقع في شرك حجرة وعيه بت الصوت الكهربائي

ويظهر هذا بشكل خاص في المجال الجنسي، لأن الجنس ينتمي بشكل أساسي إلى ذلك الليل الممتد خارج النوافذ. الحيوانات تنزلق إلى الجنس مثل تمساح ينزلق من ضفة لنهر الرميبة إلى المياه (هذه صورة كورير)، أما الإنسان فلأنه أن يقفز إلى المياه من فوق منصة مرتفعة - إنه يصل إلى هناك لا خلاف، ولكن إن له، يكن عواصماً ماهراً، فإن تأثير القفزة والعوص للمأخى يمكن أن يدمره قال أنه من الحق أن الجنس يعتمد على الانفصال ثقلاً بين الذكر والأنثى، مثلما يعتمد مولد الكهرباء على التناثر بين قطبي المغناطيس ولكننا في هذا الانفصال حتى أصبح "قفلًا" آخر إضافية وضع على باب السجن. وتكاثرت أنواع الإحباط والحياة، أصبحنا معزولين غرباء عن المجتمع وأحدنا عن الآخر، بالإضافة إلى اعتبارنا عن الطبيعة، وتتبدى مظاهر المرض في تزايد نسبة الجريمة، وفي الطبيعة البربرية الغريبة التي تدنو بها بعض الجرائم - وقد أشار هنا إلى بعض الجرائم المذكورة في كتابي

الإجابة. أو الحل ضيقاً لما يقوله كورنر بسيطة بساطة جميلة. إن الجنس بمعنى أن يظهر "حتى تصبح العلاقة الجنسية بين البشر طبيعية مثلها هي بين الحيوانات فإذا ما لمك من راحة الحاجر الجنسي الهائل بين الناس، غابت الرابطة القوية القديمة بين الوعي ووعي الباطن إلى سابق عهدها، وسدّفت استميد الإنسان من حصاره التي لا تعود وحشة مثل وحش فراكتشائين صكها هي الآن بالإضافة إلى استميدته من بساطة الحيوان الصحيح السكونين إن "سمر تنكوبين مصعب في قوله أن "الخصيئة جاءت من وعي الإنسان أو شعوره بالحمل الجنسي يجب أن يحتفي "كل" حمل من أي نوع

عاد أنستير إلى البيت حينما كان كورنر يشرح آراء رايخ، واقترب به السنين حتى أنه سمي أن يصب لنفسه ما يشربه. وبعد ساعة، أفتزحت أن نخرج حميماً لكي نناول طعام لسان، ولكي نمضي في "الناقشة" (التي كانت أن تكون معاصرة تقريباً، رغم أنها كانت تلقى بأكثر الأشكال العادية وغير الرسمية سحرًا وحادية) طلبنا عصير نبيذ تشانلبس الفرنسي مع الطعام، وشرب كورنر سكاسين بعد أن أضاف إليهما الماء، ثم سرنا حول الميدان مدد من الزمن - فقد قال كورنر أنه يحتاج دائماً إلى الحركة الجنسية إذا كان عقله يعمل بصورة جيدة - ثم عدنا إلى الشقة. كانت لدي تحفظات معينة إزاء أفكار كورنر. ولكن كان يوسعي أن أرى أن صاحبي الأخير سوف ينظران إليها كشئ، من المأحكة. ويون أي تردد. وصفت انجبالاً ما كانت تعده من كواكب جنسية في طفولتها، وقال لنا السنين كيف أنه لم يتخلص أبداً من الإحساس بالحجل والعار حينما نظر إليه شخص ما من فوق حاجز الرخاض في المدرسة فضبطه وهو يمارس العادة السرية. رأيت انجبالاً وهي تجفل إزاء هذا الاعتراف، واعتقد أنها لم تتخيل أبداً أن الجنسية يمكن أن يكونوا على هذه الدرجة من الحيوية الجنسية. ولشدة دهشتي، مصت انجبالاً لكي تصف ما حدث لنا حينما زرنا أسرة دنكمان لآخر مرة. وطننت في البداية أنها لم تكن تريد إلا أن تخبره بأننا دنكمان أصرت على أن تعري نفسها، ولكنه بعد أن أحمر وجهها ورمقني بنظرة سريعة، انتقلت إلى الحديث عما حدث في السيارة. وكان هذا هو دور الستير في الجمول، إن له يكن في الظهور بمظهر الصدم وانتهدت بقولها، "كيف يمكنك أن تفسر ذلك؟"

لاح الاهتمام والاستغراق في الموضوع على كورنر وظل يومي، برأسه ببطء

"إنهما ماسكران" ماسكران جيداً. لقد كان علي أن أطردهما من مجموعتي لأن أراداه حقاً كان هو أن بسطهما جمعية للاحتفالات الجنسية الداعرة (حينما قالت مجداً "هذا هو ما قاله عليك" يوماً برأسه في حركة أكثر وفاراً) اتفهمون؟ إنهما لباساً من التحصيرين إنهما بنتميان إلى مرحلة من مراحل تطور المجتمع أكثر بدائية. مرحلة (المحرمات) والتصحية بالشعر كالفريسيين. سأروي لكم ما أدرك إلى انفصالنا النهائي كان عن أن أذهب إلى ألمانيا للقيام ببعض الأعمال القانونية. كنت أعرف أن رايخ كان ينق بيه ولذلك فقد تركت لهما مسؤولية الإشراف على مجموعتنا وجاءت أنا ذات يوم إلى الاجتماع حاملة مرراً ضخماً لعصو التناسل الذكري مصنوعاً من الخشب - يمكن أن تنطقوا عليه صفة الشئ الخرافي ورعمت أن هذا الرمز الخشبي الصمغ كانت تستخدمه قبيلة لأربيب في احتمالات اختراع العناري الأسيرت قبل تقديمهن ضحايا وفريسيين للآلهة. وأنتم تعرفون واحداً من أهم مبادئنا هو أن تمريناتنا على خلق الألفة بين البشر تقوم على التوقف ليس الاتصال الجنسي الكامل وليس هنا لأننا نعتبره شيئاً سيئاً، وإنما لأنه يخفف التوتر بسرعة كبيرة. والتوتر ينبغي أن يتصاعد حتى يمكن أن يستخدم في تحويل اتجاه العقل (أفكرت في الهوليباسيين واحتفالاتهم مع العناري القدسات) ولم يحاول هذان الاثنان - دنكمان وروحة - أن يعارضا هذه الفكرة بطريقة مباشرة. ولكنهما أصرا على أن تمريناتنا على خلق الألفة ينبغي أن تنصاعد حتى تصل إلى أن يمارس شخص مثل الكاهن الجنس مع إحدى النساء باستخدام رمز خرافي لعصو الذكورة التناسلي، ثم يقدف لبنا داهناً داخلها في لحظة بلوغ ذروة النشوة. وقد استمتعوا جميعاً بهذه العملية بالطبع، وأصبحت العنيتات بصرح من التهمج حينما تبلغ للراة ذروة نشوتها وكان كلاوس دنكمان بالطبع هو "الكاهن" في كل مرة. وكان دائماً بصر على أن يرتدي ملابس كاملة، فكان يرتدي حلة كاملة قائمة اللون، ولكنه يحرر عضوه بارزاً من فتحة بطنائه بعد أن يطلبه ببعض الألوان الزاهية مثل النعبان (وكان رايخ يقول أن دنكمان وزوجته يعانiban من كل أنواع الاستكاس الجنسي لتي وصمها فرويد) ولحسن الحظ عدت أنا بعد بداية هذه العمليات بوقت قصير. وظلت دنكمان وروحته تصوبت ديمقراطي بين الأعضاء لتوصيح من يريد الاستمرار في هذا "النمرين" (هنا أحمر وجه كورنر، وبرزت عروق جبهته)، قلت لهما أنه لن يكون هناك تصوبت. فإن هذا كان منافضاً لأفكاره. فإذا لم يوافقا عليها كان يوسعهما أن يذهب لتكوبين مجموعتهما الخاصة. وعرضت أنا أن أستقبل لكي أكون مجموعتي الخاصة في مكان

حبر ولكن لم يكن هناك من يريد ذلك بالطبع . فقد كنت اكتسبت شخصية الآن
بوسعه بالنسبة للمجموعة . ولم يكن هناك من يظن أنها فكرة طيبة سوى ديكمان
وإيخته فكان علي أن أطردهما . وبعد ذلك حاول أن يكونا محموعاتهما الخاصة . دون نجاح
بكمية نرون (هما رفع إصبعه إلى السماء) إنهما لا يملكان أي أسس فكرية . باختصار إنهما لا
يعمل لهما . ثم أشار بإصبعه نحو . " وهذا هو سبب لهما . إلى مكتسبات تاييدك . فإن
فكرتك تستطيع أن تكسب لهما المؤيدين والأبصار . لك يمكن أن تكون عشيقا للسيدة
ديكمان ."

قلت : " معاذ الله !"

" ولكنك قد تكون . إنها تعرف كيف تسيطر على الرجال . مثلما رأيت . حينما كانت
عضو في جماعتنا . كانت دائماً ترتدي أجمل الملابس الداخلية . كما لو كانت فتاة صغيرة
مزينة بالحياة فواردة الرغبات بدلاً من أن تكون المرأة النصف ذات الأربعين عاماً . وأنا أعرف
بها وحلت عشاقاً عديدين ."

سألت أنجيلا : " هل تطن أنها تملك نوعاً من القدرات الفعاطيسية إذن ؟"

" بالطبع لا . إن ما قلته لي الآن ثواباً هو ببساطة برهان على ما كنت أشرحه لك . إن
لهذه الجنسية التي تفصل بين البشر ليست هوة طبيعية ولكن حتى أكثر الناس صحة
وبعسية ملبثون بأنواع الكبت . تلك فتاة ظهيرة مترممة إلى حد ما . وإنني أعلى استعداد
للقول بأنك لم يكن لك سوى عشيق واحد (أومات برأسها) وهكذا هو الأمر . إن هذه المرأة لا
تتحل فقط بصراحة عن الجنس وعن الاحتياج إلى التخلص من كل أنواع الكبت . وإنما
هي تظهر بنفسها وتتعري لكي تثبت جسدها ما تقول وما تعني . وهكذا يخلل التوازن ثقافته
بين عقلك وبين طاقاتك الجنسية . وتنمحر الطاقات مثل الحمم المنفجرة من بركان .
فتظن أنت أنها سحرتك . بينما أنت التي تقومين بكل شيء ."

ابتسم بسعادة عندما اكتملت فكرته وتلاقت خطوطه بهذا الشكل الواضح . قالت

أنجيلا :

" فمما حدث حينما اتصلت بالهاتفون هذا للساء ."

" لقد حدث التأثير مرة أخرى ؟ فقد تذكرت ما حدث في المرة الأولى ؟"

فجأة أدرك ما قالت . صانع بها . " هل اتصلت بك ؟ ماذا ؟"

أخبرته أنجيلا بالسبب فهر رأسه وقال :

" أه . الشيطان المار كان . هل قلت لك أنه كان قائلاً ؟ لقد كان حديراً بال بعد في
أي بلد باستثناء سويسرا " السويسريون متسامحون جداً ."

حينما دقت الساعة معلنة منتصف الليل . نظر إلى ساعته ثم فهر وفقاً على قدميه
مثل أحد رجال سلاح الفرسان يهب لصيحة " انتباه " . قال :

" يجب أن أترككم . إن الغد يوم صعب بالنسبة لي ."

نظر إليها مفكراً . ثم قال : " لا بد أن أكون صريحاً معكم . إن مجموعتي تربطها علاقة
قوية شديدة الانسجام لأننا عملنا معاً لسنوات عديدة . ولذلك فإن الأعضاء الجدد يبقون
طويلاً في مرحلة الأعداد كمرشحين للعصوبة . ولكني أشعر في حالتكم أن الإسراع له
ببرره . ولقد قررت بالفعل أن أدعو صديقي حيرار لحضور اجتماع جماعة الألفة . فإذا راق لك
امتعا الاثنين أن تاتي معي ."

لو أن هذه الدعوة وصلتتهما منذ ست ساعات فحسب لرفضها على التو دون تردد
ولكنهما الآن كانا والقيمين تحت تأثيره حتى إنهما وافقاً مع إبداء كثير من الامتنان التحمس
سألته عن الموعد فقال :

" غداً بعد الظهر الديكم سبارة ؟"

أوما الستير برأسه

" حسناً سوف أرسل شخصاً ما للمجيء بك في منتصف نهار الغد وسوف تنبئون
السبب الذي يحملني عاجراً عن إعطائكم العنوان ."

حبط بكعبيه وهو ينحني انحناءة خفيفة . ثم رحل . توقعت أن يسرع الستير وأنجيلا
إلى فراشيهما . وكانت مستعداً للنوم . ولكنني سميت إنهما يصغرني بخمسة عشر عاماً على
الأقل شرعاً في مناقشة ما قاله لهما . وضلاً بطالاني بإبداء رأيي . كنت مرهقاً للدرجة

مسمي من الحديث عن تحفظاتي. ثم سأنته أنجيلا عما إذا كان قد صدم بما روته عما
حدث في سيارة الأجرة أحجم أولاً عن الكلام، ثم برز لمواجهة الحقيقة قال:

"ثم تكن صدمة على وجه التحديد. إنما كانت أقرب إلى العبرة. أعتقد أنني أفكر
ببك كما لو كنت أحد أفراد العائلة".

سأنته "وكيف ستفكر في العبرة لو أننا اتبعنا جميعاً أفكار أوتو؟" (وكما جميعاً
بندى بأسمائنا الأولى)

"لا أعرف الحيوانات أيضاً تعار البس كذلك؟"

"لست هذه حالة واحدة إنها ليست نفس العبرة لقد قال أوتو أننا لا نحاول العودة
إلى حياة الحيوان، إنما نحاول أن نمرح بين طبيعيات الحيوان وذكاء الإنسان وذهنه"

كان يوسعي أن أرى كيف يمكن لها أن تكون تلمذة جديدة بالإعجاب، فقد طوعت
لنفسها كل الإجابات المطلوبة على كل الأسئلة المتوقعة

قال مسالماً لكي يتجنب المناقشة: "أعتقد أنك على صواب"

"بالطبع أنا على صواب. أنني أحب جيرار (طرفت عيناى من الدهشة) وأنا أحبك أنت
أيضاً وأنت تروق لجيرار وجيرار يروق لك فلماذا لا تعامل أحداً الآخر كما لو كنا ننتمي
نفس العائلة؟"

شعرت بأن منطقتها كان قد بدأ يشوبه نوع من الاضطراب، ولكنني تمسكت بصمتي
وأجيراً، تأنيت وأشعرتهم بأنني أريد أن أنام. كانت لأريكة (التي ننحول إلى سرير للنوم)
موجودة في حجرة الجلوس. وعندما أبلدت رغبتي في النوم افترحت أنهما يجب أن يتركانني.
وأن يذهبا لمناخفة المناقشة في حجرته. فتحت الأريكة وأعدتها للنوم، وبلدت ثيابي فارتبعت
السجاما، ففكرت في النوم بعد دقائق. استيقظت بعد وقت لا أعرف مقداراً حينما صفق
الباب بخفة، على ضوء النور القادم من النافذة، رأيت جسداً لم أستطع أن أتبين إن كان جسد
الستير أم جسد أنجيلا. متجهاً إلى الحمام. ثم خرج الجسد مرة أخرى، فعاد إلى حجرة النوم
علقت فحرفت في يومي. أيقظني ضوء الشمس في حوالي الخامسة صباحاً فتحت عيني
فتملكني شيء من الدهشة حينما رأيت رأس أنجيلا إلى جوارى على الوسادة. وحينما رفعت

رأسي، ترفلت دهشتي عندما وجدت أن التفسير كان يدام إلى جانبها من الناحية لاجرر
دهشت إلى الحمام. ثم رفعت في حرس أنجيلا أناني. فبعت لمدة أربع ساعات أخرى في
اعراض "الألفة". ولكن لكي "أنا" فحصل أن أكون في سرير مستقل حصص بي

دق حرس التنيفون خمس مرات في ذلك الصباح. ولكننا افترضنا جميعاً أنه إذا تذكر
فترضاه يندق دون رد. وفي المرة السادسة. أحاسنا الستير. فكنت إذا دكرنا بالعمل حال سر
أسي وأنجيلا بالحارح وأنا سسقى حارح المنزل طول النهار. ثم فضع المكثفة قبل نتيو. فرب
من التعقيدات

قبل ربع ساعة من منتصف النهار. دق جرس الباب. ولما فتح أحدينا. وحيد ورأس
شاماً قوي البنية. رأسه مثل طفلة الرصاص دعواته للدخول. فجلس على الأريكة
الحجل رفض شرب الشاي أو القهوة وقال أنه شرب شايه وقهوته قبل أن يأتي بقليل سأنته
عما ينبغي أن نأخذ معنا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، هر رأسه بعموص وقال:
"ليه. لا شيء".

كان اسمه مكريس رامزي. وكان بعيداً عن أن يشبه تصوري عن تلامذة مكريس
كانت تبدو عليه سمة من سمات البراءة تجعله محبباً إلى النفس إلى حد بعيد. ولكن كان
من الصعب أن نقول أنه صاحب أفكار أو من نوع الرجال المفكرين. تحدث عن السرعة
والانزلاق على الماء والقفز بالطللة من الطائرات القنبلة فلبناً من اللانس في حقيبة واحدة
وخرجنا من المنزل مع مكريس. كان يقود سيارة رياضية صغيرة. فافترح أن أركب أنا معه
على أن يتبعنا صديقاي في سيارة أنجيلا من طراز كورتينا مضطرباً بالسيارتين حتى بلغ
طريق ادكار رود. ثم عبرناه في مواجهة حانة "مارنيت وبوترر" عبرنا ضاحية وبولبر
كاردن سبتي. ثم استدرنا إلى الطريق الرئيسي. بعد نحو ميل وصلنا إلى حائط طويل من
القرميد الأحمر. تبدو وراءه بعض الأشجار استدرنا بين نصبين على ناصيتي طريق جاني
مصنوعين من الإسمنت فدخلنا الطريق الصغير المليء بالحفر الصغيرة. كان المنزل كبير. من
درجة واضحة ولكنه كان يحمل علامة تقول إنه من بناء وكالة "ريجنسي" للتشبيد
وكانت جدران الحليقة المعطاة بالنباتات المتسلقة وأحواس الزهور. بشكل عام. في حالة
أحسن من حالة المنزل.

كان عصر ذلك اليوم معتدلاً طيب الجو. تموج في هوائه رائحة الحشائش المقطوعة. ولقد سمعت أصوات المياه في مجرى صغير يجري وراء المنزل أحمرى كريس بان التزل كان متوقفاً لإحدى جماعات جيوردييف. نه أحيته جماعة كورس منيه ولما كان سكان القرية الجاورة قد اعتادوا على الضرائب التي تصدر من تلامذة جيوردييف. فإن فصولهم إلى الجماعة الجديدة كان محدوداً وكان هذا صحيحاً كما تبينت بالفعل. وإن كانت هذه الجماعة جديرة بان تقدم مادة جيدة لتحقيق الادع في مجلة "نيور أوف ذي وورلدي". ثم نيت لي ما كنت أفكر فيه على الفور. فطالما كان كورس ما زال محتفياً. أو أنه نه يكن قد وصل. فقد رحت أتمشي حول المنزل. عبر الحشائش المبيلة (لقد امطرت السماء مطراً خفيفاً حينما كنا نعب ضاحية ويلومين). بالقرب من الجانب الخلفي للمنزل. وتحت ظلال الأشجار. كان هناك جسدان عاريان يتدحرجان ملتصقين على الحشائش. جلسا. ويتسما. ثم استمرا في دحرجتهما. كان أحد الجسدين لفتاة ممتلئة. وإن كانت جميلة في نحو لستة عشرة من عمرها. وكان الجسد الثاني لرجل بحيل معتول في منتصف العمر قلت. "معدة" وأنا أشرع في الابتعاد. صاحبت الفتاة. "تعال ونضم إلينا"

"انضم إليكما في ماذا؟"

"إنها دورة الألفة مع الطبيعة. الحشائش المبيلة تعطيك إحساساً للبدأ".

وضحت لها أنني جئت إلى هذا المكان لأول مرة. سألني

"أنت خجول؟"

"كلا". كان سؤالها نوعاً من التحدي.

"إذن تعال".

لأج على الرجل أنه مرحب بانضمامي لدر تر حبيب الفتاة. ولو كنت في مكانه لرفضت تفضل طرف ثالث خلعت كل ملابسني ونه يكن في هذا أي حرج. لأن من عادتي إن أسير في منزلي عارياً لمدة من الوقت بعد أن أستيقظ من النوم. ثم ذهبت إليهما لكي أجلس بحوارهما. قال الرجل:

"أجلس. حرب ما نفعله"

جلست ثم تعدلت على الحشائش وتدحرجت. شاعراً بشيء من العناء ولكنه قد على صوب؟ لقد عمري إحساساً للبد من ملازمة الحشائش المبيلة للجلد العاري بعد تدحرجت حتى شعرت بمشعريرة الرد. ذهبت فرفلت في الشمس التي سرعان ما حسرت كان الرجل لحظتها يرفد على ظهره. وكانت الفتاة تحلب بيدها جزءاً من الحشائش وتلك بها حسده. تلاطمه بها بعد دقائق قليلة من تلك الملاحظة. رفلت على ظهره. بد باعدت ما بين هاتين. ففعل معها نفس الشيء. وهو بحلب حرماً كثيرة من الحشائش ونف التربة المبيلة ما زالت عالقة بحذورها. وظل بذلك يهديها ويصلها برفقة متناهية بحديه. قال لي:

"تعال وساعدني"

فصلت أن أجلس عارياً ركبتي أمام صدري لكي أداري اهتمامي المتزايد بالفتاة. كانت ساقها المفتوحتان بنيران استجابات باهتوية. ولكن بعد أن احتفت هذه الاستجابة بمجهود خاص من جانبي فمت فذهبت إليهما وحنيت قبضة من الحشائش. وكانت تحركها بعد أن جردا البقعة التي كانا يرفدان فيها. فحاولت أن أدلكها مثلما كان يمر الرجل. وسرعان ما تخلت عن هذه العملية وتبعث ما أملتني علي عريزتي. فرفحت لمر اطراف الحشائش المبيلة من جسدها حتى لمست نهديها. ثم هبطت بها أكثر لكي تلامس النهلين برفقة. نجحت في تجربتي الجديدة. فسرعان ما شهقت شهقة المستمتع. وحركت رديها حركة شهوة واضحة. قالت للرجل:

"إن له لسة رائحة"

استخدمت الحشائش بالطريقة التي كان يمكن أن أستخدم بها لساني لو كنت أحاول أن أستمع شهوتها. وحينما وصلت إلى السرة. رادت من تباعد هاتينها

عند هذا. التفت الرجل إلى الناحية الأخرى وقال:

"أظن أنني سأذهب لأسنحه في مجرى الماء"

سار مسرعاً وقد أولانا ظهره قلت

"أحشى ألا يكون على وشك الموت لهفة إلى حظايا الجسد"

فانفجرت في صكر ككرة من الصلحكات الحلوبلة. فطعنتها شهقة حينما تستها بقبضة باردة جديدة من الحشائش. قالت حالة:

"تمنى لو كنا في حجرة نوم".

كم أكن أظن أن مثل هذه الأشياء مسموح بها لكم".

هذه الأمور ليس مسموحاً بها. ولكننا لا نتمتع جميعاً بسيطرته على نفسك".

نحركات على مرفقها وهي تنهد. ثم ذهبت رأسها بين فحدي كان دهن فمها من حولي لنهداً. ولكي كنت متوتراً خشية أن يأتي أحد ليأخذ مكانا مكشوفين تماماً دون غطاء أو حجاب. والنزل على أحد الجوانب - مكشوفين لأي شخص يمكن أن يحط من أحد النوافذ - والرجل الذي يمكن أن يعود من محرق الماء في أي لحظة. وضعت يدي بين شعرها ثم ابتعدتها برقة وفلت لها، "فيما بعد ليس الآن".

قالت: "أهلاً وعدة".

فلت أجمل، فتراجعت إلى الحشائش لترقد من جديد. وسمعت سيارة تتوقف عند الجانب الآخر من المنزل. وكان الرجل قد لاح عائداً من المجرى. قلت:

"أظن أن علي أن أذهب لكي أرى الدكتور كورنر".

وبينما كنت ارتدي ملابس دانية، لاحظت أن فقدانتي للسيطرة على نفسي قد خفف من درجة التوتر الذي شعرت به من قبل. رقلت الفتاة في مكانها تحت الشمس. وقد اغمضت عينيها، وبدأت ابتساماً على شفيتها المنفردتين. ولاح عليها كما لو كانت تبلع دودة نشوة بطيئة الاشتعال.

لم يكن الدكتور كورنر هو من وصل بالسيارة. وإنما صكر أربعة سودة برتدين البطارات. بشبه مدرسات في مدرسة لتعليه عمال العقول الإلكترونية. ومعهن رجل بحجم يصع على عيشه نظارة رفيعة. ولكسي وحملت الدكتور كورنر داخل المنزل. في الهواء الواسع الحالي الذي بدا لي كأنه مليء بالتمائيل الصغيرة المهشمة لقادحات الراعي. وثرهور. والبربات الإعريفات حاملات عنقافيد العيب لاح الانشغال على كورنر وهو يلقي نوحبتهاته

عن الأماكن التي يجب أن توضع فيها التمائيل. ولكنه حينما راني، جاء إلي وعلى وجهه ابتسامة داهنة. وصافحي بحرارة. ثم رفع يده طالبا الصمت. جاء الآخرون والنمو. جوت فقدمني إليهم كورنر واصفاً لي بالملف المعروف والفيلسوف. بدا عليهم جميعاً أنهم نشرو بتقديمه لي. وشعرت بالحرج في داخلي يتزايد وبشند. كانوا ينظرون إلي كما لو كنت بتوقعون مني أن أرتفع ببطء فوق الأرض لكي أطفئ في الهواء أحذني كورنر من دبري وهال.

"أحد أعضاء جماعتنا سمسار للعادات القديمة. وقد أهدانا تلك التمائيل إن بعض ليس على قيمة فنية كبيرة. ولكننا سوف نخصصها كرموز لشخصيات بعض الأعضاء".

"رموز؟"

"لكي يجعلوها موضوعاً لتأملاتهم" ومن الواضح أنه شعر أن جملته كانت واضحة وصوحاً كافياً لأنه أضاف بقول: "سمح لي بأن أطلعك على بقية المنزل".

كان المنزل كبيراً أشبه بمعسكر مهيا لمرور العشرات، من النوع الذي لا يمكن للبيونير أن يجعله مريحاً للسكنين. كان كورنر وتلامذته يحاولون إنجازه بأنفسهم. ومن المؤكد أن عدداً قليلاً من الحجرات كان مؤثناً ثانياً مريحاً للغاية، مما يشير إلى أن بعض التلاميذ على الأقل يستطيعون أن يذهبوا ثمن هديا من الأثاث الجيد.

أطلعني كورنر على حجرة نوم تضيئها أشعة الشمس وقال:

"هنا ستنام أنت. إلا - بالطبع - إذا كنت تفضل أن تنضم إلى جماعة خلق الألفة بالطابق الأسفل".

"هل ينامون معاً؟"

"أجل. ولكن مع روح حمرة كاملة بالطبع. ليس صعباً عليهم. أن يكسحوا حمام رعياتهم. إنهم يعرفون أنهم يربحون عملاً جيداً ليوثتهم بهذا العمل".

استمر يتحدث بصريقته التي تشبه أسلوب لقاء المحاصرات. وهو يلتقط حرمة من الأسلاك الكهربائية كان أحد عمال الكهرباء قد تركها على مقعد تحت النافذة

"تطير إلي. إن السبب الذي يجعل الحنسن محبباً للأمال بالمسبة لعظم الناس بهذا الشكل. هو أنهم يشبهون سلماً رقيقاً لا يتمكن من حمل أي ثيار هل ستوافق على أن الشوذة الحسبية تشبه ثياراً كهربائياً. فإذا كنت صحيح الجسم نه كبحيت رغباتك لمدة طويلة في ثيار سبصيص ذا شحنة عالية. وهذا هو كل هدف. أن تتحول إلى سلك سميك ثقيل. مثل هذا ونوح تحت انفي بالسلك السميك الثقيل الحاسي نه مصى بقول "إذا استطاع السلك أن يحمل الثيار. فإذا لم يشكو من نقص الثيار نفسه أضلك حديقاً بالواقعة على شدة"

قلت بني أوافق. كنت أعرف أن التطية الذاتي تكثيف يريد من قدرة المرء على بلوغ شوذة والاستمتاع بها ولكن قبل أن أتمكن من طرح بعض التحفظات. وضع كورنر يده على دراعي

"والآن. أريد أن أتحدث إليك. سوف تدرك أن لي هدفاً من الإتيان بك إلى هنا تعال وجلس". من الواضح أنه كان يشعر بجذبة حديته جلس في صوء الشمس على الأريكة تحت المائدة

قال

"ليس الأمر ببساطة هو أنني أريدك عضواً في جماعتنا - فهذا واضح دون حاجة إلى سؤالك إنك مؤهل تماماً لهذه العضوية إنني أحب أن تكون نائباً في القيادة. خلعي. والرجل الثاني من بعدي في الوقت المناسب"

رفع يده لكي يمنعي من مقاطعته. واستمر بقول

"ليس عليك أن تتخذ قرارك الآن. بل ولا حتى في الأسبوع التالي أو الشهر التالي. إنما أريدك أن ترى كيف تعمل. نظراً إن كان بوسعنا أن مساعدك. أو إذا كان بوسعك أن تساعدنا. اسمع إنك تملك ما يكفي من التناسق والانسجام إن أكثر من حولي تلاميذ حبيدون. ولكنني حتى الآن لا أعرف المميزات التي يحتاج إليها القائد. لقد أراد دانكمان وزوجته أن يكونا قائدين - ولكنهما كانا جنيرين - ببساطة - بأن يحولا مجموعتنا إلى بيت للعبادة. حريم خاص لكل منهما. إن عملاً مثل هذا يحتاج إلى تكريس خالص للنفس. يحتاج إلى الروح العلمية. وانت تملك هذه القدرة وتلك الروح".

أضلقت بعض الأصوات الدثة على الاعتذار. نه قلت إنني بحاجة إلى بعض الوقت للتفكير واتحاد القرار ولكن في أعماقي. كنت أعرف أن هذا ليس من الأمور التي يمكن إنفاذها إنني وحيد مسرد. ليس ببساطة يحكه ميوسي. ولكن يحكه ضيعتي إنني له ربح. احتلظ بكل هؤلاء الناس

رست على مكتبتي وقال: "بالضغ. خذ من الوقت ما تشاء ولكن هناك شيء واحد من الأفضل أن أقوله لك بصراحة فقد حاولنا حتى الآن أن نحافظ على استعاد بشرطتنا في الانتظار. لأنها من الممكن أن يساء فهمها ولكن ربما قد نأوان الخروج وإظهار أنفسنا بوصف لكي نكتسب الأنصار. ولكي نعلن أهدافنا على العالم لأن هدفنا هو أن نثبت أن الحضرة تستقر أبداً حتى يفكر شكل لإنسان بالطريقة التي يفكر بها"

كان قد أصبح حاداً كالك الحنية. وله فكر أنا حالياً من كل تعاطف معه. ولكني رحبت فجأة الفكر في الصورة التي رسمتها أنا دانكمان عن العراء الذين يتبادلون حلد عميد في السيارة العامة. فوجدت أنه من الضروري أن أطل قليلاً من المائدة حتى أتمكن من تسخير على تعبير وجهي. وبهنا مكانا نهبط إلى الطابق الأسفل. قلت

"أظن أن هذه فكرة عظيمة لقد امتلأ السئر وأنجيلاً بالحماس إلى حد الانفجار في الليلة الماضية لقد اكتسبت امس نصيرين متحمسين"

"هذا شيء جيد. ولكننا لن نقتنع حتى أتمكن من أن أقول نفس الشيء عنك"

و حينما أقرنا من الجماعة الذين كانوا ما يزالون مشغولين بترتيب التماثيل. فتمر على دراعي وقال "مؤقتاً" احتفظ بسرية ما قلته لك بشكل كامل"

□ في الساعة الثانية طهراً. أعلن أن الغداء قد أعد. في حجرة الطعام. التي تصل على الحديقة الكبيرة الخضراء. وكانت وجبة بسيطة قد وضعت على الموائد الخشبية البسيطة الخشنة - كان هناك صحنان كبيران عميقان مملوؤان بالحساء. وصحنون صغيرة فيها

ضخام من مكعبات الجبن، وكعك من طحين القمح وكعك آخر مزود بالسكر. قدمني
مكورس إلى رجل شاب ذا لحية كبيرة اسمه بول. بدا لي أنه مساعده. كان بول يضع
نظرات ذات إطار صمغ من قرن حيوان. لكنته شمالية واضحة. وأسلوب في التعامل بالغ
الحية

قال.

"لنحاول أن نأكل وجبات خفيفة، وإلا واجه الجسم مشاكل كثيرة في هضم
الطعام. فيفسد النظام ولا يؤدي إلى أية فائدة. أما هذه الوجبة فهي وجبة كبيرة إلى حد
عبد. أما مجموعتنا الأخرى - وهي مجموعة من ثعلوا الأربعة - فتأكل أقل من هذا
بكثير."

فهمت أن مكورس يحافظ على الفاصل بين المجموعتين، وأن لكل من المجموعتين
موعداً خاصاً لاجتماعها كل أسبوعين. قال بول.

"لأننا نكون عمليين في هذا الصدد نظرياً، ليس هناك بالطبع حد بفرصة السن.
وكن تجربتنا دلت على أن المتقدمين في السن يهتمون بالجنس أكثر من اهتمام الشباب. فإذا
سمحنا ما هو أكثر من اللازم منهم بالانضمام إلينا لتركنا الشباب. إن الكثير من الفتيات
الصغيرات لا يبلو عليهن الانزعاج من الرجال الأكبر عمراً. ولكن ليس كثيراً أن يختار
الذكور الأقل عمراً نساء يزيد عمرهن على الأربعين من الطبيعي أن المجموعتين تستطيعان
لاحتلاط فيما بينهما، ولكن هذا يحدث في حدود معينة، وبدعوات خاصة."

وكان واضحاً أن هذا يفسر حضور عدد من الرجال والنساء يزيدون على الأربعين.
ل على الخمسين.

كان عدد الحاضرين في البهو يبلغ الستين تقريباً، مع أغلبية قليلة من النساء. وبدت
لي المجموعة عينة عادلة من الناس. لاحظت أن هناك ما يشبه الزئ الشائع بين نساء
المجموعة، تغلب عليه الشباب ذات الأكماء الطويلة والنظارات ذات الأطر الثقيلة إلى حد ما.
الأمر الذي يعطيهم مظهر الدارسات المجدلات. لم يكن هناك مرافقون يقل عمرهم عن
لعشرين، وكانت الفتاة التي رايتها في الحديقة تبدو واحدة من أصغر الحاضرين. لاحظت أن
نسبة كبيرة من الرجال يبدوون ذوي بنية قوية، أو يرتدون صدارات صوفية معلقة مرتفعة

الأعناق عريضة الصدر لكي تعطي انطباعاً بضخامة حجمه من يرتديها وله بكر سوي غس.
قليل جداً من الحاضرين هو من يبدو وسيم الطلعة بشكل ملفت. ونكتني له أن شخصاً واحداً
يمكن أن يقال عنه أنه غير جذاب من لوهلة الأولى وبشكل عام. وكان للنساء مظهر اللص
وارتفاع المستوى الذهني بشكل يريد عما يتمتع به الرجال لقد رايت عدداً قليلاً جداً سيب
من الرجال. يمكن أن يقال أنهم من النوع العصبي في النشاط الذهني الرائد. ويسبب
عليهم من سمات تدل على أنهم مجموعة "متوسطة"، مثل عينة عادلة. أحسست بأنهم يريد
جاؤوا نتيجة اختيار دقيق بأكثر مما يظهر من براهم للمرة الأولى

لاحظ عليهم أنهم يعرف أحدهم الآخر معرفة جيدة جداً. وكان هناك قدر كبير من
الصحت. ومن التجاذب والمعاكسات، من المصافحات والقبلات بين المعارف والأصدقاء.
قيام بعضهم بتقديم صحاف الطعام وأطاق الحساء. لا خربس أحسست بالتأثير القوي به
الحو الودي. رغم أنني شعرت بأن من وراء هذا الجو يكمن توتر من نوع ما، ويوشك أن يكبر
الافتقار إلى التلقائية والتصرف بطريقة مستريحة

ذهب بول لكي يتحدث إلى شخص ما. قال صوت في مقابلي: أهلاً، فوجئت بمسي ص
نحو العيينتين البينيتين للفتاة التي قابلتها وسط حشائش الحديقة المحصورة، البتلة. كان لرجل
يحيط بنا معاً، وبسما رفعت وجهها وأدارته نحوي متمسكة لي، امتلئت بهداً من وراء
وفرصت عصوي فرصة ودبة قالت.

"اسمي تبسا" ثم أشارت إلي لكي أحنى رأسي نحوها. همست،

"لا أريد تناول الغداء، فلنذهب إلى الفراش."

"لنني أشعر بالجوع"

"إلى جانب أنهم قد يلاحظون انصرافنا معاً. لنني اتلفي تدريجياً خاصاً"

عاد بول. ورمى الفتاة بنظرة مقطبة تدل على عدم موافقته. أحسست أنها
يعتبرونها ذات تأثير مفسد وغير صحي.

أكلت خبزي وقطعة الجبن وشربت حساني. ثم خرجنا من نواد الشرفة المرسية
ومنها إلى الحديقة الكبيرة. كانت مجموعة من النساء تقف على شكل دائرة، وبدانها

يؤدون نوعاً ما من التمرينات. وضع كل منهم يده على كتف الشخص الذي يجاوره، ثم تحركوا إلى الأمام حتى تلاصقوا، ثم انحس كل منهم إلى الأمام بحركة واحدة حتى أصبحوا كالعقدة على هيئة البداية في لعبة "الركبي" ذات الخمسة عشر لاعباً قال بول.

"هذه جماعة من جماعات الألفة في مرحلة التسحين إنهم يحاولون التخلص من صعوبة الحياة البدنية - يلمس أحدهم الآخر، يقومون ببعض الأشياء معاً يحاولون التخلص من الإحساس بالانفصال والعزلة".

كان رجل شاب يرتدي صدرأً ذا عنق مرتفع باقي بالتعليمات للجماعة، وتحرك من حين إلى آخر وسطهم ويصفع بعضهم برقة على الكتفين أو على الظهر. وبينما كنت أتما في مكاني، اتجه إلى امرأة في نحو الأربعين، وفعل شيئاً ما يتهديها - من الواضح أنه كان يعمل من وضع مشد صدرها من فوق صدرها الصوفي - وانتهى بأن صفع رقبها صفعاً حدة كما لو كانت بقرة تقاد إلى الحقل. قال بول.

"هأنت ترى، إنهم يحبون أن تلقى عليهم الأوامر لأنها تساعد على التخلص من إحساس بالسلوولية - مرض الحضارة العصابي والعرض هو جعلهم يشعرون مثل شعور الأطفال الأبرياء مرة أخرى".

لاحظت أن كل للشركيين في هذه الجماعة من "جماعات الألفة" كانوا يرتدون ملابس ثقيلة إلى حد ما، بالنسبة لحرارة الجو. وفسر لي بول ذلك بأنه جزء من عملية التدريب، فبينما ينشرون في التخلص من إحساسهم بالقهر، يمكنهم أن يرتدوا ملابس أخف نقلاً وقال في النهاية: "سوف ترى ما أعنيه بعينيك في النساء".

ذكرت له الفكرة الأساسية التي ساورتني. وهو أنه طالما يأتي الجنس للبشر بشكل طبيعي إلى هذا الحد، فإن كل الأهداف الشديدة التعقل لجماعة مثل هذه - لابد أن تنجس نحو تبادل الاستشارة الجنسية في النهاية، ورغم أن الجميع يؤمن برأسه موافقاً، وقال.

"في مجموعة بهذا الحجم لابد أن يحدث هذا في حدود معينة بالطبع... ونحن نحاول أن نتحد الاحتباطات الالامة. ونكسك سوف تدهش إذا عرفت مقدار قلة حدوثها ليست هنا محرمات، ولا كوكبيت أو موضوعات للكبت، وهذا يؤدي إلى فرق كبير".

علينا قدخلنا المنزل، سألته عما كان يعنيه بكلمة "احتباطات" فقال: "سوف أضف عليها".

صعدنا إلى حجرة في الطابق الأول. كنت قد عرفت أنها حجرة نوم جماعية نساً، دخلها بول دون أن يطرق الباب. كان هنا ست من النساء يرتدن على الأسرة، أو كانت بعدن ترتب زينتهن، وكانت إحدهن جالسة بسرورالها الداخلي ومشد صدرها وهي تحب جوربها. ابتسمت لنا، ولم يبد عليهن الاهتمام. اتجه بول إلى سرير فوقه حقيبة مفتوحة فقلب محتوياتها على السرير. نشر المحتويات وبعثرها على سطح الفراش - ثوب قصير رمدي من الصوف، مشدات، زوج من الملابس الداخلية، بعض أدوات التجميل - ثم ألقى نظراً عبر حقيبة غسيل قمرزية اللون. لم يبد على إحدهن أنها نظرت نحوه أو انتهت إلى ما يفعله قال.

"إنني أبحث عن موقع للحمل. إنها أفضل طريقة لتأكيد أن شخصاً ما هو بكسر القواعد للتعبه".

التقط حقيبة المرأة التي كانت ما تزال ترتدي ملابسها. قالت:

"أوه. بحق السماء لا تبعثر كل شيء. دعني أطلعك على ما فيها".

أخرجت الثياب من الحقيبة قطعة وراء أخرى. وفردت كل قطعة ونفضتها. نشر بول إلى سروال طويل فرنسي وردي اللون وقال:

"لبس هذا جميلاً جيداً".

"أعرف هذا. ولكنني غادرت المنزل في عجلة وألقيت في الحقيبة بأول شيء رأيته أمامي".

وفي خارج الغرفة قال موضحاً:

"لدينا نقاط تفتيش كل عطلة من عطلات نهاية الأسبوع، لكي نرى إن كانوا جاءوا معهم بمواقع الحمل أم لا. وبالطبع، ليست لدينا وسيلة نعرف بها إن كانت النساء قد تناولن "قرصاً" قبل مجيئهن أم لا".

٣٠ - ألا يفسد هذا من تأثيره بشكل ما؟

أوه، لا. إن أوتو يتحدث إليهم ضد "أفراص منع الحمل" على أي حال، لأسباب

صحية.

٣١ - وماذا عن الرجال؟

"نساء تفتشهم، من للسّموح لكل واحد أن يمتش أي شخص آخر. إننا نحاول أن نكون

أمرّة واحدة".

٣٢ - لماذا اعترضت على السروال الوردي لتلك الفتاة؟

"فتحات الساقين واسعة. ليست هناك قاعدة بشأنه بالطبع، ولكن إذا كان في نية

الناس أن يمارسوا الجنس، فإن هذا النوع من السراويل هو النوع المثالي. فإذا أضيت الأنوار فجأة، بيت الفتاة في كامل ملابسها".

٣٣ - إذن فإن من المفترض أن تظل النساء مرتديات سراويلهن الداخلية؟ هكذا سألت وأنا

أفكر في تيسا وهي رائدة على حشائش الحديقة الخضراء المبتلة

ألاح أنه قد صدم تقريباً. صاح، "أوه، لا. إن هذا جدير بأن يبعدك تماماً عن الهدف الأساسي لمجموعتنا - الألفة. ولكن إذا شرعنا في تلقي الملاحظات من أحد الرجال، فإن عليهن أن يترنل سراويلهن، على الأقل حتى الأفخاذ" واستمر يتحدث بإخلاص شديد، "لا يبدو عليك أنك تفهم. إننا لا نحاول أن نجند الناس أو أن ننظمهم في كتائب صارمة النظام كالجنود ولكنك تعرفت بيفسك أنه كلما زادت العقوبات كلما زاد ما تنيره من اهتمام. ونهنا فإننا نحاول أن "نصف" لنساء مجموعتنا أن يرتدين السراويل الحريرية ذات فتحات السيقان الضيقة المحكمة إلى حد كبير. وبذلك فإذا حدث أن رغبت الفتاة في ممارسة الجنس فإن عليها أن تخلعه تماماً. إننا لا نحب السراويل المصنوعة من النايلون أو السراويل الفرنسية أواسعة لأنها يمكن أن تجلب جانباً بسهولة كبيرة. وبعض هذه الأشياء لا تشكل أية حماية على الإطلاق".

٣٤ - سمع صوت جرس نحاسي صادر من البهو. سألته. "ماذا يحدث الآن؟"

٣٥ - سمعت محاضرات حتى الساعة الخامسة، وأنا نفسي ينبغي أن ألقى محاضرة. ولذلك سيكون علي أن أتركك. إن حضور المحاضرات إجباري بالناسبة، وأي شخص "يزوغ" من المحاضرات لا يكون جاداً حقاً ونحن لا نقول ذلك للقادمين الجدد، لأن هذا يساعد على التخلص ممن يأتون للدواعي لا تتفق مع أهدافنا".

٣٦ - نصحي بأن أتجول بين فاعات المحاضرات المختلفة. وأن ألقى الأسئلة إذا رغبت في هذا

عملت بنصيحته. انقسم "الطلبة" إلى أربعة مجموعات. تحدث كورنر إلى المجموعة الأولى. ويول إلى المجموعة الثانية. وكريس مجموعة دالته. وتحدثت للمجموعة الرابعة امرأة جذابة. وإن كانت تبدو عليها مسحة طفيفة تجعلها أشبه بمدرسات المدارس الثانوية تدعى جوينيث. كنت سعيداً بأن أرى الستير وأنيجلا يجلسان بلهفة في الصف الأول من مجموعة كورنر، التي كانت تجلس في الحقيقة، جلست في الصف الأخير من تلك المجموعة لمدة عشرين دقيقة أو نحوها، وسمعت شرح الأسباب التي تجعله مدياً. قال،

"يعتقد المثاليون أن أشياء مثل الحياة والفكر والأفكار يمكن أن توجد "بمعزل عن" المادة، بمعنى من المعاني". وكانت حججه ضد هذا الرأي كاسحة، ومقنعة تماماً بالنسبة لي. ولكنها لم تبلغ هدفها، بقدر ما يتعلق الأمر بما أهتم أنا به. إنني أوافق على أنه لا يمكن أن تتفصل العقول والعمليات العقلية عن المادة. ولكنني ما زلت أعتقد أن الحياة - بشكل ما - قد دخلت للمادة من "خارجها"، وليست هيضاً منبثقاً عن المادة، مثلما تنشق النار عن الفحم.

٣٧ - أحسست بأن كورنر لن يرحب بتوجيه أية أسئلة، ولذلك فقد انتقلت إلى المجموعة الثالثة، التي كانت تعاضرها السيدة المدعوة جوينيث. كانت تقدم ملخصاً متحمساً. وإن كنت قد رأيت مشوشاً - لأفكار رايخ. وألاح لي حديثها عن "السائل الحيوي" الذي يترصه بين الفخلين لحظة الاستئارة الجنسية، ألاح لي قريباً إلى درجة خطيرة من الطاقة تعصبية لتي قال بها رايخ. تساءلت في داخلي عما يمكن أن يحس به كورنر إزاء هذا. حاولت جوينيث فضاض أن تجرني إلى المناقشة، التي سرعان ما دبت فيها الحياة. بدت لي مجموعتها معمة الذكاء والفهم. وأكثر استقلالاً عقلياً مما توقعت. فقد رفضوا الاتفاق معها حول عدد كبير من المقاطع. بذلت بعض المحاولات لشرح نظرياتي الخاصة عن أصل الدفع الجنسي. فظفرتني حول الاستجابة الرمزية. ولكن كان بوسعي أن أرى كيف ينظروا إلى هذه الأفكار استغراب كامل، وإنها - كما قالت إحدى السيدات، "مجردة بشكل لا ضرورة له" أصبحت

ناخنة ساخنة حتى لقد دهشنا جميعاً حينما رجع أعضاء الجموعات الأخرى إلينا في لحظة وقالوا ان وقت الشاي قد أوف

ونكسنا في الحقيقة لم نشرب شايًا - وهو الذي بمقته كورير - وإنما شرب السانكا، وهي القهوة من الكافيين. أكلنا أيضاً معجنات مسكرة دهنت بطبقة حميقة من الزبد شحمت علي جوبيت وهاالت لي أنها اقتنعت بأفكاري ورافقت لي هي جداً فكانت في نحو أربعين من عمرها، ذات مزاج دموي حار، وأسنان كبيرة بيضاء أصفيت على ابتسامتها لطفاً وحسنة، وكانت تعيل إلى البالغة في صورة المدرسة المجسدة التي لاحظت لي أنها الصورة التي سمعتها "قيادة" المجموعة لنسائها، بنوياً الأسود الطويل الأكمام، وعقدها دي الوريقات الذهبية والصلب في وسطها أدركت أنها عضو في المجلس البلدي الذي يتبعه مسكنها، وأنها تعمل وظيفة حسنة في مكتب للعلاقات العامة كانت تمنع بطريقة حماسية منشوشة ليلياً في مناقشة الأفكار ذات الجاذبية الخاصة أو السحر بالنسبة لها ولكنني لم أستطع ان تحبل كهيبة انصمامها إلى مجموعة كورير

بعد شرب الشاي ذهبتا إلى جميعاً إلى الحجرة الرئيسية لم يكن فيها سوى أثاث قليل، لكنها كانت مريدة بأبسطة جيدة، بدت كما لو كانت قد شكلت المجموعة ثمناً يساوي من شكل الأثاث الموجود في المنزل (هاالت جوبيت أن هذه الأبسطة كانت "هبات" قدمها دعص الأكر سناً، وقد امتلأني شكوك حول أن بعض الأعضاء الكبار السن قد اشتروا عيوتهم في المجموعة بالهدايا الغالية التي تريد كثيراً وبالإضافة إلى الرسوم المقررة)

ورغم أن البرد كان يتردد بالحارج، فإن هذه الغرفة كانت دافئة بسبب مدفأة نحسب الذي كان يحترق في نارها الكبيرة.

انقسم الناس في الحجرة إلى جماعات الفة صغيرة، ورحلت أتقبل من مجموعة إلى أخرى، مراقباً نشاطاتهم باهتمام. وسرعان ما اتضح لي أن القسم الأول من النهار لم يكن سوى مقدمة مبدئية مثل افتتاحية الأوبرا الموسيقية أما هذا القسم الآخر فكان هو القسم الحدي والهام تشابكو في حلقات صبكة، متلاصقين بشدة أحدهم إلى الآخر، ويرى كل منهم بيديه على أجساد الآخرين، يانئين من الكاحلين، متجهين إلى الرؤوس. انقسمت جماعات كثيرة إلى أزواج، وكرروا عمليات الضغط وتندليك. لم تكن هناك تصرفات جسدية بشكل خاص في هذه العملية، ولاحظت أن الأيدي لا تلبث إلا قليلاً عند المناطق

الحساسة، ولكنها بدت أكثر اهتماماً بالرؤوس والأذرع. جنبتي فتاة نحيلة طويلة إلى آخر إحدى المجموعات حينما كنت واقفاً أراقبها، وبدت ترتب علي، ضاغطة بكلتا يديها عن بطني أو صدري ثم تباعد بينهما وتضغط بقوة أكثر بعد ذلك فعلت معها نفس الشيء، وقف ورائها، ضغطاً بيدي الاثنتين بقوة على بطنها، ثم مدلكاً جسدها حتى أصل الرتدي كررت هذه العملية على نهديها وعلى الفخذين ثم - طبقاً لتعليماتها - بدت ترتب عن ظاهرها الساهقين، بدت من الخصر، جازياً بيدي فوق ثوبها، هابطاً إلى القدمين. لاحظت أن كانت ترتدي حزاماً لرفع الجوربين مع الحورب نفسه. وبعد ذلك بدت تلاطف صديقي وذراعي ورأسي، جارية بأصابعها في شعري، وعلى صدغي، فاتحة فمي لكي تدس يدي بصبعها داخله، ثم تدس بصبعها الصغير (بنصرها) في أفني. كانت ما تفعله هو ملاصقي كما لو كنا عاشقين، ولكن لما كنا قد بقينا بكامل ملابسنا، فقد كان للعملية حسيه غريبة من الاستئثار، وفرة غريبة على إبراز ما هو محرم وممنوع ولو أننا كنا مغربيين وقد حلصنا بعض ملابسنا، لانتهت العملية بالجماع في خلال دقائق. ولكن هذا التنب الطويل المدى في حجرة يشاركك فيها أكثر من خمسين شخصاً، أدت إلى خلق مجموعة جديدة من الاستجابات، محطمة شكل العادات القديمة

لاحظت أن بعض الأزواج الآخرين قد جاوزوا بأوان ملهنة بالماء وراحوا ينيادنون عن الوجوه والشعر، قاموا بذلك بالقرب من نوافذ الشرفة المفتوحة، حيث لم تكن هناك أسقف كثيراً ما اخترق الأزواج وتبادلوا الشكراء. وبعد عشر دقائق من ملاطفة الفتاة المحبة الطويلة، حصلت على امرأة نحيلة البنية متوسطة العمر شعرت في البداية أن التغيير لم يكن مفيداً ولكن بعد خمس دقائق من الملاطفة لاحظت أننا حققنا الألفة المطلوبة، ووصلت أن يعرف أحدهما الآخر وأن يروق أحدهما للآخر. بعد ذلك حصلت على نيسا التي ليست وهمست لي بطريقة فيها قدر من التفكه، "أخشى أن لا بد أن يكون هذا ذروة مصادرة، هوذ مقابلة للنزوة "antclimax". كانت على صوب إلى درجة ما، لم يخف بنطالي عنها، سر. كما لم يخف ثوبها عني أي سر. ولكن الإحساس بنوعيتها تحت الثوب كان منير اختلفت شيئاً كالفاكهة من هذا الموقف، فلبست يديها تحت صدري الصوفي وفحصت ندي بقوة، وحينما دلكتها ولبست ثوبها بين فخذيهما قالت، "أرجو ألا يمحضني الآن أحد ليس مبتلة". سألته

"هنا من المحرمات؟"

"بالطبع. ولكن ماذا يمكنني أن أفعل؟ إذا لمسي الناس مجرد لسة هنا، بلغت ذروة نشوتي على الفور. لقد بلغت مرتين الآن"

بعد بضع دقائق قالت: "إنني جائعة إلى درجة لعبنة. عندي كثير من الشوكولاته في جعرتي، إذا كنت تريد بعضها."

"هذا مسموح به؟"

"نيس بشكل حقيقي. ولكن كل هذه الألفة تنير نهمي إلى الطعام."

في الساعة السابعة والنصف ارتفع صوت الجرس النحاسي فقالت نيسا،

"الحمد لله على ذلك."

اتجهتا جميعاً في حركة واحدة كالتيار إلى حجرة الطعام. كنت بحاجة إلى طعام. وكانت كل هذه الاستثارة تجعلني أشعر كما لو كنت قد سرت عشرين ميلاً. كان الغشاء أقل قليلاً في شحمة من الوجبة السابقة: صحاف ضخمة من لحم البقر والخنزير البارد، وصحاف عميقة صغيرة من حساء الطماطم، وخضراوات ساخنة. ولدهشتي لاحظت أنه كان ثمة مشرب للخمر أيضاً. وقالت لي جريموث - التي تولت أمر رعايتي - بأن في وسعي أن أحصل على بيرة أو على نبيذ. قالت أنه ليست هناك مشروبات ثقيلة قوية. ولكن قليلاً من الكحول يساعد أكثر الناس على الاسترخاء والاستمتاع بوجبتهم. لاحظت باهتمام أن "الألفة" استمرت في قاعة الطعام. فقد انتهر الرجال والنساء للتمارحة الفرصة لكي يلاطف أحدهم الآخر، بل وأن يتبادلوا القبلات. كان هناك قدر معين من القبلات في المرحلة السابقة. وأغلبها كان على الأنزاع والأعناق. أما الآن فقد رأيت أنهم يحبون بعضهم البعض غالباً بالتقبيل على الفم. ورغم أن الألسنة لمعت دوراً في بعض هذه القبلات، فإن أحداً لا يستطيع أن يصفها بالشهوانية، بمعنى دلالتها على الرغبة في الذهاب إلى الفراش.

أكلت بشكل جيد، وأنعشتني كأس من البيرة إنعاشاً كبيراً وبعد تناول الطعام، نسقت طريقي إلى الرحاض. ولكنه كان مشغولاً فشقت طريقي إلى الطابق العلوي إلى مكان تذكرت أنني رأيته - وهو مكان ملحق بغرف النوم تذكرت أنني رأيت على بابيه

قبيعة رجل وحقيبة يد نسائية. مع سهم تحتها يشير إلى نهاية الدهليز سرت في الانحدار إلى البه. فوصلت إلى مرحاض من الواضح أنه كان قد بنى حديثاً. مع عدد من أبواب للأماكن الخاصة مثل مرحاض عمومي ولكن لم تكن هناك إشارة على الباب تنبئ ما كان الرحاض للرجال أم للسيدات. وبينما كنت واقفاً هناك، سمعت صوت خطوات تأتي من آخر الدهليز. وتنفس الصعداء حينما رأيت أن نيسا كانت هي القادمة.

"أنا مسرور لرؤيتك أيهما للرجال؟"

أوه، أيهما أردت، فليس لدينا أثنان. إنها الألفة، أترى؟ هل ستأتي؟"

"أعتقد هذا."

يجب علي أن أعترف بأنني أحسست بالخجل. ولكن كان بوسعي أن أرى عدم منطقية هذا الإحساس. نهبت إلى المحل الأخير بين المحلات الصغيرة المتجاورة، ولشدة دهشتي اكتشفت أن الجدار الذي كان يفصله عن المحل المجاور كان مصنوعاً من الزجاج دهشت نيسا إلى المحل المجاور وابتسمت لي. ثم - ودون أي إحساس بنفسها - جلست فوقها إلى الأعلى. جلست سروالها الداخلي إلى ركبتيهما. وجلست

قلت:

"يا الهي الرحيم. هذا أكثر مما ينبغي أنيس كذلك؟"

"طننت هذا حينما جئت لأول مرة. ولكنك سرعان ما تعود عليها"

"ولكنني لا أحب أن أتخفف من هوائي الفاسد حيث يمكن أن يسمعي أحد"

"ماذا تهتم بذلك؟ الدكتور كورنر يقول أنه صوت طبيعي من أصوات الجسم. مثل صوتك وأنت تتكلم."

شعرت بالبلاهة وأنا واقف في مكاني، فانزلت بنطالي وجلست. لم أشعر من قبل بعدم الراحة التي شعرت بها في تلك اللحظة. ثم سمعت صوت مزيد من الأصوات الخارج، ثم دخلت امرأتان أخريان. اتجهتا إلى المكانين في الطرف الآخر، وكشفتا عن مؤخرتيهما وجلستا - وكان الزجاج نقياً بصورة غير عادية. لم تلتفتا إلينا أقل التفاتة، ولما استمرت في

تحدثت عما قاله كورنر عصر ذلك اليوم. أراحني صوتهما، فأنفجر البنبوع الحبوس في داخلي. ولما رايت تيسا وهي تنظف نفسها بالورق فكرت في أننا جميعاً مخلوقات ملبنة بانكوبيت والرغبات المكبوتة أو المحبطة بأكثر مما نعرف عن أنفسنا، وأنه من المحتمل أن يكون كورنر على صواب مرة أخرى. ولكنني صممت على أن أستخدم مرحاض الطابق الأرضي في المستقبل، لأن له جديراً عادياً.

هبطت إلى الطابق السفلي مع تيسا.

عندما عدت ثانية إلى القاعة الرئيسية، وجدت معظم الطلبة حالسين على الأرض فوق وسائد متناثرة. وحينما دخلت، أشار كورنر الذي كان واقفاً إلى جدار اللقاة. ذهبت إليه. صرّب على المائدة بإحدى الزجاجات طالباً الصمت. ثم قال:

"والآن أريد أن أقدمكم جميعاً إلى الروتي والفيلسوف تبارز جيرلسورم، الذي وصف بأنه أكثر كتاب بريطاني إثارة للاهتمام منذ الدوس هكسلي ود. ه. لوريس. (واعتقد أنه خرج تلك المقارنة من وحي اللحظة). إن آراء مسز سورم حول الجنس تختلف عن آرائنا في نواح متعددة، وأنا الآن أريد أن أطلب منه أن يلقي بضعة كلمات عن آرائه تلك ويحب علي أن أقول أنني لم أكنه قبلًا بأنني سأطلب منه مثل هذا الطلب، وهكذا فإن كلمته سوف تكون مرتجلة تماماً".

لم يكن لدي ما يكفي من الوقت لكي أدهش فيه أو لكي تتوتر أعصابي. وقمت ونحست بسرعة نظريتي عن الدافع الجنسي، وطبيعته العملية، والطريقة التي بصور بها الدافع الجنسي نظريتي الطاهرانية (المينومينولوجية) على كل تفاعل الإنسان مع العالم. وحينما شعرت أنني أوشك أن أتوه بهم في دهاليز هوسرل^١، تحلّيت عن إحساسي بالدافع الجنسي باعتباره "مفتاحاً لحاملي مفاتيح الوجود" وعن العلاقة بين الجنس والتجربة تصوفية انتهيت بمحاولة شرح النقطة الأكثر جوهرية عندي. وهي أن الجنس يمنحنا لمحة خاطفة من تركيز العقل يمكن أن تجعلنا نشبه بالآلهة لو استطعنا أن نبتلعها إرتدباً في محاولات أخرى وأن نسيطر عليها. ذكررت فكرتي عن أن الكائنات البشرية تشبه ساعات

١- إدموند هوسرل (١٨٩٥-١٩٦٨) فيلسوف ألماني، ولد في موزيليا من أسرة يهودية، وبعد مكتشف النهج الطاهرني في الفلسفة الحديثة لوصف وتعريف للمعنى الحقيقي لمادة الوعي.

الأجساد التي كانت تدبرها القوايز المضفوفة، وأن الجسد أثقل من أن يحركه تفاد الصنيل الذي تمثله قوة الإرادة. ولا يحدث إلا في الجسم أن نستمكن من تنمية قادر بنمي بالقوة الكافية لتحريك ساعة الأجساد الثقيلة. وانتهيت بقولي أن اهتمامي الرئيسي كان يتركز في التساؤل عن كيفية تعلم إدارة وتقوية قوايز الإرادة.

كان المناقشة التي تلت كلمتي ممتعة ومنيرة للاهتمام، ولكنها لم تصل الحد الأقصى. فقد اعترض الكثيرون على أساس أنه من الخطورة الشديدة السماح بمثل هذه الأهمية الكبيرة للإرادة. كانوا يحتاجون بوجهة نظر تشبه نظرية لورنس وكورنر واستطعت أن أرى أن تلك كانت النقطة التي اختلفت فيها معهم جميعاً، يعني لم أنزع نفسي عن الإرادة ولا الذهن.

كان يوماً طويلاً، وكنت أشعر بالتعب. كانت الساعة الآن قد ماريت التاسعة وكان الوقت قد مر بسرعة شديدة. وكنت قد بدأت أشعر بالرغبة في النوم. كان الأمر كله بالغ الإمتاع ملتبساً بالوعود الكثيرة، وشعرت بأن كورنر كان في طريقه إلى شيء هام دون شك، ولكن كان الأمر يتطلب قدراً كبيراً من التفكير لتصبح موقفتي من تلكه كلها وأملت أن ينجلي المساء عن شيء أكثر اجتماعية بشكل بقي، وأني أتمنى لو أنس في الفراش وقد كان هذا على بعد كبير من الموقع الذي بدأ منه، حيث كان نهر موت وهوراس جلبني.

شكرني كورنر وقال أنه يأمل أن يتمكنوا من رؤيتي كثيراً، ثم قدم المجموعة من الستير وأنجبالا، اللذين كان عليهما أن يقفا، وقد بدأ عليهما الحرج. صفق الجميع بأيدٍ شرعوا في الوقوف والتحرك للخروج من الحجرة. سألت كورنر، "ثم ماذا بعد؟"

٣- الآن يبدأ القسم الأكثر أهمية. سنمر الآن بمرحلة أخرى من مراحل الألفة

لم أسعد بذلك سعادة كاملة. كانت الرحلة السابقة ممتعة ولكنها متعبة، فإني لم أشعر برغبة في أن أكرر توتر ملكاتي مرة أخرى. أشار إلي فتبعته إلى خارج الحجرة. متسائلاً بيدي وبين نفسي إن كان سيتمنع إذا اقترحت ألا أتشارك في تلك الرحلة. بدأت اتحدث، ثم غيرت رأي. وبدلاً من هذا، سألته:

٤- أود لو أسألك عن إيز موند دونيللي.

نظر إلي وابتسم.

قال، "ظن أن بوسعي أن أخبرك ببعض الأشياء الهامة. ولكن يمكننا أن نتناقش ذلك فيما بعد. فإن لدينا الآن أشياء أخرى يجب أن نقوم بها".

تبعته، بشيء من الإجهاد، على السلم. استدرنا إلى اليمين، وطلعت أينا ذاهبان إلى مهجع العنيتات المخصص للنومهن. ولكنه فتح باباً علياً لباب حجرة النوم، ودخل. تبعته. كانت الحجرة صغيرة للرتفعة. كان لأحد الجدران نافذة واسعة. ولدهشتي، رايت جوينيث واقفة أمامها، تعيد ترتيب شعرها وتحلق نعلونا

"هذه مرأة عاكسة ذات اتجاهين. بالطبع".

كانت هذه أول مرأة من نوعها أراها في حياتي. سألته،

"أنت واثق من أنها لا تستطيع أن تقرأ؟"

"ليس إلا إذا فعلت هذا" مد يده وأدار ذراعاً صغيرة وعلى الفور، أصبحت النافذة مرأة كان بوسعي أن أرى وجهي على سطحها. قال،

"تستطيع هي الآن أن تقرأ. لقد قلبت اتجاه الانعكاس في المرآة"

أدار الذراع مرة أخرى، فابتسمت جوينيث لنا، ولوحت بيدها عن النافذة. لوحت رداً عليها، ناصباً أنها لم تعد تستطيع أن تقرأ.

"ما الفرص منها؟"

"للملاحظة. سوف ترى أن النساء يبدلن ملابسهن الآن"

كان هذا صحيحاً. ففي المهجع للردحم، كانت النساء يخلعن ثيابهن، وقمصانتهن الداخلية، والأحزمة راقعة الجوارب. أما جوينيث، فإنها دون وعي بما تفعله قد مدت يدها إلى شعرها وفكت زراً في ثوبها، ثم جنبت الرمام. خلعت الثوب بعناية ثم فردته على الفراش. كانت ترتدي قميصاً داخلياً أسود اللون ذا حافة حريرية مشعولة ببت مغرية جداً وجذابة. بدا عليها أنها نسيبتنا. خلعت حمالة القميص عن كتفها، ثم تركه يسقط حول قدميها. من الواضح أنها لم تكن تفصل اللون الأسود وحدها للابسة الداخلية. كانت ترتدي حمالة صدر

بيضاء، وحزاماً أسود اللون يرفع الجوربين وسروالاً داخلياً أبيض من النايلون الناعم. من الواضح أنها كانت مستنناة من القاعة التي توجب على النساء ارتداء سروايل داخلية لا يمكن أن تمط إلى درجة كبيرة. أما أكثر النساء اللواتي كان بوسعي رؤيتهن فقد التزم من هذه القاعدة. لم تكن إحداهن ترتدي السروايل الصغيرة الحجم. كانت أكثرهن يرتدين الأشياء الوردية أو الرقراء التي تغطي كل المعدة، والرددة بشرط مطاطي عند الوسط. في أن تحريري الخاصة مع ذلك النوع أثبتت لي أن اللطاط عند فتحة الساق يمكن أن يخصص بعد درجة كبيرة، فإذا ما جنب إلى أسفل بوصة واحدة أو اثنتين، لم يعد يمثل أي مشكلة

انضم إلينا عدد آخر قليل من الرجال بينما نحن واقفان أمام المرآة. ورايت أنهم حينئذ كن يرتدين الآن ثنائير قصيرة جداً رمادية من الخوص من النوع الذي كنت قد لاحظت وجوده في كل الحفائض التي فحصها بول أمامي. وكان الرجال الذين جاءوا للوقوف معك أصبحوا يرتدون الآن زياً مماثلاً يتكون من بنطال رمادي من الصوف وقميصاً رياضياً بصر اللون. ذهبنا نحو غير نوم الرجال في الطابق التالي. حصلت على إجابة السؤال الذي كنت على وشك أن أطرحه حينما فتح باب مجاور لباب العنبر فرايت عدة نساء واقفات هت ومن الواضح أنهن كن يرتدين الرجال أثناء خلعهن للابسة من خلال مرآة أخرى ذات اتجاهين. نادى كورنر بجدة،

"هيا يا سبغت. لا درجة أكثر من هذا. لقد ان وقت تغيير الملابس"

أسرعن كلهن إلى الخروج، ولاحظت أن تيسا كانت بيدهن وبينما كنا ندخل العنبر، رايت أنها تسللت عائدة إلى حجرة للراقبة.

قال كورنر، "تعال لقد ان وقت استبدال ملابسنا"

في غير نوم الرجال. بدا أكثر الرجال عراة تقريباً. وكان الشخص الواقف بالقرب من المرآة عارياً تماماً بالفعل. سألت كورنر،

"ما الهدف من هذه الرقبة بالتحديد؟"

"أكثر الناس ينسمعون بصفات الرغبة في الاستعراض، حتى أكثرهم شباتاً ووردة وأكثر الناس كذلك يحملون صفات "توم البصاص" وهنا يمكنهم إشباع هذه الرغبات دون

أحساس بأنهم لا تكاد تكون هناك أية رغبة جنسية لابد من إخمائها هنا في هذا المكان إنما نحاول أن ندفعها جميعاً إلى السطح الكشوف، أن نجعلها صريحة مباشرة وتحت الأنظار بنظرة. الآن، أظن أن هذا البنطال الذي ترتديه سيكون مناسباً إليك لا تحتاج إلا إلى قميص.

استدعى بول، الذي كان يرتدي ملابسه كاملة لكي يعثر لي على قميص وبعد وضعه يلاحظ، عاد بول حاملاً قميصاً رياضياً دون "ياقة" من القطن لاحظت أنه كان طويلاً لشكل غير عادي، فادخلته في فتحة بنطالي. لاحظت أن أكثر الرجال كانوا يرتدون سروال داخلية - من النوع الصغير الذي تجد إعلاناته في مجلات الصحة والقوة. وكانوا يرتدون أحذية "التنس" البهضاء. كان الكثيرون منهم يستحمون في الحمام المجاور صمق كورير بيديه وصاح قائلاً،

"هيا يا سادة، أن وقت ارتداء الملابس. ليست هناك سيدات في الحجرة المجاورة الآن."

تذكرت - مجفلاً - أن تيسا كانت هناك، وأنني كنت أخلع ملابسي على بعد اقدام قليلة من المرأة. تمنيت أن تكون قد استمتعت بالنظر. أو ربما كانت تراقب الرجال الآخرين.

في الحجرة الرئيسية، كانت شاشة ضخمة قد وصفت أمام الملهة، التي كانت منخفضة الارتفاع. رأيت أنجيلاً وقد بدت حلوة جداً في تنورتها القصيرة الرمادية. ولاحظت بها كانت ترتدي جورباً مثل نساء أخريات كثيرات. وكان من الواضح أن ارتداء لجوارب الجازي. الفزيت مني وامسكت يدي. قلت:

"تم تشعيرين؟"

"إنني بعالة طيبة. ولكنه أمر يؤدي قليلاً إلى الصدمة إذ تفقد الكثير من الكوابت في عطلة نهاية أسبوع واحدة. ولكنها تجربة رائعة. لا أستطيع أن أقول لك كم أنا ممتنة لمقابلتك كورير."

"تري، ماذا سيحدث الآن؟"

"آلا تعرف؟ مزيد من الألفة. كانت الفتاة التي تنام على السرير المجاور لي تسمى الآن. هذه هي اللحظة الكبرى. أرجو أن أحصل عليك. لا أستطيع أن أحتمل واحداً من الرجال الآخرين، فانا أكره الذكور ذوي الشعر الكثيف."

"ولكن ماذا؟"

قبل أن أتمكن من إكمال سؤاله، صاح مكريس قائلاً،

"هل نحن هنا جميعاً؟"

قالت أصوات عديدة: "أجل".

"حسناً، كونوا الدفء، بول، هل لك أن تطفئ النور بالتدريج؟"

تساءلت عن النهاية الحقيقية في إطفاء بول للنور وبالتدريج. وبينما كنا نتحرك لكي نشكل الدفء، والأيدي فوق الأكشاف، أخذت الأصوات تخفت تدريجياً رتب الرجال أنفسهم في سرعة لكي يصبح كل رجل تالياً لامرأة، ولكن لما كان عدد النساء يربد قليلاً عن عدد الرجال، فقد كان من اللازم أن تصاحب بعض النسوة نساء أخريات. ثم أطبق ظلام كمن سألت أنجيلاً،

"ماذا نفعل الآن؟"

ولكن صوتاً غريباً أجابها،

"إننا نتحرك الآن جميعاً نحو المركز، بختلط ببعضنا، ثم نختار أول من نصادفه من جنس الآخر."

بلنا نتحرك إلى الأمام، حلت لحظات قليلة من الفوضى. عجبت كيف أمير الرجال من النساء، وانتهيت إلى أن لمس الصدر هو الوسيلة المناسبة لذلك. (واكتشفت فيما بعد أن هذه كانت هي الوسيلة المعتادة). عثرت على فتاة فامسكت بيدها بقوة. صاح صوت بول

"الكل مستعد؟"

تعاليت صيحات متضاربة، "أجل، لا".

ولكن الأضواء راحت تسطع بالتدريج اكتشفت أنني كنت أمسك بد فتاة ضئيلة
لحمه. شعراء الشعر كنت قد لاحظتها من قبل. له تكن جميلة جداً، ولاحظت لي عيناها
مستبين بقصر النظر، ولكن وجهها كان جذاباً ساحراً مفعماً بالحيوية. سألتها،

"ثم ماذا، الآن؟"

"يمكننا إما أن نشترك مع الأزواج الآخرين، أو أن نبقي منفردين، أليس كذلك؟"

"فلنبقى منفردين الآن."

"وهو كذلك؟"

نظرت إلى جاراتي اللاصقة لي - الفتاة النحيلة الطويلة التي كنت معها في لحظة
سابقة من النهار - فجعلت حينما رايت أنها كان توشك أن تخطو لكي تتخلص من سروالها
الداخلي الذي كان ساقطاً عند قدميها. وكان الرجل الذي يقابلها يعمل نفس الشيء، وهو
رجل وسيم إلى درجة ملحوظة، عصبي يكاد يبلغ منتصف عقده الرابع، بينما احمر وجهه.
ناولته سروالها وأخذت سرواله، وأخذ كل منهما يرتدي سروال الآخر وهما متواجهان.

"ما العرض من كل هذا؟"

"هذه هي بداية الألفة. يمكننا أن نتبادل الملابس دون تفكير بأي حدود. وهذا هو
النفس الذي رسم من أجل للولعين جنسياً بأشياء معينة، فيما أظن هل تعني السراويل
الداخلية شيئاً بالنسبة لك؟"

"إن لها دلالة جنسية محددة."

"في هذه الحالة، يحسن أن نتبادل سروالينا."

و دون أن يبدو عليها أي حرج، خلعت بسرعة سروالاً وردياً من النوع الطويل، ثم
ناولته لي استغرقت لنا وقتاً أطول في حلق ببطالي ثم في حلق سروالي الداخلي

قالت، "وماذا عن قميصك؟"

"إننا رقيق لك ذلك."

كان ملتقى ساقبي سروالها مبتلاً، وولد احتكاكاً بما بين فخذي ومصة من التهيؤ
الجنسي قضت على آخر آثار التعب، ومن الواضح أن مثل هذا الاحتكاك إنما هو أساس
احتكاك بين الأعضاء التناسلية الذكرية والأنثوية يتم بحركة واحدة وبدأت أدرك
عناه كورنر بتعبير "النشوة الجنسية المعلقة". كان ما فعله هو أن ملأ حجرة بالرجال
والنساء، وجعلهم يعيشون لحظة احتكاك جنسي - فعلي أو رمزي - أحدهم بالآخر، حيث
يكون النمر الجنسي في أقصى حالات قوته، ولكن الانضباط الجماعي يضع كل شيء تحت
المرأية. وقف كورنر إلى جوار اللقطة، برقبنا بعينين طبيعتين سعيدتين ووجدت نفسي
أتساءل عما يشعر به الآن أو ما يفكر فيه

أعطيت زميلتي - وكان اسمها نورما - قميصي الرياضي، وأخذت منها قميص
القصر الذي كان بنفس الطول تقريباً لاحظت حينما خلعت ثوبها أن حمالة صدر
كانت من النوع ذي الفتحة الهابطة التي تكاد تسمح للثدي بالخروج منها.

ارتدت ببطالي ثانية، وأحكمت خطاف حزامه. قلت،

"لا أعرف لماذا تهتم بأن ترتدي هذه الملابس ثانية. هذه القمصان القصيرة طويلة
يكفي للاحتفاظ بمظهر حسن"

"أعرف ذلك ولكن الدكتور كورنر يظن أن عملية حلقه العملية لهنطاله تدمر
الكوايت لدى الذكر. أما لدى الفتيات فإن العملية تتم بخلع سروالها الداخلي."

أدركت ما كانت ترمي إليه. بداني أن بعض الآخرين يريدون أن يتبادلوا الملابس
وما أن انتهى الرجل الوسيم المجاور لنا من ارتداء بطناله حتى اقتربت فتاة أخرى ورايت أنه
في هذه المرة - لم يتبادل الملابس مع الفتاة، ولكن مع زميلها الذي كان - أو المفترض أنه
يرتدي بالفعل سروالها وقميصها الداخلي

قالت نورما، "هذا القسم من العملية يضعهربي. دعنا نبتعد عنهما"

تحركنا حتى أصبحنا عند طرف الجماعة. قالت،

"هل أبدا أنا معك، أم تبدأ أنت معي؟"

قلت: "من الأفضل أن تبذلني أنت معي. إنني لا أثق في كيفية قيامي بالعمل".

"هل تفصل أن تقف أم ترقد؟"

"سيان، لا يهم".

رأيت أن بعض الأزواج كانوا ياحنون مناظرة مطوية. من كومة كانت في الركن. نه بقيمونها في الساعات الخالية. كانت للمناظرة مصنعة من الألمنيوم. وبدا أن طولها يبلغ ستة أقدام. كان الرجل أو المرأة يرفد على المنصدة. كما لو كان يوشك أن يتلقى علاجاً لومته التذليلك. ثم تبدأ "الألفة" بنفس الصورة السابقة. أبتت نورما أنها أكثر حيرة من كل شريكاتي السابقات. أو ربما مكنت أنا أكثر استنارة ووقفت أمامي. وحررت يديها على صدري. ومعلتي وفخذي حتى هبطت إلى القدمين. وحينما وقفت. حلت حزام بنطالي. ونلاحظت تساءلت أنا إن كانت ستمضي إلى البعد مما ينبغي. ولكنها لم تفعل أكثر من أن ملت يده إلى الداخل ودستها إلى أسفل حتى لمست ساقي. وهي تقرصني برفقة أو تربت بلطف حتى بلغت ركبتني. جعلتني أجلس. ووقفت ورائتي. وحررت يديها في شعري. وداخل القميص أو بالأحرى ثوبي النسائي. وفوق صدغي. وداخل شفتي ملدت يدي إلى زمام البنطال لكي غلفه. ولكنها جنبتي يدي بعيداً وقالت:

"أزيد من الكوابت؟"

"أسف".

انحنت إلى الأمام. وملت يديها إلى الداخل. ووصلت إلى فخذي فربتتهما. وتركت يديها تتجول بحرية. مكنت قد تخلت عن كل محاولاتي لكبت ردود فعلي الطبيعية. ملت يديها لدستها في حصر بنطالي. وتركت أطراف أصابعه تجري بفرقة صاعدة هابطة فوق معدتي. ثم إلى أسفل أكثر. سيطرت على صوتي لكي أسألها.

"أهذا مسموح به؟"

"أوه. أجل. الأمر كله مزرك لنا. هل أنتوق؟"

"نض أنه يكون من الأفضل لو توقفت".

انفجرت فمتهات صاحكة إلى جوارنا. كانت امرأتان ورجل يضحكون على لرجل الذي استبد به الخجل واحمر وجهه. وبدا آخرون يضحكون بينما وجهه يزداد احمراراً ويكر كورنر. الذي كان يقف إلى جوار للنهارة بدت عليه الصرامة وهو يهز رأسه ببطء استمر الرجل وأسرع خارجاً من الحجرة. قالت نورما:

"مسكين مسر ماك كان. إنه لا يستطيع أن يسيطر على نفسه أبداً. أخشى أن تكرر النساء بتبادلته لكي يجعلته يفقد سيطرته على نفسه".

كان الأمر الغريب هو أنني لم أعد أشعر بأي إرهاق. كان تيار متوهج غريب قد بدأ يجتاحني من الداخل.

قاطعتنا مجموعة من ستة أشخاص. أربع نساء ورجلان. أرادوا أن يتبادلوا اللباس مرة أخرى. بدأ الامتناع على نورما. ولكنها خلعت سروالها الداخلي على مضض. وتسلمت بدلا منه سروالاً نسائياً صغير الحجم أسود اللون. أما أنا فاحللت السروال الفرنسي الطويل لذي عرفته عصر ذلك اليوم. استقبلت النوب النسائي القصير بأخر أطول منه. كانت ترتديه فتاة شاحبة عميقة النظرات. وحينما انتهت عملية الاستبدال قالت نورما:

"هيا لقد حل دوري".

وحينئذ. اعتصرتني صدمة حينما تبينت أنني كنت أيزموند خلال اللقائين الحمر السابقة. وإن هذا هو ما يفسر السبب فيما شعرت من ارتياك إزاء تلك الثياب الغريبة لشكر بالنسبة "لي" كان الأمر كما لو أن أيزموند قد برز طاقياً من قلب أعماق وعبي لا نرى يكتشف لنفسه ما يجري. وحالاً أصبحت واعياً بوجوده. تزايد تأثير النظرة للزوج. حسرتي للحظة شعرت بأنني موشك على الغنيان. واختفى التهيج الجنسي

سكنا قد عثرنا على مكان هادئ عند حافة الجماعة المتراخمة. كانت جوبنيت التي لم تعد تحمل أقل سمة من سمات للدرسة الثانوية. منحنية إلى الخلف مستندة إلى بعد. وقد أغمضت عينيها وارسم على وجهها تعبير يكاد يكون مزيجاً من النشوة للتألة وحسرتي رجل راكعاً أمامها. ورأسه مستند إلى فخذه. حينما أدار رأسه عرفت أنه السمر. قالت أيزموند "تحبتي. أيها الصديق" وبدأ السمر كمر جمل فجأة هبطت جوبنيت فحذرت

تس، فاصبحت نصف جالسة نصف راكدة، وقد اغمضت عينيها، وانفجرت ركبناها.
لقد عمر لي التفسير بعينه وقال:

لا بد أن تجربها إنها رائعة."

كان التعبير الشهواني للآكر الذي علا وجهه - أشبه بوجه آله الرعاة الروماني فون -
هنا علي، ولكنه لم يكن جديداً على أيزموند. تحققت أنه كان سلباً مباشراً لهوراس
هني

لم يعد تأخير الرؤية للزودة سيئاً ولا مضاداً للسرور، كما لو كنت أنا وأيزموند قد
تلفنا صفة نحتل بمقتضاها جسداً واحداً دون محاكاة ولا نزاع. كان الإحساس الآن
متر وصوحاً مما كان من قبل في أي مرة، ولم أعد قادراً على الاعتقاد بأنه لعبة غريبة
وم بها وعبي الباطن في الخفاء.

وضعت ذراعي حول نورمان من الحلف، وداعبت نهديها، ثم بحرصة سريعة من
هدين، حررتهما من قيد الشد الذي بمسكهم. ألقت بنفسها برفقة لتستند علي، فشمعت
شهوة نوبها على لحمي الماري. أحنيت رأسها حتى استند إلى كتفي، ورفعت وجهها،
لتحبت عليها ولست شفتيها. وحينما فعلت ذلك ملت يدها وراء ظهرها وأمسكتني بقوة
قلت: "إنك تريد تهيجاً أكثر من اللازم".

مصيت أربت عليها، مستمتعا باستجاباتها، وكانت مثل قطعة فوست ظهرها حتى
تستني وهزت في اطمئنان، تبينت، في جزع مفاجئ، أنها قد بلغت "النشوة للملقة"، ثم تبينت
بعد لحظة، أن أيزموند هو الذي عرف ذلك، وليس أنا. لقد كان أكثر خبرة مني بشكل لا
تهاني في مثل تلك الأمور.

هجة قالت نورما: "انظر، هناك منصدة خالية، فلنذهب إليها. لا يمكنني الوقوف
كثير من هذا"

وفي الحقيقة، لقد بلغت ركبناها وكانهما تصطكان ساعدتها حتى تسلفت منصدة
بالقرب من اللقاة، حيث كان يقف كورنر. ناظراً بارتياح ومحبية إلى الحجر، يومئ برأسه
من حين إلى آخر ويبتسم. ربت على كتفي كورنر. قال له أيزموند:

"تحبائي أيها الدامكن المشرقة"

سقطت يد كورنر، وشحب وجهه شحوباً شديداً. انحنى إلى الأمام وحقق في وجهي

"أكنت تعرف هذا من البداية؟"

"لنني لست أبله، أيها للشرف". كذلك قال أيزموند. فقال كورنر بهدوء:

"إذن فقد كنت تلهو بي".

لم يكن هذا سؤالاً. فاضاف قائلاً: "ولكن، لماذا؟"

أشارني تعبيرة للفعم بالوقوف الحزين. أردت أن أشرح له الحقيقة، ولكنها كانت شديدة
امراً يدعو إلى السخرية. ثم لاح على كورنر أنه يتماسك. لوى شفتيه، وابتسمه بتسمه
مريرة، وهز كتفيه. ثم خرج من الباب وترك الحجر ومضى هلت.

"ماذا تعني بحق الشيطان؟"

كنت أسأل أيزموند. ولكنه تجاهلني.

كانت نورما راكدة على النصدة، وتبدو كالكائنات. ذهبت إليها، وخلعت حذاءي
بلت قدمها الصغيران لبيصين جداً انحصيت وقبلت باطن قدمها، ثم أحنيت أعطراف أصابعي
في فمي. جفلت وتنهت. حرصت رأسي إلى أعلى وقبلت فخذيها، وفي نفس الوقت دست
يدي في وسط سروالها. في هذه المرة، شهقت ولم تبذل أية محاولة لكي تولف عمليت
اكتشافي. وعلى الرغم من وجود الناس حولنا، فقد كان من الصعب مقاومة الإعر
بالصعود فقها

دوت ببصري حول الحجر، فرأيت أنني وأيزموند، كنا من بين آخر من ظلوا على
أقدامهم. أدركت الآن لماذا كان البساط سميكاً إلى هذا الحد. كانت الأجساد الممددة راكدة في
كل مكان. استطعت أن أرى أنجيليا راكدة على ظهرها، وسافاها مفتوحتان، دون سروال
داخلي. وبدا أنها غارقة في النوم. كان بول راكداً إلى حوازيها، وإحدى يديه على فخدها، وقد
أغمض عييه هو الآخر. أما جوبييت - التي بلت غير فائلة للتعب - فكان عارية في تلك
الحضنة، راكدة على البساط، ورحل يرضع نهديها، وأخر يربت على ساقها وبطنها، ييم

راحت أروافها ترتفع وتخفض برفقة. كانت أجساد أخرى متداخلة في أشكال وتكوينات لا
مغنى لها، فبليت كما لو كانت صورة تخيلها رسام صور داعرة لحظة إحساس ساخر
منهم

كانت نورما تمسك يدي بشدة، لكي تمنعها من الهرب، وراحت تحرك فخذيهما
مساعدة هابطة وبدي ممسكة بينهما. حينما نظرت إليها، سقطت في ذهني دكرى
فنيمة. حاولت أن أثبتها، ولكنها راو عتني. بليت مجهوداً آخر. وأنا أحرق بقوة في لحم فخذيهما
الذي للنحن. خطر لي أن أيزموند نادراً ما مارس الجنس مع نساء لوحتن أشعة الشمس.
ورغم أن عصره لم يكن يتميز إلا بالقليل من الاحتشام، كما هو عصرنا، فإن النياب كانت
تعتبر جراً رئيسياً من إنسانية الرجال والنساء، وكان التعرض العاري لأشعة الشمس يمكن
أن يعتبر نوعاً من الحنطة الغربية والحروج عن المألوف. ولذلك فإن اتخاذ عشيقات أيزموند
كانت دائماً بيضاء ناعمة

حينذاك، وبشكل فشلت في فهمه، لم أعد أنا وأيزموند رجلين يحتلان جسداً واحداً،
وبما تطابقنا فجأة وأصبحنا رجلاً واحداً. إن تفسير هذا لا بد أن يكون أكثر أهمية من
وصف مجرد الأحداث الجنسية التي وقعت خلال الساعات القليلة التالية، ولكني لا أستطيع في
لوقع تفسير ذلك. إن اللعبة لم تصنع لكي تعبر عن أحوال الروح الإنسانية البالغة الشفافية
والشفافية. لا يمكن إذن أن الأول سوى التالي، يكاد يكون من المستحيل. ابتداءً - أن تسمى
الكائنات الإنسانية نفسها، ولا أن تعلمت من مشغالاتها الغلاب والمسيطر بنفسها، ولا من أن
تتحقق من أن ثمة عالماً يقع خارجها. لقد أدرك بليك أن كل طائر يقطع الطريق الهوائي هو،
"عالم هائل من البهجة، قريب من حواسنا الخمس". ولكنني في تلك اللحظة وفي ذلك المكان،
كنت فجأة وبسرعة الومض الحافظ، قد أصبحت داخل وعي شخص آخر، كائن إنساني
كانت حياته وتجربته مختلفة من كل جوانبها عن حياتي وتجربتي وقد جاءني هذا
لوضع بإحساس هائل من البهجة والحرية. كان أشبه بالحروج من منجم فحم منهار
وكان الشيء الذي اختفى فجأة، اختفاء كاملاً - هو ذلك الخوف الأساسي الذي يتسلل إلى
عقول كل الأذكاء والمتفكرين من الناس في لحظة ما من لحظات حياتهم، الخوف من أن
لواحد منهم هو حقاً الشخص الوحيد في الكون. وأن الحياة فكاهة محكمة، عرض سينمائي
يقدمه رب تملكه الضجر يعرف أنه وحيد تعاطى - أو أعطى لنفسه - عقاراً يسي به وحلته

ذلك أنه في تلك اللحظة، كان هناك وعي أيزموند، حقيقي ومكتمل بصورة لا تقبل تلك
الإنكار مثل وعي أنا، ممتزج بوعي ومتداخل فيه.

وفي ومضة خاطفة أدركت معنى الجنس. إنه سعي حقيقي إلى تداخل الوعي
وامتزاجه، رمزه هو تداخل الأجساد. ففي كل مرة يروي فيها رجل أو امرأة عطشه
عطشها - في مياه شخصية أخرى غريبة - فإنهما يلقيان نظرة بارقة على ضخامة حربيهما
الناسفة.

كانت ذاكرة أيزموند أكثر من قوة ذاكرتي بكثير. فبسبب القدرات التي استوعب
أن يطورها في نفسه، كان يستطيع أن يستعيد المراحل الماضية من حياته في صورة من
الحيوية لا يمكن تصديقها. وقد عرفت الآن أن هذا هو السبب الذي دفعه إلى احتيازي عند
كنت أعرف دائماً أن الحياة الإنسانية شبيهة بالحلم لأن أكثر الكائنات الإنسانية تغير
بشكل سلمي إن وعيهم لا يزيد إلا قليلاً عن كونه انعكاساً لبيئتهم. وعند حدوث نشوة
الجنسية، تشتد قوة تيار عقولهم فجأة إلى حد الاصطحاب، فيبدو كون اللحظة - مؤقتاً - أنهم
لم يعودوا مصباحاً كهربائياً لا تتجاوز قوته الأربعين "واط"، وإنما مائتين وخمسين
خمسائة، ألفاً... ثم ينخفض التيار، فيعودون ثانية إلى مستوى الأربعين "واط" دوبت
احتجاج. إنهم مثل البلهاء الفارغي العقول الذين لا يستطيعون تذكر شيء ما لأكثر من
ثوان قليلة. إن الكائنات البشرية كائنات متوسطة القدرة والذكاء حتى ليكاد يكون من
الصعب القول بأنهم يملكون عقولاً بأي معنى حقيقي في ومضة خاطفة أدركت الحقيقة
الواضحة العابثة: لا شيء يستحق أن تمتلكه إلا عمق الوعي. هذه هي الحقيقة التي يلعب
لحظة النشوة الجنسية. فإذا أدركتها الكائنات الإنسانية - لو أن عقولهم لم تكن بهذا العمق
عن فهم حتى أبسط الأشياء - لكانوا جديرين بأن يهجروا كل مطمح آخر من أجل تحقيق
هذا الهدف. ما الذي يهم حقاً في أن تكون. وماذا تفعل، وكيف تملك. إذا كان عقلك محدود
ضعيفاً قاصراً؟ تماماً مثلما لا تعني أكثر الأشياء جمالاً أي معنى بالنسبة لرجل يعاني من
الحمى ومن الجانب الآخر. ولأن أيزموند قد أدرك هذا، وراح يضارده السر ويسمى وراءه. فب
قد دخل المشكلة التي شغلت بروست طوال الإثني عشر مجلداً من روايته "البحث عن الزمر
الضائع". مشكلة الكيفية التي نفتح بها الخازن الهائلة غير التالفة التي تمثلها ذاكرتنا. ببني
حاولت أن أتذكر طفولتي. فإن ذاكرتي سوف تكون نسخة معتمدة بالكربون عن الشيء

حزبتي الأصلي. ومع ذلك فإن حادثة ما، مثل كعكة بروسث المغموسة في الشاي، تستطيع لحظة مؤقته أن تبعث إلى الحياة زمناً بعيداً بصورته تماثل في حيويته تذكري لحادثة وقعت بالأمس. فلماذا تكون الناكرة بهذا الصعف؟ لأن الوعي قابع بأن يجري بقوة أربعين دقيقة بينما كل ما في الكون من طاقة وقوة قريبة منه وفي تناول يده.

في هذه اللحظة، تذكرت فجأة حادثة كان من الممكن أن تعلمني ما عرفه أيزموند منذ سنوات قليلة، أرسلت إلي تلميذة صغيرة خطاباً عن أحد كني شعرت من الخطاب بدكانها، فقابلتها في كورك - حيث كانت تدرس في مدرسة داخلية - كانت فتاة تسبب لثوار - واحدة من تلك المنتجات الجميلة، المعافاة الوائقة بنفسها والتي ينتجها بيت ثري مزود بمساحلات الخيول والحدائق الواسعة كالروج. وقد سحرتني - لا لأنها كانت تؤثر أي تأثير على عواطفني التي كانت متعلقة بكل التعلق بديانا - وإنما لأن الكمال بسحر دائماً، سواء نمدى في صورة منظر حواد سباق جميل، أو سيمفونية قوية - وكان من الواضح أنني سحرتها أيضاً، لأنها أعلنت عن أنها تنوي أن تتزوج، رغم أنها كانت كانونيكية وكانت تعرف أنني متزوج. وقد توقعته أن تستخدم أسرتها نفودها للحصول على إذن من البابا بذلك

وفي أثناء العطلة السنوية، أرسلتها أسرتها إلى دبلين لكي تقب مع عمه لها، فاصبحت قادراً على أن أجد فرصاً لرؤيتها مرة واحدة كل أسبوع تقريباً. كانت المسألة كلها بريئة بكل الرأفة، من الناحية الجنسية. فإنها وهي في السادسة عشرة، كانت عذراء رومانتيكية كانت مفتتنة بي، ولكنها تخاف من الجنس. ذات يوم، وقبل الموعد المحدد لعودتها إلى المدرسة بوقت قصير، بدا عليها بوضوح أنها قررت أن الوقت قد حان للسماح للعلاقة بأن نتقدم إلى الأمام خطوة واحدة. كان عصر يوم ممطر من أيام أغسطس، وكنت قد أوقفت السيارة في غابة ما على حافة مزرعة كبيرة وبعد عشر دقائق أو نحوها من بداية جلوسنا متعاقبين في مقعد السيارة الخلفي، تبينت أنها قد قررت أن تسمح لي بأكثر قدر ممكن من تحريرات دون أن تسلم عنريتها تسليماً فعلياً، ولكن هذا التحديد نفسه - الذي حددته لنفسها - غرس الخوف في قلبها. سمحت لي بأن أحل رباط حمالة صدرها، وأخلع سروالها الداخلي، ثم فجأة بدأت تبدي خشيتها من أن يتطلع أحدهم من زجاج السيارة - الذي كان مجللاً بالبخار إلى درجة تمنع الرؤية تماماً، متوجعاً من الإحباط والشعور بالحيرة، أحكمت إغلاق أبواب السيارة لكي أطمئنها. ثم شرعت أعمل لكي أنسيها إحسانها بالإلم بسبب تهيجها الجسدي.

واستغرق هذا وقتاً طويلاً - وقتاً طويلاً جداً - وخطر لي أنها قد شعرت بأنها أصبحت كالعاهرة دون سروالها الداخلية - وهكذا فقد ألبستها سروال مرة ثانية وجعلها قد تنزع بالاطمئنان الكافي لكي تسمح لي بالرفاد فوقها. وقد ارتفع ديل ثوبها حول وسطها ونكر حينما حاولت أن أتحرك لكي ألتفت وصعاً يمكن للاحتكاك فيه أن يشبع استنارتي كمن ينزع استنارته، ناز حوقها مرة أخرى. وكان علي أن أعود ثانية من البداية - كنت قد وجدت للبدة ندرحة أنني كنت على استعداد لأن أبدأ من جديد مائة مرة. لقد انارت في نهاية الرحل الجانج ولاح لي وجودي في هذا الموقف، ألاحظ حمل هذا قبلتها في حياتي. لا أكثر شيئاً يحمل بقطة جنسي منه بالحقيقة ولم تكن عملية ممارسة الجنس شهيته من هاماً، فقد كان امتصاص أنوثتها كافياً لإرواء عطشني وبعد ساعة، حينما تحققت من أنه قد بلغت حالة من التهيج أزاحت كل العقبات، تعمقت أن أحافظ على وعدي، فزكنت سيج استنارتي المتركمة لكي تنفجر دون ضرر - وكان هذا كافياً لجعلها تسحب كل يوم التعريم السابقة

ولكن بينما كنت أفود السيارة عائداً إلى البيت، بعد أن انزلتها في طريق العودة عبر "كوليج جرين"، كنت أعرف أن وعبي لم يعد مستقراً عند مسود القتيه من الإجهاد كانت الساعتان اللتان قضيتهما في تركيز مكثف قد عرستا في "إعادة" التكنيف لعملي عادة رفض السماح لطافاتي بأن تفرق ثانية لكي تختفي في منبعها من الوعي الباطن وبهذه كنت أسير بالسيارة ببطء في الظلام، كنت أعرف أن عقلي قد بلغ مستوى جليداً من القوة كانت ضربات قلب حيويتي أكثر عمقا وقوة، وكانت ذاكرتي تعمل بشكل أحسن من المعتاد، وكانت قدرتي على الجنس قد تعمقت - ولم يستطع طريق العودة الطويل أن يقاتل من هذه الكثافة العميقة، ووصلت المنزل عند الفجر، شاعر أعمس الانتعاش الذي أحسست به حينما بدأت رحلتي للذهاب من دبلين.

وعلى الرغم من ذلك فقد سمحت لنفسني بالانتكاس ثانية إلى المستوى القديم فقد ضاع اكتشافي هكذا هدراً، معرفة أن ساعتين من الجهود للتركيز يمكن أن تعمق العقل وإن تكنفه حتى يقترب من رؤية المتصوفين ولكني الآن، في هذه الحيرة، وأنا محاصر بالرحل والنساء الممددين على الأرض، أعدت اكتشاف هذه الرؤية الداخلية التي أبصرتها ذات مرة - لكن هذه الحيرة مأوثة لي إن التعود على شيء (أو الألفة، بمعنى مختلف عن معنى

تدريبات كورنر) وظيفة أو نتيجة من نتائج إجهاد الوعي، إما بالنسبة لعقل مكتمل
ليقطة، فإن كل شيء يبدو جديداً وطازجاً

كنت متحرراً من التهيج الجنسي وكان إحساسي الرئيسي إزاء هؤلاء الناس هو
احتقار للتسلي وحينما كانت نورما تتحرك حركة متسحجة محتكة بيدي شعرت بأنها
بلغت في قبضة فعل انعكاسي لا سيطرة لها عليه. وفي نفس الوقت، بدا واضحاً بقوة عظيمة
سي أملك زمام رغبتني الجنسية بشكل كامل وسواء اجتذبتني هؤلاء النسوة أم لا، فسوف
يكون بوسعي أن ألوم بوظيفتي العسكرية بصورة كاملة تماماً. كانت هذه فكرة منيرة
بلاهتمام، رغم أنها لم تكن جذابة بشكل خاص. كان الأكثر إثارة للاهتمام بكثير أن
ستعبد دكرى تنغيم صوت الدكتور جونسون والكيفية التي مضى بها شفته السفلى في تعبير
عذوني واضح حينما قال، "سيدي..." أو أن أتذكر اللتواء الماكرة الخبيثة التي جعلت
برسكن الأيسر من هم فولتير يتشنج قبل أن يطلق واحدة من تعليقاته اللاذعة الذكية، أو
صوت شيللي المرتفع للتوتر وهو يقرأ لي قصيدته "أدونيس" بصوت مرتفع النبرة. ولكن
كان أليز موند هدف أراد أن يصل إليه. وطالما أنه كان معلمي الخاص، فقد كنت على
استعداد للانتظار في هذه اللحظة، أراد أن يظهر لي أن الرغبة الجنسية بشكل كامل مرجعها
إلى الخيال - أو إلى "العقد" كما يحق لي أن أقول، إن تحاهي إزاء نورما يمكن أن يتغير تبعاً
إدراستي الخاصة، كان بوسعي أن أراها في صورة فتاة غبية شقية لا تستطيع أن تفكر في شيء
بعد من اللذة التي تحسها بين فخذيها، أو في صورة تجسد لربة الأرض، فإذا اخترت أن أنظر
نبيها على هذا النحو، فسوف يكون علي أن أسدي لها احترام والتوفير اللازمين، مثل كاهن
يقف أمام الذبح. وتبعاً لهذا، فقد خلعت سروالها، ثم خلعت سروالي، وصعدت فوقها فتحت
عينها دهشة للحظة واحدة، ثم شهقت بعدة حينما ونجتها. ولما كان هذا عملاً من أعمال
طقوس العبادة، وليس من الأعمال التي تدل على الرغبة، فقد ركزت على إعطائها أقصى
قدر ممكن من اللذة، موافقاً بين حركتي إلى الأمام وبين حركاتها

ورغم الفاصل القائم بيني وبين ما أفعله، فقد كنت أشعر كما لو أنني أمارس
الحس للمرة الأولى في حياتي وأكثرنا يعرف أن الجنس يكون أحياناً أفضل منه في أحيان
أخرى ومن الممكن أن يولد ولوح فتاة صدمة كهربائية تماثل الصدمة التي تحدث إذا وضعت
صمغك داخل توصيلة كهربائية بالصدفة، أو يمكن أن تبدو هذه العملية كمنبهة وعادية.

عملاً جسدياً لا يختلف عن أي عمل غيره. وهذا يرجع إلى القدرة الإنسانية على الدخول في
حالة من البلاهة أشبه بحالة للنوم مغناطيسياً، حالة من تقبل كل شيء على علته. إن
أمكن لتقبل نورما على علاقتها فقط، كما مر بيدي من المسلمات، بل كنت مدرسكاً لأني
نفس الوقت تشبه كل فتاة أخرى في العالم. شعرت كما لو كنت نسراً يحوم ثابتاً في نيو
دون حركة، محملاً إلى أسفل نحو فجوة هائلة بين الجبال.

كانت الطافة التي ولدها عملنا قد أثرت على الآخرين في الحجرة. شعروا بها كما
كانت مهبلاً غامضاً، "عطراً خاصاً تحملها الرياح" كما قال بليك. كان بعضهم يركضون
وراء آخرون يخلدونني متجاهلين قواعد كورنر التي وضعها ضد الجماع الفعلي. شعرت بـ
تجري برفقة على ظهري، وعلى ردي، ثم بين ساقي. كانت تيسا، منحنية فوقي وعلى وجهي
تعبير حالم بشكل غريب ومناقض لما كانت تفعله. تذكرت من كانت تذكرني بها
مينو بوهر، أولى عشيقات أليز موند، لم أكن قد عرفت اسم أسرتها من قبل. ولكنني تذكرت
الآن. زدت من سرعتي وأنا أشعر بتصاعد استثارة نورما، ثم بينما كان بطنها ينحني إلى
أعلى وتضغط بقوة على بطني، تظاهرت بأنني بلغت ذروة نشوتي، شاعراً في نفس الوقت
بأصابع تيسا وهي تنفرز وتقبض على لحمي استرخت نورما ببطن، فسحبت نفسي إلى
شخص ما،

"يا إلهي". كانت جوينيث، التي كانت تقف إلى جوارنا من الجانب الآخر محملة
بأعجاب في العضو الذي بدا - حتى لميني - منتفخاً بشكل غير عادي. أما السترم، الذي كان
لنوده قد نهض من فوق فتاة ظننتها للوهلة الأولى أنجيلاً فقد صاح مذهوشاً،

"غير معقول!"

أمسكت تيسا بمرقفي وقال،

"والآن، أنا."

دفعتها جوينيث جانباً، ممسكة بي حتى لا أتهص تماماً وقالت بتصميم،

"كلها، أنا."

لم يكن عندي أي فرق بينهما. كان ايزموند - لأسباب تتعلق به... مصمماً على أن يمضي في الظاهرة حتى يبلغ بها نهايتها ورغم أن ذاكرته كانت واضحة لي، فإن وعبي لم يستطع أن يدرك الغاية القصوى من نواياه. لم أعرف سوى أنه قد نوى أن يستخدم جسدي لكي يشبع أكبر عدد ممكن من النساء اللواتي قد يحترن أن يطلبن منه خدماته. وهكذا، فعليما استنلت جوينيث بظهرها إلى الجدار، ضاغطة أداة المتعة... مددت يدي من ورائها، وأرشدته إلى للدخل الضيق... لم يكن الوضع مريحاً بشكل كامل، لأنني كنت أطول منها. كانت هناك مائدة قريبة خلفي، تحركت إلى الوراء وأرحت نفسي على ركنها، جانبا المرأة معي أنت وهي تنضغط إلى اسف. ثم رفعت نفسها وهبطت مرة ثانية بسرعة. جذبتها حتى انصقت بي، ممسكاً بها بقوة أمامي، وقد شعرت بشكل ما بأنها قد أصبحت مثل أداة موسيقية مألوفة لي. كان في نيتي أن تبقى في مكانها لأطول وقت ممكن فقد كانت قدرتها على التماسك الجنسي دون حدود تقريباً، وقد تجاوب للوقوف الحالي مع نزعة الاستعراض الكامنة في غلمتها. ولكن ايزموند كانت له خطط أخرى. كان متمرساً في استخدام مبدأ رد الفعل المنعكس الشرطي. دفعت حساسة رفيعة قليلة دمرت سيطرته، ثم جاءت دفقة لا يسعني أن أصفها إلا بأنها نوع من الكهرباء الجنسية جعلت نقاط اتصالها الحساسة - نقاط الحلمتين وفتحة الشرج الممتدة نتوهج بقدر من اللذة لا يمكن احتمالها حتى القرب من الألم. أطلقت صيحة ألم، وهي تتلوى وتنقبض. وكان علي أن أمنعها من السقوط من أمامي. وبينما أمسكت بها ملتصقة بي، خفت حدة التقلصات، وتحولت الأنات إلى نهيدة عميقة. أبعثتها برفقة عن حجري، وأمسكت بها بينما كانت تهوي ببطء على البساط... ففزع رأس الإله الذي لا يكل إلى أعلى مثل "عفريت العلية"، وجفلت حينما سمعت انطلاق التصفيق. جالساً وقد أوليت ظهري إلى بقية الحجرة، لم أكن واعياً بجمهور المشاهدين الذي تجمعوا للفرجة. كان بول وأنجيلا يقودان التصفيق ويصيحان. قال بول: "إنك استاذ"، فتنبئت مصدوماً أنه كان يعرف عن جماعة المنقاء أكثر مما كنت اعتقد. كبححت جماع التعليق غير للتواضع الذي كان ايزموند قد شرع يطلقه. فدفعت أنجيلا نحائي، ولكن تيساً كانت قد وصلت قبلها وهي تقول:

"كلا. إنها أنا". ثم دفعتني إلى الوراء على اللضدة، وهي تحاول أن تصعد فوق. اعتنتها على ذلك - طالما أنها كانت أصغر حجماً من جوينيث. ورفعتها قليلاً قبل أن اتركها تسقط فوقي. انحط رأسها فوق كتفي، وأطلقت نهيدة طويلة، ثم بدأت تتحرك ببطء، كما لو

كانت متعبة، وهي تطلق صيحات خفيفة. مثل حيوان ضئيل الحجم يتلقى الصرير دستت إحدى يدي تحت فميصها الرياضي وفحصت حلمتها فقلصت برفقة واندفع بي الصغير في فمي وراح يدفعني من داخل فمي. وبينما كنت ادفعها برفق بعيداً عني من رجل بلكنة استكثلية وصوت مرتفع، "إن الرجل لئنة عجيبة لا تتكرر".

كانت أنجيلا هي صاحبة الدور التالي، جذبتني حتى أرققتني على البساط، ثم المدعاة، وألقت بنفسها إلى أسفل وقد دنت ركبتيها. ومعها، اكتشفت اكتشافاً جديداً كانت العملية مثيرة مثلما كانت بعد زيارتنا لأسرة دانكمان. من الواضح أنها كانت تمنع بشيء ما، أو إنه كانت هناك صفة خاصة في تركيبة كل منا الجنسية النفسية. جعلت كلاً منا قادراً إلى درجة عجيبة على إعطاء صاحبه الحد الأقصى من المتعة. وهذا عنصر نادراً ما لاحظته الكتاب الذين كتبوا عن الجنس، الذين يبدو أنهم يشعرون بأن اختلاف بين عملية جماع وأخرى إنما هو بشكل كامل مسألة تتعلق بالمعاني التي يختار الشخص أن يسقطه عليها. كانت العملية مبهجة مع أنجيلا حتى أنني شعرت بما يغريني أن أهدئ من سيطرتي على نفسي وأن أكف عن حبس رغبتني في الممارسة، على الأقل بدفع من التهنيب. كانت خمس دقائق كافية لاسترداد طاقتي ولكن هذا لم يكن جزءاً من تعرض الذي يرمي إليه ايزموند، فقد لاح أنه مصمم على الاستمرار في العرض. لأسباب خاصة به بدأت أشعر كما لو كنت محرك سيارة قوية وصل إلى درجة الأداء الكامل. لم يكن ثمة إجهاد أو نصب، وبدأ جسدي كما لو كان يندفع بسرعة ثمانين ميلاً في الساعة، واكتست حركات أردائي حركة موزونة إلى درجة غريبة، كما لو كانت بندولاً مضبوط الإيقاع زنت من سرعتي لكي أصل بأنجيلا إلى ذروة نشوتها، وأنا أجنيها لكي أضغطها على جسدي حتى خبت حدة عنفها. ثم انتقلت إلى المرأة التي كانت تنتظر بالفعل إلى جانبي من الناحية الأخرى. شيء ما كان يحدث لي، أشبه بحالة إحساس حقيقي بالانفصال عن جسدي وكان عقلي قد انفصل عن الجسد وطار في الهواء محدافاً فوقنا. إنني حينما أفكر متذكراً حياتي الجنسية العادية، فإنها تبدو لي صائمة لا نظام فيها ففي كل مرة بلع فيها رجل فتاة، يستيقظ آله في داخله. إنه لا ترصيه الحياة الجافة ولا الوجود أشبه بوجود الحفنة، الذي يعيشه. يعرف أن الإنسان قد صنع لكي يعرو أفاقاً شاسعة، عزوات لا نهائية ومن أجل أن يحقق بقاء سامياً وجلبلاً للإرادة. وحينما يصطدم اللحم باللحم الغريب، يقع عقله في قصة نوع حاد من وضوح الهدف يرفض أن يتسامح مع تشوش الجسد وثقله. يصبح مثل القائد

فيه أنه يستطيع أن يجعل من هذا الركاب من الأخلاط الشوشة التي ندعوها الحسد، متناسقاً صلباً مثل فصيلة حيدة التدريب مسجمة الأفعال. ثم تعبر ذروة الشهوة إلى ما النوعي. ويغيب القائد في طبقات النسيان. ويعود التشويش المضطرب من جديد.

لن يكرر أيزموند يقوم بهذا متفكهاً أو بهدف تنسلبة فعلى المستوى الأول، كانت هذه الهرة أو استعراضاً بدون كلمات كان يقول لنا أن الهدف الحقيقي الذي سعى وراءه ولوقها ودون حوائف هاريس وزملائه. هو أن يجعلوا من عمليات الإغواء التي رواها وأحداث من "القصص" في صحراء من الفوضى وعدم النظام. لقد خلقوا عالماً للثانية بعدة كالتسور. ثم انحطوا هابطين ناحية إلى المستنقع. كان أيزموند يقول لي أن الهدف أن "تبقى في الهواء" ماذا يمكن أن يقول عن قائد ساق قطعان العرأة إلى خارج البلاد، ثم أجمع من المنطقة التي احتلها وسمح لهم بأن يعودوا على المورد نيس هذا سوى ما حدث غير. وقد بالغوا في تسليمهم بهذا كلما يسلّمون بالمديهيات حتى أن الغزاة عادوا مباشرة في تلك مؤجزة التراحمة. دون محاولة للتعزية أو للمساومة. وقد أرك أيزموند أن يظهر أن ثقافة الحسية تهين لنا بصيرة داخلية في مثل حيوية الرؤية الصوفية. وأسهل في تحقيقها غير. ولكنها لكي تكون مؤثرة. فلا بد أن يتم تنظيمها بحرص وأفعال مساهم لحرص من أرس اليوغا أو التنسك والصوم الطويل.

بعد المرة الخامسة. لم يعد الجنس يهمي أو يمتعي. كنت مبهوراً بالحقيقة التي كانت تحدث في وجهي طوال حياتي فهي شكل مرء تشعر فيها بسعادة عميقة. فإننا نعرف ليس هناك سوى خير واحد، قوة الإرادة. وأنه نيس ثمة سوى شر واحد، أن تنكر للإرادة. بأن الحياة طيبة خيرة مثلما نعرفها في لحظات استباحها. لكن من الواجب أن نسطر إلى كل العقبات كما لو كانت من حصص الطريق. ونكاس المروض ألا يكون الإنسان قابلاً لهزيمة. وحينما كنت أنظر حولي في الحجرة إلى هؤلاء الربات العاربات، سمع في داخلي فرح ميق هؤلاء، مكن الأمهات، والذات جنسنا، اللواتي استعبدن الرجال دائماً واحتقروهن. لقد عبتن مثل كائنات إلهية مقدسة. إن ما بين الخائض هو مدخل الرجل إلى عالم الأحلام، إلى العظمة. وإلى الهدف الأول الذي يكمن وراء المادة. لم أرى فرق بين الواحدة منهن الأخرى. بين الصغيرة والجميلة وبين متوسطة العمر المجددة الرعية في خدمتهن جميعاً كانت رغبة غير شخصية ومتحررة من الشهوة وقمت وأحدثت بد فتاة نحيلة عصبية

الشكل وكانت تنتظر. ومضياً معاً إلى ركس الحجرة. وقف جزء من مكاني خلف مريح معطى بقطعة قماش حمراء، شيد في مديح مبني من الحجر الرملي المنحوت وارتليت ليد على شكل رأس طائر عظيم ووقمت أربعون امرأة عارية في صف واحد أمام المديح. أحسنهم تلمع بالزيت. وكل منهن تمسك في يدها قارورة ممتلئة بسائل قوار متوهج الحصد أدركت أنا طبيعته وكنهه على حين فجأة

□ عندما استيقظت في صباح اليوم التالي. على اثر ملامسة أشعة الشمس لوجني اجتاحني إحساس عارم بالسعادة. كان جسمي في أشد حالات الوهن. وكانت عضلاتي تؤنني. إلا أن جسدي كان لا يزال ينهض بطاقة عميقة مكبوتة. نظرت إلى الفتاة الرافدة. جواربي - فتاة لم أكن أعرف اسمها وشعرت بنوع من الإشفاق يجتاحني ومن الغريب عدم أنها كانت عذراء. وكانت قد قبلتني روجاً لها ولكنني كنت روج ديانا ووالد موسي بي له أذكر ديانا كثيراً في خلال سرد لي هذه القصة. ولكنني كنت أطلبها بالتلموس كل يوم وكنت أفكر فيها وقتما تكون لدي الفرصة للاسترخاء والتفكير. إنني عاشق للبيت. يعكس أيزموند. وقد أردت في تلك اللحظة أن أعود إليه

انزلت خارجاً من الفراش برفقة. واتخذت طريقي عائداً إلى حجرتي وأحدث من حقبتني دوماً فضفاضاً من القطن ومنشفة من فوق المشجب. وهبطت إلى الطابق الأسفل كان الصباح لنهضة. مفعماً بروائح حشائش ليريل اتخذت طريقي إلى المجرى الثاني الذي كان يجري على الجانب البعيد من صف من شجيرات الفوشيا عند حافة الحديقة الكبيرة هرع أرسب مدهوش إلى الحشائش الطويلة يحتفي فيها دون إسراع. كان مجرى الماء صخباً. ولكن عمقه كان يبلغ حصر الرجل بالقرب من المنتصف كان شلبد البرودة حتى كان علي أن أخرج قدمي من الماء بعد لحظات قليلة. لكي أترك الألم يخفت بالتدريج. ثم هبطت بجسدي في الماء بالتدريج. وغسلت بالماء جسدي بأسفنجة جنت بها معي. بقيت في الماء حتى بدأت أشعر بالبرودة. ثم هربت للنشفة فوق الحشائش التي بللها الندى وتمددت تحت أشعة الشمس. وبعد عشر دقائق كان جسدي قد جف.

كنت أعرف أن علي أن أغادر هذا المكان قبل أن يستيقظ الآخرون... ولو أنني بقيت،
لنأت ارتباطات شخصية مع عدد كثير جداً من الناس فكل امرأة مارست معها الجنس
كانت جديرة بأن تشعر بأن من حقها أن تأخذ معها جزءاً من حياتي. واعتراضي الوحيد
على هذا هو أنهم مكن كثير جداً. وكنت جديراً بأن أستمتع بالارتباط مع كل واحدة
منهم والدخول معهم في علاقات شخصية، ولكن لم تكن لي سوى حياة واحدة.

عدت إلى المنزل فاقطعت أنجبلاً وقلت لها أنني أريد أن أرحل. كانت نائمة في حجرتها
فنامت، وفتحت ذراعها. قبلتها وهرزت رأسي وقلت:

"ليس الآن".

"لا بد أنك متعب".

هبطت بيدها ودستها تحت ثوبي الواسع.

"يا الهي الرحيم!" وولج لسانها فمي. طوحت بالأغطية من على الفراش. وصعدت
لوقها. كانت ما تزال ناعسة. وكانت العملية باهنة وممتعة. ولكنها لم تكن متفجرة.
حاولت أن انسحب قبل بلوغ ذروة نشوتي، لكنها هزت رأسها وامسكت بي بقوة. بعد ذلك،
غطيتها ثانية.

"يمكنني أن أأخذ سيارتك؟"

"بالطبع، ولكن ليس عليك أن ترحل".

أخذت مفتاح سيارتها من حقيبتها وأخذت مفتاح باب الشقة. قلت:

"اعتذري لكورنر، وقولي له أن يوسع أن يجلسني في الشقة اليوم، في أي وقت، وسوف

يفهم".

بعد عشر دقائق كنت أقود السيارة باتجاه لندن، وقد تملكنتني سعادة مفاجئة
غامرة، وعقلي يشع بالأفكار والروى.

كانت مسألة أيزموند هي ما شغلني أكثر من أي شيء آخر بالطبع. كانت
دراساتي في علم النفس والظواهر الخفية ذات الطابع السحري (والتي كتبت تاريخاً لها) قد

أقنعني بأنه من الممكن أن توجد شخصيتان في جسد واحد. إن الحالة الغريبة التي نمت
"وجود حواء الثلاثة" هي حالة (كلاسيكية، نموذجية وتقليدية) في علم النفس له يكون
أحد أن يفسرها، ربة البيت المتزوجة الهائنة الحسنة السلوك التي تتحول فجأة إلى محبة لذهب
لفن العشق. وأكثر ملامح هذه الحالة غريبة وهي الحالة التي صورها كل من نيدر
Ingpen وكليكي Clochleg^(١) هو أنه بينما كانت ربة البيت المتزوجة جاهلة تمامًا،
حدث حينما استولت على جسدها الفتاة العاهرة، فإن العاهرة، كانت مطلعة على كل
نشاطات "الأنا الأخرى" التي تشاركها نفس الجسد. وقد أخبرتني ديانا بحالة شهدتني نفسي
صباحها الأول: فقد ذهب أحد أعمامها لكي يتسلق الجبال في سويسرا، ودت يوم بدأت شقة
زوجته. التي كانت ديانا تقيم معها. تتحدث بصوته، مستخدمة نفس امتدادات لهجه
ونعمة صوته ورغم أن صوتها بالطبع ظل صوتاً أنثوياً. واستمر هذا لمدة ثلاثة أيام. حتى
عثر على جسد عمته في أخدود عميق بين الجبال، ثم توفقت عن الكلام بصوته.

إننا لا نملك أي تفسير لكل هذه الأشياء، وقد لا يهم كثيراً أن أصبح لدينا أي تفسير.
لا فمن المحتمل أن يكون تفسيراً خاطئاً إن كل ما همني. بمعنى ما، هو أن أيزموند
يكن ميتاً. كانت هذه هي الحقيقة الوحيدة اللافتة للنظر والهامة.

كانت هناك مشاكل أخرى. ماذا كان ذلك الذي قاله أيزموند فاستج ذلك التأثير
العنيف على كورنر؟ وما الذي عرفه كورنر عن أيزموند، وكيف أتى له أن يكتشفه؟

ولكن هنا لم يكن سوى جزء صغير مما شغل عقلي بينما كنت أقود السيارة عائداً
لندن. أما الشيء المهم حقاً فهو ما تعلمته في الليلة السابقة. لقد اكتشف أيزموند طريقة
يمتع بها نفسه من بلوغ ذروة نشوته، فيجعلها متوجهة طوال ساعات. وكان معنى هذا أنه
قد خطا خطوة أبعد من أي إنسان شعر بالتهيج قبلاً. وأن ما سحرتني فكرة جوانب نوعي
والإرادة التي تفتحت أمامي. كنت قد شعرت بإرادتي أكثر قوة بالفعل، شعرت بأن وعبي
أصبح أكثر اتساعاً وعمقاً. لقد شعرت بنفسي. طوال حياتي. بأنني واقع بشكل ما في
قبضة قوى تقع خارج ذاتي، وإنها بشكل ما، تحررتني بطريقة من طرق التوجيه البعيد

(١) "وجود حواء الثلاثة"، تأليف كورنر ه. تبليغ، هيرلي م. خليلي لندن سبكر وديربورج، ١٩٥٧، وصار

"الوجه الثالث" هو حواء ذات الانسجام الداخلي بعد علاجها

هنا كنت متعباً، وشعر عقلي بالبلادة، فإني فقد همتي بسهولة. فأصبح أداة سينة لتلك القوى. ومن ناحية أخرى، إذا حافظت على إيماني، وسقت نفسي سوقاً شديداً، وحافظت على مستوى عالٍ من التفاؤل عن طريق الإرادة الخالصة والخيال، فإني أشعر بأنني أستخدم لخدمته غرضاً يتجاوز أغراضني الخاصة. وأبدو كما لو كنت أحظى بقوة جديدة تفوق قوتي. هناك - لاحظتها - يكون إحساسي بالحتمية والارتياح، وأشعر بهشة عميقة، مثل عصقور يجد نفسه فجأة صائراً بسرعة صائراً نفاداً

في قصيدة "هيفان في السوق" يقول براونينغ أن الإنسان يشبه السباح إذ يطفو على ظهره فوق سطح بحر هادئ. إنه لا يستطيع أن يظلم مثل الفراشة، فإذا حاول أن يرفع كتفيه إلى أعلى مما ينبغي فوق سطح الماء، غرق باقي جسده. فإذا هبط برأسه تحت المياه غرق. ويقول براونينغ أن هذا هو وضع الفنان. رأسه فقط هو الذي يستطيع أن يبرز من بحر الحياة. وأن يكتشف الحرية في عالم من الخيال. إما ما بقي منه فهو محكوم عليه بأن يظل في قياد، خاضعاً لقانون الأجسام الطافية. وإني - باعتباري وجودياً ارتقائياً - لم أقبل أبداً هذه النظرة الرواقية الباردة. إني متيقن من أن قوى الخيال والنشوة تلك، التي طورها ونماها لرومانتيكيون، كانت فاتحة مرحلة جديدة من التطور الإنساني. وفي قصيدة "هيفان"، وهي عن "دون جوان" يقبل براونينغ فكرة أن الإنسان ليس ثابتاً مطرداً مستقر التكوين، وأن رغباته الجنسية تمنحه لمحات بارقة من حقيقة مراوغة من نوع ما، تحثني فتفادته بسهولة مرتبكاً مأخوذاً لللب. وكان ما ظننته دائماً هو أنه ليست هناك ضرورة لأن يكون الأمر على هذا النحو. إننا نمتلك قوى نادرة ما نص وجودها في أثناء دوران الحياة اليومية لكنية، فإدرة على أن تجعل الروح تموج مثل عاصفة، أو تفرق في هدوء ساكن الهواء متلهفة إلى النشوة للاستحيلة. ومن أجل أن نكتشف تلك القوى، يجب علينا أن نلغ أنفسنا إلى هاف جديدة. أن الرجل الذي يتمسك بالعادة اليومية لا يستطيع أن يحصل على أية لغة مرعبة من لمحات اكتشاف الذات ولكن عملية ارتياد علم الجسد لا تقدم أية إمكانية تكشف جديدة. علينا أن نتدرب - وأن نجد استخدام - تلك الحيلة القريبة التي تؤدي إلى إتاحة الفرصة للجسد لكي يظل ساكناً أو هامداً، بينما يندفع العقل لكي يكتشف الأدغال وسلاسل الجبال الداخلية.

وفي وضوح كامل، استطاع أيزموند بمعونة الجنس أن يخطو خطوة هائلة في اتجاه. فلا عجب أنه كان قادراً على أن ينتفع بجسدي وعقلي وأن يستخدمهما ككرس كل ما حياته للوصول إلى نفس النمل الأعلى. وعبر قرنين من الزمان، التقى عقل كما تلقي يدان امتدتاً للمصافحة، فتماسكا وتعاقفا. هناك جوانب عديدة استطعت أن أفي أن أتقدم إلى أبعد مما كان في مقلود أيزموند أن يتقدم فيها، لأنني حصلت على فرصة معرفة ثمار قرن ونصف قرن آخرين من تطور الثقافة الأوروبية. ولكن لرائته استطاعت أن تبلغ إلى أبعد وأعظم مما بلغته لرائتي. فما الذي يمكن أن يكون مستحيلاً بالنسبة لعقلي المترجين؟

- ٢٤ -

□ وصلت إلى الشقة بعد الساعة العاشرة بقليل. كنت جائعاً إلى درجة قطعية وجلت قطعة جيدة من فخذ خنزير في النلاجة فطهوت ست شرائح منها مع ثلاث بيضات شعرت بتحسّن بعد أن أكلتها مع الخبز الحاف والربى وعصير التفاح والقهوة. واستمر الإحساس بالسعادة والإدراك العميق للمتد الآفاق. خطر لي أن مشكلة الوعي الإنساني الأساسية هي أنه يتركز على الحاضر معظم الوقت. وفي لحظات الاسترخاء وحدها - لحظات الإجازات - نستطيع أن نحقق حالة هي في نفس الوقت "يقظة كاملة" ولكنها "غير مركزة" وهذه حيلة، أن نقهر العادة القديمة، عادة السماح لوعي بأن يسترخي حينما لا يكون مركزاً هاهنا أنا، مفعم بالإحساس بقدره غريبة، وعقلي يقظ بقطة تامة، ومع ذلك فإنه غير مركز على شيء. بالتحديد. وكانت النتيجة هي أن يملأني كل ما أنظر إليه تقريباً أو ما أفكر فيه بالاستثارة والرؤى الداخلية الدقيقة إلى درجة لا يمكن القبض عليها أو إمساكها

كان لدي الستير - على رف الكتب - طبعة جميلة من قصائد تشاترتون^(١). ولم أكن قد قرأت ما جمعه له رولاي من قصائد، ومع ذلك فحينما نظرت إليها، فتأبني إحساس بالمعرفة، بالآلفة. أخذت كتاب القصائد من على الرف ونظرت إلى تاريخ حياة تشاترتون

(١) توماس تشاترتون ١٧٥٢-١٧٩٠، واحد من أشهر الشعراء الإنكليز. في عصر (الأحباء القوطي). كان يحق من أنه رواد الشعر العاطفي والوجداني. مات منتحراً في ليلة ٢٢ أغسطس عام ١٧٩٠

١٧٥٠-١٧٧٠. كان أصغر من أيزموند بأربع سنوات، ومن الواضح أنه كان في لندن طوال
لشهور الأربعة الأخيرة من حياته - قبل أن يتناول جرعة من سم الأرسنيك. كان في وسع
أيزموند أن يقابله. جلست على المقعد القريب من النافذة، والكتاب مفتوح على ركبتي.
و فرغت عقلي. على التو كنت أنا أيزموند، ظهر مثل صديق قديم وراء عيني ناظراً إلى
الكتاب. عرفت إجابة سؤالي. إنه لم يقابل تشاترتون أبداً - فقد كان في غوتيفين حينما
كان تشاترتون في لندن؟ ولكن كان قد تحدث مع والبول عن تشاترتون في عيد الميلاد
السابق. وكان والبول غاضباً بمنف لأن الصبي كان قد أرسل إليه بعضاً من شعره نسبها إلى
نحس يدعى جون أبوت. وخدع والبول بالفصائد حتى أعلن الشاعر غراي أنها فصائد
سحولة ومنسوبة خطأ إلى جون أبوت. وكتب والبول إلى تشاترتون، وأشار له برقة إلى أن
من واجبه أن يستخدم مواهبه من أجل أغراض أحسن، فجاءه جواب وصف بأنه "مقالة
سبئة للأدب وبذينة". وحينما سرد والبول على أيزموند هذه القصة اغفل أن يذكر أن
غراي قد اكتشف عملية السرقة ونسب الفصل في الاكتشاف إلى نفسه

دق حرس التليفون، فافترضت أنه لابد أن يكون المتحدث هو كورنر أو انجيلا. ولكن
حينما سأل الصوت الألماني الثقيل قائلاً: هل المستر سورم موجود؟ علمت أنني أخطأت
بالاستجابة للرنين. قلت، "إنه هو المتحدث" بخشونة مفتعلة.

٥٢٠. شكراً لله. أنا "أليزا دانكمان". كنت أحاول الاتصال بك طوال عطلة نهاية
الأسبوع. كيف حالك؟

تبادلنا الحاملات للؤدية للحظة، ثم قالت،

"اسمع. من الهم جداً أن أراك. هل يمكنك أن تأتي إلى هنا؟"

"إنني متأسف للغاية، فإن هذا مستحيل. أنا راحل إلى أيرلندا عصر هذا اليوم..."

بينما كنت أتكلم معها، شعرت بوخزة غريبة بين أعضائي. وعادتني فجأة بوضوح
عظيم صورة فخيلها المفتوحين وأعضائها التناسلية تحت الحرير الوردى اللون. خطر لي أن
أيزموند جدير بأن يفهم هذا. ولكن كان شيئاً بالغ الصعوبة أن أحاول تصفية عقلي
وتركيزه وهي تتحدث فجأة تقطع الخط وتقطع الكالة. افترضت أن عطلاً فنياً قطع
الاتصال، فوضعت السماعة. وخطر لي أن هذه اللحظة ربما كانت هي اللحظة المناسبة لكي

اتصل بديانا في ماي كوللان - حتى إذا اتصلت أنا دانكمان مرة ثانية وجدت الخط مشغولاً
اتصلت بعاملة الخط. وبعد بضع دقائق كنت أتحدث مع موبسي، التي قالت لي أن "مامي" في
بيت تلهنة الزهور، في الحديقة. بعد دقائق قليلة جاءت ديانا إلى التليفون، وقالت إنها كانت
تحاول الاتصال بي منذ أمس، فقد استطاع فليشر أن يحصل على عرض من شركة
سينمائية لإنتاج فيلم عن المادة للتجمعة لديه عن دونيللي، وأنه يريد إجابة فورية كل
المبلغ للمروض كبيراً جداً بالطبع، ولكن فليشر الفرح أن يأخذ خمسين بالمائة، وهي نسبة
بنت لي مبالغاً بها جداً. تحدثنا لمدة تقرب من العشرين دقيقة، وقلت لها أنني أرجو أن أعود في
غضون يومين. وقلت لها ألا تفعل شيئاً بخصوص الرقبة التي أرسلها فليشر. وحينئذ
حرس الباب. قلت لها "إلى اللقاء" بسرعة، وذهبت لكي أنظر من النافذة. كانت أنا دانكمان
تقف عند عتبة الباب الخارجي.

شعرت بما يفرضني ألا أجيب، ولكن بدا لي هذا نوعاً من الجبن، إلى جانب أن مر
المحتمل أن تكون قد سمعت صوتي وأنا أتحدث بالتليفون - فقد كنت فتحت النافذة -
ذهبت وفتحت لها.

ابتسمت لي بطريقة أسرة مليئة بالود.

٥٣٠. يا عزيزي جيرارد. جميل أن أراك مرة ثانية".

امسكت بكلتا يدي. والصفقت نفسها بي في انفعال للحظة. وجدت نفسي أتساءل إن
كانت ترتدي السروال للخرم. وشعرت بوخزة بين فخذي.

الأمر للدهش هو أنها كانت امرأة كنت جديراً بشكل طبيعي أن أراها منفردة على
الطور وبشكل مباشر. لم تكن سينة للظهر وكان جسدها جميلاً - وإن كانت تميل إلى
البدينة - ولكنني كنت أتمتع أنها ذات مظهر رجولي بشكل أساسي. وبشكل منافض للطبيعة،
لاحظ أن هذا يزيد من جانبيتها عن طريق إثارة الحاجز الطبيعي الذي يفصل بين الذكر
والأنثى. ويقدم بدلاً منه نوعاً من الصراحة الرفاقية، وكان علي أن اعترف بأنها كانت
تتمتع بجانبية الشيطان وحسنه الظاهري.

كانت من الحكمة لدرجة أنها لم تشر على محاولاتها للاتصال بي، الأمر الذي كان من الممكن أن يتضمن نوعاً من التأنب أو اللوم. وكانت مقعمة بالدفء، فقد كنا - في نظرها - صديقين قديمين عادنا إلى الالتقاء وقد أبهجهما أن يرى أحدهما الآخر

سألتني عن صديقي الشابين ابن هما. فقلت لها أنهما سيبقيان بالخارج طوال النهار صلت أبي اكتشفت على وجهها شبح ابتسامة تهني بها نفسها. قالت:

"يا للخسارة. لقد أردت أن أقابل هذا الشاب إنه يبدو دكياً واسع الأفق"

فكثت أزوار معطفها فأعنتها على حمله. كانت ترتدي ثوباً من نسيج بني ناعم، حمله يدها الكبيران مشدوداً إلى الخارج. وكان الثوب بالغ القصر

جلست على الأريكة بطريقة الحرب إلى الاحتشام. وقد ضمت ركبتيها ووجهها إلى الخارج. ولكن قصر ثوبها جعلها تعري ساقيها حتى طرقي جوربها بشكل حتمي، كما تعرت منطقة من الفخذين. عرصت عليها قدحاً من القهوة قالت:

"كلاً أشكرك، إنما أريد أن أتحدث معك عن أشياء كثيرة. ونبدأ بمسألة هامة. إنك لادمنك في إيرلندا تحتاج إلى مساعد أدبي "ليس كذلك؟"

قلت بحذر شديد أن هذا محتمل، ولكن لا بد أن أعترف بأنني كنت قد بدأت اتساءل إن لم يكن كورنر ببالح بشأن دانكمان وزوجته. كانت تشع بالدفء وبجوبة عاطفية عارمة قالت

"حسناً إن لدي الشخص المناسب تماماً هناك فتاة شابة تدعى كلارا هيبيج. وهي سويسرية. حينما أخبرتها بأنني قابلتك، لم يكن بوسعها أن تصدق ذلك إلا بصعوبة. إنها تملك كل مكتبك، وملفاً كبيراً يضم كل ما كتبته عنك في صحافة".

ابتسمت بثقة مطمئنة، ثم استطردت تقول:

"هذا بالطبع نوع من الافتتان الذي يحدث للفتيات الصغيرات - فإنها قد انتمت لتعليمها في الكلية منذ وقت قصير جداً. وقالت أنها كتبت لك مرتين. ولكنها لم تحصل على أي جواب". (ومن الممكن أن يكون هذا صحيحاً، فإني لا أحيب على الخطابات إلا إذا لم يكن علي

أن أكتب شيئاً آخر). وهذه الفتاة لديها الكثير من وقت الفراغ - فإن والدها يرسل إليه مسد حبداً كل شهر. وهي تقوم بالدراسة في جامعة لندن وحالاً أخبرتها عن عملك في موضوع دويسيلي. عرصت أن تقوم بعمل مراسلتك الأدبية في لندن وهي لا تريد شيئاً في مقابل هذا إنما لا تريد إلا أن تعمل معك..."

وجئت في الأمر ما يتملق غروري. فإنه لا يوجد كاتب أصبح متخماً بالملذات. غير مبال بها لدرجة ألا يستمتع بإعجاب النساء به. ووجدت نفسي أسيراً لسحر موضوع عبدة السيد دانكمان وعدم تحيزها. فمن الواضح أنها لم تكن من النوع الفيور. قالت:

"طيب. لقد قلت لكلارا أنا قد نذهب معي نراها اليوم في أي وقت. إنها تقبني نوتبنج هيل جيت. وبهذا فإنها قريبة من هنا. لدي صورة لها"

فتحت حقيبة يدها، وأخرجت حافظة أوراق صغيرة. وففت لكي أأخذها منها. ووففت هي أيضاً وبدأت تبحث في الحافظة. كانت تضع نوعاً خاليت الرائحة وإن كان منعاً من العطر. وقد زادت نعومة نسيج ثوبها من استدارات نهديها ورددها. قالت:

"أه، هاهي".

تحررحت لتقرب مني وضغطت أعلى فخذها بخفة على فخذني. شعرت بوخزة من الرغبة كانت تجعلني أفرز. كانت الصورة التي أطلعتني عليها لفتاة في ثياب الانزلاق على الجليد، واقفة على قمة للنزلق الجليدي المرتفع. بدت الفتاة جميلة وبحيفة، ولكن كان من الصعب التأكد من ذلك بسبب ثيابها الثقيلة.

ولكن ما أدهشني كان المتعة التي كنت استمدها من الانحناء على أنا دانكمان كانت ملتصقة بي التصاقاً خفيفاً، تغلب صور الحافظة المثلثة بها. وبدأ لي أن ألتف للنزلق من خلال ثوبها يتصل مباشرة بمضوي الجنس. لاح لي أنها تحمل صوراً عديدة لكلارا هيبيج. أطلعتني على صورة قريبة لوجهها رأيت فتاة على شيء قليل من الذكورة ذات صديغين مرتفعين - جميلة - وشعرها الأسود منسلل على كتفها. ذكرتني بشكل غامض بمظهر أنا دانكمان نفسها.

ولقد وقعت في مكاني خلفها ما طرأ من فوق صكتها. أربكي عنف رغبتي. إن استجاباتنا
جنسية من التعقيد بحيث أنه من الصعب أن نقول بنقطة لماذا يتمتع شخص معين بجاذبية
خاصة علينا. وفي هذه الحالة لم أكن مستعداً للتسليم بالقاء كل المسؤولية على وعيي
اللباطن. نظرت دون وعي إلى صورة الفتاة، محاولاً أن أتذكر شيئاً ما. وهجاء قالت أنا
دانكان.

٢٠. أشعر بنقطة؟

ودون أن تعي بذاتها، مدت يدها وراء ظهرها فحسنتها بين أعلى فخذي وبين الخذي
تركت يدها في ذلك المكان لحظة قصيرة، مفتوحة... حينذاك فعلت ما كنت أفكر في فعله
مد أن دخلت الشقة إذ مدت يدي إلى ذيل ثوبها، ودسستها فوق طرف جوربها. قالت:

"هذا جميل. إننا صديقان. ليس هناك سبب يمنعنا من أن يعامل أحدهما الآخر
بصراحة. إنني أكبر جداً من أن أكون عشيقتك، بالطبع. ولا يريد أحدهما ذلك ولكن ما
يزال هناك قدر كبير من التجانب الطبيعي. تجانب الأنثى والذكر - فيما بيننا ويمكننا أن
نكون صريحين فيما يتعلق بهذا."

كانت هذه هي الزاوية الصحيحة للنظر إلى المسألة. فإن فكرة حمل أنا دانكان إلى
المراض كانت جديرة بأن تزعجني ولكنها لم تتوقع شيئاً من ذلك. قالت:

"سوف تجد أن كلارا أقرب جداً لأن تكون النوع الذي يروق لك. إنها فتاة حلوة.
يمكننا أن نذهب لكي نراها."

فكرت في أن هذه قد تكون فكرة طيبة. كنت قد بدأت أشعر بنفس الاشتياء غير
لصحي الذي شعرت به في سيارة الأجرة مع أنجلا، ذلك النوع من الشعور الذي من المحتمل أن
يجس به الشخص لليال إلى الاستعراض... ومن الناحية الأخرى. لبني الحذر على أنه قد يكون
من الأفضل أن أطرد هذه الفكرة من ذهني.

قالت:

٢٠. أجل. لماذا لا نذهب إلى هناك الآن؟

"طيب، جميل. ولكنني أحب أن أقول لك شيئاً عن خططنا."

أخذت يدي بشكل طبيعي تماماً وفادتني إلى الأريكة. فأخرجت من حقيبتي يدها عند
من الأوراق المكتوبة بالآلة الكاتبة. قالت:

"هذا الكلام بالألمانية، هل تقرأ الألمانية؟ إذن سوف أقوم بالترجمة"

كانت جالسة في الوضع المألوف، مستندة بظهرها إلى للسند، وفخذيها مكشوفان فوق
ذيل ثوبها المشدود إلى ما فوق أطراف جوربها. كان فخذيها بلمساتني وشعرت بشيء من
صدمة كهربائي واهية تجري منها مباشرة إلى ما بين فخذي

حينذاك، وعلى حين هجاء تماماً، كان أيزموند في مكاني. وتغير شكل شيء. شعرت
كما لو كنت قد خطوط هجاء خارجاً من جسدي. ولبني انظر إلى نفسي من جزء آخر من
الحجرة. عبرت موجة الحمى وابتعدت. وفي نفس الوقت، فهمت، دون أن أشعر ببذل أي جهد
عقلي محدد، كانت أنا دانكان نمتلك نوعاً من الطاقة، نوعاً غريباً يدياً من الطاقة التي
تملكها كل النساء بشكل غريزي. ولكن هذه الطاقة - لدى معظم النساء - تكمن تحت
الطبقات التي تكونها "الشخصية"، و"الكوايت". وقد تعلمت أنا دانكان أن تحرر هذه الطاقة
وأن توجها. لن يكون تعبيراً دقيقاً أن نتحدث عن هذا الإنجاز من جانبها باعتباره شكلاً من
أشكال السحر، وإن كانت الطاقات الفعلية التي تملكها الساحرات تتمتع بنفس الطبيعة. وقد
رأيت في ومضة خاطفة أن هذا هو السبب الذي يجعل من انقلابي أن يكون "يوم ست
الساحرات" حيث يجتمعون بالشيطان. يوماً مليئاً بالأعمال الشهوانية، مع خلع ملابسهم
كلها. والمساعدة مع ذكران الماعز. وما إلى ذلك. فالساحرة تلقى عن نفسها كل أنواع الكتب
وتتعلم كيف تركز كل طاقتها الجنسية الطبيعية

لقد فهم أيزموند أنا دانكان. فإنه كان قد عرف الكثيرات من نوعها، بل إنه عرف
من هن أكثر موهبة منها. وحلت نفسي أنظر إلى داخل عقل أنا دانكان. فأشعر بالفئتان
مخيف. لم تكن مثل زوجها منحرفة جنسياً، فالانحراف ينبع بسبب عقبة سيكولوجية
غائرة في نفس الإنسان. وكان كلاوس متسماً عن فكرة "الحرم" والمموج. وكانت فكرة
أن أي شيء يمكن أن يكون محرماً أو ممنوعاً كافية لكي تجعله ينتصب. إنه مثل ذي صاد
أراد أن يكون شريراً، وأن يمضي حياته في البحث عن أشياء جديدة مذهشة بفعلها. وقد

تلاءمت نزعاً لنا داتكمان الجنسية الفياصة مع نزعته تلك وإشباعها إشباعاً كاملاً. فإن غريزة الأمومة لديها كانت قد تشوهت وتحولت إلى نوع من النهم الشره. رأيت بوصوح أنها كانت مزدوجة الرغبة الجنسية، وأن كلارالهيبيج كانت عشيقتهما. فإن موقفها من الجنس كان موقفاً ذكورياً بكل غريب. كانت تحب أن يأخذها كل رجل في العالم، وأن تملك هي كل امرأة جميلة. وكانت تتمتع بفضول لا يسيغ، كانت تريد أن تكون "في" ناحل وفوق كل شيء. وقد رأيت أن هذا هو دافعها إلى البحث عني والانففاع نحوي. فقد كان بوسعي أن أضيف جواً من الكفاءة الثقافية على "مجموعتها" فتجنب بذلك الاتباع والتلاميذ. وكانت خطبتها أنه لا بد لي من أن أخذها هي وكلارالهيبيج قبل أن ينقضي النهار، ثم تكون مهمة كلارا هي أن تحافظ علي وأن تشدد قبضتها، من خلال ما تشبعه حولها من جو التابعة للفتونة.

لا ادعي أنه كان بوسعي أن أقرأ ما بداخل عقل أنا داتكمان. فقد كان كل هذا - بمعنى من المعاني - نوعاً من التأمل، ولكنه كان تأملاً قائماً على أساس من تجربة أيزمويد الهائلة. وقد بدا لي كل هذا واضحاً شديد الوضوح. ثم أدركت الآن، أنه - أيضاً - قد بدا منيراً للعاطفة إلى حد ما. كانت تمتلك الكثير جداً من الطاقة، وفرصة محدودة جداً لاستخدامها. فلماذا لا تقبض على أية فرصة تلوح لها؟ كان هذا أمراً مبهوماً

لم تكن واعية بأنها قد "فقدتني"، فقد جاء "استبصاري" الداخلي لها سريعاً كالوميض، بينما كانت لا تزال تقلب الصفحات. أمسكت بالأوراق مفتوحة بإحدى يديها، وراحت يدها الأخرى تتحرك فيما بينها، لكي تريد من قوة الاحتكاك. وفي تلك النقطة بنا أيزمويد يسلي نفسه. كان ما فعله ببساطة هو أن ضغط على فواي الجنسية، وتوحيدها ضلها. وفي الحقيقة، لم يكن هذا غريباً علي غربة كاملة، فإنني كنت أفعل هذا دائماً دون وعي. في لحظة الاتصال بمناذ كانت قد اجتلبتني إن امرأة - إذا رغبت في اجتذاب رجل ما - فإنها قد ترمش بجفونها أو تتأود لكي تبرز ممانتها، ولكنها إذا كانت رزبية محتشمة فإنها ستحافظ على هدوء السطح الخارجي، ثم تستخدم السحر الداخلي القادر على الاتصال المباشر غير الظاهري الذي كانت أنا داتكمان تستخدمه الآن. أما الذكور فإنه نادراً ما يستعرض مراكز جانبية بشكل صريح. إن أسلوبه من البداية يعتمد على لظهور بمظهر غير المبالي

ولا ألهم. وعلى ذلك فإنني - بمعنى ما - كنت متفوقاً على أنا داتكمان في هذا الصدد ولكنني ما كنت أستطيع أن أعرف هذا دون المعونة التي أسديتها إلي خبرة أيزمويد.

شعرت بالإثم بسبب هذا الموقف، فإنني لم أرد حقاً أن اجتنبها ولكن علي أن أعرف بأنه كان في سلوكي هذا نوع من "العدالة الشعرية"، العقاب الذي ينزل بالاثمين في المأساة التقليدية كان الموقف قد تحول إلى مباراة، مبارزة بسيف خشبية.

بدأت تترجم الكلام المكتوب بالألمانية، وحينئذ ارتعشت اليد المسكة بالأوراق. كنت تقاوم. كانت قد اعتادت أن تكون هي الساحرة لا "السحرة". وفي هذا الوضع الجديد أرعبت الإحساس الجديد المصاحب له وأخافها. قلت بآداب: "استمري"، وزنت من التبار الصاعقة بدأت تقرأ:

"إن القواعد التي تتبعها جماعة تعاونية من تلامذة رايخ..." ثم توقفت، وقالت:

"يجب أن نعتبر على اسم آخر لهم".

قلت: "أجل، يجب أن نفكر في اسم آخر..." فاستعادت نقتها وعادت تقرأ:

كنت قد لاحظت أن لثوبها زماماً من الخلف، وأن الزمام يعلق عند قمته بزر ضخم وقد أدركت في تلك اللحظة أهميته. كان ههنا سلاحاً عدوانياً، فخاً للذكور أشبه بمخ العناكب للذباب، ولكن نهديها كانا جزءاً من أنوثتها، الجزء الأموي منها. أشرت إلى جملة في الورقة تقول: "ماذا يعني هذا؟" فلمست عظمة ساعدي قمة نهديها جفنت حفلة ضئيلة وابتنعت. وضعت يدي بقوة على النهدي وأمسكته، للحظة فقلت السبطرة على نفسها وحاولت أن تبعد يدي بعنف دون حساب مثل فتاة صغيرة. ثم استعادت سيطرتها على نفسها مرة أخرى، وقالت بصوت ثابت بدرجة ملحوظة:

"إنها القنباس من رايخ..." وشرعت تترجم الجملة كاملة. مدنت يدي وراء ظهرها.

وفي حرص حلت الزر الضخم، كتبت هي رغبتها في إبقائي، فقد كانت هي - على كل حال - التي تحدثت عن "ضرورة أن يهمل أحننا الآخر بصراحة". جنببت الزمام إلى أسفل. قرأت أن ظهرها كان عارياً، باستثناء شريط حمالة الصدر. حلت رباط حزام صغير عند خصرها. وجنببت الزمام إلى أسفل حتى أقصى مجراه، تحت الطرف العلوي لسروالها الداخلي، قالت:

"إنك شئت انتباهي"، "إنك شئت انتباهي".

حاولت أن تضغط بظهرها على مسند الأريكة، ولكن محاولتها كانت متأخرة جداً، فقد كانت نائمة في فك مشبك حمالة الصدر. ضغطت بظهرها على مسند الأريكة بقوة، وفعلت سيطرتها على نفسها تماماً للمرة الأولى. أصبحت فجأة غير وثقة من نفسها، وهي تشعر بما يفريها على قتالي، دون أن أنظر إلى وجهها، أمسكت بكتفي ذوبها، وحبستها إلى الأمام، ابتعد النوب عن كتفها للنين كانا أبيضين مستديرين مثل كتفي تمثال. كانت جبيرة بان تبدو في هيئة ممتازة وهي ترتدي ذوباً دون اكتاف في بهو حفلة راقصة في عصر الإمبراطورية الثانية. كان نهذاها كبيرين، وما رالا بحالة جيدة. انهشني بياضهما، واحمرار الحلمتين النافض لذلك البياض. وضعت كل من إحدى يدي على أحد النهدين وشعرت بالدفء يتسلل طاقياً في داخلها. كان هناك شيء يدعو إلى الإعجاب بالطريقة التي حاولت بها أن تستعيد سيطرتها على نفسها، ونجحت في ذلك جزئياً. كنت أعرف ما كان يحدث لها، من الطريقة التي تفرجت بها ساهاها. كانت تشعر بنفس الوخز المموم الذي شعرت أنا به من قبل. ملت يدها ووضعته فوق بنطالي... فقلت: "فهي" ترددت ثم فعلت كما أمرتها. سقط النوب على الأرض، ووقفت في مكانها بسرور لها الداخلي الوردى، وحزام الجوربين فوقه، مع الجوربين. جنبته حتى التصفت بي... أرفقتها على الأريكة، وخلعت كل ملابسى...

جفلنا كلانا عند سماع صوت جرس التليفون...

قال صوت رجل: "مستر سورم؟"

"يتحدث".

"إنك لا تعرفني. اسمي نيجيل سانت ليجير. ترى، هل يمكنني أن أجيء لكي أراك؟"

"أنت لـ"نيجيل سانت ليجير"؟"

أطلق ضحكة تدل على الحرج وقال:

"أعتقد أن بوسمك أن تقول هذا. هل يمكنني أن أتي لكي أتحدث معك عن موت

هوراس جليبي؟"

"طيب، نعم، بالطبع. متى؟"

"فني قريب منك جداً هذه اللحظة. أيمكنني أن أجيء إليك الآن؟"

"بالطبع. هل تعرف العنوان؟"

أوه، أجل. سأكون معك بعد دقائق قليلة."

حينما التفت ورائي كانت أنا ذاتكمان تشبك حمالة صدرها بالفعل... ثم قالت:

"أعتقد أنك تظنني بالغة الفباء؟"

"كلا". ولكنني لم أعرف ما أقوله عدا هذا.

كان بوسعي أن أشعر بها وهي تؤشك أن تفصّب. أمسكت بمعطفها. قالت:

"لماذا لم تخبرني؟"

قتل أول شيء، خطر على ذهني.

"ربما لم يكن هذا ممسوحاً لي به."

حدثت في وجهي. وقد دار اهتمامها فجأة. وللحظة طويلة ظلت عينها تحدق في عيني. قالت:

"أظنني أفهم".

وكان هذا أكثر مما بوسعي أن أقول.

تحرّكت منجهة إلى الباب.

قالت بأسلوبها الدافئ الودي الخادع:

"حسناً، إننا نظل صديقين".

كانت قد عادت إلى سيطرتها على نفسها مرة أخرى. وقفت في مكانها، بمعطف مفتوح، ويدها ممدودة. وساهاها منمر جتان ثابتتان على الأرض. ولكن الموقف بدا سعيماً ولا

معنى له. نظرت إلى النهدين البارزين. وخفضت بصري إلى الفخذين. كانت امرأة تتظاهر بأنها رجل.

حينئذ، احمر وجهها فجأة. لم أكن قد تبينت أن نظرتي واضحة ككل هذا الوضوح. برلت يدها، واستدارت دون كلمة. وجنبت الباب بعنف ففتحته. لم أسدل أية محاولة لتأنيثها فإني أولاً، كنت مسروراً لرؤيتها ترحل ودائياً، شعرت فجأة بالأسف. فربما كانت مباراة أيزموند لعبة ممتعة، ولكنها غادرتها مكشوفة ومعرضة للاحتراق من أي نقطة. ماذا عساها تستطيع أن تفعله الآن؟ أتحاول أن تسمي جانبها الأنثوي؟ هذا أمر لن يؤدي فقط إلى الإحباط لو حاولته. طرأ على ذهني فجأة أن هناك قارفاً واحداً أساسياً بيبي وبين أيزموند. لقد كان ينتمي إلى القرن الثامن عشر. قبل عصر "الحساسية" لم تكن هزيمة أنا دافتمان بالنسبة إليه سوى شيء مضحك، والأكثر من هذا، لا أهمية لها.

ذهبت إلى النافذة حينما سمعت السيارة تتوقف بالخارج. تعرفت على نيجيل سانت ليجير قبل أن يخطو خارجاً منها إلى الرصيف. لم أكن قد رايتَه أبداً في السلسلة التلفزيونية التي جعلته معروفاً لعند كبير جداً من الناس. ولكن كان لدي كتاب عن فضائياه وحالاته، مزود بعند كبير جداً من الصور. كان أصغر حجماً مما توقعت، ولكن مشبهه كانت تنسم بنوع من التدفق القوي إلى الأمام دلت على شيء ما في شخصيته.

قابله عند الباب. سألتني، "مستر سورم؟"

صاحني ولكن امتسامته دلت لي باردة فاسية تقدمته إلى داخل الشقة. كان رجلاً وسيماً، قوي البنية، في أوائل عقده السادس. وكان بوسعي أن أتخيل أن نظرتُه المحدثه تنافذة الباردة قد أخافت عنداً كبيراً من المساحين في قمص الاتهام.

قلت، "من أخرك بأنني هنا؟"

نظر إلي بحدقة، كما لو كان يشعر بما يغريه لأن يقول: "أنا الذي ألقى الأسئلة" ثم أضاف قائلاً:

"الدكتور كورنر، بالطبع."

أخرج عليه سيجار من جيبه. ولقدماها إلي. هزرت رأسي. انقلب مني ولنا وقف بالقرب من النافذة وحدث في وجهي. قال،

"لنني لم أقرأ أي كتاب لك من قبل، ولكن سوف أحرص على أن أفعل ذلك الآن."

لم أقل شيئاً. توجه إلى منضدة للعب الشطرنج عند النافذة. ودون وعي، حركت أحد بيداق الشطرنج. قال،

"هل تلعب الدومينو، يا مستر سورم؟"

لم أقل شيئاً. كنت أحاول أن أحتفظ بنقاء عقلي. وقف سانت ليجير ينظر إلي. مثبت أياي بالفضل ما يملكه من نظرات الاتهام.

قال أيزموند،

"تحياتي، أيها اللشرف."

جفل سانت ليجير، وبان عليه الانزعاج. ولكنه استرد سيطرته بالذهاب إلى الأريكة والجلوس عليها. قال،

"أفهم من هذا أنك تعرف الكثير يا مستر سورم. ولكنك لا تنتمي إلى منزلنا. والأستاذ الأعظم لم يسمع بك من قبل أبداً."

كنت أعرف أن من الأفضل لي أن أترك هذا الموضوع لأيزموند، فلم يكن هناك وقت أصبغ في محاولة الاعتماد على نفسي. قال أيزموند،

"لئن فلأبد أن عليك أن تسمع عني. أليس كذلك؟"

أشعل سانت ليجير سيجارة.

"هذا هو الواضح، إن كان كل ما أسمعه صحيحاً. حاول أن يسترخي، ثم استطرد بالقول،

"أسمح لي بأن أوضح موقفني. لنني لا أنكر حقك في الانتماء إلينا. إن مؤهلاتك عظيمة بشكل مثير واضح. وبهذه المناسبة، أين تعيش؟"

"في أيرلندا؟"

"هــ".

ظننت أنه قد بدا عليه الانشراح والتفاؤل. قال:

"طبعاً. لم يكن هناك أي شيء في أيرلندا منذ سبعين عاماً. ربما كان علينا أن نعمل

شيئاً ما هناك".

نظر في طرف سيجارة، كان لدي إحساس بأنه ليس واثقاً من الكيفية التي يعالج بها

هذا الموقف. ثم نظر إلي. قال:

"كيف استطعت أن تكتشف الأمر، يا مستر سورم؟"

لم يقدم أيزموند إلي أي معونة ففكرت أن أقول الحقيقة.

"لقد طلب مني ناشر أمريكي أن أكتب عن أيزموند دونيللي وطوال الشهور القليلة

الناصبة مكنت أحاول أن أكتشف مذكريته وأوراقه".

"ولم تكن تعلم شيئاً قبل هذا؟"

"كلا".

"أرى ذلك".

بدا عليه الارتياح. دق جرس الباب، فتحرك كل منا لدى سماعه. قال:

"هل تتوقع مجيء شخص ما؟"

"كلا".

"جميل. إذن اظنني أعرف من يكون. هل تسمح؟"

ولكن كانت أنجيلا هي القادمة. قالت:

"لقد أوصلني كريس، وقد اشتبك في مناقشة عنيفة مرعبة مع لوتو..."

دخلت إلى الحجرة، ورائت سانت ليجير الذي وقف بأندب لكي يعييبها. تعرفت عليه عن
المور وبان عليها ذلك. قدمت أحدهما إلى الآخر. فتصافحا. وأظهر هو قديراً من التهنيت أكثر
بكثير مما كان قد أبدى. حتى الآن. قال لها:

"أنت عضو في جماعة الدكتور كورنر. شيء ساخر أعتقد أنك أنت التي قدمت
المستر سورم إليه؟"

سألته، "هل تعرف بامرهم؟"

"كوه. أجل أنا أعرف بامرهم".

نظرت إلي أنجيلا. تراجو الحصول على بعض المعلومات لكي تفهم الموقف.

قلت:

"إن السر نيجيل هو المشرف على المنزل الإنكليزي لجماعة العنقاء"

شحب وجه سانت ليجير للحظة ظننت أنه على وشك أن يفقد سيطرته على نفسه

قالت أنجيلا

"هو يمزج؟"

بدا على سانت ليجير أنه فقد شهيته للكلام تماماً. قال:

"من المؤكد أن لديه إحساساً فكاهياً سيئ التقدير والخط"

قالت أنجيلا:

"بظن كورنر أنك من جماعة العنقاء. ماذا قلت له؟"

فطع سانت ليجير كلامها بالقول:

"إذا سمحتما لي. اظن أن هذا موضوع من الواجب ألا نتحدث فيه. إنه قد يكون

خطيراً".

قالت أنجيلا، "خطير؟"

حدث فيها سانت ليجير لعدة ثوان، ثم وقف واتجه إلى المائدة تولد لدي انطباع بأنه شعر براحة اكبر وهو واقف على قدميه. اطل من النافذة ثم قال،

"لقد سالتني عن اغتيال اللورد جليبي. وهذا موضوع لا أعرف عنه الكثير. ولكن يوسعي ان اقول لك شيئاً واحداً. ان جليبي لم يكن هو الضحية المقصودة. كان المقصود هو بريموند دونيللي".

حينما قال هذا، عصفت بي احساس عابر بالدوار. كما لو كان قد احترق شيء ما داخل عقلي. وليس بوسعي ان افسر ما حدث. إنما كان صوت سانت ليجير وهو يقول: بريموند دونيللي هو ما فعل بي هذا. لقد قلت اني كثيراً ما شعرت بنوع من الحل في لأسبوع السابق كما لو كنت أنا وبزموند نحتل عقلاً واحداً. ولكننا كنا كالقريبيين. ولم نكن ذاكرته في متناولي. ولكن حدث في تلك اللحظة شيء ما جعل كل تلك الذكريات واضحة ومعروفة. مثلما ينصبط مجهر فجأة لكي يكرر الكائنات الدقيقة تحت عدساته. كما لو كان عقلي عقل ايزموند قد ارتبطا فجأة بمشك فولادي إذا بهما معاً. كنت قد عرفت ان هذا من الممكن ان يحدث منذ نحو اسبوع. ولكن التكيف النهائي بين العقل والواقع كان ما برال مطلوباً. أما الآن فلم يعد هناك المزيد من الأسئلة. فقد امتزجت ذاكرة ايزموند بذاكرتي. وفي تلك اللحظة. حينما سألت أنجيلا سانت ليجير عن كيفية معرفته بهذا. وحلت نفسي اقول:

"يمكنني ان اخبرك بذلك".

قال سانت ليجير: "ليس من المحتمل ان تستطيع معرفة هذا"

قلت: "كان خطأ جليبي الأكبر هو أنه حدد الأسماء. ففي النسخة الأصلية من كتابته "خطابات من فوق أحد الجبال" حدد أسماء عبدالله يحيى والأستاذ الأعظم، وذكر ان هنريك فان جريس كان هو المشرف على هولندا. وانقعه ايزموند بان يغير الأسماء في النسخة المطبوعة. ولكنها طلت تسبب تمرداً وانفجاراً داخل الحركة. وأراد فان جريس أن يثبه اعتياله ايزموند. ورفض يحيى ذلك. وفي عام ١٧٩١ سمع فان جري يحيى وقتله. ومنذ ذلك الحين عرف ايزموند أنه لابد مقتول في أي وقت. وقد استيقظ ذات صباح في باريس. فوجد خنجرأ مفروساً في وسادته وكانت هذه إحدى حبيلهم المفضلة. لكي يحطموا

معنويات الرجل بالخوف قبل ان يقتلوه. وقد استخدم الحشاشون الأصليون - الإسماعيلية هذه الخدعة على سبيل التهديد. وقد أجبروا صلاح الدين مرة على رفع حصار كان قد ضربه على قلعة الأستاذ الأعظم بان عرسوا خنجراً في وسادته. وأدرك ايزموند هذا التحذير. فذهب إلى روسيا. ثم إلى اليونان. وحينما عاد، اكتشف ان جليبي قد ارتكب حماقته المهائية. كان قد نشر نشرته التي يهاجم فيها الجماعة، ويحدد اسم فان جريس بوصفه الأستاذ الأعظم الجديد. وكانت هذه هي القشة الأخيرة التي قصمت ظهر الجمل في عرف فان جريس. وكان لديه قاتل فرنسي محترف كان قد تدرب في تركيا - وهو رجل يدعى جاك كريفيا - فأرسله لطاردة ايزموند. وكان كريفيا هو الذي قتل هوراس جليبي في فرنسا ايزموند".

"ولكن ما الذي كان يفعله هوراس في فرنسا ايزموند؟"

"كان قد سرد على ايزموند قصة سخيقة عن رؤيته لشبح في حجرته هو. ووافق ايزموند على ان ينام في الحجرة لمدة اسبوع - فقد كان لا يؤمن بالأشباح. ولم يكن جليبي بالطبع يصدق أنه يعرض نفسه لخطر حقيقي - فقد كانت الحجرة على ارتفاع سبعين قدماً. وكان يوصد الباب من الداخل. ولم يكن يعرف ان كريفيا معروف باسم اللجاجة".

كان سانت ليجير ينظر إلي مذهوشاً قال:

"قد يكون كل هذا صحيحاً. ولكنني أشك في ذلك. لا احد يعرف التفاصيل فقد أصبحت هذه التفاصيل بعضاً من أكثر أسرار الجماعة بعداً عن متناول الناس وانضما حماية. ومن المحتمل ألا يكون هناك في العالم الآن من يعرفها سوى شخص واحد"

انتظرت منه أنجيلا ان يستمر في الحديث. ثم لما رآته يصمت. سألت:

"ومن هو ذلك الشخص؟"

قلت: "الأستاذ الأعظم الحالي".

قالت: "إنه ما زالت موجودة؟" ونظرت إلى سانت ليجير. وأضافت:

"ولم يكن يمزح؟"

صرفت سانت ليجير نظره عنها، وادار رأسه بغضب وهو يقول:

"يا سيدتي الشابة العزيزة، نصيحتي لك أن تلقي اقل قدر ممكن من الأسئلة إليّ. سوف جيداً لعودتك في الوقت الذي عدت فيه، وإنني لأكثر أسفاً لأن مستر سروم لم يكن مكتوماً إلى هذه الدرجة".

كنت قد بدأت أشعر بالغضب من سانت ليجير، أن أسلوبه اللئيم، بالتفكير قد بدأ يصعق على أعصابي. كنت قد أدركت الكثير وفهمت عنه الكثير. كان يتمتع بالاحتياج الرئيسي الذي يحتاجه مشرف في الجماعة، خضوعه للجنس كهاجس متسلط. وكان هذا مثلاً في سلوكه وأسلوبه في التعامل مع أنجيلا، كانت بالنسبة له وسادة هراش مناسبة، وكان بالفعل يتخيلها رائدة تحته وعيناها مغمضتان. كان رجلاً جذاباً، جنسياً وشخصياً. وكان بعيداً جداً عن البلاهة. ولكنه كان ممثلاً. وقد ظهر هذا في الطريقة التي سار بها عبر الحجرة قبل إعلانه عن اغتيال هوراس جليبي. وكنت أنا أمثل تهديداً جدياً له، هذا يفسر السبب الذي جعل أسلوبه معي حاداً إلى هذه الدرجة، شعرت بحبيبة أمل لأن أول اتصال لي بالجماعة يتم عن طريق رجل مثله.

سمعت سيارة تتباطأ بالخارج. قال سانت ليجير:

"والآن، اظن أن علي أن أترككم".

ذهبت فوقفت إلى جواره. كانت سيارة أجرة من مطار لندن وكان هو قد شرع يتحرك نحو الباب.

قلت:

"لا أظن أن رحيلك يغير شيئاً. فطالما أنك كنت تتوقع حضوره، يمكننا نحن أيضاً أن

نراه".

قال بهنو، "هل تسمحان لي؟" ثم استدار إلى أنجيلا وقال: "ارجو أن يلتقي ثانية"

تقدمت فتجاوزته، وذهبت إلى الباب. جاء خلفي وهو يقول بغضب: "حقاً يا مستر

سروم، إن هذا..."

كان رجل قد خرج من سيارة الأجرة وراح يتطلع إلى أرفاف المنازل. كان يبيع الصخامة، وجهه بني اللون مليء بالنليب. التفت عيناها بعيني، ثم رأى سانت ليجير بلهجة منسلطة:

"سوف أكون ممثلاً إذا انتظرتماني هنا لحظة واحدة" ثم تجاوزني وهبط الدرج. لم أجد نفعاً في محاولة الإمساك به أكثر من هذا، فدخلت المنزل مرة أخرى. كانت أنجيلا تقف وراء النافذة. قالت:

"ماذا يحدث الآن بحق الجحيم؟ من هو هذا الرجل؟"

"أعتقد أن له علاقة بجماعة العنقاء. ولا أعرف شيئاً أكثر من هذا"

من وراء الستائر، راقت سانت ليجير وهو يتحدث إلى الرجل الأسمر. قلت:

"إنه منزعج من وجودك هنا".

"أتحب أن أنصرف؟"

"قد يكون هذا هو أبسط الحلول"

افترب الرجلان في تلك اللحظة من المنزل. حرحت أنا لاستقبالهما. قلت:

"السيدة الشابة سوف تخرج الآن، إننا كنا نترددان الدخول"

حدث في الرجل الضخم بطريقة مبهمه. ظننت أنه يوشك أن يتجاهلني. وحينئذ قال سانت ليجير:

"هذا هو المستر سورم. مستر السيد نوري"

وهنا مد الرجل يده ليصافحني وقال كيف حالك. تبين أن صمته كان نوعاً من الحرص الشرقي على الشكليات. قال نوري:

"لا أظن أن هناك حاجة إلى إزعاج صديقك. إن مستر سانت ليجير لديه سيارة ويمكنه أن يأخذنا إلى بيتي".

"إن هذا ليسعدني" كذلك قال سانت ليجير في عصبية ظاهرة. له يكن هذا يوم

معدود.

قلت، "هل تسمح لي بلحظة؟"

عنت قد دخلت المنزل وأخبرت أنجيلا بأنني ذاهب معها. ثم سألتها عما إذا كانت سمعت في حياتها عن رجل يدعى السيد نوري. بدت كما لو كانت قد جهلت، وقالت: "بالطبع".

"من هو؟"

"إنه مليونير من نوع ما. البترول فيما أظن. إن اسمه يذكر دائماً مع أسماء أوناسيس وبول جيتي. لا بد أنك رأيته".

قلت لها إن عالم الشؤون المالية العليا هو أبعد شيء عن اهتماماتي. قالت:

"انظر إليه. إنه شخص من النوع الذي يملك سلطة حقيقية".

خرجت داسية وأغلقت الباب خلفي. تحركت سيارة "ديمبلر" رمادية بقودها سائق خاص فاهتزت من للنزل، فتح السائق الباب لنا. وبمنا كونا يجلس، قال نوري بطريقة تنم عن عدم موافقته، "بعيد جداً عن اللياقة".

احمر وجه سانت ليجير وقال: "بيني استخدمها دائماً".

رأيت ظل أنجيلا من وراء الستائر الشفافة بينما كنا نبتعد. من المحتمل أنها كانت تتسائل إن كانت جماعة العنقاء ما تزال تحتفظ بفرقة من القطة المحترفين.

لم يتكلم أحدهما حتى استدرنا متجهين إلى مارك لين. ثم قال سانت ليجير:

"كان عطفاً منك أن تقصص كل هذه المسافة لكي تأتي".

اعتبر نوري أن هذه كانت معاملة، فقبلها بهزة من رأسه. ثم قال:

"ربما كان الأمر كما تقول، هاماً".

ولم يكن فيما قاله إساءة أو غلظة، ولكن وجه سانت ليجير احمر ثانية.

كان إحساسي بحضور إيزموند قد اختفى وكان تلك الأحداث شيئاً غير مأثور للدرجة لا بد معها أن تدفعني إلى التوتر. وهذا التوتر هو ما جعل شخصيتي لنا هي العنيدة بشدة. استرحت بالتفكير في أنا ذاتكماني فقد كانت تجربة مرضية دون شك. لقد مكنت إحدى تلك التجارب التي أستطيع خوضها بنجاح باهر من دون إيزموند. كانت شخصيته تتمتع بنوع من الثقة، بدافع لا يفتأ يدفعه إلى الأمام، وجلبته أنا دافعاً مساعداً على التحرر الحقيقي.

كنا قد توقفنا أمام منزل في شارع بروك. قال نوري: "لقد وصلنا" ثم نظر إلى سانت ليجير وقال: "شكراً لك على توصيلنا إلى هنا". كان ما يرمي إليه واضحاً. قال سانت ليجير:

"هذا ليسعدني..." ثم فتح الباب لنا.

وقفت على الرصيف، أرمض بعيني تحت ضوء الشمس الساطع، ناظراً إلى ثياب الصبي للوحة التي ترتديها النسوة في ميدان سكروزيهيسور، شاعراً بأن ما يحدث الآن، غير مناسب بشكل ما مع هذا الانطلاق الحيوي القياض. انفتح الباب الأمامي قبل أن تصل إليه. بشكل ما كنت أتوقع خادماً شرفياً وراء الباب، ولكن الرجل الذي رأيته كان رئيس خدم بمكبرها عادياً. انسحب وراء مصراع الباب لكي يسمح لنا بالدخول. وبد أن نوري أصبح أكثر راحة ومطلاً بعد اختفاء سانت ليجير. قال:

"بيني لا أعيش هنا، ولكنني احتفظ بهذا المكان للإقامة فيه إذا قضيت عطلة بهية الأسبوع في لندن" إنه مناسب لي".

ثم ضغط على زر جرس.

كان منزلاً نموذجياً للرجل الثري، بما بدا عليه من راحة وتأديت فاخر. ولم يشر إلى انتماء صاحبه إلى الشرق سوى سجاج الدرجات الداخلية، فقد كان مصنوعاً من الخشب المشغول بشكل دقيق، ربما كان قد أتى به من "حريم" أحد السلاطين.

صعدنا الدرجات إلى الصابق العلوي، وعرنا حجرة للجلوس مزودة بآلة بيانو من النوع الكبير وبعض لوحات لانتيس^(١) على الجدار، ودخلنا مكتبة أشار إلي للجلوس على مقعد كبير عميق ذي مسندين.

"أيمكنني أن أقدم لك ككاساً؟ أم ربما تفضل الشاي أو القهوة؟ لأنني لا أشرب سوى قهوة".

نظرت في تلك اللحظة إلى نوري عن قرب، وبدأ لي أنني لا أزال أحاول أن أتعرف عليه ربما كنت قد رايت بعض الصور له. كان طول له يري على سنة أقدام، ووجه وملامحه أقرب إلى وجه وملامح جندي محترف كان يرتدي بذلة رمادية، سترتها ذات صفين من الأزوار. وكان شعره قصيراً. وقد تعمد هو ذلك وبدأ الشيب بفروده وكانت في وجهه بعض الندوب، ولكن كان وسيماً بتلك الجانبية الباردة التي يتميز بها طائر من الجوارح كانت حر كاته الاقتصادية، مختصرة كما لو كان يحس بالرشاقة إذا تشبه بالنساء.

جلس في مواجهتي وعرض علي سيجارة رفصتها. أخرج سيجارة روسية سوداء ذات طرف ذهبي ونقر بها على علبة السجائر. قال:

"لقد حنت من باريس لكي أراك يا مستر سورم. لأنه إذا كان نصف ما أخبرني به سانت ليجير صحيحاً، يكون لدينا الكثير الذي يمكن أن يقول أحدها للآخر إذن هانت تعرف من أنا؟"

٣. أجل. أنت الأستاذ الأعظم الحالي".

"لقد خمنت ذلك. بالطبع".

"لقد كان هذا استنتاجاً عادلاً. أنت لست مشرفاً، وإلا لما كان سانت ليجير قد أصبح عصبياً من وجودك بهذا الشكل".

ضحك فابدى اسناناً بيضاء في حالة ممتازة. قال:

(١) همري لميل بهموا مانيس ١٨٦٩-١٩٥٤. من لهم الرسامين الفرنسيين في القرن العشرين. عرف عنه أنه أحد رواد حركة الفن الطليعة، إلى جانب جورج روو ولندريه ديرس.

"إن هذا الرجل أبده. لا ينبغي له أن يكون مشرفاً".

"إذن، فلماذا يحتل هذا المنصب؟ إنك تملك سلطة إعادته".

"لم يعد هذا ممكناً، فبما للخسارة، إن مصطمتنا قد أصبحت أكثر ديمقراطية مما كانت عليه أيام أيز موند دويللي".

دخل رئيس الحدم، وهو يدفع "عربة نقله" صغيرة أمامه، ثم خرج على الفور وبينما كان نوري يصب القهوة، قال:

"لا ينبغي لنا أن نضيع الوقت يا مستر سورم. فإن لدينا الكثير الذي ينبغي أن نقوله. وعلي أننا أن أعود إلى باريس هذه الليلة. هناك الكثير مما يحيرني بشأنك. إنك تبدو كما لو كنت تعرف قدر كبيراً من المعلومات. وهذا يعني إما أن شخصاً ما لم يكن كتنوما كما ينبغي، وإما أنك حصلت على بعض الوثائق التي لم يكن يعرف بوجودها".

لم أقل شيئاً، فمضى يقول:

"كان من الممكن. حتى الآن - أن تكون أي إنسان بالنسبة لي. ولكنني أعرف الآن أنك أشبه بالعبقري، أو بالطفل المعجزة. لقد أخبرني صديقنا كورنر أنك أنهيت عملاً استمر عامين بصر ودأب بما يشبه ضربة حظ عبقرية مستحيلة. وأنا أزع أنه لم يكن ببالغ".

لم أقل شيئاً أيضاً، فاستمر هو يتكلم:

"لنني أفهم من صمتك أنه لم يكن ببالغ".

وضع قديم القهوة التركية الصغير أمامي، وهو يقول:

"من أنت؟ من أين جئت؟ وكيف عرفت كل ما تعرفه؟"

"أسمي جيرارد سورم، وأنا كاتب. أما عن وكيف أعرف كل ما أعرفه، فالإجابة هي أنني لا أعرف شيئاً".

قدم إلي نوري صحناً مليئاً بجلوى صغيرة مستديرة، وكانت فيها نكهة الفرفة. راق لي طعمها كثيراً.

قال:

"هذا قول غريب. اتعجب إن كان يزعجك أن اتحقق من صحته؟"

لم أفهم ما عناه بقوله هذا، ولكنني قلت أن هذا لا يزعجني بالطبع. مد يده وصعد على زر جرس آخر. لم يتحدث أحدنا طول الدقائق القليلة التالية. كان الجلوس في صمت بولد لدي إحساساً مريحاً. كانت هناك سمة في شخصية نوري تجعل من هذا الوضع طبيعياً لي حد كبير. فتح الباب بهدوء شديد، ودخل الحجرة رحل. كان علي أن أنظر إليه بتدقيق شديد لكي أتبين أنه رجل. كان شعره ذو اللونين مجعداً وطويلاً. والوجه يبدو كما لو أن شخصاً ما قد امتص من جسده كل قطرة من الدم. لكي تنهار العروق وتجف. كانت عيناه شاحبتين اللون حتى بدا لا لون لهما. ورغم أنه كان يرتدي ثوباً عربياً - عباءة صفراء فخرية - فإنه كان غريباً دون مشقة الشك. لم بولد نوري أي اهتمام. جلس الرجل على مقعد صغير واطن يكاد يكون بيننا نحن الاثنين. رأيت أصابع قدميه طويلة بارزة العظام. مثل شيء خارج من قلب فيلم من أفلام الرعب، وكانت أظفارها صفراء ملتوية مليئة بالنقاط البيضاء.

قال نوري: "هذا هو بوريس كاهن"

تجاهلنا الرجل، وهو يحدق في الفضاء. قال نوري:

"لقد كان يكسب رزقه بالعمل في الملاهي فارئ لأفكار الناس ثم تطورت قدراته إلى درجة أخافته هو نفسه. فأصبح مدمناً على الهيروين. وقد عثرت عليه ذات ليلة برحفة عند مدخل المنزل وعنقه مكسور. وكان قد سقط من نافذة في الطابق الثاني. وهو الآن يسافر معي حينما يكون لدي عمل هام. إنه بلا عقل على الإطلاق. ولكنه يعرف الحقيقة حينما يتكلم الناس. ليكنيون أم يصلفون."

أخذ سيجارة أخرى من العلبة. ثم قال:

"هل أخبرك سانت ليجير أنني الأستاذ الأعظم؟"

"كلا".

"إنني لم أظن هذا. ولكنني أردت أن أتأكد."

كنت أنظر إلى "بوريس" بفضول شديد. كان يرمق شطائر القرحة في صحن بلهفة. قلت:

"كيف يفعل حينما يكذب أحدهم؟"

"قد يكون من السهل أن أطلعك على نموذج عملي."

أشار بيده إلى النافذة ورفق بإصابعه. أسرع روبيس عبر الحجرة، وانحنى مرتين على الأقل مثل كلب مذعور، ثم اندس هاخفتي وراء ستارة ثقيلة من القطن. ضغط نوري على زر ثالث على اللاندة. بعد حوالي ثلاثين ثانية سمعت صوت خطوات رفيقة ترحف على البساط في الحجرة المجاورة. فتح باب، واندهعت فتاة تجري إلى داخل الحجرة. وفقت عند الباب، ورمقتني بنظرة عربية مليئة بالشك. ثم اندفعت تجري نحو نوري وطوحت ذراعيها فأحاطت عنقه وهي تصدر أصواتاً غريبة كالصياح ولا معنى لها سوى الزحبح بمقدمه. كانت ترتدي سروالاً عربياً طويلاً وصداراً صغيراً من نفس الطراز، ولكنهما كانا من الشفافية بحيث كان الأفضل أن تكون عارية. يمكنني أن قول أنها كانت في نحو السادسة عشرة من عمرها، ولكن جسدها كان نامياً نمواً معقولاً، وشعرها طويل داكن اللون. كانت تقبل نوري وتعود إلى تقبله، مثل طفلة صغيرة ترحب بعمها الذي تحبه. ابتسم في صفاء وتركها تستمر في تقبله للحظة، ثم قال لي:

"- هذه هي كريستي. طفلة جماعتنا لليلة."

أجلسها على ركبتها وقال: "وكيف حال طفلتنا؟" واندست يده داخل سروالها الشفاف. فتحت ساقيها طائفة، فتسللت يده بينهما ولست ملتفتي لهنديها. قال:

"هل كانت طيبة؟"

أومأت الفتاة برأسها بحماس. ووجهها خال من أي تعبير مثل دمية. خطر لي أن نوري يفضل من لا عقل لهم من الناس. سألها:

"هل كان لها أي عشاق منذ كنت هنا آخر مرة؟"

ارتسم على وجهها تعبير ينم عن الفصيلة. وهزت رأسها بتأكيد. من وراء الستار جاء صوت غريب، "شاك، شاك، شاك" كما لو كان حيواناً يسعل. انبثقت صمادة نحو الستار. وجلبته جانباً، وجنبت بوريس من شعره فاخرجته، صرخت، "كذب".

رأى مستسلماً على الأرض. وخده ملنصق بالبساط، وردفاه مرهوعاً في الهواء. وحينما رجعت بقدمها للفتى بجذبتها الرقيق إلى الورا، وركلته في ضلوعه لم يتحرك. انبثقت عائدة إلى نوري وألقت ذراعها حول عنقه، وقالت:

"الطفلة ليست كذابة. هو الكذب".

لاطف نوري ظهرها بحنان، وسألها: "كم كانوا؟"

"لا أحد" عاد تعبير الفصيلة الكاملة مرة ثانية وهي تهز رأسها. عاد الصوت للبحوح مرة أخرى يتعالى من حلق بوريس. كانت على وشك أن تقهر لكي تنبثق إليه مرة أخرى، ولكن نوري أمسك بها من معصمها، وكرر سؤاله: "كم كانوا؟".

تجهمت ومطت شفرتها استياء. قالت:

"ثلاثة".

سمعت الصوت للبحوح للتقطع ثانية صرخت في بوريس:

"سوف أقتلك".

قال نوري باستياء:

"طفلتنا بها شيء من الفلمة الشبهة السبنة، أليس كذلك؟"

قالت الفتاة، وهي تبدو في صورة إحدى بنات الطائفة المهترئين المتزمنة، الذي برعهم ذكر الخطيئة، "لا، ليست كذلك".

"طفلتنا تستحق الضرب بالحزام أليس كذلك؟"

"كلا". كانت تنوسل، "إنه كذاب".

"كم كانوا؟"

نظرت إلى بوريس بحقد وهي تقول، "سبعة".

لم يصدر عنه أي صوت. قال نوري:

"سبعة رجال، أم سبع مرات؟"

"رجال".

"سبع ضربات بالحزام، إذن".

وقفت، وحنيت سرورها إلى أسفل حتى ركبتيها، ثم رفعت على بطنها فوق ركبتيه. وجذب هو من تحت القعد شريطاً من الجلد، ورفع في الهواء، وهوى على الردف المستدير الوردي بضربة قوية. صرخت دون حرارة. أصبحت صرخاتها أعلى وأكثر تعبيراً مع توالي الضربات الست التالية. وعند الضرب السابعة قمزت من فوق ركبتيه. هرر رأسه وقال:

"واحدة أخرى".

نحننت أمامه، فهو عليه نوري بضربة واحدة قوية. ثم قال:

"الآن، اجري".

حينما اختفت، قال نوري:

"والآن يا مسر سورم، اتقول أنك لا تعرف شيئاً عن جماعة العنقاء؟"

"لنني لم أقل ذلك. إنما قلت أنني أعرف أقل بكثير مما تعتقد".

"لنني لا أفهم كيف يمكن أن يكون هذا صحيحاً".

نظر حوله إلى بوريس. ونظرت أنا أيضاً إلى بوريس، الذي كان يجلس الآن على البساط، محتضناً بركبتيه. كانت الحيرة تبدو على بوريس

كان نوري ينظر إلى بوريس. قال: "ماذا يعني يا بوريس؟"

نظر إليه بوريس دون تعبير بعينه الشاحبتين. كما لو كان يحاول أن يتجنب
السؤال بأن يتظاهر بعدم الفهم. ولكن حينما طلعت نظرة نوري الجامدة منبثة عليه، قال
بصوت متلعثم فيه فافاة:

"إنه... إنه... إنه يو... يو يعني أنه، اكك، اكك، اكك، أكثر من شخص و... واحد"

قال نوري: "هذا ما تعنيه يا مستر سورم؟"

قلت: أخشى ألا يؤدي الشرح إلى أي نتيجة. إنك قد تشك في عقلي."

نظر إلي بوريس، وقال في صوت مثل فحيح سوط يهوي:

"ماذا يعني؟"

جفل بوريس، وقال في صوت ضعيف خارج من الحلق:

"إنه شخص ما، يدعى إيرمويد"

زحفت عينا نوري إلي وراحتا تتفحصان، كان يوسعي أن يرى أن وجهه يستطيع أن
يكون معبراً عن التهديد العنيف قال:

"ألسنت أنت جيرارد سورم؟"

"أجل"

"من هو إيرمويد؟"

"إنك تعرف إيرمويد دوبيلي."

حلق في بهوة بالفة، كما لو كان يتساءل إن كان قد فهم ما قلته على الوجه
الصحيح. ثم، لدعشتي انسحب الدم من وجهه، وشحب لونه، وأصبحت نظره ثابتة لا
حركة فيها. قال:

"هذا مستحيل."

ولكن صوته كان قد أصبح عريضاً مشروخاً.

حينئذ، راح إيرمويد ينظر إليه بعيني محلقاً في عينيه بقسوة. تغير وجه نوري لکه
كنت أحب أن انظر من مرآة لحظتها لكي أرى ما كان يراه. وأياً ما كان ذلك الذي رآه، فقد
رايت أنه أفتنه. تطلب منه الأمر بضع ثوان لكي يستعيد السيطرة على نفسه. كانت شفاهه
قد شحبتا حتى أبيض لونهما، وبرزت الندوب الحمراء على وجهه الرمادي.

قال:

"إن فقدت كنت على حق. لقد عرفت كيف تعود."

لم يفعل إيرمويد إلا أن ألوما برأسه (براسي). كان بوريس ينظر إلى نوري نظرة
خائفة، مثل حيوان لا يعرف ماذا حل بسببه. وقف نوري وعبر الحجرة إلى خزنة جانبية
التقط قنبلة الخمر وراحت يده تهتز وهو يصبها في كأس الزجاج الكبيرة، ثم ابتلع كل ما
صبه دفعة واحدة. وأياً ما كان نوع ما شربه - كانت خمراً صافية مثل العرق - فقد جعلت
عينيه تغيمان مثل المياه العكرة، وحسبت أنفاسه للحظة. مسح العرق عن وجهه، ثم جاء،
فجلس ثانية، وجعل يرمي إيرمويد بنظرات خائفة كما لو كان يأمل أن يكون الأمر كنه
خطأ من الأخطاء. قال:

"سامحتي إنك لا تتوقع مني أن أقبل هذا الأمر بسهولة"

أسند ظهره إلى مسند القعد متجنباً إلى الوراء وأغمض عينيه. وإذا كنت أحقق من
خلال عيني إيرمويد وجلت نفسي متحيراً مما ابتداء من الفتناح سريع. انتظر إيرمويد. كانت
هذه هي لحظة انتصاره. اعتدل نوري في جلسته وأشار إلى بوريس قائلاً: "أخرج" فأسرع
بوريس خارجاً من الباب. قال نوري:

"ماذا تريدني أن أفعل؟ أن استقبل من الأستاذية؟"

"كلا. لا أستطيع أن أكون استاذاً إذا أردت... فإن لدي مستر سورم أشياء أخرى ينبغي
عليه أن يقوم بها. ولكن لا بد أن تكون هناك عودة إلى اتفاقية عام ١٨٣٠."

ذهب نوري إلى الخزنة الجانبية مرة أخرى، وصب لنفسه كأساً أخرى دون اعتذار.
قال:

- لا أرى مكيف يمكن ذلك. سيعني هذا إن نحنث في قسمننا".

- هذا هو الطريق الوحيد.. صدقني".

كان أيزموند قد أصبح صبوراً يحاول أن يفرس الثقة في صدر نوري. قال،

- "اصغ إلي يا السيد. إنني لا أؤمنك. لقد كنت استاذاً ممتازاً. ولكن هناك أشياء هامة تحدث وحتى هذا الأبله كورنر "ليس سوى نذير - أو بشر - بالمستقبل. هناك بشر من نوع جديد في طور النشوء الآن. إن العقل الإنساني يكاد الآن يبلغ الأفاق والطاقت التي لم استطع أنا إلا أن ألمحها من بعيد. وفي جوانب عديدة، يعرف سورم هذا أكثر جيداً مما أعرف أنا. وإن عليكم أن تكونوا مستعدين لأن تعلموا دوراً هاماً.. وأنتم لن تستطيعوا القيام بهذا الدور وأنتم جمعية سرية".

قال نوري: "لشرفون الآخرون لن يوافقوا بأي حال".

- "كن يكون أمامهم خبار. هذا الرجل سورم يعرف كل شيء عنا. وسوف ينشر كل ما يعرف. وسوف يكون عليك أنت أن تحميه".

اعتدل نوري في جلسته مرة ثانية. كان على وشك أن يستعيد سيطرته الكاملة على نفسه. ولكنني ظننت أنه قد كبر في العمر عشرة أعوام دفعة واحدة. قال أيزموند بعطف،

- "اسمع يا سيد. اسمح لي بأن أشرح لك. حينما انصممت إلى الجماعة، منذ مائتي عام، كانت جمعية من الفاسقين الفجار. وكانت فكرتهم الأساسية هي أنه لا بد أن تملك أقلية ممتازة صغيرة الحرية الجنسية الكاملة. وكانت هذه فكرة جيدة حتى ذلك الحين وقد قبلتها أنا. ورحت أعمل كل ما عمله الآخرون - فرحت أتجول متغنياً بالسحر والشعر والنشوة للصوفية التي تنزل كلما غرست ذكرى في عصو امرأة غريبة. وامتلكت طاقة داخلية، وتطورت تلك الطاقة حتى لم يعد في وسع أي امرأة أن تقاومي لأكثر من يوم أو بعض يوم. وأنت تعرف بعض ما فهمت به. لقد أقمعت فتيات مدعورات في مدارس الأديرة الداخلية بأن يسلمن عذريتهن خلال أمسية واحدة. لقد نمت مع ثلاث ملكات، ونماني اميرت. وقد امتلكت نساء بعد أن عرفتهن بعشر دقائق فقط - نساء مكبوتات تخبلن بعد ذلك أنني سحرتهن. وفي سن الخامسة والثلاثين، صار من المحتمل أنني عشت نحربة جنسية أكثر اكتمالاً من أي

تجربة مماثلة عاشها أي رجل قبلي. ثم بدأت أنمو وأشب عن طوق هذه التجربة. نعتت مر الاستمرار في أن أكون مجرد أداة في يد قوة لم أفهمها. حينما شعرت بأنني شبيه برب مر الأرباب في لحظة التحقق الجليل، طرحت على نفسي ذلك السؤال: هل هذا هو أبر موند دونيللي الحقيقي؟ أم أنه الأفاق من النوع الجديد الذي يستخدم ذكائه وإخلاصه لكي يوقع بالنساء الماهرات؟ لقد رايت، ذات يوم في موسكو، سائق عربية يضرب حصانه، وقبل أن أضربه حتى أطرت أسنانه من فكه، كنت قد شعرت بنوع من الفتيان بسبب "ساديته" الطافحة وفي وقت متأخر من نفس هذا اليوم، أخذت صغرى بنات القيصر إلى منزل صيفي صغير في مروج حديق القصر. وألصقتها بأن تدعني استولي على عذريتها. وبينما كنت أخلف، استولت علي فجأة رؤية رايت فيها وجه سائق العربية، فعرفت أنني كنت أعمل الشيء نفسه استمد المتعة من خلال "فرض إرادي" على مخلوق أضعف، فاستمتعت بالإحساس بالقوة وتبينت لحظتها أنني كنت أقوم بعمل نفس الشيء طوال عشرين عاماً، مكرراً نفس الفعل الذي كما لو كنت أسمى إلى أن تؤكد لنفسني أنني لست الأبله للضجر الذي يشبه بقية النبلاء - أصحاب الدم الأزرق - الشبان. وفجأة شعرت بنفسني بانساً مجللاً بالعار. واتخذ انقلابي النفسي هذا شكل الإحساس بالأسف على الفتاة، وهكذا فقد اندفعت حتى إلى التفكير في أن أسألها أن تهرب معي، ولكنني اكتشفت في اللحظة المناسبة أن هذا لن يكون سوى طريق مسدود آخر. هذه هي نهاية أكثر الأفافين شهرة، إنهم يحاولون أن يجعلوا أنفسهم يشعرون بالسمو الأخلاقي بأن يعاملوا الفتاة كما لو كانت إنسانة بدلاً من معاملتها كمدينة تحت الحصار. ولكن هذا السلوك لا يزيد أخلاقية في الحقيقة عن إلقاء قطعة نقد معدنية في صندوق شحاذ لكي ترضي ضميرك وتهنئه. لم يكن الحل هو أن استبدل نوعاً من الفباء نوع آخر، بل كان هو أن أحاول أن أفهم طبيعة الأمل السريبي الحادع الذي ظللت أطارده تحت أنيال النساء.

"وحينما عدت إلى إيرلندا، رايت فتاة كنت قد عرفتها منذ سنوات طويلة، فتاة كنت قد اغويتها منذ خمسة عشرة عاماً. ودفعت رؤيتها إلى ذاكرتي بصورة ذلك الصيف في الحظيرة خلف منزلنا. وقفت في الحظيرة وتذكرت كل شيء. وحينذاك عرفت الخطأ الذي وقع منذ البداية واستمر بعد هذا على الدوام. فحينما امتلكت في البداية مينو ودلفين، توقعنت لنفسني مستقبلاً من القدرة اللانهائية على الامتلاك. توقعنت أن تعاملني الحياة مثل طمل مدلل مفضل. ولقد عاملتني الحياة بهذا الشكل بالتأكيد. ولكنني سمحت لنفسني بأن

أصبح سلبياً أكثر من اللازم. لقد قبلت الحصول على المتعة، ولكنني فشلت في أن تبذل في سبيلها أي مجهود. في أول مرة ولجعت فيها مينو، شعرت بأنني مثل إله من الآلهة القديمة ولكن منة انتصار آخر، وولوج منة امرأة أخرى لم تفعل شيئاً لكي تفتدي هذا الموعود بالآلهية. على العكس، لقد دمرت انتصاراتي وعدي القديم، لأنها لم تكن انتصارات حقيقية، وإنما أصبحت عادة تمارس مثل بقية العادات الباردة.

كف عن الكلام. وكان لصوته - الذي لا يسميني أن أقول أنه صوتي، لأنه كان يبدو مختلفاً حتى بالنسبة لأذني أنا - التأثير الذي أراده بالضبط على نوري. ولابد أيضاً أن نتذكر أن أيزموند كان يستخدم دماغه لنا ولغتي وتداعيات ذاكرتي، ولا كانت هذه الأدوات - أدواتي - تستطيع أن تعبر عن أفكاره بهذه الأكر من لفظة هو الخاصة بالالكلمات كانت تنطلق من لسانه بسرعة فائقة حتى لكان من الصعب أحياناً أن يتابعه من سماعه كان مجهود التركيز قد هذا نوري، وجعله يستعيد سيطرته على نفسه. قال أيزموند:

"هل تتابع سلسلة تفكيري؟"

"ليس ما تقوله غريباً بالنسبة لي، كثيراً ما تخطر لي أفكار مشابهة، وكنيتي لا أستطيع أن أعثر على أي حل."

"الحل القرب مما تظن. ويكاد مستورم أن يكون قد عثر عليه بنفسه. لقد كانت لي ميزة طبيعية واحدة عظيمة - فقد فكرت في نفسي دائماً باعتباري الطفل المفضل. وهذا شيء مهم - التفاضل، الدفع المحرك إلى الأمام. وكانت لدي الجراءة الكافية التي تدفعني إلى التساؤل عما إذا كانت حالات التشبه بالرب تمثل حقيقة وجودي الداخلي أم لا تمنله. وعندما قررت الإجابة على أن ذلك السؤال هي "جل"، لم يبق أمامي - ببساطة - سوى سؤال واحد: لماذا إذن يعود العقل فيفرق في حالة من البلادة الكثيفة حينما تنتهي لحظة نزوة النشوة الجنسية؟"

"بالتأكيد لأننا لا نستطيع الصمود أمام مثل هذه الكثافة، ليس لدينا ما يقيها لنا. وليس لنا ما يحفظها في ألبينا. إن إناء ماء لايد أن يفرغ سريعاً إذا ترك على النار."

"كلا. هنا تفكير مختلط مشوش إن نشوة الذروة الجنسية ليست نتيجة لتطلاق الطاقة المحبوسة، وإنما نتيجة الرؤية التي تصاحبها. يمكنك أن تحصل على الذروة الجنسية

دون الرؤية. إذا كان عقلك متعباً، أو يمكنك أن تحصل على الرؤية دون الذروة الجنسية. إذا كان العقل مشبعاً بالشعر أو اللوسيقى. هل يمكن أن تصبح مشبعاً أكثر من رجل أعمى لأنك ترى الأشياء التي لا يراها؟ كلا، العكس هو الصحيح، لأن الرجل الأعمى أكثر قرباً من احتمال الضجر، والضجر يؤدي إلى التعب. والسالة هنا هي مسألة الرؤية وسرعان ما اكتشفنا أننا نفقد الرؤية لأننا تكف عن محاولة رؤيتها. إننا نسترخي، ننصرف عنها ونولبها ظهورنا، مثل رجل يتناعب ويفض عينيه."

"لقد عرفت في حياتي رجالاً مقدسين، رجالاً ساروا فوق الجبال وعبر الصحاري كانوا يبحثون عن نفس الرؤية، الإدراك الدخيم للعلم باعتباره لغزاً عاماً. ولقد عرفت الآن لماذا تسلط عليهم عشق الحلاء للكشوف. لقد طور الإنسان قدرته على التركيز على الأشياء الصغيرة، مثل صانع ساعات سويسري. ومثل صانع الساعات، أصبح قصير النظر. وتزايد قصر نظره حتى لم يعد بإمكانه أن يحدد في المسافات البعيدة. وكان الرجال للقدسون يحاولون تصبح نظرهم بالبحث عن مساحات الخلاء المفتوح. وأبني لأرى الآن لماذا كان سعيهم إضافة للوقت والجهد، لقد كانوا يحاولون أن يستبدلوا ملكة بملكة أخرى. ويبحثون عن الجبال بنفس الطريقة المتعثرة المتكررة التي كنت أبحث بها عن النساء."

"هل تفهمي؟ أصبحت واعياً مكتمل الوعي بإمكانية الحصول على رؤية أكثر اتساعاً. اعترفت بأن هذا لايد أن يعتمد على تطور ملكات أخرى وقدرات جديدة للإرادة في البداية، فعلت أوصح شيء، يمكن أن أفكر فيه. ففي اللحظة التي كانت تفيض فيها قوة الذروة الجنسية يتفرق عقلي، كنت أحاول أن أمسك بها فلا أدعها تفلت. وأرفض أن أسمح لها بالهبوط ثانية إلى المستوى العادي. وسرعان ما اكتشفت أنني كنت أحاول أن أطور قدرة كبيرة على التركيز. من الحق أنني لا أستطيع أن أتمسك بكثافة لحظة الذروة الجنسية أو أن أمسك بها ولكن حالما يتحول عقلي إلى الخارج، مثل سر صغير يحدد في السماء من عشه النزع فيحاول أن يثقف بنفسه إلى الهواء، فقد كان بوسعي أن أركز على توسيع نطاق رؤيائي. إن مشكلة الإنسان الرئيسية هي أنه جبان خائر العزم. ففي كل مرة يفقد فيها إحساسه بوجود هدف أمامه، يقف ساكناً، ثم يتراجع. ويجعله الصجر يسير دون هدف وفي دوائر مغلقة، فيضيع معظم حياته في هذه الحالة. إن سعيه وراء الحب يمنحه اتصالاً واحتكاماً مؤقتاً بالإنابيع الخفية للقصد أو الهدف، وقد كان هذا هو أعمق تعبير لوجود

جماعتنا. ولكن احتياحنا الحقيقي بوضوح، هو أن تحول تلك الينابيع الصغيرة إلى منابع كبيرة لا يمكن أبداً أن تجف. لابد أن يصبح الضجر مستحيلاً. إنه للعادل الوحيداني لفقدانك الطريق في الصحراء. ولكن حالما يمكن ابتكار البوصلة التي تحدد الاتجاه، فإن هذا لن يكون مشكلة بعد. ولقد رأيت أن مهمتي هي أن أركز حتى أتمكن من أن أطور هذه البوصلة، وهي المعرفة الواضحة لهندي. لقد رأيت أن الضجر هو عدو شبيه الرب، وأن كل هوائي ينبغي أن توجه نحو القضاء على هذا العدو".

قال نوري، "ولقد انجزت هذا. لقد نجحت".

"أجل. وسوف تنجح أنت أيضاً، الآن. وقد رأيت أنه ليس بالهدف المستحيل. وسوف ينجح سورم. وحينما ينجح اثنا عشر رجلاً، سوف تتبعهم بقية الجنس البشري. إن ينابيع القصد أو الهدف ليست مدفونة إلى عمق كبير تحت الأرض. وحتى هذه الفتاة الصغيرة التي كانت هنا تملك القدرة اللازمة إذا عرفت فقط كيف توجهها. إنها حيلة عقلية، مثلها مثل القفز من الأرض لامتناه حسان بجري".

كانت الصورة التي وضعتها في عقل أيزموند هي صورة رجل يستفيد من موجة قوية لكي تحمل لوحة الطفلي فوق الماء، ولكنه لم يستطيع أن يفهم الصورة. كان أيزموند يفتقر إلى التصورات والفاهيم اللازمة للتعبير عما يريدته تعبيراً كاملاً، فكرة "الارتقاء" من مستوى الوجود إلى مستوى آخر، ومعرفة أن الشخصية الإنسانية سلسلة من المستويات. ولكنني كنت أملك تلك التصورات والفاهيم.

قال نوري، "هل لي أن أطرح بعض الأسئلة؟ أين أنت الآن؟ هل هناك عالم آخر - بالمعنى الحرفي لكلمة العالم - وراء أو تحت هذا العالم الذي نحياه؟"

ضحك أيزموند. قال،

"إن ما تدعوه "هذا العالم" هو ما يمكنك أن تراه من خلال شق صغير في الباب الملق. وهذا يماثل أن تسمي هذه الغرفة التي نجلس فيها الآن عالماً بأكمله. بوسع مسر سورم أن يشرح لك هذا بشكل أفضل مني. إنه يتحدث عن حياة - العوالم، أما فيما يتعلق بأين أنا الآن، فليس بوسعي أن أوضح هذا بسهولة. فحينما استطعت أن أطور قوة إرادتي، بدأت أفهم أشياء لابد أن تكون واضحة من تلقاء نفسها كالبديهيات. فحينما يملكك التعب، تصبح الروح

مقيدة بشدة بين أضلاع الجسد. وكلما زدت صحة وحيوية، كلما زدت إحساساً بأنك تسيطر على جسدك من مسافة بعيدة، مثلما يسيطر مدرب الصقور على صقره الطائر في الفضاء. وعند نقطة معينة من الدائرة العقلية، يصبح من الممكن أن نحقق درجة من السيطرة على هذا الجسد لا يمكنك حتى أن تتخيلها. وحينما يحدث هذا، تصبح كل الأشياء الغريبة ممكنة الوقوع - فإني أستطيع، على سبيل المثال - أن أعرض ما تدعوه أنت بجسدي الوهمي من على مسافة عظيمة".

"وكان هذا هو ما حدث حينما ظهرت في اجتماع برلين عام ١٩٢٠؟"

"بالضبط. ولكن لا تبالغ في تقدير أهمية تلك القدرة، إنها ليست سوى منتج ثانوي. إن ما يهم حقاً هو درجة السيطرة الجنيحة على الجسد. لأن هذه القدرة إذا ما تحققت مرة، يكاد يكون من المستحيل أن تموت بعد ذلك".

قال نوري، "ولكنك مت".

"مثلما ترى".

"ولكن جسدك مات في عام ١٩٢٢. ودقنت في "سرداب مدفن الأسرة في إيرلندا".

لم يقل أيزموند شيئاً، كانت ذاكرته مغلقة مطبقة ثانية حتى بالنسبة إلي أنا. قال بعد لحظة،

"لا تدعنا نضيع وقتنا على ما لا أهمية له. ولنصرح فقط بأن مسر سورم قد كان أداة ثمينة لا تقدر، وأنت ينبغي أن تعامله بنفس الثقة التي تعاملني بها. وسوف يكون قادراً في مقابل هذا، على أن يقدم لك الكثير من العونة. إن مسر سورم، مثلي أنا، ليس مهتماً بالجنس بصورة أساسية. إنه رجل كالتطهرين. ولكنني أضنه قد اكتشف بعض الإمكانيات ذات الأهمية في جماعة كورنر. وتستطيع أنت أن تطلعه على أشياء أكثر أهمية بكثير، إنني أعتمد عليك".

"وماذا عنك أنت؟ هل سترحل الآن؟"

- "كلا. ولكنني حقاً لا أستطيع أن أضل أفرض نفسي على مستر سورم. إن لديه عمله الخاص الذي ينبغي عليه أن يقوم به".

قلت بصوت مرتفع - لصالح نوري: "إنني أرحب بمقدمك وقلتما تحب ذلك".

- "أشكرك. إنك مضياف حقاً".

قال نوري: "ما الذي تريد مني أن أفعله على الفور؟"

- "لا شيء. ركز على تعلم حيلة القفز فوق صهوة الجواد السريع. وتذكر شيئاً واحداً. التشاؤم أفضل من الرصاص يحيط بالقدم. الهزيمة دائماً نتيجة اختيار ذاتي. يستطيع مستر سورم أن يشرح تلك الأشياء بشكل أفضل مني - إن له نسقه الخاص في الفلسفة الذي يقوم على أفكار رجل يدعى هوسرل. والآن يا عزيزي السيد. سوف أغادرك. وإنني سأكون أيضاً في غاية الامتنان لك لو أنك منحت حمايتك كي تشمل لورد جليبي الحالي، ابن ابن صديقي هوارس. إنه يملك عدداً كبيراً من نفس العناصر التي كان هوارس يمتلكها وبذلك فإنك تستطيع بمعنى ما أن تعتبره تجسيدا جديداً لجدك الأكبر وتلك العناصر. لا تقل شيئاً عما حدث لتلك الأبله سانت ليجر. إنه ليس جديراً بالثقة".

بعد ذلك اختفى، وأصبحت أنا ونوري وحيدين. لم يكن نوري وافقاً من أنك حتى قلت: "لقد رحل".

وقف وقال: "حسناً يا مستر سورم. اضلنا نستحق كاساً. وبسكي؟"

- "كاساً صغيرة. مع الشكر".

وبينما كان يصب الكاسين، سألت: "كيف عرفت أن أيزموند كان ينوي أن يعود مرة أخرى؟"

"هناك قصة تقول يا مستر سورم بأنه لم يمت أبداً، وأن الجسد الذي دفن في سرداب ملحق الأسرة كان جسد شحاذا عجوز. ولقد قال هو نفسه شيئاً يقرب من هذا في يومياته للوجود الآن في منزلي على جزيرة هيندورابي. وسوف تكون أنت وأسرتك ضيوفاً مكرمين

هناك إذا ضنت أن تأتي لكي تفحص تلك اليوميات. وهذه اليوميات تتوقف بعد عام ١٨٠٠، الأمر الذي حيرني دائماً. ولكنني أقوم ما حدث الآن".

- "هناك شيء واحد أحب أن أسألك عنه. هل أطلع عن الجنس بعد ما حققت من استبصار وإدراك؟"

- "أظنني أستطيع أن أجيبك على هذا السؤال. إنك تعرف أنه قد اختار صغرى الشقيقات أنجست لكي تكون شيئاً مثل الكائن القدس، وقد أصبحت فيما بعد كاهنة في قيادة الجماعة القسطنطينية؟ يمكنك أن تقرأ عن هذا في اليوميات. وأنا أعتقد أنه قد اختارها لأنه قال عنها أنها تمتعت بنوع سري خاص من النعم الإلهية جعلها أكثر نقاء في أنوثتها من أي امرأة عرفها من قبل. وعاملتها الجماعة باعتبارها كائناتاً مقدساً، بعد أن أصبح أيزموند أستاذاً أعظم في عام ١٨١٠، وبعد ذلك احتلت ابنتها ثم حفيبتها مكانها. ومما يصدق ككل العارفين أن أيزموند كان والد ابنتها الحقيقي".

- "من الذي كتب الكتب النسوبة إلى أيزموند، "افتراع العذارى" وما إلى ذلك؟"

- "لقد كتب جليبي نفسه هذا الكتاب، في وقت أراد فيه أن يزعم ثقة أيزموند بالجماعة، ولكن كانت هناك تزييفات أخرى كثيرة بعد هذا. فإن أيزموند باعتباره أستاذاً أعظم كان جديراً بأن ينحل أعمالاً مزيفة مثلما نحل كتاب عصر البيزابيث الصغار أعمالهم لشيكسبير، وخاصة المسرحية منها".

- "ماذا كان السبب المباشر لموت أيزموند؟"

قال: "هذا شيء يحيرني: فالقصة التي يوردها كاتب ترجمته، عصمت الاصطخري، تقول بأنه أصيب بتزيف دموي في الدماغ بعد احتفال ضاحك فيه خمس عشرة امرأة. وهذا بالطبع محتمل، فباعتباره أستاذاً أعظم، كان من مهامه أحياناً أن يشترك في مثل تلك الاحتفالات. ومع هذا فإنني لم أكن قادراً أبداً على أن أقبل هذه القصة قبولاً كاملاً. وأنا الآن أقل ثقة منها مما كانت من قبل".

- "هل هذه الترجمة مكتوبة بالإنكليزية؟"

- "إنه بالعربية لسوء الحظ. ولكن يمكنني أن أمر بترجمتها لك".

نظرت إلى ساعتى فدهشت حينما وجدت أنها قد تجاوزت السادسة. خطر لي أن أنجيلا ستكون الآن قلقة بشدة علي. ولذلك فقد سألت إن كان يمكنني أن أطلبها بالتليفون. وقد كنت على حق، فقد كان أنجيلا المستمر يتناقشان في تلك اللحظة حول إن كان عليهما أن يتصلا بالشرطة أم لا، فإن تلميحات سانت ليجر العتمة حول اغتيال جليبي أزعتهما. وبينما كنت ما أزال أتحدث في التليفون، تسلل إلى جانبي رئيس الخدم الصامت وقال:

"اعذرني يا سيدي، ولكن مستر نوري اقترح أنك قد تحب أن تدعو صديقك لتناول لعشاء هنا".

بلغتهما الاقتراح، فقبلاه على الفور.

حينما عدت إلى المكتبة، كان نوري يرتدي عباءة فضفاضة مزخرفة بشكل جميل، وقد ولفت خلف مقعده، أربع هتيات في ملابس شفاقة، قال:

"أه، مستر سورم، أرجو أن يكون صديقك قد قبل الدعوة؟ ما زال أمامنا ساعة أخرى حتى يحين موعد العشاء. هل حدث أبداً أن جريت ما يتمتع به حمام الأمراء من قدرة على بعث الراحة في الجسد والاسترخاء في الأوصال؟ لقد اخترعه أستاذ أعظم تركي في القرن السابع عشر. وهؤلاء السيدات الصغيرات قد تعلمن فن الكمال. إنني اقترح أن نستحم الآن على طريقة الأمراء، قبل العشاء، وربما أمكنك في أثناء ذلك أن تروي لي كيف حدث أن سمعت بايزموند دونيللي".

- ٢٥ -

□ كانت هذه هي للخدمة التي أدت إلى واحدة من أمتع الأمسيات التي قضيتها في حياتي، ولكن ليس هذا هو مكان وصفها بالتفصيل. إن تاريخ جماعة العنقاء موضوع يبلغ من التعقيد والثراء جداً يجعلني أشعر بأنه ليس من العدل أن أتحدث عنه هنا. وحينما يكتمل إعداد أوراق دونيللي للنشر، سوف أرجو أن أقوم بهذا العمل بنفسى. وقد سرد علينا نوري أيضاً جانباً من تاريخه هو، وإنتهى بأن استعرض أمامنا بعضاً من تلك القدرات الهائلة التي أدت إلى تعيينه أستاذ أعظم. (وقد حدث هذا بعد صراع مشهود مع لودفيج بينليج،

- ٣٦١ -

الشرف الألماني الذي كان أيضاً نازياً سابقاً. وقد أدار بينليج "العسكر الجنسي" للشهور، الذي أنكر للورخون الألمان المعاصرون وجوده).

لجأنا إلى أسرتنا، منهكين إلى أقصى حد متمنين أن ننام عميقاً، وفي ساعات الصباح الباكرة. وحينما استيقظنا، كان نوري قد رحل إلى باريس. وفي وقت متأخر من نفس اليوم طرقت عانداً إلى شانون حيث قابلتني ديانا. وحينما عدنا إلى البيت، وجدنا برفية من نوري يسألنا فيها إن كان بوسعنا أن نلحق به في منزله في هيندورابي في عطلة الأسبوع التالي. افلتنا طائرته الخاصة من شانون. وفي الشهور الأربعة التالية منذ ذلك الحين، تمتعنا بأشعة الشمس، وكتبت أنا هذا التقرير عن بعثتي عن ايزموند.

أما أبحاثي في محفوظات السيد نوري - التي ساعدني فيها منظم مكتبته الممتاز الدكتور هانق خصه فقد أجابت على معظم ما تبقى من أسئلة حول ايزموند وحول تاريخ الجماعة في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. وسوف تنشر هذه النتائج في موعدها لللائم. أما أنجيلا التي تعمل هنا هي الأخرى، لقد جمعت اللواد الأساسية المطلوبة لتأليف ترجمة حياة ايزموند، هذه الترجمة التي من المحتمل أن نتعاون في كتابتها.

وقد كانت للشكلة الرئيسية التي واجهتني في عملية الكتابة عن "بعثتي" هي مقدار ما أستطيع أن أستخدمة من الصراحة في بعض اللوائف أو الأحداث. ولقد قبلت الاقتراح هوارد هليشر بأن أكتب كل شيء كما حدث، ثم أترك له مهمة تقرير كمية التغييرات ونوع ما قد يكون ضرورياً منها^(١). وعلي أيضاً أن اعترف بأنني لم أسمح لديانا - حتى الآن - بأن تقرأ المخطوطة، ولأنها - لحسن الحظ - فتاة هادئة على الفهم، ويمكنني أن ألقى أكثر اللوم على ايزموند.

وماذا عن ايزموند؟ فمنذ عصر ذلك اليوم في شارع بروك، لم أحس بحضوره إلا على فترات متباعدة. ولكنني لا أستطيع أن أكون وثقاً من أن هذا الحضور ليس من وحي خيالي. إنني كثيراً ما أجد نفسى أفكر في حادثة غريبة حدثت في بيت نوري في تلك الليلة. كان

(١) حينما كان هذا الكتاب في مرحلة تجارب الطبعة، سمعت أن بهابا كوكولونيل دونيللي قد عثر عليها في منزل مزرعته الذي أحرق عن آخره، ولم يكن ثمة أي شكوك في وقوع عمل إجرامي متعمد. وعلى ذلك فقد أعلنت كتابة الفقرة الخاصة بالكولونيل دونيللي ووضعها بالشكل الذي كتبتها به هنا.

بوريس يستعرض قدرات حاسته السادسة امام انجيلا والستير. وان نوري قد نومه تنوياً
مفناًطيسياً، وكانت إجاباته على أسئلة حول حياة كل منا الخاصة دقيقة إلى حد مخيف.
وقبل أن يوقظه نوري، سألنا إن كان لدينا أية أسئلة نحب أن نطرحها على التائم. قالت
انجيل،

- "أجل. هل يمكن أن يخبرنا أين أبزموند في هذه اللحظة؟"

استدار وجه بوريس الغمض العينين إلي، وقال،

- "إنه هو أبزموند".

* * *